دكتور
عصام الدين عبد الرؤف الفقى
أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

تاريخ المغرب والأندلس



الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة

تاريخ المغرب والأندلس

دكتور
عصام الدين عبد الرؤوف الفقي
أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الناشر
مكتبة نهضة الشرق
جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد أفضل المرسلين وبعـــــد :

يتضمن هذا الكتاب مجموعة محاضرات ألقيتها على طلابى فى عدة جامعات فى مصر وخارج مصر عن تاريخ المغرب والأندلس •

ودراسة تاريخ المغرب والأندلس له أهمية خاصـــة بالنســبة لنا كعرب ، ذلك أن أســبانيا حكمها العرب عــدة قرون ، وازدهــرت فيها الحضارة الاسلامية ، وشــهدت نهضة ثقافية اسلامية كان لها أثرها فى أوربا ، وأقيمت فيها المساجد الضخمة ، التى كانت منارة للاسلام والعلم والحضارة فى القارة الأوربية عدة قرون •

ولكن العرب ــ كما هو حالهم اليوم ــ أضــاعوا هذه البــلاد ، وفقدوها كما فقدوا غيرها فيما بعد ، بسبب ما يسود بينهم من انقسام وخلافات ومنازعات ، متناسين الصالح العام ، ومتطلعين فقط الى تحقيق مآرب شخصية زائلة •

لذلك فدراسة تاريخ الأندلس ، يوضح لنا ، كيف وصل العرب الى قمة المجد ، بفتحهم لاسبانيا أو لقطعة من أوربا ، وكيف اقتربت جيوشهم الظافرة المنصورة من باريس واستوطنوا هذه البلاد ، ونشروا الاسلام واللغة العربية والثقافة الاسلامية ويسعد الانســان حينما يدرس هذا الازدهار ، وهذا التقدم الحضارى • ولكن الدارس يعبر مع دراســته القرون ، شأنه شأن دارس التاريخ ، فيصاب بالحزن والأسف ، حينما

يرى أن مجد العرب والاسلام فى هذا البلد الى زوال ، حتى ينتهى حكم العرب فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى •

وقسمت بحثى الى عدة موضوعات ، بدأت بدراسة الفتح العربى للمغرب ثم أسبانيا قبل الفتح العربى ، وانتقلت الى بحث الفتح العربى لأسبانيا ، والنتائج التى ترتبت على هذا الفتح ، ثم درست عصر الولاة فى الاندلس ، وفيه حاول المسلمون فتح فرنسا ولكنهم هزموا فى بلاط الشهداء • وفى عصر الولاة اشتد الصراع بين القيسية واليمنية •

وظلت بلاد الأندلس فى اضطراب حتى دخلها عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك ، وأقام فى أسبانيا امارة مستقلة تماماً عن الدولة الاسلامية ، وخلفه أبناؤه فى حكم الأندلس حتى ولى عبد الرحمن الناصر ، فحول الامارة الى خلافة ، وظلت الدولة الأموية تحكم فى الأندلس حتى سقوطها سنة ٤٢٢ هـ •

اضطربت الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية ، وتنافس أمراء الأقاليم فى حكم الأندلس • هنا انتهزت الممالك النصرانية فى شمال أسبانيا الفرصة ، وأنقضوا على مدن الأندلس ، منتهزين فرصة النزاع بين ملوك الطوائف ، وحاول المرابطون ثم الموحدون من بعدهم أن ينقذوا المسلمون فى الأندلس ، ولكن محاولاتهم كانت مسكنات وقتية • وظل أمر الأندلس فى ضعف والنصارى فى قوة حتى لم يعد للعرب سوى غرناطة ، آخر معاقل المسلمين فى الأندلس ، وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢ م • وبسقوطها زال الحكم العربى عن الأندلس •

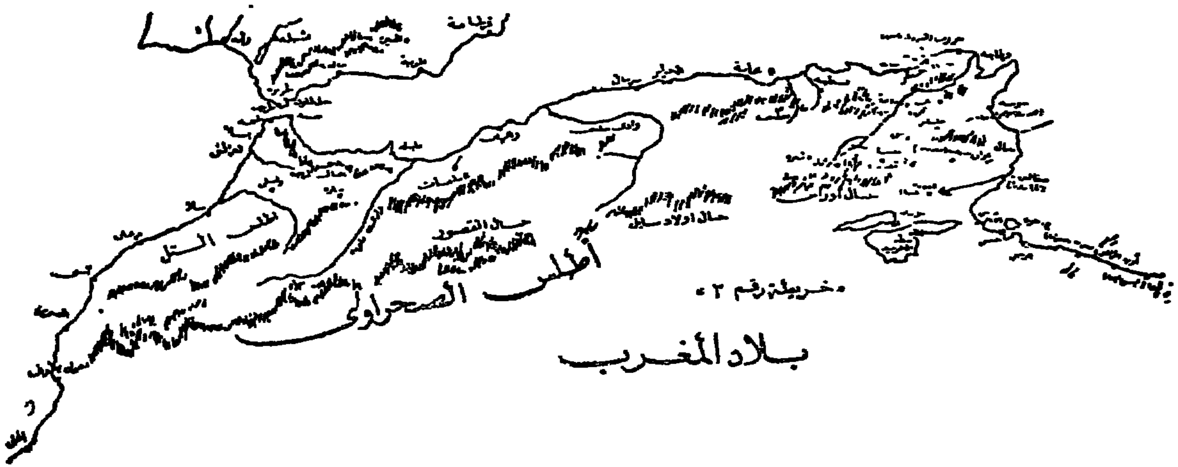
هذا وبالله التوفيق

المؤلف

دكتور عصام الدين عبد الرؤوف الفقى

مصر الجديدة

١٩٨٤/٨/٤



خريطة رقم ٣

بلاد المغرب

الفصل الأول

التعريف ببـــلاد المغرب والأندلس

١ ــ أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس

٢ ــ التعريف ببـــلاد المغرب

٣ ــ التعريف ببلاد الاندلس

٤ ــ الفتح العربى للمغرب

٥ ــ الفتح العربى للأندلس

أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس

لتاريخ المغرب والأندلس أهمية كبيرة فى دراسة التاريخ الأسلامى العام والخاص • فبخصوص المغرب والأندلس دراستهما متصلة ووثيقة الصلة ، لأن ما كان يجرى فى المغرب له صـــداه فى الأندلس وما يحدث فى الأندلس له رد فعل فى المغرب •

وانضمام المغرب والأندلس الى الدولة الأسلامية الكبرى ، أعطاها طابعاً مميزاً وقسم الدولة الأسلامية الى قسمين كبيرين ، قسم شرقى له نظمه وحضارته وتقاليده ، وقسم غربى له مقوماته وثقافته ، ولعب القسم الغربى دوراً كبيراً فى تاريخ الأسلام ، فقامت الدولة الفاطمية فى المغرب ، وانتقلت الى المشرق فسيطرت على مصر والشام والحجاز واليمن •

ومن ناحية التاريخ العام يتضـــح لنا أهمية دراســـة تاريخ المغرب والأندلس ، ذلك أن الحضـــارة الأســـلامية التى ازدهـــرت فى المشرق ، انتقلت الى المغرب والأندلس ، وانتشرت العلوم والفنون العربية المتقدمة فى الأندلس وصقلية وانتقلت الى أوربا • وبذلك لعبت المغرب والأندلس دوراً كبيراً فى أزدهار الحضارة الانسانية •

نظرة عامة حول بلاد المغرب

عرفت بلاد المغرب منذ أقدم العصور بأسماء مختلفة ، فكان الأغريق يسمون القسم الشمالى منها الذى كان يســكنه العنصر الأبيض باســـم ليبو أو ليبيا ، بينما كانوا يطلقون على الصـــحراء اســـم بلاد الاحباش الســـود • أما لفظ افريقية ، فقد أطلقه الرومان على الأقليم الذى يقابل اليوم الجزء الشمالى الشرقى من الجمهورية التونسية ، ويشـــتمل على قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا غربا ، وكان يعرف باسم ولاية افريقية القنصلية ، وأطلقه العرب على كل ما يلى : طرابلس غرباً • ثم تحدد مدلول

أفريقية ، فأصبح فى معظم المصادر العربية ، يعنى الأقليم الذى تتوسطه القيروان ، ويمتد من طرابلس حتى بجايه •

أما المغرب فيشـــمل كل ما يلى مصر غـــرباً حتى المحيط الأطلسى وتتوسطه أفريقية • وقد أصطلح على تقسيم المغرب الى ثلاثة أقســام كبيرة ، بحسب قربها أو بعدها عن مركز الخلافة فى المشرق وهى :

١ ــ المغرب الأدنى ويسمى أيضاً أفريقية ويشمل تونس وبعض الاجزاء الشرقية من الجزائر وعاصــمته القيروان أيام الأغالبــه ، والمهدية أيام الفاطميين ، ثم مدينة تونس فيما بعد وحتى اليوم •

٢ ــ المغرب الاوسط ويشمل بلاد الجزائر ، ويمتد من تاهرت حتى وادى ملوية وجبال تازة غرباً ، وقاعدته تلمسان •

٣ ــ المغرب الأقصى : وعاصــمة المغرب الأقصى ترددت بين مدينة فاس ومراكش ، فالأدراسة العلويون أسسوا مدينة فاس سنه ١٩١ م ، واتخذوها عاصــمة لهم ثم جاء المرابطــون وبنوا مدينــة مراكش سنة ٤٦٣ م واتخذوها عاصــمة ، والمغرب الأقصى يشــمل المملكة المغربية اليوم التى عاصمتها الرباط •

ولفظ افريقية مشتق من كلمة أفرى التى أطلقها الفينيقيون على سكان أوتيكا وقرطاجنة ، ثم عممه اليونانيون بعد ذلك ، فأطلقوه على سكان المغرب من حدود مصر الغربية الى المحيط الأطلسى •

أما لفظ المغرب فالمراد به ، هو كل ما يقــابل المشرق من البلاد وقد اختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون فى تحديد مدلوله فجعله البعض يشــمل بلاد شــمال أفريقيا بالاضــافة الى الأندلس وجميع الممتلكات الاسلامية فى حوض البحر المتوسط مثل صقلية وجنوب ايطاليا وجزيرتى سردينيه وكورسيكا وجزر البليار أو الجزر الشرقية ، وقد اعتبر بعض المؤرخين مصر من بلاد المغرب ، باعتبارها القاعدة السياسية والعسكرية والثقافية لهذه المنطقة المغربية فى الفترة الأسلامية الأولى • لأن الخليفة

هشـــام بن عبد الملك مثلا ، قلد عبد الله بن الحبحاب ولاية مصر والمغرب والأندلس •

وفى العصر العباسى زاد مدلول كلمة المغرب ، فانضمت الشام الى هذا القسم ذلك ان العباسيين قسـموا مملكتهم قسـمين ، وهما المغرب ويشمل الشـام ومصر وأفريقية وما يليها غرباً ، والمشرق ويشـمل بلاد فارس وما يليها شرقاً • ولكن على الرغم من كل هذه التقسيمات السالفة فان جمهرة المؤرخين والجغرافيين العرب اتفقوا على تحديد كلمة مغرب بالأراضى الأسلامية الممتدة غربى مصر الى المحيط الأطلسى • فهناك المغرب الأفريقى والمغرب الأندلسى • وعلى هذا الأساس كانت مدينة الأسكندرية هى الحد الفاصل بين المغرب والمشرق ، ولهذا عرفت بأسم باب المغرب ، لأنهـا كانت معبراً لجميع المغـاربة القادمين من المغرب أو العائدين اليها سواء بالبر أو البحر بقصد التجارة أو طلب العلم أو تأدية فريضة الحج •

تبـدأ أفريقية المغربيـة من حدود برقة الغربيـة شرقاً الى المحيط الأطلسى غرباً ويحدها من الشمال البحر المتوسط ثم منطقة ساحلية ضيقة تشـمل أقليم التل ، ويحدها من الجنوب صـحراء مترامية الأطراف هى الصحراء الكبرى ويفصلها عن مصر برقة ، التى كانت امتداداً للصحراء الغربية وتخترق هذه المنطقة سلاسل من الجبال العالية تمتد من مراكش الى تونس ، مخترقة المنطقة كلها من الغرب الى الشرق فاصلة السهل الساحلى الضيق عن بقية البلاد حيث تكثر الاغوار ، بينما تحصر السـلاسل بينها سهولا طولية ضـيقة • لذا فطبيعة البلاد الجغرافية وعرة والدفاع عنها ميسور ، بينما يتطلب الهجوم مشقات كبيرة •

أما سكان المغرب فيمكن تقسيمهم الى ما يأتى :

١ — الروم وهم البيزنطيون •

٢ — الأفارقة ، وهم بقايا شعب قرطاجنة وأخلاط من المستعمرين اللاتين ، والوطنيين الذين تأثروا بالحضـارة الرومانية والبيزنطية وكانوا يدينون بالطاعة والولاء لسادتهم البيزنطيين •

٣ — البربر وهم سواد سكان المغرب •

أطلق الرومان اسم البربر على سكان بلاد المغرب لأنهم كانوا يعتبرونهم أعاجم على حضارتهم ، وينقسم البربر الى مجموعتين مختلفتين : البربر الحضر ، ويسكنون السهول الخصبة والمدن أو الهضاب المزروعة ، ويشتغلون بالزراعة والصناعة ، وللحضارة البيزنطية تأثير عليهم والبربر الرحل ويعيشون على الرعى ، ويميلون للاغارة وعلى ما يجاورهم من عمران ، وينقسم البربر عموماً الى قسمين كبيرين ، برانس وبتر ، وينسب البرانس الى برانس بن بر كما يزعمون ، لذلك سموا برانسا ، ويسكنون المدن ، ويتأثرون بالحضارة البيزنطية • وأما البتر ، فهم بدو ، يسكنون البادية •

وينقسم بربر البرانس الى سبع قبائل كبرى هى :

أوربه وآصنهاجه وكتامه ومصموده وأوريغه وأزدواجه وتعتبر قبائل صنهاجه أكبر قبائل البربر ، وقد غلب على صنهاجه التبدى ، وتفرقوا فى بلاد المغرب •

ومن القبائل البرانسية الكبرى ، كتامه التى لعبت دوراً هاماً فى تاريخ المغرب فعلى أكتافها قامت الدولة الفاطمية وتنتشر قبائل البرانس فى كل بلاد المغرب • ولكن بعض قبائلهم ، توغل الى قلب قارة أفريقيا حتى تصل الى منحنى نهر النيجر ، ومصب السنغال ، معظمها ينزل فى مواضع زراعية متحضرة •

أما بربر البتر ، فينقسمون الى أربع قبائل هما : —

ضريسه ونفوسه ، وأداسه ولواته ، وتنزل هذه القبائل فى السهول المرتفعة أو المنخفضة ، وعلى الهضاب التى تمتد من طرابلس الى تازه ، وينتشرون فى أقليم النخيل الذى يمتد من غدامس الى السو س الاقصى ، ويؤلفون أغلبية سكان القرى الصحراوية ، وللبتربطون فى داخل أفريقية وفى اقليم التل قرب طرابلس وعلى سفوح جبال أوراس •

والعداء بين البتر والبرانس قديم ، ويتمثل بصفة خاصة بين زناته أكبر قبائل البتر وصنهاجه أكبر قبائل البرانس ، ويرجع سببه الرئيسى الى العداء بين البدو والحضر ، فالبتر يشنون الغارات بين البادية على المدن العـــامرة للبرانس ، والبرانس يتأثرون بالحضـــارة البيزنطية ، أما البتر فيتميزون بالبداوة . لذلك تقارب البتر من العرب بسرعة على حين حمل البرانس عبء المقاومة مع العرب . ولما آلت البلاد الى العرب أنضـــم البرانس الى الحركات المعارضة للدولة الاسلامية .

الفتح العربى للمغرب

كان من الطبيعى أن يتطلع عمرو بن العاص الى فتح أفريقية ، بعد أن أتم فتح مصر سنة ٢٠ هـ ، وهو نفس السبب الذى ألح فيه عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب بفتح مصر بعد فتح الشام ٠

ذلك أن الشام ومصر وبلاد المغرب كانت تتبع الدولة البيزنطية ، فلما تم فتح بلاد الشام كان ضروريا فتح مصر لتأمين حدود الشــام ، من الخطر البيزنطى فى مصر ٠ ولما تم فتح مصر كان لابد من تأمين حدود مصر غرباً ، أى فتح افريقية لحماية مصر من خطر بيزنطى فى غربها ٠

بعــد أن أتم عمرو بن العاص فتح مصر ســنة ٢٠ هـ ، قاد حمــلة لغزو برقة سنة ٢٢ هـ وفتحها وصالح أهلها على الجزية ، وواصل زحفه حتى فتح طرابلس بعد حصار دام شهرا لكنه انسحب بقواته منها عائدا الى مصر ٠

ولما ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح ولاية مصر خلفا لعمرو بن العاص ، سار على سياسة سلفه فى غزو أفريقية فسار الى برقة ، وكان يليها عقبة بن نافع الفهرى من قبل والى مصر ، وضم الى جيشة حامية برقة ، وسار الى طرابلس ولكن الروم تصدوا للحامية العربية بقيادة جريجوريوس — حــاكم افريقية الرومانى — أو جرجير — كما يســميه العرب ٠

رفع العرب حصــارهم عن طرابلس ليتفرغوا لمقــاومة الحــاكم الرومانى ، ونشبت بين الفريقين معارك ضارية فى ظاهر ٠٠٠٠ سبيطله بالقرب من أطلال قرطاجنــة القديمة — وهى عاصــمة أفريقية حينئذ ٠ وهزم فى هذه المعركة القــائد الرومانى وقتل ســنة ٢٨ هـ / ٦٤٨ م ، واستولى عبد الله بن سعد على سبيطله ودمرها تدميراً ، وبث جيوشه فى تلك الانحاء وصالح أهل هذه البلاد على الجزية ٠ ولكنه لم يتخذ قاعدة اســلامية فى هذه البلاد ولم يعهد لاحد القــادة المســلمين بحكم هذا

الاقليم ، انما انسحب عائدا الى مصر بعد خمسة عشر شهرا ، تاركاً حامية في برقة وأخرى في زويلة .

ولكن الدولة الاسلامية توقفت عدة سنوات عن الفتح ، بسبب الفتنة الكبرى في عهد بن أبى طالب ، وثورة معاوية والخوارج عليه ، والتى انتهت بمقتله في رمضان سنة ٤٠ هـ .

حملة عقبة بن نافع الأولى على بلاد المغرب

يجمع المؤرخون على أن معاوية بن أبى سفيان ولى عقبة بن نافع الفهرى أفريقية سنة ٥٠ هـ ، وأمره بفتح هذه البلاد ويبدأ الفتح الحقيقى للمغرب بحملة عقبة هذه والجدير بالذكر أن القواد الذين تولوا فتح المغرب ، بعضهم امتاز باللين والحنكة السياسية ، والبعض الآخر امتاز بقوة الشكيمة ، والمقاومة العسكرية دون السياسية ، وكان للجانب السياسى أهميته ، في تثبيت أقدام المسلمين في المغرب ، واندماج البربر في الحياة الاسلامية .

وعقبة بن نافع الفهرى من الشخصيات الكبيرة في التاريخ الاسلامى فهو أحد رجال عمرو بن العاص الذين حاربوا معه في فتوحه الأولى في أفريقية ، وهو أبن خالة عمرو بن العاص ، ومن أوائل المجاهدين في المغرب ، دخل برقة سنة ٢٣ هـ ، دون العشرين وشارك في الغزوات التى شنها العرب في أفريقية بمقدرة عسكرية فائقة ، وشجاعة منقطعة النظير .

وقاد الحملة التى أخضعت قبيلة لواته في طرابلس ، وانضم الى جيش عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، وتولى حماية برقة منذ فتحها ، وظل مجاهدا مرابطا في سبيل الله ما يقرب من ربع قرن .

اتخذ عقبة بن نافع الفهرى طريقه في داخل البلاد مباعدا الساحل ، ولقد لزم هذه الخطة في كل أعماله ، لأن السواحل مليئة بالحصون

والمحارس ، أما الداخل فليس فيه تحصـينات قوية ، ومقاومة البربر فى الداخل ، أقل من مقاومة البيزنطيين على الساحل • وجاز وهاد برقة على رأس عشرة آلاف مقاتل وسـار فى أقليم الواحات متنقلا دون أن يلقى مقاومة تذكـر ، اذا لم يتوقعـوا قدوم العرب فى هذا الوقت ، فدهمهم عقبة ، وأصاب منهم كثيرا ، وتوغل غربا حتى المغرب الأقصى ، وافتتح جميع الثغور والعواصم الأفريقية تباعاً وهزم جيوش البربر والروم التى اعترضته حتى اسـتحق لقب « قاهر الروم والبربر » وتوغل فى مفاوز المغرب الأقصى •

رأى عقبة ضرورة اقامة مدينة اسلامية جديدة فى افريقية لتكون عسكراً للمسـلمين وعزاً للاسـلام حتى آخر الدهر ، فشرع فى اختطاط هذه المدينة ، لتكون قاعدة لنشر الاسلام فى هذه البلاد ، يلجأ اليها البربر لاعتناق الاسلام ، ودراسة تعاليمه على أيدى الفقهاء والوعاظ والعلماء فى مسجد القيروان الجامع وموضع القيروان يناسب المزاج العربى ، فهى بعيدة عن البحر وعن الخطر البيزنطى الكائن فى السـاحل ، ومن حيث قربها من الصحراء لتصعب محاصرتها • وموضع القيروان متوسط بين الساحل والهضبة القريب من السفوح الصالحة للرعى • ولهذا الموقع أهمية عسكرية ، فيمكن منه مراقبة تحركات العدو من بعيد ، ومباغتته اذا تطلب الأمر ، واتخذ منها — بالاضافة الى نشر الاسـلام — قاعدة عسكرية يجمع فيها عدته وعتاده ، ويرسل منها التجريدات العسـكرية لشـن الحملات الحربية ، والعودة الى القيروان بالغنـائم ، واعـداد الحمـلات من جديد وهكذا ظل عقبة بن نافع واليا على أفريقية خمس سنوات (٥٠ — ٥٥ هـ) (٦٧٠ — ٦٧٥ م) حيث عزله والى مصر مسلمة ابن مخلد ، الذى جمع له معاوية بين حكم مصر وأفريقية ، وعهد الى أبى المهاجر دينار بحكم أفريقية ، ويختلف هذا الأنصارى عن عقبة ، اذ يعتمد على السياسة فى تعامله مع البربر أكثر من القوة العسكرية ، وأثبتت هذه السـياسة نجاحها ، وأثمرت ، فهادن البربر واسـتمالهم ، ليضرب بهم العدو المشترك وهو الروم ، وبذلك استطاع أن يوجه قوة البربر وشدة

بأسـهم فى ضرب العدو القوى المتمثل فى البيزنطيين ، وتجنب مواجهة عدوين فى وقت واحـد . ولجـأ الى الحيلة والدهاء فى جذب البربر اليه فأقنعهم بأنهم — أى البربر — أقرب الى العـرب من الروم ، والعـرب دخلوا المغرب ليحاربوا الروم ، وليس البربر ، وانضم اليه كسيله — زعيم البربر البرانس — هو وقومه ، واعتنقوا الاسلام ، واعتنقته قبيلة أوربه . وهذا مكسب كبير للاسلام وللعرب ، وزحف أبو المهاجر دينار وكسيله الى تلمسان ، وفتحها . وبذلك اجتاح المغرب الأوسط (الجزائر) واحتل مدنه الساحلية حتى بلغ تلمسان .

ولم يلق المؤرخون الأضـواء على ولاية أبى المهـاجر دينار التى استمرت سبع سنين (٥٥ — ٦٢ هـ) ربما لأنها تقع بين ولايتى عقبة الأولى والثانية ، ودور أبى المهاجر دينار فى المغرب لا يقل عن دور عقبه .

ولما ولى يزيد بن معاوية الخلافة رأى ضرورة اتمـام فتح المغرب فعزل أبا المهاجر دينار ، وأعاد عقبة بن نافع الى حكم أفريقية لما عرف عنه من الشجاعة وقوة البأس وحسن البلاء .

اتخذ عقبة سياسة مخالفة تماماً عن سياسة سلفه ، فنظر الى كسيله وقومه نظرة شك وريبه ، بل قبض على كسـيله وعلى سـلفه أبى المهاجر دينـار . وبذلك انشـق عليه البربر البرانس وقبيـلة أوربه بالذات ، ومما لا شك فيه أن عقبة أخطأ فى سياسته هذه ، فقد جلب على نفسه عداوة البربر البرانس بعد أن كانوا فى عهد سلفه أنصـاراً للعرب والمسـلمين وسنرى الآثار السيئة التى ستترتب على هذه السياسة .

ومهما يكن من أمر فقد قاد عقبة جيشه فى حملة مشهورة فى تاريخ المغرب ، وجاس خلاله من أدناه الى أقصاه حتى بلغ المحيط الاطلسى ، وخاض فى حملته هذه معارك ضارية وحربا مريرة مع قبائل البربر ، فقد فيها طائفة من خيرة رجاله .

ولما بلغ عقبة ساحل المحيط ، وانتهى الى ساحل المحيط دفع فرسـه

الى الماء حتى بلغ نحره ، هنا أخذته نشوة النصر كل مأخذ ، وتطلع الى تحقيق آمال عريضــة للاســلام وأهله وقال : « اللهم انى اشــهدك أن لا مجاز ، ولو وجــدت مجازاً لجزت ..... اللهم أشــهد أنى قد بلغت المجهود ولو لا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد سواك » .

عاد عقبة بجيشـــه الى القيروان ، ويبدو أن عودته المفاجئة ســببها ما نمى الى علمه من حدوث قلاقل واضــطرابات فى أفريقية ، وفى أثنــاء عودته ، مر بالجزائر ، واتخذ بها قاعدة اسلامية على غرار القيروان ، وهذه القاعدة هى تاهوده بالقرب من مدينة يســكره بالقرب من قســطنطينية ، وفرق عقبه قواته فى أنحاء المغرب ، وبينما ينسحب من الجزائر فى قلة من الجند ، فر من أسره كسيله ، وقوى أمره وعظم بأسه بمن انضم اليه من البربر والروم ، وباغت عقبة — الذى كان فى قــلة من الجنــد — ودارت رحى معركة حامية الوطيس بين كسيله وعقبة ، وحارب أبو المهاجر دينار الى جوار عقبة ، واســتشهد فى هذه المعركة — التى دارت قرب تاهودة ، عقبة وأبو المهاجر سنة ٦٤ هـ / ٦٨٢ م .

ولا يزال موضع تاهوده يعرف بسيدى عقبة ، وهو عبارة عن واحة جميلة من النخيل ، وبها مقام هذا الفاتح العربى الكبير ، وزحف كسيله الى القيروان ، واستولى عليها ، كما استولى على البلاد والمواقع التى آلت الى العرب ، وزال الحكم العربى من المغرب وذالت دولتهم ولكن الى حين .

لما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان ، رأى ضرورة استعادة بلاد المغرب والقضاء على مقاومة البربر فى هذه البلاد ، فعهد الى زهير بن قيس البلوى بحكم أفريقية وأمده بجيش ضــخم كيما ينفذ الاســتراتيجية الاسلامية فى هذه البلاد سنة (٦٩ هـ / ٦٨٨ م) والتقى زهير بن قيس بجيش كسيله فى معركة انتصر فيها العرب على اعدائهم ، وقتل كســيله وجمع من البربر ، ومزق البربر فى هذه المعركة كل ممزق ، وأرسل فرقا من جنده فى أنحاء أفريقية لاخضــاع البربر ، وأنهاء الفتنة ، واســترد القيروان ، وترك فيها حامية للدفاع عنها .

ولم يكد العرب ينتهون من اخضـــاع ثورات البربر حتى داهمهم خطر جديد أشد هولا وأقوى بأسا ، ذلك هو الخطر البيزنطى •

فالبيزنطيون لا يستطيعون الوقوف مكتوفى الايدى ازاء احتلال العرب لبلاد المغرب التى يخضـــع جزءاً كبيراً منها لســـيادتهم • ذلك أن البيزنطيين انتهزوا فرصة توغل المسلمين غرباً ، وأمدهم قيصر قسطنطينية بأسطول من صقلية ، ونزلوا فى قرطاجنة ، ثم زحفوا على برقة فى حشد كبير ، وهزم الروم العرب شر هزيمة ، وقتل زهير وكثير من جنده ولم ينج من المعركة الا من لاذ بالفرار • ومرة أخرى يفقد المسلمون بلاد المغرب ، ويتوقف الفتح العربى لهذه البلاد بضع ســـنين • ونســـتدل من ذلك أن مقـــاومة البربر البرانس للعرب من ناحيـــة والروم من ناحية أخرى قد صرفت المسلمين عن فتح هذه البلاد بعض الوقت ، يضـــاف الى ذلك أن الدولة الاسلامية فى أوائل عهد عبد الملك بن مروان شغلت بالقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير وثورات الخوارج •

لم يكد عبد الملك بن مروان ينتهى من اخضاع الثورات فى دولته ، ويعيد اليها الأمن والطمأنينة ، والاســـتقرار والهدوء حتى تطـــلع الى اســـتعادة فتح المغرب ، فولى عليها حســـان بن النعمـــان الغســـانى وسيره الى أفريقية على رأس جيش كبير ، تذكر الرواية العربية أنه أقوى جيش سار الى أفريقية منذ بداية الفتح ، واخترق حسان بجيشه برقه ، واتبع سياسة أبى المهاجر دينار فى استمالة البربر ، وضمهم الى جانبه ، وضرب العدو المشـــترك بهم بدلا من مواجهـــة عدوين فى وقت واحـــد • ويعتبر حسان الفاتح الحقيقى لبلاد المغرب ، تولى حكم هذه البلاد بين عامى ٧٨ — ٨٦ هـ •

انضم البربر البرانس الى العرب فى محاربة الروم ، وزحف الفريقان الى قرطاجنـــة فخر بها حســـان ، وهزم الروم ، ولم تعـــد بذلك قاعدة للبيزنطيين يشنون منها الهجمات على العرب ، ولم يستطع المسلمون غزوها من قبل لمناعتها وحصانتها واتصالها بالبحر وقربها من صقلية ، حيث كانت ترسل اليها الامدادات بسرعة •

لم يقف امبراطور الروم مكتوف الأيدى ازاء تدمير قرطاجنة لأن انهيارها هو في الحقيقة انهيار للحكم البيزنطى ، فهى — كما قلت — قاعدة للعمليات الحربية البيزنطية والنفوذ البيزنطى فى بلاد المغرب ، فسير الامبراطور اليها جيشا بقيادة يوحنا ، يعاونه أسطول من صقلية ، وقوة أرسلها ملك القوط ، الذى أزعجه اقتراب العرب من بلاده ولم يستطع العرب التصدى لهذه القوة المتحالفة ، فانسحبوا الى القيروان ، واستقروا فيها حتى أرسلت دمشق اليهم الامدادات ، فعاودوا الهجوم على قرطاجنة وهزموا الروم والبربر فى عدة مواقع ، واستولى حسان بعد قرطاجنة على المدن الساحلية ، وطرد الروم فيها ودمر تحصينات الروم القوية ، وخرب قرطاجنة ، وفر الروم والقوط وبذلك أخرج من الميدان عنصرا هاماً من عناصر المقاومة فى المغرب ، وهو العنصر البيزنطى . وبهزيمة الروم تمكن حسان من سحق كل مقاومة بربرية ، واستعاد الاسلام سلطانه فيما بين برقة والمحيط .

عاد حسان بعد هذه الانتصارات الرائعة الى القيروان ليريح أصحابه مما أصابهم فى حملة قرطاجنة ، وعرف بظهور خطر جديد وهو خطر امرأة من البربر تعرف بالكاهنة ويختلف المؤرخون فى شأن الكاهنة اختلافاً كبيراً ، بل يميل بعضهم الى انكارها أصلا معتمداً على ما يشوب اخبارها من أساطير ولكن تجمع الآراء على وجود الكاهنة وعلى ذكر الدور العظيم الذى قامت به أثناء فتوح افريقية ، ولكن شخصيتها وحقيقة أمرها لازالت غامضة فى حاجة الى كثير من التوضيح .

يبدو أن الكاهنة كانت زوجه لرجل من رؤساء القبائل ، وتوفى تاركاً لها ولدين صغيرين استبدت بهما ، وحكمت القبيلة باسمهما ، وملكت البربر خمسا وثلاثين سنة وهذه القبيلة هى قبيلة جراوه احدى قبائل البتر المقيمين فى الاوراس ، وكانت هذه القبيلة على صلة بالروم ، ويبدو أن الكاهنة كانت مسموعة الكلمة فى قومها ، مهيبة الجانب بين ذويها ، فاستطاعت أن تحتفظ بالامر لابنيها القاصرين .

ثورة كسيله على العرب هى مقاومة البرانس المستقرين يعززهم

الروم وينصرونهم لأنهم نصارى أو آخذون بأسباب الحضارة البيزنطية ، ودفاعهم كان عن النواحى العـامرة الفسـيحة التى كان هؤلاء البرانس يعمرونها ويفلحون ويرسلون سوائبهم فى مراعيها وسفوحها •

أما ثورة الكاهنة فثورة قبيلة يهودية احتفظت ببقايا من الحضـارة القديمة ، وطال عهدها بالاستقلال لضعف الحكام البيزنطيين ، وعجزهم عن اخضاع البتر فى الصحراء والهضاب والراجح أن هذه المرأة لم ترفع راية العصيان الا حين تسامعت بمسير حسان اليها ، وأنها كانت مطمئنة فى نواحيها ترقب مصير كسيله ثم مصير الروم على يد حسان فلما رأت حسان ينوى السير نحوها ، أخذت تستعد لقتاله ورده عن بلادها •

ويغلب على الظن أن الكاهنة كانت تتوقع مسير العرب اليها لأنها لم تكد تتسامع بمسير حسـان اليها حتى رحلت من الجبل فى عدد لا يحصى ولا يدرك ، وحطت رحالها عند باغاية ، وهى مدينة حصـينة على سـفح الاوراش تقوم بين الجبال مقام الباب من الدار وقد أرادت الكاهنة من ذلك ان تكون على مقربة من مواطن جراوة الاصلين على الأوراش ، لكى تستمد منها العون ، أو تطلب النجاة عند الضرورة ، وأمرت بهدم باغاية حتى لا تسـقط فى يد العرب ، وهذا يدل على أنهـا كانت تحارب العرب منفردة دون عون من الروم • لذلك فحركة الكاهنة حـركة بربرية صرفه لا تعرف حرب الحصون ولا المناجزة خلف الاسوار وانما اسلوبها هو اللقاء فى الارض الفضاء بالحراب والسيوف •

والتقى حسـان بالكاهنـة على نهر نينى ، وكان لا يفكر أيضـا فى الاحتماء بالحصون •

كانت معركة نينى شديدة حامية اضـطر حسـان وجنده الى خوض غمارها ، وكانوا مجهدين من آثار حملة قرطاجنة وما تلاها ، ولهذا ضعفت عزائمهم ، ووهنت قواهم عن خوض هذه المعركة ، واذا اضفنا الى ذلك أن العرب كانوا يقاتلون قوماً مثلهم واستثارت الكاهنة حماسهم بما لها من مكانة فى نفوسهم وهيبة فى قلوبهم وبذلك ثبت البربر للعرب ، وهاجموا

العرب هجموا لم يكونوا يتوقعونه ، فدارت الدائرة على العرب ، واضطروا الى التقهقر بعد قتال شديد ، وقتل من العرب كثيرون • ولم تكتف الكاهنة بهزيمة العرب فى قلب الاوراش ، وانما تتبعت حسان حتى اخرجته من حدود افريقية ، واطمأنت على سلطانها منه ، ثم عادت ادراجها • ولم تدخل الكاهنة القيروان ، وانما عم أهلها الفزع والهلع ، واستعدوا للرحيل من تهديد مرتقب وعادت الكاهنة الى الاوراش ، وهذا يدل على أن حركة الكاهنة كانت ثورة محلية فى ناحية من نواحى البلاد لا حركة انتفاض عام ، وأقام حسان فى طرابلس ينتظر المدد ، وينظم أموره هناك ، فشيد لنفسه منازل على مقربة من برقة سميت قصور حسان •

ولكن حركة الكاهنة لم تؤد الى هدوء البلاد ، وانما عمها الاضطراب ذلك ان الكاهنة ملكت أفريقية ، وأساءت السيرة فى أهلها ، فعارضها بعض البربر ، بل راسلوا العرب ولاحظت الكاهنة ان العرب ما يكادون ينزلون البلاد حتى تتوجه همتهم الى المدائن والنواحى العامرة يبذلون وسعهم فى الاستيلاء عليها ، فاذا تم لهم ذلك ، انقضوا على الخيرات والنفائس والاموال فانتهبوها ، ولم يخلفوا وراءهم منها شيئا ، ثم ينصرفون بعد ذلك عن افريقية ، كأنما كانوا يأتون لهذا وحده ، فاعتقدت أن العرب لا يريدون من فتح هذه البلاد الا امرا واحدا ، الأموال والغنائم والأسلاب والسبى ، فلابد من قطع رجاء العرب فى البلاد والقضاء على معالم العمران فيها فتجعلها قاعاً صفصفاً ، كأن لم تغن بالامس • وقد اخطأت الكاهنة فى سياستها هذه ، وغاب عنها ان العرب أمة زاحفة الى الامام ، وان حركة الفتوح الاسلامية تسير قدما دون توقف ، وأن العرب يهدفون الى فتح بلاد المغرب ونشر الاسلام فى هذه البلاد ، مهما كانت التضحيات ، ووجهت الكاهنة أهلها يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون ، وخرج يومئذ من النصارى والبربر خلق كثير مستغيثين بما نزل بهم من الكاهنة فتفرقوا فى البلاد المجاورة •

أضر هذا العمل بقضية الكاهنة ضرراً كبيراً ، فقد عارضها فريق كبير من أهل البلاد حينما رأوا الخراب والدمار قد عم حقولهم ومنازلهم ،

وتعقدت سبل معيشتهم ، وبلغ من استياء الناس من الكاهنة ، أن استنجد بعضهم بحسان ، وعارضوا الكاهنة ، وقاوموها فاضطرب الامر من يدها وعم الاضطراب البلاد ، ونظر البربر الى العرب كمخلصين ومنقذين من سياسة الكاهنة الغاشمة ، الامر الذى سيكون له أبعد الأثر فى اتمام فتح البلاد ٠

انتهز حسان فرصة معارضة البربر لكاهنة ، واستنجاد بعضهم به ، وقاد جيشا ضخما سنة ٨٠ هـ ضم فريقا من البربر لمحاربة الكاهنة ، والتقى حسان بجيوش الكاهنة عند مدينة قابس ، وهزمها شر هزيمة ، ونكل بقواتها ، وقتلها سنة ٨٢ هـ فى موضع يعرف ببئر الكاهنة فى جبل أوراس ٠

وجد الروم فى خروج حسان من أفريقية فرصة سانحة لاستعادتها ، وبسط سلطانهم عليها من جديد ، وكان الامبراطور البيزنطى الجديد ليونتيوس ، قد اقلقه سقوط قرطاجنة فى يد العرب وتدميرها ، واسترد البيزنطيون مدينة قرطاجنة وقتلوا الحامية العربية التى فيها ، فاغار عليها حسان واستعادها وخربها حتى لا يعود الروم اليها ٠

اتخذ حسان سياسة رشيدة فى جذب البربر الى جانب العرب فولى على النواحى عمالا وولاة من البربر بل عهد بحكم الاقاليم لابناء الكاهنة ، ولكى يضمن حماية سواحل المغرب من الخطر البيزنطى شيد ميناء تونس ، لتحل محل قرطاجنة وليبنى فيها أسطولا يغير على ساحل الروم ، فيشغلهم بأنفسهم عن الاغارة على أفريقية ، ولا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير ، وبهذا يستطيع العرب سكناها ، لانها ليست على البحر مباشرة ثم ان موقعها يجعلها بمأمن من غارات الروم المفاجئة ، وأعجب هذا الميناء اليونانى القديم حسان ، وأعاد تخطيطه ، وزودها بدار صناعة لبناء الأساطيل ، واستعان فى ذلك بألف أسرة من أقباط مصر الذين كانوا على علم وخبرة بالشئون الملاحية وبناء السفن ٠ وهكذا أصبحت أفريقية بعد أن فتحها العرب مثل الشام ومصر ، مركزاً تجارياً تخرج منه أساطيل المغرب تحمل راية الأسلام فى غرب البحر المتوسط ٠

بعد أن أتم حسان فتح أفريقية ، نظم الشئون العسكرية والادارية والمالية فى البلاد ، وأنشأ الدواوين ، ورتب الخراج والجزية ووطد سلطان الحكم الجديد فى الثغور والنواحى ، ثم جدد مدينة القيروان ، وأنشأ بها المسجد الجامع ، ولبث فى منصبه حتى توفى عبد الملك بن مروان ، ولما ولى الوليد بن عبد الملك ، أبقى حسان فى منصبه ولما كانت أفريقية تابعة لمصر ، فقد عزل عبد الله بن مروان — والى مصر — الذى خلف عبد العزيز بن مروان ، عزل حسان بن النعمان سنة ٨٦ هـ ، وعهد الى موسى بن نصير بحكم بلاد المغرب •

يعتبر حسان بن النعمان — كما قلت — الفاتح الحقيقى لبلاد المغرب ، فلما ولى موسى بن نصير هذه البلاد ، وجد نظاماً ثابتاً وقائماً واقتفى أثر حسان فى معاملة البربر وساوى بينهم وبين العرب فى المعاملة ، وجذبهم اليه ، واحسن اليهم واتخذ منهم جندا لجيشه ، وكان البربر هو العنصر الرئيسى فى جيش طارق بن زياد فى فتح الأندلس كما سنرى •

يجب أن نشير اشارة سريعة الى نشأة موسى بن نصير ، فالرواية العربية تشير الى أنه من التابعين ، وولد سنة ١٩ هـ فى خلافة عمر بن الخطاب فى قرية من قرى الجزيرة أو بوادى القرى من شمال الحجاز ، وينسب الى بكر بن وائل ، وأن أباه نصيرا كان ممن سباهم خالد بن الوليد فى معركة عين التمر سنة ١٢ هـ ، وقيل أنه ينسب بطريق الولاء الى بنى لخم ، وتشير الرواية العربية ان نصيرا كان على حرس معاوية بن أبى سفيان ، ثم كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان وأعتقه •

تدرج موسى فى بعض الوظائف قبل ولايته على أفريقية سواء الحربية أو الادارية وقاد بعض الحملات البحرية فى عهد معاوية ، وغزا قبرص وغيرها من الجزر القريبة ، ودخل فى خدمة عبد العزيز بن مروان — أمير مصر — وتولى مكانة رفيعة فى بلاطه حتى ولى أفريقية فى سنة ٨٦ أو ٨٩ • ومهما يكن من أمر فقد اضطربت بلاد المغرب بعد عزل حسان

وتولية موسى ، فاضطرب البربر من جديد ، وعادوا الى الثورة فسحق موسى الثورة فى كل ناحية ، وأخضع هواره وزناته وصنهاجه وكتامه وغيرها من القبائل البربرية القوية ، ثم سار الى طنجة وفتحها ، وكان العرب لم يصلوا اليها بعد ، وولى عليها قائداً عظيماً هو طارق بن زياد الليثى ، وطهر مغاور المغرب الأقصى من العصاة والمتمردين ، وأحرز فى هذه الغزوات من الغنائم والسبى ما لا يحصى ، ولما هدأت البلاد ، وانتهت الثورات استمال اليه البربر وحشد فى جيشه آلافاً من البربر ، ونشر الاسلام بينهم وأقبلوا على الدين الجديد بحماس منقطع النظير . وانتشر الأمن فى البلاد ، وحلت الطمأنينة محل الفتن والاضطرابات .

واهتم موسى بانشاء اسطول قوى ، قاوم هجمات البيزنطيين على طول سواحل المغرب بل هاجم جزر البليار وجزر ميورقه ومنورقه — وكانت من أملاك ملك أسبانيا القوطى — وسارت حملات أخرى الى صقلية وسردانيه ، وعادت محملة بالغنائم والاسلاب .

وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمال أفريقية كله البر والبحر ، ولم يبق فى يد النصارى من شمال أفريقية كله سوى ثغر سبته الواقع فى نهاية البحر المتوسط شرقى طنجة وكانت يومئذ من أملاك أسبانيا .

نتائج الفتح العربى لبلاد المغرب

كان من نتائج الفتح العربى لبلاد المغرب تطور المجتمع ، وتغير عاداته وتقاليده بعد أن اندمج العرب والبربر . وكان لابد لهذا المجتمع الجديد أن يتخذ صورا وأشكالا متعددة قبل أن يتخذ صورته النهائية نتيجة لاختلاط عناصر ذات لغات وأديان وتقاليد مختلفة .

انتشرت اللغة العربية فى بلاد المغرب ، نتيجة لهجرات القبائل العربية الى هذه البلاد ، ومما ساعد على انتشارها انها لغة الدين الجديد ، كما أن العرب سعوا فى جعل اللغة العربية لغة دين وأدب وثقافة ، والناس كما يقول ابن خلدون تبع السلطان وعلى دينه ، فسار

استعمال اللسان العربى من شعائر الاسلام وطاعة العرب وصار اللسان العربى لسانهم حتى رسـخ ذلك لغة ومن عوامل انتشـار اللغة العربية تعريب الدواوين الذى بدأ فى عهد عبد الملك بن مروان ذلك أن عبد الملك شرع فى صـبغ الدولة بصـبغة عربية بعد أن اسـتقرت فيها الأمور ، واتسعت خبرة العرب وساعد تعريب الدواوين على ذيوع اللغة العربية وانتشارها فقد اقبل الموظفون من البربر على تعلم اللغة العربية حتى يسـتمروا فى عملهم ، فأصـبحت اللغة العربيـة لغة التدوين والادارة والسياسة ، فضلا عن كونها لغة الدين والأدب والثقافة .

انتشر الاسلام بين البربر بعد أن توطدت العلاقات بينهم وبين العرب وأرسلت الخلافة فقهاء وعلماء ساهموا مسـاهمة كبيرة فى نشر الاسلام ، وكانت الديانات الرئيسية فى بلاد المغرب ثلاثة . المسيحية على الساحل واليهودية بين البربر البتر ، والوثنية والمسيحية بين البربر البرانس .

ورأى المسيحيون الوثنيون من البربر فى الاسلام عقيدة بعيدة عن تعقيدات الكنيسة وفيها البساطة والوضوح تدعو الى فعل الخير ونبذ الرذائل والمؤاخاة ، وأدراكاً للحقائق الأساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية ، وأدى انتشار الاسلام بين البربر الى تحمسهم للدين الجديد ، فانضموا الى صفوف المجاهدين ينشرون الاسلام فى غير بلاد الاسلام .

اسـتغرق الفتح العربى للمغرب ثمانين عاماً منذ سـنة ٢٣ هـ حتى نهاية القرن الأول الهجرى ، وهى مدة طويلة اذا ما قورنت بفتح الشام والعراق ومصر ، الذى لم يستغرق أكثر من عشر سنوات ، وهذا راجع بطبيعة الحال الى عناد البربر وقوة بأسـهم ، وشدة مراسـهم ، وشـدة مقاومتهم للفتح يضـاف الى ذلك تصـدى البيزنطيين للفتح العربى ، وتوقف الفتوحات العربية لبضع سـنين ، نتيجة للفتنة الكبرى وفى عهد عبد الملك بن مروان فترة من الوقت لقمع ثورة عبد الله بن الزبير .

والخلاصة أن الفتح العربى للمغرب أوجد تغييرا شاملا فى المجتمع

المغربى ، فدخل المغاربة فى دين الاســلام الامر الذى أوجد تقارباً بين الشعبين العربى والبربرى اللذان يتشابهان فى بعض الصفات والسمات ، وصــارت للبربر نفس العقليــة العربية ، وظهــر منهم فقهاء وشــعراء وخطبــاء ، وازدهرت المذاهب الدينية والســياسية المعروفة فى الدولة الاسلامية فى بلاد المغرب وصارت معاملاتهم قائمة على أساس الشريعة الاسلامية .

وهكذا نرى أن الفتح العربى للمغرب قد غير الحياة المغربية تماماً ، بعكس الغزو الفينيقى أو الرومانى أو البيزنطى الذى لم يمس الحياة المغربيــة ، وكانت جيوش هذه الدول مجــرد جيوش احتــلال لا أثر ولا تأثير لها على البربر . أما العرب فقد نقلوا الحياة المغربية الى وضع جديد وعصر جديد . الفتح العربى للمغرب ثورة فى تاريخ البربر . فيها تحولت البلاد الى عهد مختلف تماماً عن العهد الســابق ، تغير اجتماعى وثقافى وســياسى ودينى وأصــبحت بلاد المغــرب جــزءا من الدولة الأسلامية .

وكان لتغير وضــع البربر أثره فى فتح الأندلس وســاهم البربر مساهمة كبيرة فى هذا الفتح ، وكان معظم القادة منهم ، ورأوا فى ذلك فرصة للجهاد والحرب ، وأشبع فيهم موسى بن نصير رغبتهم فى الحرب والجهاد والحصول على الغنائم .

أسبانيا قبل الفتح العربى

كانت أسبانيا جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية الرومانية ، ولما سقطت روما فى يد الجرمان ، استولى الجرمان على أملاك الرومان فى ايطاليا وفرنسا وأسبانيا ، وكانت أسبانيا من نصيب القوط .

والقوط أحدى القبائل الجرمانية التى نزحت من شمال أوربا ويقال من اسكندناوه بالذات وبين القوط والوندال تشابه عظيم فى العادات والتقاليد ، مما يؤكد الرأى القائل بانتمائها الى شعب واحد ، ونشط القوط فى عهد الامبراطور اسكندر سيفروس (٢٢٢ — ٢٣٥م) وزحفوا صوب البلقان تدريجيا ، وزحفوا الى اليونان ، وألحقوا بها الخراب والدمار . وظلوا يواصلون العبث والرعب فى البلقان ، حتى دمرهم الامبراطور الرومانى قسطنطين الكبير ، وأجبرهم على الانسحاب الى أقاصى داسيا سنة ٣٢٢ هـ ، وألقى فى قلوبهم الرعب ، وتتبعهم الاباطرة وأضعفوهم ، وأجبرهم الهون على الفرار الى ضفاف الدانوب . وتعرضوا بعد ذلك لملاحقة القادة الرومان .

لكن القوط لم يستكينوا طويلا لما لحق بهم من ويلات وبطش وتنكيل ، فقوى أمرهم واشتد بأسهم فى عهد قائدهم ألاريك ، وثاروا فى اليونان وتراقيا ، وخربوا البلاد ودمروها ، وواصلوا زحفهم فى أوربا حتى دخلوا روما سنة ٤١٠م ونهبوها . ولكن الامبراطور الرومانى هونوريوس عقد معهم صلحا ، بمقتضاه تعهدوا بالهدوء والسكينة ، بل وافق على دخلوهم فى الجيش الامبراطورى ، وساهموا فى قمع الثورات التى اجتاحت أوربا ضد الامبراطورية الرومانية ، ثم استقروا فى أواسط فرنسا وجنوبها ، فيما بين نهر اللوار والجارون ، واتخذوا تولوز عاصمة لهم بموافقة الامبراطور وأقاموا فى هذا الاقليم مملكة قوطية خاضعة لروما . ومن أبرز ملوك القوط — تيودوريك الأول ولد آلاريك — الذى أشرنا اليه — وقوى أمر

هذه المملكة فى عهد تيود وريك الثانى الذى دخل أسـبانيا ، وضـمها الى مملكته الناشئة ، وطرد منها الوندال والسويف ، واعترفت الامبراطوريه بالمملكة القوطية التى واصلت اتساعهـا حتى شملت شـبه الجزيرة الايبيرية فى نهاية القرن الخـامس الميـلادى • لكن الفرنج طردوا القوط من فرنسـا ، وشملت مملكـة القوط أسبانيـا فقط متخـذة طليطلة عاصمة لها ، وطبق القوط الأنظمـة والقوانين الرومانيـة فى أسبانيـا ، واعتنقوا المسيحية ، وظلوا يحكمون أسبانيـا قرنين من الزمان حتى الفتح العربى •

لم يمتزج القوط بالشعب الاسبانى ، انما شكلوا أرستقراطيـة حاكمة تستأثر بثروات البـلاد ، وتحالف القوط مع رجال الدين الذين أمتلكوا الضياع الشاسعة والارقاء ، وأراضيهم معفاة من الضرائب ، ووجه الاشراف ورجـال الدين القوانين والنظم حسب مصـالحهم الخاصة ، ووفق حياتهم الاقطاعية ، أما سائر الشعب فاما طبقـة متوسطة تجـار وموظفين يتقاضون الأجر الزهيد ، واما أرقاء يعيشون لخدمة سادة الأرض ، وأدوات انتاج لخدمة السادة رجال الاقطاع •

قاسى الشـعب الاسـبانى فى ظل حكـم القـوط ويلات البؤس والحرمان والشقاء ، وكان عبء الضرائب يقع على عاتقهم ، بل ان القـوط بعد أن حكموا أسـبانيا تخلوا عن الروح الحربيـة والمقـدرة القتالية التى تحلوا بها قبل مقدمهم الى أسبانيا ، وحينما حاربوا ضد الرومان والى جانب الرومان • واعتمد القوط على الشعب الاسبانى الكادح فى الحرب واستكانوا الى الراحة والسكينة ، وأصبح قوام الجيش الاسبانى من الاسبان واليهود أنتظموا فى سلك الجيش غير راضين عن حكومتهم التى سلبتهم حقوقهم المشروعة فى الحياة الحرة الكريمة وكان من الطبيعى الا تخلص هذه العنـاصر المضطهدة فى الحرب لمصالح القوط ، بل تمنوا الخلاص من حكومتهم الظالمة الغاشمة وهذا يفسر أسباب هزائم جيش أسبانيا القوطى •

اشتد اضطهاد اليهود فى أسبانيـا ، وكانوا يشكلون الطبقـة العـاملة والتجـار والمرابين ، وقاسوا صنوف الاضطهاد من القوط

وأجبروهم على التنصر أو النفى أو المصـادرة فاعتنق النصرانيـ
كثير منهم كرها • ولما اشـتد اضطهاد القوط لهم راسلوا يهو
المغرب ودبروا معهم انقلابا ضد القوط ، ولكن أمرهم انكشف ، فز
القوط فى اضطهادهم فى عهـد الملك اجيكا سـنة ٦٩٤م ، وأصـد
مرسوما بالتنكيل بهم ، وصـادر أملاكهم على اعتبـار انهم خو
أعـداء الوطن ، وفرض عليهـم العبودية ، وحرر الارقاء النصار
من السادة اليهود ووهبهم بعض أملاكهم ، ونزع الابناء اليهود دو
السابعـة لتربيتهم على النصرانية ، وألا يتزوج رجل يهودى م
نصرانية ولا تتزوج يهودية بنصرانى • وهكـذا عاش اليهود فى ظـا
واضـطهاد ، وتمنـوا الخلاص من بطش القـوط ، وناصروا العـر
حينما قدموا الى أسبانيا ، واعتبروهم منقذين مخلصين •

وحينمـا فتح العرب بـلاد المغـرب ، واقتربوا من شواطى
أسبانيا ، كان يحكم المملكة القوطية فى أسبانيا وتيزاوتسمية المراج
العربية غيطشه — وهو ابن الملك اجيكا — وكانت مملكة القوط فى عه
هذا الملك فى آواخر أيامهـا ، فرقتها الخـلافات وعمتها القـلاقل
والاضطرابات ، وكثرت فيها الفتن ، وقضى وتيز سنين حكمه فى سحق
معارضيه ، ومن خصومه الاقوياء تيود وفريد الذى نفـاه الملك اجيكا
الى قرطبة ، واستطاع الفرار ، والانضمام الى الثوار الناقمين على
الملك ، وزاد أمر البـلاد اضطرابا اقتراب الجيش العربى المنتصر
الظـافر من شواطىء أسبانيا المضطربة ، وكان العرب قد حاصروا
سـبته وردهم عنها حاكمها القوطى يوليان ، وأمد وتيزا يوليان بخـير
جنده ، لأن سقوط سبته يشكل خطرا على بـلاده ولكن الأمـور فى
أسبانيا زادت اضطرابا ، وأعلن الثورة ضـد الملك ، رود ريك ابن
تيود وفريد ، وانضـم اليه المعارضـون للملك ، وكانت ثورة قـوية
عنيفـة ، بل نادى بنفسـه ملكـا وخـلع وتيزا وقتـله ، وولى الملك
سنة ٧١١م •

هدأت البـلاد بتولية رود ريك الملك ، فتمكن من قمع الثورات ،
والقضـاء على الفتن فى كل مكان ، واعادة الامن والطمأنينـة الى

الناس . وقد لجأ الثوار والمعارضون الى يوليان — حاكم سبتة والمضيق .

تختلف الروايات حول أصل يوليان فيرى البعض أنه يحكم سبتة نيابة عن الامبراطور البيزنطى ، ويعتقد البعض الآخر انه قوطى يحكم سبتة نيابة عن ملك القوط ، وينكر البعض وجود يوليان على الاطلاق ، لأن أخباره لم ترد الا فى القرن الثانى عشر ، ولكن الحقيقة ان يوليان شريفا نصرانيا ، حكم سبتة نيابة عن ملك القوط ، وأنه كان واسع النفوذ ، — يعتصم بالبحر لجأ اليه الاشراف والمعارضون لحكم رود ريك ، وكان من أنصار العهد القديم يعارض حكم رود ريك ، ويرى ضرورة عودة العرش الى بيت ويتزا ، فتحالف يوليان مع موسى بن نصير لعزل رود ريك عن العرش . وتضيف الرواية العربية سببا آخر لتحالف يوليان مع موسى بن نصير ، فقد أرسل يوليان ابنته الحسناء فلورندا الى بلاط القوط فى طليطلة لتتلقى ما يليق بها من التربية والتعليم بين أبناء الأسر الارستقراطية ولكن رود ريك أفتتن بجمالها ، واعتدى على عفافها فغضب يوليان ، ورأى ضرورة الانتقام من رود ريك . وبعض الروايات تنكر هذه الرواية من أساسها ، وتعتبرها من نسج خيال الرواة . ولكن الرواية الاسبانية لا تنكرها وترجع الى القرن الثامن ، ويؤيد بعض الكتاب الاوربيين هذه القصة ، وينكرها البعض الآخر .

ومهما يكن من أمر يمكن أن يكون سبب موقف يوليان من الفتح العربى لاسبانيا راجعا الى مناصرة يوليان للعهد القديم وانصاره ، ومعارضته للعهد الجديد ، فضلا عن قصة فلورندا . وكان تدخل يوليان أكبر عامل فى تذليل فتح المسلمين لاسبانيا .

الاندلس :

المراد بلفظ الاندلس أسبانيا الاسلامية بصفة عامة ، أطلق هذا اللفظ فى بادىء الأمر على شبه جزيرة ايبريا كلها ، على اعتبار أنها كانت جميعا فى يد المسلمين ، ثم أخذ لفظ أندلس يقل مدلوله

الجغرافى شيئا فشيئا تبعا للوضع السياسى الذى كانت عليه الدولة الاسلامية فى شبه الجزيرة ، حتى صار لفظ الأندلس آخر الأمر قاصرا على مملكة غرناطة الصغيرة ، وهى آخر معقل للمسلمين فى الأندلس ، فى الركن الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة الأيبيرية .

وكلمة أندلس اشتقها العرب من كلمة وأندلوسن وهى اسم قبائل الونذال الجرمانية التى اجتاحت أوربا فى القرن الخامس الميلادى ، واستقرت فى السهول الجنوبية الاسبانية وأعطت اسمها ، ولما فتح العرب أسبانيا ، عربوا هذا الاسم ، وسموها الأندلس .

ويلاحظ أن حكم المسلمين للاندلس دام أكثر من ثمانية قرون ، ولهذا تركوا فيها آثارا مادية وروحية وخلقية واضحة المعالم ، ولا سيما فى الولايات الجنوبية التى استقر فيها العرب الى آخر أيامهم ، فالسمات والعادات واللغة والموسيقى والاغانى والصفات العربية يلاحظها بوضوح كل من اتصل بالاسبان ، وعاش بينهم . واللغة الاسبانية تحتوى على أكثر من أربعة آلاف كلمة عربية عدا التعبيرات والصيغ العربية الموجودة فى تلك اللغة . ولاتزال توجد عائلات مسيحية اسبانية تحمل اسماء عربية مثل بنى حسن وبنى أمية . أما أسماء الاماكن العربية والمغربية فلا تزال فى كل قرية وفى كل ناحية من الأراضى الاسبانية .

وتقع شبه جزيرة أيبيريا فى جنوب غرب أوربا ويحدها من الشرق البحر المتوسط ، ومن الغرب المحيط الاطلسى ويفصلها عن فرنسا شمالا جبال البرانس ، التى تتخللها ممرات ومضايق تصل بين البلدين . وهذه الجبال جعلت أسبانيا فى شبه عزلة عن أوربا ، وتحيط بأسبانيا مياه البحر المتوسط والمحيط الاطلسى من الشرق والغرب والجنوب حتى أطلق عليها العرب جزيرة أسبانيا .

وقد استغل المسلمون طبيعة أسبانيا الجبلية فى تكوين شبكة دفاعية قوية ، فجعلوا من سلاسل الجبال ووديان الانهار التى

تقطعها فى خطوط مستعرضة من الشرق الى الغرب أو العكس خطوط دفاعية ضد أى هجوم يقع عليها من المسيحيين فى الشمال فقامت على هذه الوديان مدن هامة ، كانت بمثابة قواعد عسكرية لهذه الخطوط مثل سرقسـطه وطليطله • وفى أقصى الجنـوب تجد نهر الوادى الكبير الذى تقع عليه عواصم الأندلس مثل قرطبة وأشبيلية وقادس •

ويعتبر جبل طارق حلقـة الوصل بين المغرب والأندلس ويقع هذا الجبل فى أقصى جنوب أسبانيـا ، وكان يسمى الجبـل المجوف Mons calpe ثم أطلق عليه المسلمون اسم الصخرة وجبل الفتح وجبل طارق وفرضة المجاز • واسم جبـل طارق هو الأسم المعروف حتى الآن فى جميع اللغـات Gibrattar نسبة الى فاتح الأندلس العظيم طارق بن زياد •

أما المضيق نفسه فيعرف قديما بأعمدة هرقل نسبة الى الجبال المحيطة به ، وأطلق عليه العرب مضيق جبـل طارق وطوله ٨٠ كم ، وعرضـه حوالى ١٥كم •

وكما يقول الدكتور أحمد مختار العبـادى أن مسافة المضيق التى تفصل المغرب عن الأندلس ضيقة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسـكرى أو الثقـافى أو الاقتصـادى بينهما فكل من القطرين يعتبر منطقة أمان للآخر وامتدادا له فى الدم والجوار والأخذ والعطاء وفى الصـلات التاريخيـة والتكوينات الجغرافيـة والجولوجيـة والمواقع الاستراتيجية رغم وجود هذا المضيق بينهمـا • ولهذا نشب صراع تقليدى مستمر بين الشاطئين الافريقي والأوربى حول السيطرة على هذه المنطقة المحيطة بالمضيق ، والمعروفة باسم العدوتين ، عدوة المغرب وعدوة الأندلس ، والعدوة معناها الجانب أو الشاطىء •

الفتح العربى لاسبانيا

الاسلام فى نهضته الشاملة ، وبروحه للفياضة الشجاعة التى بثها فى نفوس أهله يكسب للمسلمين ولدولة الاسلام أرضا جديدا فى كل سنة بل وفى كل يوم ولما فتح المسلمون الشام لم يكتفوا بذلك ، بل اتجهوا الى مصر ، ومن مصر فتحوا المغرب ولما تم فتح المغرب رأى موسى بن نصير أن يواصل انتصارات المسلمين وجهادهم فيما وراء المضيق ، فى عالم جديد غريب على المسلمين كل الغرابة ، وشجعه على ذلك اللقاء الذى تم بينه وبين يوليان حاكم سبته ، والتحالف بين الرجلين كان تحالفا فريدا من نوعه ، يوليان يتطلع الى القضاء على عرش ملك القوط ، مستعينا بقوة المسلمين المتقدمة والضاربة ، وموسى يريد أن يستغل تحالف يوليان معه فى تحقيق حلم الاسلام الكبير ، وهو الانتشار فى شتى البلاد والبقاع ، والزحف الى الامام دون أن يعوقه عائق ، ويحول دونه حائل

بعد أن أتم موسى بن نصير فتح طنجة ، تطلع الى فتح سبته ولكنه لم يستطع لمناعتها وبينما هو يستعد لاعادة الكرة جاءته رسالة من يوليان يعرض عليه مشاركته فى فتح أسبانيا ويرغبه فى الغنائم التى قد يحصل عليها من وراء هذا الفتح • والراجح أن يوليان لم يكن يقصد أن يساعد موسى على فتح أسبانيا ، وادخالها فى حوزة العرب ، ولكن يوليان كان يقصد أن يساعده موسى فى التخلص من رود ريك ، والانسحاب بعد ذلك من أسبانيا وكان يعتقد أن العرب يشنون الغارات لأجل الحصول على الغنائم ، ثم ينسحبون الى مواقعهم أما موسى فحينما وصلته رسالة يوليان ، وجد الفرصة سانحة لتوسيع ملك الاسلام فيما وراء البحر •

ومهما يكن من أمر فقد قابل موسى يوليان ، وتختلف الروايات حول مكان المقابلة ، فالبعض يرى أنها تم تمت فى عرض البحر ، ويرى آخرون أنها كانت فى سبته ، ويرى البعض أنها تمت خارج سبته ،

ولا نعرف بالضبط ما الذى دار فى هذه المقابلة • ولكن يفهم من سير الاحداث أنهما اتفقا على غزو أسبانيا ، وتعهد يوليان بتقديم السفن والادلاء وكل مساعدة ممكنة • وأغلب الظن أن يوليان حرض موسى على التخلص من رود ريك والانسحاب فورا ، وانهـاء مهمته عقب ذلك • لكن موسى كان يضمر استغلال صاحبه فى تحقيق مشروع كبير ، وهو التوسع فيمـا وراء البحـر • وأطلع يوليان موسى على ضعف أسبانيا ، ومعارضة الأهلين للحكم القوطى ودله على نقـاط الضعف فى هذا البلد الفسيح •

لما اقتنـع موسى بهـذا المشروع الكبير ، كتب الى الوليد بن عبد الملك يسـتأذنه فى فتح أسـبانيا ، فكتب اليه الوليـد أن يختبره بالسرايا ، والا يزج بالمسـلمين الى أهـوال البحر ، ونزل موسى على نصح الخليفة فى اختبار الفتح الجديد بالسرايا •

عهد موسى الى احـد جنده ، وهو طـريف بن مالك أو ملوك ويكنى بأبى زرعة ، وأمره بشن الغارة على سـاحل أسـبانيا الجنوبى ، فعبر طريق المضيق فى مائة فارس وأربعمائة رجل فى رمضـان سنة ٩١ هـ ، ٧١٠ م وهنـاك فى المكـان المعـروف باسـمه حتى اليـوم نزل طريف وجنوده وأغاروا على المنـاطق التى تليها الى جهة الجزيرة الخضراء وأصاب سبيا ومالا كثيرا ، وعاد سالما •

أثبتت هذه الحملة الاستطلاعية اخلاص يوليان اذ قدم لطريف السفن والارشادات اللازمة ، كما أن هـذه الحملة لاحظت ضعف المقاومة فى أسبانيا ، وتدهور البـلاد وامكان غزوها •

شجعت هذه الحملة الاستطلاعية موسى بن نصير على اعـداد جيش كبير لفتح أسبانيا فجهز جيشـا من العرب والبربر يبلغ عدد رجاله سـبعة آلاف مقاتل ، وأسـند قيادته الى طارق بن زياد الليثى — حاكم طنجه — ويختلف المؤرخون حول نسب طارق بن زياد فيرى البعض أنه فارسى من همـدان ، وأنه مولى لموسى بن نصـير ، وتشـير رواية أخـرى وهى الأرجح ان طـارقا من البربر ، ومن قبيـلة نفزة

بالذات ، وأنه تلقى الاسلام عن أبيه زياد ، وهذا عن أبيه عبد الله وبعد عبد الله تدخل فى أسماء بربرية محضة حتى تصل الى نفزه وهى القبيلة التى ينتسب اليها .

كان طارق بن زياد جنديا شجاعا ، وقائدا بارعا ، وقد فطن موسى الى مواهبه وولاه طنجه ، وهى أمنع حصون المغرب ، وتقع فى بقعة استراتيجية تحتاج الى مقدرة دفاعية كبيرة ، ثم أسند اليه مهمة فتح الاندلس ، وقاد جيشا كبيرا وعبر جنده المضيق فى سفن يوليان ، ونزل بالبقعة الصخرية التى لا تزال تحمل اسمه الى اليوم . وهى جبل طارق سنة ٩٢هـ ــ ٧١١م ، واخترق طارق المنطقة المجاورة بمعاونة يوليان وارشاده وتمكن من اختراق بلاد الجزيرة ، واستولى على قلاعها ، وهزم قائدها القوطى تدمير ولما أدرك ولاة ملك القوط فى هذه المناطق خطر الزحف الاسلامى ، وما قد يؤدى ذلك الى زوال ملك القوط ، أرسلوا الى تيود وريك ــ ملك القوط الذى كان فى بعض الولايات الشمالية ، لقمع الفتن فيها يخبرونه بخطورة الموقف ، فعاد الملك مسرعة الى طليطله وأعاد تنظيم قواته .

تغلب طارق بن زياد على كل مقاومه اعترضته ، وواصل زحفه الى عاصمة القوط ، وأعد ملك القوط جيشا قويا يقابل مائة ألف مقاتل أو تسعون ألفا ، وسارع الجيش لوقف الزحف الاسلامى ولما علم بضخامة جيش القوط ، استنجد بموسى فأمده بخمسة آلاف جندى ، فصار جيش الاسلام اثنى عشرة ألفا ، وانضم اليهم يوليان فى قوة صغيرة من أنصاره وجنده .

دار اللقاء بين جيش القوط الكبير وقوة المسلمين الاقل عددا على ضفاف نهر وادى لكه أو وادى بكه . وفى هذا الموقع دار اللقاء التاريخى الحاسم بين الشرق والغرب ، وبين الاسلام والنصرانية فى رمضان سنة ٩٢هـ ٧١١م ، وفرق النهر بين الجيشين .

دارت مناوشات بين الجيشين استمرت عدة أيام ، ثم نشبت المعركة الحاسمة التى انتهت فى اليوم السابع من بدأ القتال ، وكان

جيش القوط تمزقه الخيانة والخلافات والكراهية للملك ، وعدم الاخلاص فى الحرب ، وتمنى كثير من جند الملك القوطى هزيمته ، واستطاع يوليان فى المعركة أن يستميل بعض الجند ، وأدى انقسام الجيش الى هزيمته ، ومزق المسلمون أعداءهم كل ممزق ، ولم ينج الا الشريد ، أما الملك فتختلف الروايات فى مصيره ، فيقول البعض بأنه غرق فى النهر ، والبعض يقول أنه قتل ، ويذهب البعض الى أنه هرب الى البرتغال ، وترهب فى بعض الأديرة متخفيا حتى وفاته .
وتسمى هذه الموقعة وادى لكه أو وادى بكه أو موقعة شذونه ، وكان من أهم نتائجها زوال ملك القوط . وسقوط المدن الإسبانية فى أيدى المسلمين الواحدة تلو الأخرى تساقط أوراق الخريف .

ألقت هذه الموقعة الرعب فى نفوس القوط ، فامتنعوا بالحصون والجبال ، وقصدوا الى الهضاب والسهول ، وذاعت أنباء النصر فى بلاد المغرب ، فزحف الى الأندلس عدد غفير من البربر والعرب ، وانضموا الى الجيش المنتصر ، واشتبك المسلمون مع القوط فى موقعة استجة ، محاولة من القوط لدرء المسلمين عن بلادهم ، ولكن الدائرة دارت على القوط مرة أخرى ، الأمر الذى يسر للمسلمين أمر فتح المدن الاسبانية المدينة تلو الأخرى .

زحف طارق بن زياد الى طليطله ، على حين أرسل مغيث الرومى — مولى الوليد بن عبد الملك — الى قرطبة ، فهدم أسوارها ، واقتحمها دون مشقة ، وأرسل حملات أخرى الى البيرة وغرناطة ومالقه ، وتم فتح هذه البلاد ، وعاون اليهود المسلمين فى هذه الحروب لأنهم — كما قلنا — يرجون زوال ملك القوط ، وكان المسلمون يضعون فى كل مدينة يفتحونها حامية صغيرة لحمايتها ومنع أى محاولة قوطية لاستردادها ، ثم زحف المسلمون شرقا الى مرسيه وكانت تسمى تدمير نسبة الى حاكمها ، ولكن هذا الحاكم قاوم المسلمين بعناء وصلابة ، ولم يستطع المسلمون فتح البلدة ، بل أبقوه عليها بشرط عدم مناصرة أعداء المسلمين .

وكانت مقاومة القوط قد اعتراها الوهن والضعف ، وهذا يفسر لنا دخول طارق بن زياد طليطله ، والاستيلاء عليها دون مقاومة تذكر ، وقد فرت حاميتها وهرب سكانها الى القرى والجبال المجاورة ، ووجد المسلمون المدينة خالية من سكانها ، وغنم المسلمون مغانم وفيرة من القصور والكنائس تسهب المراجع العربية الحديثة عنها .

خشي طارق أن يقطع عليه العدو الطريق فى هذه البلاد الجبلية الوعرة لا سيما وأن فصل الشتاء كان قد اقترب ، وتعب المسلمون من الجهد الذى بذلوه وأثقلتهم الغنائم التى جمعوها ، ويرى البعض أن طارق استنجد بموسى بن نصير غير أن بعض المصادر تشير الى أن موسى بن نصير هو الذى أمر طارق بوقف الفتح ، أما حرصا على عدم التوغل بالمسلمين فى مجاهل تؤدى الى تدميرهم أو حقدا على أن ينال طارق شرف فتح الأندلس .

ونحن نرجح أن موسى بن نصير الذى عرف عنه الحذر ، طلب من طارق التوقف حتى يلحق به لدراسة الموقف على الطبيعة ولتحديد امكانية مواصلة الفتح أو التوقف عند هذا الحد . ومهما يكن من أمر فقد عبر موسى مضيق جبل طارق على رأس عشرة آلاف مقاتل من العرب وثمانية آلاف من البربر فى سفن صنعها خصيصا لهذا العمل ، يحفزه شرف الاشتراك فى الفتح على الرغم من أنه بلغ من العمر أرذله ، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان ٩٣هـ — ٧١٢م ، وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونه ، ثم قرمونه — وهى حصن منيع — فاستولى عليها ، وفتح أشبيلية بعد حصار دام شهرا ، وفتح مارده بعد لأى وعناء سنة ٩٤ هـ والتقى موسى بطارق على مقربة من طليطله ، وتشير الرواية العربية الى ان موسى أنب طارقا بل بعضهم يقول أن موسى زج طارقا فى السجن ، ولكنه ما لبث أن عفا عنه ، ثم اشترك القائدان الكبيران سويا فى مواصلة فتح ما تبقى من بلاد الأندلس ، وزحفا نحو الشمال الشرقى ، واخترقا ولاية أراجون واستوليا على سرقسطة ووشقة ولا رده حتى بلغت شاطىء البحر الشمالى عند حدود فرنسا الجنوبية .

وهكذا انتهى كل من موسى وطارق من فتوحاتهما ، وكانت أوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك قد قضت برجوعهما الى دمشق ، فرجع موسى ومعه طارق ، بعد أن خلف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير فى أواخر سنة ٩٤هـ — ٧١٤م .

وكان موسى طموحا يتطلع الى عبور جبال البرانس والاندفاع فى غزو أوربا ، ولكن الخليفة عارض هذا الرأى خوفا من العاقبة الوخيمة . أما أبنه عبد العزيز بن موسى ففتح الجزء الشرقى من الجزيرة . وبذلك تم فتح شبه جزيرة أسبانيا كلها الا الجزء الشمالى الغربى الذى يسمى جليقيه . فكانت هذه البقعة التى تركها العرب لبردها ووعورتها ، نواة للدولة المسيحية الاسبانية التى مازالت تنمو وتترعرع حتى طردت العرب من الأندلس بعد ثمانية قرون .

ويرى سافدرا أن حملة طارق بن زياد جاءت ممدة للأسرة المالكة القديمة ، وعونا لها على اعادتها الى الملك . ولما زحف موسى الى الأندلس اتخذت الحملة صفة الفتح ولذا ثار الاسبان فى المدن الكبرى مثل اشبيلية وطليطله وغيرها مما اضطر العرب الى فتحها من جديد ، ومن هنا أصبحوا فاتحين لا ممدين كما كانوا من قبل . وكافأوا أسرة يوليان والأسرة المالكة القديمة المكافآت والضياع والاقطاعات على مساعدتهم فى الفتح . ولكننا نرد على كلام سافدرا بأن العرب جاءوا فاتحين لا ممدين ، وأن فتح الأندلس جزء من سياسة المسلمين الكبرى التى بدأت منذ فجر الاسلام وهى مواصلة الفتوح ، ونشر الاسلام فى غير بلاد الاسلام .

وهكذا فتحت الأندلس فى أربع سنوات من ٩١ — ٩٥هـ .

تختلف الروايات حول البواعث والاسباب التى دفعت الوليد ابن عبد الملك الى استدعاء موسى وطارق الى دمشق ، فيشير بعضها الى الخلاف بين طارق وموسى وخوف الخليفة من أثر هذا الخلاف على موقف المسلمين فى الأندلس . وتشير رواية أخرى الى أن الخليفة خشى من توغل موسى بالمسلمين فى أراضى بعيدة قاصية عن أعين

دمشق وتشير رواية أخرى ـ وهى الأرجح من أن الخليفة خشى من أن يستقل موسى بهذه البلاد النائية البعيدة ، وقد عرفت عنه الطموح .

امتثل موسى لأمر الخليفة ، وكانت عنده ـ رغم شيخوخته آمال عراض ، ففكر فى اختراق جبال البرانس ، وأن يقتحم أمم النصرانية فى فرنسا وأيطاليا واليونان وغيرها ويصل الى الشام عن طريق القسطنطينية ، وتحويل البحر المتوسط الى بحيرة عربية ولم تكن هذه الخطة مستحيل تحقيقها فى ذلك الوقت . ذلك أن دولة الفرنجة فى فرنسا وألمانيا ـ وانلومبارد فى ايطاليا ، وممالك النصرانية الأخرى كانت كلها ضعيفة ، ـ ولا تستطيع التصدى لقوة المسلمين المتفوقة فى ذلك العصر .

وتختلف الروايات حول مصير موسى بن نصير ، فتذكر بعض هذه الروايات أنه قوبل فى دمشق بالترحاب ، وتذكر روايات أخرى أنه عومل بقسوة فى دمشق لا تتناسب أطلاقا مع الدور الكبير الذى أداه فى خدمة الاسلام وأهله .

فقد وصل موسى الى الفسطاط ثم الى دمشق فى موكب من الغنائم لم يشهد التاريخ له مثيلا يتمثل فى الأسرى من أبناء وبنات وملوك القوط والذهب والفضة وغير ذلك مما لا يمكن حصره ، وتشير الروايات الى أن موسى اقترب من دمشق ، وكان الوليد فى مرض الموت ، فطلب منه ولى عهده سليمان بن عبد الملك أن يتمهل لحين وفاة الوليد حتى يحصل هو ـ أى سليمان ـ على جميع الغنائم . ولكن موسى رفض تلبية طلب سليمان ، ودخل دمشق والوليد على فراش الموت . ولما توفى الوليد وولى سليمان ثار غضبه على موسى وأساء معاملته ، وزجه فى السجن وطالبه بالمال الكثير ، واستطاع موسى تسديد بعض ما عليه ولجأ الى بعض القبائل وطالبها بمعاونته على تسديد باقى ما عليه . ثم عفا عنه وتوفى الشيخ بعد أن تجاوز من العمر ثمانين عاما بعد أن أدى دورا بطوليا يذكره التاريخ بفخر وأعزاز لخدمة وطنه .

كان موسى بن نصير من أعظم رجال الحروب والادارة للمسلمين فى القرن الأول — الهجرى ، وظهرت خبرته الفائقة فى معرفة نفسية الشعوب وبراعة فى سياستها وقيادتها وكان عالماً فى الحديث والفقه والشعر والأدب والفلك .

أما مصير طارق بن زياد فالروايتان العربية والاسبانية لا تشير كل منهما اليه بشىء ويبدو أن أمره أهمل فى دمشق وأنه قضى بقية حياته فى زوايا النسيان ، وأسيئت معاملته رغم مقدرته العسكرية الكبيرة ورغم جهوده الجبارة فى فتح بلاد المغرب والأندلس .

أما مصير الكونت يوليان ، فى بعض الروايات عاد الى سبتة بعد الفتح ، وأقطع ما حولها من الأراضى ، وقلد امارتها جزاء لخدماته ، وبقى على دينه ، غير أن عقبه دخلوا فى الإسلام ، وتقول الرواية أنه قتل فى صراع مع مواطنين أو قتل ، بعد ذلك بأعوام فى ولاية الحر الثقفي بيد العرب الذين ارتابوا فى ولائه .

كان عبد العزيز بن موسى بن نصير أول ولاة الأندلس من المسلمين ، واستخلف موسى ابنه عبد الله على أفريقيا ، وأقر سليمان ابن عبد الملك هذا الاختيار ، وكانت مهمة عبد العزيز صعبة شاقة ، فقوى الحصون ، وجهز الحاميات العسكرية بما يحتاج من مؤن ومعدات ، وقمع الثورات ، وأعاد الهدوء والطمأنينة الى البلاد ، وأنشأ ديوانا لتطبيق الاحكام الشرعية ، وشجع الزواج بين العرب والاسبان وتزوج بالملكة ايجلونا — أرملة رودريك ملك القوط واختيار أشبيلية أول عاصمة للأندلس ، وأقبل المهاجرون على الأندلس من العرب والبربر ، واستقروا بالوطن الجديد ، واشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة .

ولكن العرب فى أسبانيا عارضوا حكم عبد العزيز بن موسى ، واتهمه بعضهم بالانقياد لزوجته ، بل ردد البعض أنه تنصر ولكن الأقرب الى الصواب أن الشبهات حامت حول نواياه فى الاستقلال بالأندلس ، ويعززها عصبة الشديد عن الخلافة التى اضطهدت أباه

موسى • فمهما يكن من أمر فقد هاجمه الثوار فى مسجد أشبيليه وقتلوه سنة ٩٧هـ • وأرسلوا برأسه الى سليمان بن عبد الملك بدمشق مما يدل على أن أصابع سليمان لم تكن بعيدة عن هذه المؤامرة خصوصا وأن سليمان عزل عبد الله بن موسى فى هذه الأونة •

نتائج الفتح العربى للأندلس

من الناحية السياسية سقطت مملكة القوط ، وتحولت أسبانيا الى ولاية تابعة للدولة الاسلامية الكبرى ، يحكمها ولاة يعينهم والى أفريقية أو والى مصر ، لان أسبانيا كانت أحيانا تتبع والى أفريقية وأحيانا تتبع والى مصر •

أدى الفتح العربى للأندلس الى تغير شامل فى المجتمع الاسبانى فلم يعد ينقسم المجتمع الى طبقة أرستقراطية تتمثل فى القوط ورجال الكنيسة وطبقة متوسطة تعمل لحساب الارستقراطية وتتقاضى الأجر القليل ، وطبقة دنيا من الاقنان والارقاء ويهود ناقمين على الحكومة لاضطهادهم ، وانما ذابت الفوارق بين الطبقات فى المجتمع الجديد وانقسم المجتمع الى العرب وهم الذين ساهموا فى الفتوح أو هاجروا الى أسبانيا واستقروا فيها بعد الفتوح ، والبربر هم أهل المغرب الذين ساهموا فى الفتوح •

والاسبان سكان البلاد الأصليين وقد تعلموا اللغة العربية لغة الفاتحين وسموا بالمستعربين وبقوا على دينهم ، لا يتعرض لهم العرب بسوء ولا يحملونهم على اعتناق الاسلام ، لانه لا اكراه فى الدين ، وانما بقى من أراد على دينه بشرط دفع الجزية وثمة طبقة أخرى وهى طبقة المولدين ، ونشأت هذه الطبقة الجديدة من تزاوج العرب بالاسبان ، فحملوا مزايا الجنسين ، وكانوا نتيجة لاختلاط الدماء العربية بالأوربية •

ومن نتائج الفتوح الاسلامية للأندلس تحسن الأوضاع الاقتصادية فى الأندلس ، فأعيد توزيع الأراضى الزراعية بين العرب

والبربر والاسبان ، ولم يعد الاسبانى يزرع لصـــالح الارســـتقراطية التى لم تكن تترك له ســـوى النزر اليســـير مما لا يكاد يكفى احتياجاته أما العـــرب فقـــد تركوا الأرض فى يد الاسبان يزرعونهـــا ويؤدون خراجها الذى حـــدد بنسبة المحصول وجودة الأرض وبعده أو قربه من مصـــادر الميـــاه •

وأدى الفتح العربى الى انتشار اللغـــة العربية والاســـلام ، وظهور الحضارة الاسلامية فى الأندلس تدريجيا ، وكانت أسبانيـــا قبل الفتح تعيش فى ظـــلام الجهل • ولكن الاســـلام أضـــاء بنوره هذه البـــلاد وأدى الى ظهور العلم والثقـــافة وانتشـــار الحضـــارة الاسلاميـــة •

عصر الولاة فى الأندلس

تعرف الفترة الأولى للحكم الاسلامى فى الأندلس بعصر الولاة وهى فترة مضطربة كل الاضطرابات ، سادت فيها القلاقل والفتن بلاد الأندلس ، وأشتد هذه الفتن ضراوة ما حدث بين العرب والبربر ، وكان أمير القيروان هو الذى يعين ولاة الأندلس فى أغلب الأحيان ، على أن أهم ما يميز هذه الفترة هو غزوات المسلمين فى فرنسا أو فيما وراء البرانس •

لما قتل عبد العزيز بن موسى ، ولى الأندلس ابن عمته أيوب ابن حبيب اللخمى سنة ٩٧ هـ ، وحكم البلاد ستة أشهر فقط ، واليه ينسب بناء قلعة أيوب فى جنوب سرقسطه شمال أسبانيا ، وهى الآن مدينة كبيرة لا تزال تحمل اسمه ، ثم خلفه الحربى بن عبد الرحمن الثقفى حتى سنة ١٠٠ هـ ٧١٩ م ، وخلفه السمح بن مالك الخولانى نسبة الى قبيلة خولان اليمنية بعهد من الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وقام هذا الوالى الجديد بعدة اصلاحات عمرانية وأدارية ، منها اعادة بناء سور قرطبة وقنطرتها التى تربط المدينة بأراضيها الجنوبية عبر نهر الوادى الكبير •

بدء المحاولات الجدية لفتح فرنسا

كانت الفتوح العربية تتدافع كأمواج البحر موجة تلو موجة فالعرب قد فتحوا الشام ثم وثبوا منه الى مصر ، وجاءت بعد مصر أفريقية ، ثم كان بعد مصر فتح أفريقية ، فتح الاندلس وتمشيا مع هذه الطريقة كان لابد أن يتبع فتح الاندلس قفزة أخرى الى ما وراءها وفعلا فكر فى هذا — كما قلت — موسى بن نصير عندما أتم فتح أسبانيا ، ثم فكر فى أن يعبر جبال البرتات الى أرض غاليا ، ومنه يسير شرقا فى مشروع كبير يرمى الى فتح روما أو القسطنطينية ، والقسطينية كانت أملا عظيما ، تحطمت على أسوارها كثير من المحاولات العربية فى المشرق ، فقد حاول العرب غزوها عدة مرات ، ولكنهم أخفقوا ، ولكن الخليفة

استدعى موسى بن نصير — كما رأينا — ورفض توغل المسلمين فى أراضى ومجاهل غير آمنه ، ولكن فكرة غزو ما وراء أسبانيا ظلت تتردد فى النفوس حتى ولى الإندلس السمح بن مالك الخولانى ، وهو من خيرة الولاة الذين تولوا أمر الاندلس . وبتوليته عادت الى الجند حماستهم وتحركت فيهم روح الغزو التى كانت قد فترت بعد استدعاء موسى وطارق الى المشرق ، وما أصابهما فى دار الخلافة .

ويجب أن نلقى نظرة عامة على فرنسا قبيل محاولات المسلمين فتحها ، ففرنسا فى التاريخ الرومانى تسمى غاليا ، أو غاليس أو غاله ، وكاصطلاح جغرافى لم تكن قد وجدت بعد ككتلة واحدة أو كوحدة سياسية ، كذلك لم تكن قد تكونت بعد اللغة الفرنسية فى ذلك الوقت ، وبعد زوال الدولة الرومانية توزعت فرنسا بين قوى مختلفة ، فسبتمانيا كانت تابعة للقوط الغربيين — وهى المدن السبع — والجزء الذى يحده نهر اللوار شمالا الى جبال البرنات جنوبا كان دوقية مستقلة تسمى أكيتانيا « أكوتين » فاذا سرنا من أقليم سبتمانيا شرقا ، فهنالك أقليم بروفانس ، بينما نجد شرقى نهر الرون « برجنديا » وكانت هذه الاقاليم مستقلة تبعا لما تخلف عن الغارات الجرمانية . أما شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحالية ، فكانت مملكة تسمى مملكة الفرنجة أو الميروفنجية .

ضعفت الدولة الميروفنجية بمرور الزمن ، ولم يعد فى استطاعتها القبض على زمام الامور فى الدولة ، انهارت السلطة المركزية ، واسترد الاشراف والزعماء المحليون استقلالهم وامتيازاتهم ، وأزداد سلطان محافظ القصر ، وأصبح فى القرن السابع منذ ضعف الملوك أقوى المناصب الادارية والسياسية فى الدولة ، وأصبح محافظ القصر صاحب السلطة الفعلية فى الدولة ، بينما لم يكن للملك من السلطة سوى أسمها فقط .

وأختصت الأسرة الكارلية بهذا المنصب الكبير ، وأخذت تهدد بنفوذها وقوتها مصير الأسرة الميروفنجية ، وولى شارل مارتل منصب محافظ القصر سنة ٧٢٠ م بعد أن تغلب على منافسيه .

هكذا كانت مملكة الفرنج حينما عبر المسلمون الى غاليا أو غاليس .

الثالث مرة بقيادة السمح بن مالك ، وغزوا ولاية سبتمانيا القوطية ، واستولوا على قواعدها ، وزحفوا على مدينة تولوز — عاصمة أكوتين — وكان أودو — دوق أكوتين — أحد أعضاء الأسرة الميروفنجية ، أقوى أمراء الفرنج في غاليا ، وشدهم بأسا واستقل بأكوتين منتهزا فرصة الاضطرابات التي سادتها ، وسيطر على جنوب فرنسا ، من اللوار الى البرانس ، والتف حوله القوط والبشكنس و (الكاثاريون) وتطلع الى التخلص من سلطان أو كارل مارتل ، والانتزاع بالملك من يد الفرنجية .

أقام السمح بن مالك في سبتمانيا حكومة إسلامية ، وأعاد توزيع الاراضي بين الأهالي وفرض الجزية والخراج على النصارى ، وكفل لهم الحرية الدينية والقضائية طبقا لشرائعهم وزحف نحو الغرب لغزو أكوتين ، وهزم الأعداء الذين تصدوا له شر هزيمة ، واتجه الى تولوز ، فأسقط في يد يودو ، وأعد جيشا قويا لانقاذ مملكته من العرب والتقى السمح بن مالك بيودو بظاهر تولوز في معركة حامية الوطيس ، وبذل كل من الفريقين الوانا من الشجاعة النادرة ، وسالت الدماء أنهارا ، وفجأة سقط السمح من فوق جواده صريعا ، فاختل نظام الجيش الاسلامي ، وسادته الفوضى والاضطراب ، وانسحب المسلمون الى سبتمانيا بعد أن فقدوا القائد الشجاع سنة ١٠٢ هـ ٧٢١ م .

اتخذ المسلمون على أثر هذه الهزيمة من مدينة أربونة قاعدة لعملياتهم الحربية فيما وراء البرانس .

اختار الجيش الإسلامي عبد الرحمن الغافقي ، قائدا عاما ووقع اختيار الجماعة له والياعلى الاندلس حتى تعهد الدولة الى أحد بالولاية ، وقضى بقوته في تهدئة الأمور في البلاد حتى ولي عنبسة بن سحيم الكلبي حكم الاندلس سنة ١٠٣ هـ ، وكان لابد لعنبسة من اعادة تنظيم جيشه واعداده لمواصلة الجهاد فيما وراء البرانس ، واصلاح أحوال البلاد الداخلية ، وقضى على الاضطرابات التي حدثت في الاندلس ثم عبر جبال البرانس ، وأتم فتح اقليم سبتمانيا بعد مقتل السمح ، ثم صعد مع النهر الى أن بلغ مدينة ليون واحتلها ، ثم توغل في الاقليم المعروف

برجانديا حتى بلغ مدينة أوتون فى أعالى الرون ، ولكن أهالى البلاد قطعوا عليه خط رجعته ، وأنتهى الامر بأستشهاده هو الآخر سنة ١٠٧ هـ ، فأرتد الجيش الى الداخل ، وعادت الاضطرابات الى الجزيرة مرة أخرى .

وتسود الاندلس بعد ذلك فترة من الاضطرابات ، تقف فيها حركة الفتح الخارجى مدة أربع سنوات ، ويتوالى على الاندلس فى هذه الفترة التى تلى وفاة عنبسه ستة ولاه . وفى سنة ١١٢ هـ ٧٣٠ يتولى أمير شجاع متحمس للجهاد ، هو عبد الرحمن الغافقى نسبة الى قبيلة غافق اليمنية ، كان جنديا عظيما ظهرت مواهبه الحربية فى غزو فرنسا ، عرف عنه العدل وحب الاصلاح والورع والتقوى ، وكان فوق العصبيات وعاد الوفاق بين اليمنية والمضرية فى عصره ، الامر الذى قوى من شأن البلاد والجيش ، وكان حكمه فى الواقع فاتحة عهد جديد فى تاريخ الاندلس .

نظم عبد الرحمن ادارة البـلاد ، وأعاد الى النصـارى أملاكهـم المغتصبة ، وساوى بين الناس فى الضرائب ، وأوجد نظاما اداريا قويا : وأعاد تنظيم صفوف الجيش ، وزوده بأقوى الأسلحة ، وحصن القواعد والثغور الشمالية ، واختار لجيشه فرسانا من البربر ، يقودهم نخبة من العرب .

أخضـع عبد الرحمن الغافقى الثورات فى الشـمال . وفى أوائل سنة ٧٣٢ م ١١٤ هـ سار عبد الرحمن الى الشمال مخترقا ولاية أراجون « الثغر الاعلى » ونافار « بلاد البشكنس » ، وعبر البرانس من طريق نبلونه ، ودخل فرنسـا فى ربيع سنة ٧٣٢ م وزحف مباشرة على مدينة آرل الواقعة على نهر الروم ، التى عارضت الحكم الأسلامى ، وقهرها بعد لأى وعناء ، ثم زحف غربا ، وعبر نهر الجارون ، وقاتل عبد الرحمن بودو قتالا شديدا هزم فيه الدوق شر هزيمة ، وقتل من جنده كثيرون ، ودخل عبد الرحمن عاصمته بردال ، وسقطت أوكوتين كلها فى يد المسلمين ، ولاذ الدوق يودو بالفرار وأخذ يضرب فى الأرض ، ثم ارتد عبد الرحمن نحو الدوق مرة أخرى واخترق الجيش الاسلامى برجونيه واستولى على ليون وواصل زحفه حتى رصانص التى تبعد مائة ميل فقط عن باريس وارتد

عبد الرحمن بعد ذلك غربا الى ضفاف اللوار ، ليتم فتح هذه المنطقه ، ثم يقصد عاصمة الفرنج ، وبذلك سيطر على نصف فرنسا الجنوبى من الشرق الى الغرب فى بضعة أشهر فقط .

لجأ يودو الى شارل مارتل يستنجد به صد الخطر الداهم الذى أودى بمملكته . والدوله الميروفنجية تعتبر فى نظر الفرنسيين ، المرحلة الاولى من تاريخهم الحديث . ولكنها فى الحقيقه لم تكن فرنسيه بحال من الأحوال ، فلا اللغة ولا الحدود ولا القوميه كانت فرنسية حتى ذلك الوقت ، وانما كانت الدولة الميروفنجية ألمانيه ، فشارل ألمانى وكذلك جيشه ، فالقتال الذى وقع أنما كان بين سكان الصحارى الممتدة من بلاد العرب الى شمال أفريقية وبين سكان الغابات الشمالية فى أوربا حيث موطن القبائل الجرمانية . وهذه أول مرة فى التاريخ تلتقى فيها هاتان القوتان . لذا كان الجيشان مختلفين فى كل شيء فى السلاح وفى اللباس وفى التكتيك الحربى وأساليب القتال .

فالعرب والبربر آتون من بلاد صحراويه حاره . ملابسهم واسعة فضفاضه : وأسلحتهم خفيفه أهمها القوس والسيف ، وطريقتهم فى الحرب الكر والفر . ولهم فرقة من الخياله هى الركن الاساسى فى الجيش . وهى التى يهتمون بها ، ويولونها عنايتهم . أما الجرمان . فهم أهل مناطق باردة أيديهم حديدية ، ويحاربون شبه عراه . أسلحتهم مستمده من بيئتهم حيث الغابات الثقيلة والسيوف العريضه وأكثرهم مشاه يسيرون فى صفوف متراصة .

ومهما يكن من أمر فقد نفذ عبد الرحمن بجيشه الكبير الى فرنسا سنة ٧٣٢ م ١١٤ هـ واقتحم وادى الرون وولايه أكونين وشتت قوى أودو ، وأشرف على ضفاف اللوار . وقد أقلقت هذه الانتصارات شارل مارتل — محافظ القصر فى مملكه الفرنجة فى عهد تيودوريك الرابع ولجأ أودو وزعماء الفرنج الى محافظ القصر يستنجدون به . ويحذرونه من سقوط بلادهم فى يد المسلمين . والمقرى صاحب كتاب نفح الطيب أكبر موسوعه فى تاريخ الاندلس . ينقل عن مؤرخ أقدم منه اسمه الحجارى

نسبه الى وادى انحجاره بالاندلس . عولا معناه ان عارله (سارل مارتل) قال لقومه حين نسكوا اليه وقوف العرب على ابواب بلادهم ، انتظروا لا تواجهوهم فى أقبال أمرهم فان لهم ارادة عويه ، ونية صادقة وحصانه انظروا حتى تهدأ أمورهم ، ويأخـذوا فى التنافس فى الرياسـة والملك والمال ، وعند ذلك تتفرق كلمتهم ، ويضعف امرهم ، فتتمكنون منهم بأيسر مجهود .

ويعقب المقرى على ذلك بقوله : فكان والله ذلك .

نناسى سارل مارتل ويودو الخلافات بينهما وتناقسا لمواجهه العدو المشترك . وكان لابد من خوض غمار معركه فاصله لدرء خطر المسلمين عن بلاده ، وفى نفس الوقت للسيطره على جنوب فرنسا ، وانتزاع ملك بودو ، وهذا حلم قديم كان يراوده ، وقاد سارل جيشه الذى يتألف من الفرنج والعشائر الجرمانية المتوحشه والعصابات المرتزقه فيماوراء البرتات وسار زعيم الفرنجه على رأس هذا الجيش الجرار نحو الجنوب لملاقاه العرب .

ودار اللقاء الحاسم بين الشرق والغرب والاسلام والنصرانيه ومن الصعب تحديد مكان هذا اللقاء ، ولكن يمكن القول بأنه السهل الواقع بين مدينتى تور وبواتيه على مقربه من مدينه تور ، وبعد أن أستولى المسلمون على مدينة بواتيه وخربوا كنيستها ، ولما أراد عبد الرحمن أن يعبر اللوار فاجأه الجيش الكبير بقياده شارل . ودارت رحى معركه رهيبه وأرتد الجيش المسلم الى السهل — الذى أشرنا اليه — وكان الجيش المسلم مثقلا بالغنائم وكانت تثير بين جنوده القلاقل ، وتتمثل هذه الغنائم فى كنوز ثروات جنوب فرنسا ودار القتال بشدة وضراوه بين الفريقين ، ولاح النصر فى جانب المسلمين ، ولكن فطن الفرنجة الى حرص المسلمين على غنائمهم فأحدثوا ثغرة فى داخل الجيش المسلم ، وانقضوا على الغنائم فترك المسلمون الحرب ، واتجهوا الى الغنائم يمنعون الفرنجة عنها ، فدب الخلل الى صفوف المسلمين ، وعبثا حاول عبد الرحمن أن يعيد الهدوء الى جيشه ، فأصابه سهم فقتله ، وخر صريعا من فوق جواده ، وعم الذعر

والجزع والهلع بين صفوف الجيش المسلم ، هنا وأتت الفرصة الفرنجة للنيل من المسلمين ، فقتلوا منهم ما لا يحصى ولا يعد ، وأقبل الليل أكتوبر ٧٣٢ م ١١٤ هـ فقرر المسلمون الانسحاب من المعركة التى لم يعد لهم أمل فى الانتصار بعد أن فقدوا قائدهم والكثير من جندهم ، وارتد المسلمون فى جوف الليل وجنح الظلام جنوبا صوب قواعدهم فى سبتمانيا ، تاركين أثقالهم ومغانمهم وفى الصباح أقبل شارل على المعسكر فوجده خاليا الا من الجرحى ، فأمر بذبحهم وأنسحب الى الشمال ، وخشى أن يتابع الجيش المسلم خوفا من كمين ربما قد أعدوه •

والرواية العربية تتحدث بايجاز شديد عن موقعة بلاط الشهداء ربما لما أحدثته من صدمة للمسلمين ، بينما تسهب الرواية النصرانية فى الحديث عن هذه الموقعة •

ولموقعة بلاط الشهداء أهميه كبيرة جدا فى التاريخ الاسلامى فهى من المعارك الفاصلة فى التاريخ ، اد أوقفت رحف العرب فى أوربا ، والمعروف أنه لو أنتصر العرب ، لاستطاعوا اجتياح أمم النصرانية فى أوربا ، والوصول الى القسطنطينية عن طريق أوربا وأوقفت هذه المعركة زحف المسلمين عند حد معين ، وتعتبر انتصارا للغرب على الشرق وللنصرانية على الاسلام • ولدولة الفرنجة على دولة الاسلام •

وتعرض الكثير من المؤرخين لهذه الموقعه ، ويقول جيبون لو أنتصر العرب فى تور و بواتييه ، لكان القرآن يتلى ويفسر فى أكسفورد وكمبردج •

ويقول آخر : ان فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك ايطاليا وغاليا ولما وثب المسلمون الى فرض الدين ، فنهض ازاء ذلك الخطر فتى من عسيرة جرمانية هو كارل مارتل ، وأيد هيبة النظم النصرانية المشرفة على الفناء ، بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم ودفعها الى بلاد جديدة • ويقول زيلر كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية • وقد عاون هذا النصر زعيم الفرنجة

على توطيد سـلطانه ، لا فى غاليا وحدها ولكن فى جرمانيا التى أشركها فى نصره .

ويرى محمد عبد الله عنان أن معركة بلاط الشهداء كانت أعظم لقاء بين الاسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب ، وفقد العرب فى هذه المعركة سيادة العالم بأسره وتغيرت مصائر العالم القديم كله ، وأرتد تيار الفتح الاسلامى أمام الامم الشمالية كما أرتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار القسطنطينية وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب ، وأخضاع النصرانية لدولة الاسلام ولم تتح للاسلام المتحد فرصه أخرى ، لينفذ الى قلب أوربا فى مثل كثرته وعزمه واعتزازه ، يوم مسيره الى بلاط الشهداء ولكنه أصيب بتفرق الكلمة ، بينما تشغلت أسبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخليه اذ قامت فيما وراء البرتات أمبراطورية عظيمة موحدة الكلمة ، تهدد الاسلام فى الغرب .

وفريق من المؤرخين المحدثين لا يعلق أهميه كبيره على هذه الموقعة ، ويرون أن الامتداد الطبيعى للغزو العربى فى أسبانيا هو جبال البرتات . أما العمليـات العسـكرية التى قاموا بها وراء هذه الجبال ، فهى مجرد غارات فدائية بدافع الحماس الدينى دون أن يعملوا حسـابا للتقهقر . فهزيمة الغافقى فى رأيهم ـ كانت نهاية طبيعية لامتداد غير طبيعى محفوف بالمخاطر ولهذا لم يكن لها تأثير ايجابى على مجريات الاحداث السياسية الاسلامية ، لانها كانت بعيدة جدا عن قلب العالم الاسلامى وعن المجال الحيـوى للدولة الاسـلامية ، فالهزائم التى منى بها المسـلمون أمام القسـطنطينية مثلا ، كان لها تأثير كبير وصـدى قوى فى السـياسة الاسلامية ، لانها كانت قريبة من دمشق حاضرة الدولة الاسلامية . ولعل هذا هو السبب الذى جعل الرواية الاسلامية لا تعلق كثيرا ، ولا تسهب كثيرا فى الحديث عن بلاط الشهداء .

ولكننا مع الرأى الأول القائل بأن هذه المعركة حددت مصير العالم أجمع شرقه وغربه ومسلمه ونصرانيه ، وسميت هذه المعركة ـ كما قلت ـ بلاط الشهداء ، نسبة الى طريق رومانى قديم ، دارت عنده هذه المعركة ،

وهذا الطريق مرصوف مبلط وتسميها المصادر الاوربية ، موقعة ثور •
أما القائد شارل مارتل ، فلقب بعد المعركة « مارتل » أى المطرقة •

توقفت فتوح المسلمين فى فرنسا بعد بلاط الشهداء ، بعكس ما كان يحدث للمسلمين فى فتوحاتهم ، فكثيرا ما هزموا ثم عادوا الكرة وانتصروا • ولكن موقعة بلاط الشهداء — أوقفت فتح المسلمين فى فرنسا ، ذلك أن الدولة الأموية قد مرت بالكثير من المتاعب ، فالمسلمون هزموا فى آسيا الصغرى ، وشن البيزنطيون الغارات على بلاد الشام والجزيرة وظهرت الدعوة العباسية فى المشرق ، لذلك شغلت الدولة الاموية عن هذا القطر البعيد ، وأثرت هزائم المسلمين فى فرنسا على الروح المعنوية لعرب الاندلس • ونبه العالم الاوربى الى خطر المسلمين فى أسبانيا ، ولهذا طارد شارل مارتل العرب الى حدود سبتمانيا ، وانتزع منهم اقليم بروفانس ، ولم يلبث أن استرد الفرنجه سبتمانيا بل أنشأ شارلمان ثغرا فى أسفل جبال البرتات على شاطىء البحر المتوسط ، وبذلك لم يعد للعرب أملاك فيما وراء البرتات ، ولقد حاول العرب الغزو من نواحى أخرى فهاجموا السواحل الجنوبية لفرنسا ودخلوا سويسرا غير أن هذه الاعمال لم تتخذ صفة الفتح المستقر • بل كانت عمليات تتسم بطابع الغارات السريعة •

الفتن والحروب الداخلية فى المغرب والاندلس

أنتشرت فى بلاد المغرب أفكار الخوارج ، وعارضوا الحكم الاموى ، ورأوا أن الخلافة يجب أن تكون بالانتخاب الحر المباشر لأى مسلم حر فلما ولى عبد الله بن الحبحاب — أفريقية كانت القبائل البربرية تضطرم بعوامل الثورة ولا سيما فى المغرب الاقصى ، فسير عبد الله الى مواطن الثورة فى بلاد المغرب جيشا بقيادة حبيب بن أبى عبيدة الفهرى ، وأعاد البلاد الى الهدوء والسكينة ، وعين ابن الحبحاب ابنه اسماعيل واليا على المغرب الاقصى ، ولكن البربر عارضوا حكمه ، وثاروا عليه ، والتفوا حول داعية من الخوارج الصفرية ، يسمى ميسرة المدغرى ، وانقضوا على طنجة وهزموا حاميتها ، ودعوا لميسرة بالخلافة على مبادىء الخوارج ، ثم زحفوا الى السويس ، وقتلوا الوالى اسماعيل بن عبيد الله ، وعلى أثر انتصارات الخوارج داعت دعوتهم بين البربر ، ولاقت نجاحا كبيرا ، وضعف سلطان العرب فى بلاد المغرب ، واضطر ابن الحبحاب الى اخضاع البربر ، فسير اليهم جيشا كبيرا ، الحق به البربر عدة هزائم قرب طنجة ، وسميت هذه المعركة بموقعة الاشراف لكثرة من قتل فيها من قادة العرب سنة ١٢٣ هـ .

ذعر هشام بن عبد الملك من هزيمة العرب أمام البربر ، ومن ثورة البربر على الحكم الاموى ، فأرسل جيشا الى بلاد المغرب بقيادة كلثوم ابن عياض القشيرى على رأس جيش ضخم من عرب الشام سنة ١٢٣ هـ ، واجتمعت اليه اثناء مسيره قوات أخرى من مصر وطرابلس وكان يساعد كلثوم ابن اخيه بلج وتوجس عرب أفريقية خيفة من جند الشام بقيادة كلثوم غير أنهم انضموا بعد عدة منازعات الى جيش كلثوم ودخل العرب فى معارك ضارية أواخر سنة ١٢٣ هـ مع البربر قرب طنجة ، هزموا فيها شر هزيمة ، ومزقوا شر ممزق ، وقتل كلثوم وكثير من ضباط الجيش وجنوده .

ومن نتيجة هذه المعركة خروج المغرب الاقصى من قبضة بنى أمية وانتشار دعوة الخوارج فى المغرب الاوسط .

وتراجعت فلول الجيش الشامى بقيادة بلج بن بشر القشيرى وتحصنوا بثغر سبته ، وكان عددهم حوالى تسعة آلاف فارس معظمهم من الشام مع قلة من جند مصر . وهناك فرض عليهم البربر حصارا شديدا حتى كاد يهلكهم جوعا ، وينكل بهم . لكن ظروف الأندلس أنقذت بلج وجنوده ، ذلك أن أخبار ثورات البربر فى المغرب ، انتقلت الى الاندلس فثار فى الاندلس ضد واليهم عبد الملك بن قطن الفهرى ، فلم ير من منقذ له من هذه الثورة العارمة ، سوى بشر بن بلج المحاصر فى سبته ، وتناسى الخلافات بين المضرية ، وعرب الشام اليمنية ، وتحالف معه ، وأشرط أن يفك الحصار ويسمح له بالذهاب هو وقواته الى الاندلس لانقاذه من ثورات البربر التى استطار شرها ، وزاد خطرها ؛ على أن ينسحب من الاندلس فور القضاء على الثورة .

وكان ثوار البربر فى ذلك الوقت قد وحدوا صفوفهم فى الاندلس وقسموا انفسهم الى ثلاث جيوش .

جيش يهاجم طليطلة ، وجيش ثان يهاجم قرطبة ، والجيش الثالث يتجه جنوباً للقضاء على قوة الشاميين فى سبته ، والاتصال بأخوانهم بربر المغرب .

عبر بلج بن بشر الى الأندلس بعد أن رفع عبد الملك بن قطن الحصار عنه ، وبعد أن كان محبوسا هو ورجاله فى قفص ، فقد تنسموا نسيم الحرية فى الأندلس ، وبعد أن استراحوا بعض الوقت من ويلات ما أصابهم فى المغرب ، اشتبك بلج مع البربر عند بلدة شذونه ، وشتت شمل البربر ، وانتصر على فريق البربر فى قرطبة ، ثم زحف مع قواته وقوات حليفه والى الاندلس الى طليطله ، واشتبكوا مع جموع البربر الرئيسية فى عدة وقائع مزقوا فيها شملهم ، وبذلك انتهت ثورة البربر ، وعادت الاندلس الى الهدوء والسكينة .

وأخذ بلج وأصحابه بعد ذلك ينعمون بحلاوة النصر ، ويتمتعون بالحياة الآمنة الهادئة بعد الحرمان والبؤس في سبتة • ولكن عبد الملك بن قطن الفهرى والى الاندلس — طالب الشاميين بالرجوع الى أفريقية تنفيذا للشروط • لكن الشاميين رفضوا أن يعودوا الى أفريقية بعد أن بهرتهم خيرات الاندلس ورفض الشاميون الانسحاب ، ودار قتال بين عرب الاندلس والشاميين ، قتل فيه الوالى عبد الملك بن قطن ، وولى بلج أمر الاندلس ، وقد أثار هذا العمل غضب الحجازيين المضريين ، فقتلوا بلج بن بشر ، وقامت بين الطرفين حروب عنيفة استمرت اكثر من عام حتى سنة ١٢٣ هـ — ٧٤٣ م ولما رأت الخلافة سوء الحال فى الاندلس ، ولت عليها رجلا له مكانة وله قوة ، ذلك هو الشاعر أبو الخطار بن ضرار الكلبى ، وهو يمنى •

بدأ أبو الخطار ، ولايته بداية طيبة ، فأراد أولا أن يحل مشكله الشاميين ، فأنزلهم مقسمين على كور الاندلس بحيث تكون متشابهة الى حد كبير بالاماكن التى جاؤا بها من المشرق ، فأنزل أهل جند دمشق كورة البيرة ، وسماها دمشق ، وأنزل أهل جند حمص كورة أشبيليه وسماها حمص ، وأنزل أهل جند قنسرين كورة جيان فى جنوب الاندلس ، وسماها قنسرين ، وأنزل أهل جند الاردن كورة ريه ، وسماها الاردن وأنزل أهل فلسطين شذونه فى أقصى الجنوب وسماها فلسطين •. أما أهل مصر ، فأنزلهم الجنوب الشرقى من الاندلس فى كورة تدمير وسماها مصر • وهذا عمل أدارى حكيم ، كان من الممكن أن يقضى على الفوضى فى الاندلس •

واستطاع أبو الخطار أن يعالج الامور بسياسة من الحزم والاعتدال ، وسوى بين جميع القبائل •

أستقرت الامور فى الاندلس فترة قصيرة بسبب سياسة أبى الخطار ، ولكن عادت الاضطرابات من جديد • والجدير بالذكر أن الولايات الاسلامية فى أواخر العهد الاموى قد اضطربت اضطرابا شديدا ، وقامت فيها حروب أهلية متعددة بين القيسية المضرية وبين اليمنية القحطانية ، وحدثت هده الحروب الاهلية فى الاندلس كذلك • وكان الوالى

ــ كما قلنــا ــ يمنيــا ، وهو أبو الخطــار الكلبى ، أما زعيــم المضرية أو القيسية ، فهو الصميل بن حاتم حفيد شمر بن ذى الجوشن قاتل الحسين فى كربلاء .

وسبب هذه الفتن بسيط فى حد ذاته ، اذ وقع خلاف بين شخصين أحدهما ــ مضرى والآخر يمنى ، فلجأ الاثنان الى الوالى أبى الخطار ، الذى حكم لليمنى، فظن المضرى أن هذا الحكم تعصب من الوالى لكونه يمنيا، فذهب الصميل ــ زعيم المضرية ــ الى أبى الخطار زعيم اليمنية ووالى الاندلس ــ ليكلمه ، فوقع نزاع بين الرجلين ، فخرج من المجلس ، وقد حلت عمــامته ، فقال له أحد الحراس على البــاب : أصــلح عمــامتك أبا الجوشــن . رد قائلا :« ان كان لى قوم فســيقيمونها . وهذا تهديد بالحرب . وقامت الحرب بين الجانبين القيســية واليمنيه على ضــفاف الوادى الكبير ، واستمرت سجالا بينهما الى ان تمكنت المضرية من هزيمة اليمنية فى موقعة كبيرة عند بلدة تشقنده فى جنوب قرطبة . واســتطاع الصــميل بهذا النصر أن يعزل أبا الخطار من ولاية الأندلس ، وأن يعين مكانه رجلا محايدا بين عرب الشمال وعرب الجنوب اسمه يوسف الفهرى . واختار الصميل هذا الرجل لحنكته ومهارته ، وبعده عن التعصب . وكانت شخصيته مرغوبة من الطرفين المتنازعين ، مقبولة بينهم ، وحكم الفهرى بمشورة الصميل .

ضعف الدولة الاموية وتدهورها

اضطربت الامور في الدولة الاموية بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنه ١٢٥ هـ ، وتولية الوليد بن يزيد الخلافة الذى قضى معظم أيام خلافته في البادية ، وبقى في الخلافة سنة وشهرين ، ثم قتل لسوء سيرته سنة ١٢٦ هجريه وخلفه يزيد بن الوليد الذى توفى بعد خمسة أشهر ، وبويع أخوه ابراهيم ، وفى عهده ازدادت الدولة الأمويه اضطرابا بسبب الصراعات المستمرة بين القيسية واليمنية ، وثورات الخوارج ، وانتشار الدعوة العباسية في أقليم خراسان ، والانقسام بين أفراد البيت الحاكم ، وتجلى الاضطراب في البيت الأموى ، فلم يكن هناك اجماع على توليه ابراهيم فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة ، وناس بالامارة ، وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما ، وانتهى الامر بعزله وقتله على يد مروان ابن محمد .

ولما آلت الخلافة الى مروان بن محمد تعصب للقيسية ، وطالب اليمنيه بدم الوليد بن يزيد ، فثار عليه يزيد بن خالد القسرى بدمشق ، وانضمت اليه اليمنية ، فأرسل مروان الى دمشق جيشا أخمد الثورة ، وخلصت له دمشق ، كما قضى على ثورات أخرى ، قام بها اليمنية في بلاد الشام .

ولم يكد يستقر الأمر لمروان بن محمد في بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، ودعا أهلها الى خلعه وأنضمت اليه اليمنية ، فسار اليه مروان ، وأوقع به الهزيمة وظل مروان يخضع الثورات ، متنقلا من بلد الى بلد ، حتى فوجىء بقيام الدولة العباسية في الكوفة سنة ١٣٢ هـ ، وهزم في موقعة الزاب ، وقتل .

اقترن قيام الدولة العباسية بمذابح مروعة ، ذهب ضحيتها أفراد البيت الأموى ، بل نبشت قبور الخلفاء الأمويين ومثل بجثثهم . ولم ينج من بطش بنى أميه الا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، الذى كتب له النجاة من بطش بنى العباس ، كما كتب له ، اقامة الدولة الأموية في الاندلس ، أعاد فيها مجد آبائه وأجداده .

الامارة الأموية فى الأندلس

عبد الرحمن الداخل (١٣٨ — ١٧٢ هـ / ٧٥٦ — ٧٧٨ م)

أنتشرت الفوضى فى الأندلس فى أواخر عصر الولاة ، وعاشت البلاد فى فتن وحروب ، وعم القحط وعظم البلاء ، وأشتد البؤس والشقاء ، وازداد الأمر حرجا فى الوقت الذي تدهورت فيه الدولة الاموية ، وقامت الدولة العباسية ، وكانت دولة الخلافة منصرفة تماما عما يحدث فى الاندلس ، واذا أجمع الاندلسيون على أمير يحكمهم ، يفشل فى حكم البلاد التى مزقتها العصبيات ، وفرقتها ، وشجعت هذه الفوضى الفرنج ونصارى الشمال على اقتطاع الاطراف النائية ، وشن الغارات المتتالية ، وظل الامر كذلك ، حتى ولى أمر الاندلس رجل قوى حازم ، هو يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى ، وتولى برأى الجماعة ، دون مصادقة من دولة الخلافة التى كانت مشغولة عما يجرى فى الاندلس ، واستطاع الفهرى أن يقهر منافسيه ، ووطد أقدامه فى البلاد محاولا الاستقلال بها نهائيا عن دولة الخلافة .

نعود الى عبد الرحمن بن معاويه بن هشام بن عبد الملك فقد نشأ فى قرية تعرف بدير خنان من أعمال قنسرين ، ونما وترعرع فى بيت جده ، وسقطت الدولة الأموية وهو فى ريعان شبابه الغض فى حوالى العشرين من عمره ، وفر هو وأهله ناحية الفرات فرارا من ملاحقة بنى العباس ، ولكن اكتشف أمره ، ففر الى فلسطين ثم مصر ، ولحق به مولاه بدر وسالم ، وفى برقة التجأ الى أخواله من بنى نفزه أخواله ، وأقام وقتا طويلا ، ولكن أمره عرف ، ففر هو وصاحبيه الى المغرب الاقصى ، وأقام بها متخفيا عند شيخ من شيوخ البربر ، ولقى فى هذه البلاد الكثير من المحن والشدائد . وفى هذه البلاد علم بأخبار الاندلس وما آل اليه أمر البلاد من اضطراب .

وفى أواخر سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م تطلع الى استغلال القلاقل فى الاندلس ، والعمل على استرداد ملك بنى أمية السليب ، وانتهز فرصة

الخلاف التسديد بين القيسية واليمنيه وأرسل مولاه بدر ، لنشر الدعوة لبنى أمية بين أهل الشام وأنصــار هذا البيت . وكانت رياســه الأمويين لزعيمين من موالى بنى أمية ، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد ، واتفق بدر معهما على بث الدعوة بين اليمنية ، الدين كانوا يتمنون الخلاص من الفهرى ، ونشـــط أبو عثمان وحليفه فى نشر الدعوة فى البيرة خصوصا بين اليمنية ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م ، ولما أيقن بكثره أنصــار بنى أمية ، أرسـل الى عبد الرحمن الامــوى يطلب منه القدوم الى الاندلس ، فقدم عبد الرحمن الى طرش ، وهى قرية تقع غربى المنكب على مقربة من البحر ، واستقر بها ينظم دعوته ، ويدير خططه .

كان والى الاندلس ، يوســف بن عبد الرحمن بعيدا عن قرطبه ، معســكرا بالقرب من سرقســطه لقهر الثورة هناك ، ولكنه أضــطر الى الاسراع الى قرطبه مع نائبه الصــميل ، لاحباط دعــوة عبد الرحمن ، والقضاء عليها فى مهدها ، وأراد يوسف معالجة الازمة سلما ، فأرسل الى عبد الرحمــن بطلب منه ، الكف عن دعوته فى مقـــابل مال كثــير أو مصاهرة ، أو منحه ولايه من الولايات ، ولكن عبد الرحمن الذى دانت له جنــوب الاندلس بالطــاعة والولاء رفض كل العروض . وأبى الا أن يستحوذ على ملك الاندلس برمته .

ولما قوى أمر عبد الرحمن الأموى سار من طرش فى صحبة أنصاره الى رية ، فبــايعه أهلها ، ثم الى شــذونه ، فدخلت فى طاعتــه ، ثم الى أشبيليه ، فبايعة رعيمها وأهلها اليمنية وانضم اليه أثناء تجواله كثير من الجند والانصــار ، وذاعت دعوته فى غرب الأندلس كله ، وأقبلت اليــه المتطوعة من كل صوب وحدب ، من المضرية واليمنية وأهل الشام . وواصل زحفه حتى أقترب من قرطبه فى أوائل ذى الحجه سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م .

سار يوسف والصميل الى قرطبة ، وتفرق معظم جنودهما بعد أن أفناها كثرة الحروب ، وأغراها دعوة عبد الرحمن بن معاوية ، ومهما يكن من أمر فقد عســكر يوسف بجنده القليل فى المسارة فى ظاهر قرطبة من الغرب ، على حين عسكر عبد الرحمن على ضفة النهر الجنوبيه ، وفرقة

النهر بين الجيشين المتحاربين عدة أيام • ففى يوم الجمعة ، وهو يوم عيد الأضحى ، نشبت معركة حامية ، ودار قتال مرير بين الفريقين ، وهزم جيش يوسف الفهرى شر هزيمة ، وقتل فى هذه الواقعة الكثير من وجوه القيسية والفهرية ، وفر يوسف الفهرى والصميل من المعركة ، ودخل على أثرها عبد الرحمن بن معاوية قرطبة ، وصلى الجمعة فى مسجد الجامع ، وبايعه الناس بالامارة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م • ومن مصادفات التاريخ أنه فى يوم الاضحى سنة ٦٤ هـ الجمعة ، انتصر مروان بن الحكم — جد عبد الرحمن الأموى — على الضحاك بن قيس الفهرى فى موقعة مرج راهط •

وليوم المسارة نتائج بعيدة المدى فى تطور الحياة السياسية الاندلس ، ذلك أن انتصار عبد الرحمن الأموى أنهى عصر الولاة وما اتصف به من قلاقل واضطرابات ، وبدأ عهد جديد فى تاريخ الأندلس ، أصطلح المؤرخون على تسميته عصر الامارة •

السياسة الداخلية لعبد الرحمن الأموى

لم تكن موقعة المسارة الا خطوه على الطريق ، يحاول عبد الرحمن الأموى أو الداخل بعدها بذل الجهود للسيطرة على الأندلس ، التى كانت تضطرم بالثورات ، ويتغلب على كل ناحية أمير أو حاكم مستقل من ذوى العصبيات والنفوذ ، فسيطرت اليمنية على بعض البلاد ، وكذلك المضرية والبربر وأنتهز نصارى الشمال — الدين كانوا مستضعفين بالأمس — انتزاع بعض الأراضى من الأندلس ، وتقوية نفوذهم فى معاقلهم ، كما أن الفرنج فيما وراء البرانس ، انتزعوا من المسلمين ما تبقى لهم من أرض ، وتحالفوا مع نصارى الشمال الاسبان على انتهاز الفرص لتقوية نفوذهم على حساب نفوذ المسلمين •

قضى عبد الرحمن طوال حكمه الذى امتد فترة تزيد على ٣٢ سنة كلها فى صراعات مع العناصر الطامعة والمتعصبة والثائرة ضد حكمه ، فكان يخضع ثورة ، وينتقل بعدها الى معركة أخرى فلم يهنأ بهذا الحكم .

العريض طوال سنى حكمه ، بل قضاها كلها فى توطيد سلطانه ، وقهر الثوار ، وقمع الفتن •

من الطبيعى أن يكون أقوى خصوم عبد الرحمن الداخل ، يوسف الفهرى ، الذى انتزع منه عبد الرحمن الأندلس ، ففر يوسف عقب هزيمته الى طليطلة ، وجمع الأنصار حوله ، حتى عظم جمعه ، وسار مع حليفه الصميل الى البيرة (غرناطة) واجتمع أهل هذه الانحاء حول يوسف ، وأعد العدة لمحاربة عبد الرحمن ، واسترداد ملكه السليب ، لكن عبد الرحمن ، ترك حاميه فى قرطبه ، وسار الى خصمه فى البيرة ، وهزمه شر هزيمة ، واستسلم عبد الرحمن والصميل وعقد الداخل معهما صلحا ، تعهدا فيه بالطاعة والولاء ، والكف عن الحرب والقتال ، على أن يؤمنهما فى النفس والولد والأهل والانصار ، وأن يسمح لهما بالاقامه فى قرطبة تحت رعايته ورقابته ، فوافق عبد الرحمن ، وقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمد رهينه حتى تستقر الامور ، وتم عقد الصلح بين الفريقين سنة ١٣٩ هـ • وعاش الرجلان يوسف والصميل فى قرطبة ، وشدد عليهما عبد الرحمن الرقابة والحراسة ، ولكن يوسف الفهرى لم يقبل أن يعيش فى ظل هذا الاعتقال ، ويفقد جاهه وسلطانه ، ففر سنة ١٤١ هـ الى مارده وكاتب أنصاره فى طليطلة ، حتى عظم جمعه ، وأشتبك مع عبد الرحمن الداخل فى عدة وقائع ، هزم فيها يوسف شر هزيمة ، وقتل الكثير من أنصاره ، وفر يوسف الى طليطلة ، وعاش بين أنصاره فى حرية ، ولكن بعض أنصاره اغتالوه وأرسلوا رأسه الى عبد الرحمن سنة ١٤٢ هـ

ويبدو أن أصابع عبد الرحمن لم تكن بعيده عن هده المؤامره وأنتهت بذلك حياة يوسف الحافلة بالأحداث الجسام ، وسك الداخل فى نوايا الابن الأول ليوسف فقتله أيضا • ولم يعد لديه من أبناء يوسف سوى محمد ، فأنتهز محمد فرصه ضعف الرقابة عليه ، ففر من معتقله بقرطبة الى معقل الثورة الفهرية فى طليطلة ، ويبعث عبد الرحمن فى أثره جيشا ، هزمه . وهزم أنصاره ، وسبقه محمد الى قرطبه متنقلا ، ولكنه أدعى

العمى ، فضعفت الرقابة عليه ، فعاد ثانية الى طليطلة ، وحرك الثورة ضد الداخل ، ولكنه فشل أيضا . وعلى الرغم من الهزائم المتتالية للفهرية ، فى معقلهم فى طليطلة ، ألا أن الثورة عادت من جديد بزعامة هشام ابن عروة الفهرى ، أعلن الثورة ، واعتصم بالمدينة ، فسار اليه عبد الرحمن . ومازال يشدد عليه الحصار حتى طلب الصلح ، وما كاد عبد الرحمن يعود الى قرطبة ، حتى عاد الفهرية الى الثورة من جديد فى طليطلة . ولكن عبد الرحمن قمع الثورة . وبذلك سحق عبد الرحمن الداخل الثورة الفهرية وكانت الفهرية أخطر قوة تهدد طالع عبد الرحمن الأموى وسلطانه ، وأكبر عقبة فى سبيل استقرار ملكه .

ثورة الفاطمى

ثورة خطيرة شغلت عبد الرحمن عدة أعوام ، نشبت فى شمال شرق الأندلس بين البربر ، وزعيمها من بربر مكناسه ، وكان فقيها بعلم الصبيان ، وامتلأت نفسه بأفكار البربر التى تدعو الى التخلص من العرب ، ولكى يكتسب أهميته بين رعاياه ، زعم أنه سليل الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذاعت دعوته بين البربر فى تلك المنطقة ، وكانوا أكثرية بها ، وأتخذ من شنت برية مركزا لثورته ، وكثر جمعه ، وقوى أمره ، بمن أنضم اليه من البربر الناقمين على حكم عبد الرحمن ، وأنضم اليه أيضا بعض العرب ، وأرسل عبد الرحمن عدة حملات الى شنت بريه لقمع الثورة ، ولكن الثائر رد كل هذه الحملات على أعقابها خاسرة ، ونكل بجند عبد الرحمن ، فعاد عبد الرحمن بجيش جديد الى شنت برية . ولما فشل عبد الرحمن فى القضاء على الثائر الفاطمى . لجأ الى الحيلة والخديعه . فضم اليه زعيما من زعماء البربر يدعى هلال ، ووعده بحكم البلاد التى أستولى عليها الثائر الفاطمى ، اذن نجح عبد الرحمن فى بث بذور الانقسام بين البربر ، وأنضم الى هلال الكثير من أتباع الفاطمى ، فضعف أمر الفاطمى ، وانفض الكثير من الرجال من حوله ، واعتصم الفاطمى فى الجبال ، وطارده عبد الرحمن ، ومازال عبد الرحمن يضغط على الفاطمى دون جدوى ، حتى نزل الفاطمى بقرية من أعمال شنت برية

تسمى قرة العيون ، وهناك تآمر عليه اثنان من البربر ، وقتلاه وأرسلا رأسه الى عبد الرحمن فى قرطبه ، ويبدو أن هذه المؤامرة كانت من تدبير عبد الرحمن ، الذى فشل فى قمع الثورة بحملاته المتعاقبة ، ولكن أثمرت المؤامرة فيما فشلت فيه الجيوش • وأنتهت بذلك ثورة البربر التى أقلقت وهددت دولة عبدالرحمن أكثر من عشر سنوات ، وأثارت الرعب والفزع فى شرق الأندلس وغربه • وهددت أمن الدولة وسلامتها ، وضاعفت من الفرقة والانقسام بين العرب والبربر •

ثورة عبد الغافر اليمانى

رأينا ثورة القيسية الفهرية ، ودرسنا عوامل قيامها وأسباب فشلها ، كما تحدثنا عن ثورة البربر بزعامة الفاطمى ، ونتحدث الآن عن ثورة اليمانية بزعامة عبد الغافر ، أستولى على ما جاور قرطبة من بلاد ، وكثرت جموعه ولا سيما من البربر ، وأصبح يهدد قرطبه ، فخرج عبد الرحمن لقتاله والتقى الفريقان اليمانية وجند الداخل بوادى قيس على مقربة من قرطبة ، فاستمال عبد الرحمن أعوان عبد الغافر من البربر ، وظل يقاتل جند عبد الرحمن حتى هزم ، وقتل هو والكثير من أعوانه سنة ١٤٤ هـ

ولم تكن أشبيلية أقل خطرا من طليطلة على دولة عبد الرحمن فقامت فيها عدة أضطرابات من بينها ثورة يمانية تزعمها أبو الصباح بن يحيى البحصبى ، صديق عبد الرحمن وحليفه ، وكان أبو الصباح زعم اليمانية فى أشبيلية يوم قدوم عبد الرحمن الى الأندلس ، وأيد عبد الرحمن ونصره ، وقاتل معه يوم المساره ، ولكن عبدالرحمن شك فى نواياه نحوه ، وعزله عن أشبيلية ، فغضب البحصبى وأعلن العصيان ، وأنضم اليه اليمانية ، ولما رأى عبد الرحمن أن قمع الثورة من الأمور المستعصية ، لجأ الى الحيلة والخديعة فى القضاء على الثورة ، فأرسل عبدالرحمن الى اليحصبى يدعوه الى المصالحة ، ويستدعيه الى قرطبه للتفاهم ، ولما قدم اليحصبى الى قرطبة ، قتله عبد الرحمن . وبذلك تفرق جمعه . وهدأت أشبيلية سنة ١٥٠ هـ

ثورات بعض الأمراء الأمويين

ولم يتعرض عبد الرحمن فقط لثورات محلية من الأندلس ، بل ثار بعض أمراء بنى أمية ضده ، وطمعوا فى الملك ، فدبر ابن أخيه المغيرة ابن الوليد بن معاوية الثورة ضده . ذلك أن عبد الرحمن سعى الى استدعاء أمراء البيت الأموى المشتتين فى الارض الى الاندلس ، وتوافد على الاندلس كثيرون ، وكانوا موضع عناية عبد الرحمن وتقديره ، وأغدق عليهم ،

وأسند اليهم المناصب الكبيرة ، ولكن بعضهم أنضم الى معارضى عبد الرحمن فنكل بهم ، وقتل المغيرة ابن اخيه الوليد ، حينما أكتشف مؤامرته ، ونفى أخاه الوليد وأسرته الى المغرب .

سياسة عبد الرحمن الداخل الخارجية

وبينما عبد الرحمن يوطد لنفسه فى الأندلس ، ضاربا على أيدى خصومه فيها ، اذ واجه عداء خارجيا قويا يتمثل فى العباسيين فى المشرق ودولة شارلمان فى أوربا ، ويجرى الأمر على هيئة مؤامرة دولية واسعة ضد عبد الرحمن ، ويشترك فى هذه المؤامرة الدولية الواسعة النطاق ، أكبر ملكين فى ذلك الوقت ، وهما أبو جعفر المنصور ، لما له من قوة وفكر ، وشرلمان ملك الفرنجه ، ونه ما له من سياسه وبطش ، ويتآمر الملكان على التخلص من عبد الرحمن .

مفهوم المسلمين فى ذلك الوقت أن عالم الاسلام يضمه دولة واحدة ، وأن المسلمين يخضعون للخليفة الشرعى سواءا فى دمشق أو بغداد . فلما أستولى عبد الرحمن على الأندلس ، على الرغم من أنه أموى ومن بيت الخلافة السابق ، الا أنه لا يستطيع أن يعلن نفسه خليفة ، لأن الخليفة فى الحقيقة فى بغداد ، وهو صاحب الحق الشرعى فى كل ولايات العالم الاسلامى ، لذلك بايعه الناس أميرا على الاندلس ، وكانت الدعوة على المنابر تقام له باسم ابن الخلائف ، وفى بعض ولايات الأندلس كانت الدعوة تقام باسم الخليفة العباسى دون أن يعترض عبد الرحمن ، لان هذا وضعا شرعيا كما قلنا .

بدأ الصراع بين أبى جعفر المنصور وعبد الرحمن الداخل ، ممثلا فى حملة العلاء بن مغيث سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م ، وكان العلاء والبا على أفريقية من قبل المنصور ، فأراد أن يقضى على عبد الرحمن ، وأن يجعل الأندلس ولاية عباسية ، كما كانت من قبل تخضع لولاة الأمويين فى القيروان .

- واستغل العلاء فرصة معارضة القيسية واليمنية لحكم عبد الرحمن الداخل ، ووجد أن الوقت مناسب للتخلص من الأمويين فى المغرب ، كما تخلص العباسيون من الأمويين فى المشرق . وانتهز فرصة ثورة فهرية بطليطلة ، تشغل عبد الرحمن عن الثورة العباسية الزاحفة الى الأندلس ومهما يكن من أمر ، فقد عبر العلاء الى الأندلس فى سبعة آلاف مقاتل ونزل بأقليم باجة ورفع العلم الأسود — شعار العباسيين — داعياً لأبى جعفر المنصـــور ، ورحب بمقدمه العرب الناقمـــون على عبد الرحمن ولكن عبد الرحمن هزمه وقتـــله وأرســـــل رأســـه الى المنصـــور — فلما رأى المنصور رأس العلاء ، انزعج وقال « الحمد لله الذى جعل بيننا وبين هذا الشيطان بحراء وسماه صقر قريش » •

وبذلك استطاع عبد الرحمن أن يتخلص من محاولة ضم الأندلس الى الدولة العباسية ، واحتفظ بملكه البعيد عن هذه الدولة ، وأثبت للدولة العباسيه أن فى مقدوره الاســـتقلال بالأندلس ، والتصـــدى لمؤامرات العباسيين التى تستهدف القضاء على دولته الفتيه الناشئه • كما توقفت منذ ذلك التاريخ محاولات العباسيين العسكريه للنيل من الامارة الأموية فى الأندس •

على أن العباسيين لم يكفوا عن تحقيق غرضهم الرامى الى التخلص من الامارة الأموية ، فلجأوا الى سياسة جديدة غير العنف وشن الحروب هى سياسة اثارة بعض الناقمين على عبد الرحمن ، والاستعانة بدولة الفرنجة التى تتعجل الخلاص من الامارة الأمويه ، وحاول ملك الفرنجة وأمبراطور الغرب شارلمان أو شارل العظيم أن يؤمن حدود بلاده الجنوبية فى أسبانيا ، وتحقيق مشروعه الذى كان يسعى الى تنفيذه ، وهو احياء الامبراطورية الغربية • ويلاحظ أن تقارب الدولة العباســـية من الدولة الكارلونجية الافرنجيـــة ، واشـــتراكهما فى هذه المؤامرة معا ، يرجع الى عدائهما المشترك ضد الدولة الاموية فى اسبانيا من جهة ، وضـــد الدولة البيزنطية المتأخمة للعباسيين من جهة أخرى •

٢ — موقف الفرنجة من عبد الرحمن الداخل

وقعت حوادث هامة فى شمال الأندلس سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م فقد ثار سليمان بن يقظان الكلبى (الأعرابى) والى برشلونه وجيرونه ، والحسين بن يحيى الأنصارى — والى سرقسطه — وهو من ولد سعد بن عبادة ، وتحالفا على قتال عبد الرحمن وخلعه ، وقوى أمر هذه الثورة ، طبيعة الشمال الجبلية وعلى الرغم من أن عبد الرحمن الداخل ، لم يستطع قمع هذه الثورة ، الا أن الثائرين ، أعتزما الاستعانة بالفرنجة ، لتأكيد حركتيهما الاستقلالية ، وللوقوف الى جانبيهما ضد عبد الرحمن وهكذا فقد خان هذان الزعيمان وطنهما بالالتجاء الى شارلمان ، الذى هو عدو للاسلام والمسلمين فى الاندلس ، ويطمع فى التخلص من الدولة الاسلامية فى هذا القطر النائى البعيد •

ومهما يكن من أمره ، فقد سار سليمان ، وتسميه الروايه اللاتينية ابن الأعرابى ، مع نفر من أنصاره لنقاء شارلمان سنة (٧٧٧ م / ١٦٠ هـ) فى مدينة بادربون — من أعمال وستفاليا بألمانيا — واستقبل شارلمان سليمان وصحبه ، وعرضوا عليه المحالفة ، وطلبوا منه أن يساندهم فى التخلص من عبد الرحمن الأموى ، وطلبوا منه غزو الولايات الشمالية الأندلسية ، وعرضوا عليه تسليمه المدن التى يحكمها ابن الأعرابى نيابة عن أمير قرطبه ، ولا سيما سرقسطة •

وكان من الطبيعى أن يوافق شارلمان على طلب أبن الأعرابى الذى يتمشى مع سياسته الرامية الى التخلص من أمير قرطبه ، وتأمين حدود بلاده من خطر المسلمين فى الاندلس • وبذلك وضع المسلمون مبدأ جديدا فى الأندلس ، وهو مبدأ الاستعانة بالفرنجه كما عارضوا بلاط قرطبة ، الأمر الذى فتح الباب أمام الفرنجة للتدخل فى أمور الأندلس ، وتقوية أمر نصارى الشمال ، وكل هذا أدى فى النهاية الى انهيار دولة الاسلام فى الأندلس •

ولم يكن ثوار الأندلس فى الشمال ، هم وحدهم الذين حرضوا شارلمان ، بل ينسب الى الخلافة العباسية فى المشرق تأييد هذه السياسة فى المغرب ، لمناوأة بنى أمية ، والتخلص منهم . والرواية الافرنجية تحدثنا عن علاقات سياسية بين المنصور وبيبين ، وتقول لنا أن بيبن ، بعث فى سنة ٧٦٥ م سفارة ابى بغداد ، ورد المنصور بارسال سفراء الى ملك الفرنج وفدوا عليه بعد ذلك بثلاثة أعوام ، وقضوا عدة سنوات فى البلاد الافرنجى فى مدينة متز . وكانت دولة الفرنجة قد قوى أمرها ، أما دول الاسلام فى الأندلس ــ فكما يقولون ــ مزقتها الخلافات والفتن ، وسار شارلمان على رأس جيش كبير ، مما يدل على أن هدفه لم يكن مساندة الثوار فى الشمال فقط ، وانما كان يهدف الى السيطرة كلية على امارة قرطبة .

وسار شارلمان الى الأندلس متظاهرا بدافع دينى ، وهو اعادة الأندلس الى النصرانية ، وحماية النصارى فى الشمال والمستعربين داخل الأندلس وكان هدف هذه الحملة سياسيا ، وهو وتحقيق أطماع شارلمان فى السيطرة على أسبانيا .

ولما اقترب شارلمان من الأندلس ، قسم جيشة قسمان عبر أحدهم جبال البرانس من الناحية الشرقية ، وعبرها القسم الثانى بقيادة شارلمان من الناحية الغربية على أن يجتمع الجيشان أمام سرقسطه ، حيث يلتقى شارلمان بحلفائه المسلمين ، وفتح شارلمان فى طريقه بنبلونه عاصمة قبائل البشكنس ، وأخضع هذه القبائل ، وقدم شارلمان الى سرقسطه ومعه ابن الأعرابى ، وأنضم الجيش الآخر الى عسكر شارلمان أمام سرقسطه طبقاً للخطة الموضوعة ، وأنتظر شارلمان مقدم المسلمين اليه لتشجيعه على فتح المدن ، ولكن الظروف قد تغيرت وتبدلت ، فدب الخلاف بين زعماء المسلمين ، فبدلا من أن يرحب الحسين بن يحيى الأنصارى ــ والى سرقسطه ــ وحليف ابن الأعرابى بالملك شارلمان ، لم يسلم سرقسطه الى شارلمان ، ولكنه أغلقها ، وتحصن بها . وأثبت بذلك فشل التحالف القائم بينه وبين أبن الاعرابى . وتعليل ذلك ليس صعبا فربما أن الانصارى خشى من مغبة التحالف مع الفرنجة وضياع البلاد ، وربما استيقظ ضميره من

هذا الخطأ الجسيم الذى وقع فيه . وحاول شارلمان عبثا ، الاستيلاء على سرقسطه ، وعجز ابن الأعرابى أن يحقق شيئا من وعوده فى تسليم المدن والحصون الواقعة فى تلك المنطقة . وخشى ملك الفرنج مغبة الخوض فى تلك المجاهل ، وارتاب فى نية سليمان (ابن الأعرابى) وموقفه ، فارتد بجيشه نحو الشمال الشرقى فى طريق العودة (١٦١ هـ / ٧٧٨ م) .

يختلف المؤرخون حول أسباب انسحاب شارلمان من منطقه سرقسطه عائدا الى بلاده ، ويرى البعض انه انسحب بعد أن أيقن انه اخترق بلاداً شعبها أعداء له ولجنده ، وربما يؤدى ذلك الى فناء جيشه ، خصوصا انه ابتعد عن بلاده ، وانقطع خط امداداته ، فأيقن انه لا محالة هالك . ويرى البعض أن السكسون المارقين ، عادوا الى الثورة من جديد ، بعد أن ابتعد شارلمان عنهم ، وخربوا وأحرقوا الأراضى حتى ضفات الرين ، فقرر شارلمان الانسحاب ، ويمكن التوفيق بين الروايتين أى أن انسحاب شارلمان المفاجىء من سرقسطه انما تم بسبب تخوفه من القوى الاسلامية فى أسبانيا ، وثورة السكسون .

ارتد شارلمان وفى ركبه سليمان بن يقظان أسيرا ، ومعه عدد من الرهائن ، وسار شمالا نحو بلاد البشكنس وكان الناقاريون فى تلك الأثناء قد جمعوا فلولهم ، واعتزموا الدفاع عن حاضرتهم بنبلونه ، وعن حياتهم المسلوبة ، وانضم اليهم كثيرا من المسلمين من البلاد المجاورة ولكن هذه الجموع تعرضت لهجمات شارلمان العنيفة ، وهزمها وشتتت شملها ، واسترد شارلمان بنبلونه ، وهدم حصونها وأسوارها حتى لا تعوق الى عرقلة جيشه أثناء انسحابه الى فرنسا .

غادر شارلمان بنبلونه متجها الى جبال البرتات عن طريق هضاب رونسفال المؤدية الى باب الشزرى وهو أحد ممرات عدة كانت تستعمل لاختراق البرتات وما كاد الجيش الفرنجى يعبر الجبال حتى هاجمه المسلمون بقيادة عيشون ومطروح ولدى سليمان بن يقظان — ، وخلصا أباهما من الأسر ، وعادا الى سرقسطه ، بعد أن شددا الهجوم على مؤخرة

بجيش شارلمان ، وفصلا مؤخرة الجيش عن مقدمته . هذا ما تذكره الرواية العربية - أما الرواية اللاتينية فتقول أن البشكنس تربصوا بجيش شارلمان عند هذه الممرات ، وهاجموه بشدة وضراوة . ولكن الاستاذ بيدال يؤكد أن البشكنس وحدهم لا يستطيعون تدمير جيش شارلمان والواقع أن تحالفا قد أنعقد بين العرب الذين أرادوا تخليص أسيرهم وبين البشكنس الذين اعتزموا الانتقام من شارلمان الذى ألحق الخراب والدمار بمدينتهم والرواية الفرنجية تحدد تاريخ هذه الواقعة (٧٧٨ م / ١٦١ هـ) ويؤكد مؤرخ شارلمان اجنهارت الذى شاهد المعركة أنه هلك فيها الكثير من الأمراء والسادة والرؤساء ورجال القصر والحاشية ، ورولان بطل الأنشودة الشهيرة التى نظمت فيما بعد عن هذه الواقعة ، وأستمدت من أناشيد معاصرة لها ، والتى لازالت أثرا خالدا لشهيد الفروسية فى العصور الوسطى .

وتذكر المصادر الفرنسية أن هذه الغارة ، قد أبادت مؤخرة جيش شارلمان وقتلت قائدها الفرنسى رولان الذى كان من المقربين لشارلمان ، وقد ظهرت بعد هذه الحادثة بمدة طويلة تقرب من ثلاثة قرون ، ملحمة فرنسية تشيد ببطولة هذا الفارس الفرنسى ، وتفانية فى الدفاع عن وطنه وجيشه وقائده ، وكيف أنه رفض أن ينفخ فى البوق حتى لا يعود شارلمان لانقاذه ، فيقع فى الكمين ، وكيف أن عشيقته التى كانت تنتظر عودته الى فرنسا بشغف شديد ، ماتت كمدا وحزنا على مقتله ويعتبر الفرنسيون أنشودة رولان بداية الأدب الفرنسى ، على الرغم من أنها تتسم بالطابع الأسطورى .

عاد شارلمان الى بلاده يجر أذيال الفشل والخيبة بعد أن فقد زهرة الجيش الفرنسى ، وأسترد عبد الرحمن الداخل سرقسطه سنة ١٦٤ هـ ، ووطد أقدامه فى هذه النواحى وأثبتت هذه المعركة أن الامارة الأموية بقيادة عبد الرحمن الداخل قوية ، تستطيع التصدى للمؤامرات الداخلية والخارجية ، ففشلت الخلافة العباسية فى أسترداد الأندلس ، وفشل شارلمان فى الاستيلاء على هذه البلاد وفشل المتواطئون الخونه الدين

لم يتورعوا عن الاستعانة بالعدو لتخليصهم من حكم عبد الرحمن الداخل .
وفى عهد عبد الرحمن لم نعد نسمع عن محاولات خارجية أخرى للاستيلاء على الأندلس .

وكان عبد الرحمن رجلا يعرف قدر الرجال ، فلما التقى بشارلمان ، ووجده — كما يقول ابن حيان — تام الرجولة صلب المكسر ، أوحى اليه دهاؤه أن يتودد اليه ، مع ما كان له عليه من الفوز والانتصار ، فدعاه الى عقد معاهدة يأمن بها كل منهما جانب صاحبه ، وزاد فى توده ، فعرض أن يصاهر شارلمان تدعيما للرابطة بينهما ، فلم يسع شارلمان الا أن يبعد عن نفسه ذلك الحلم الامبراطورى فيما يختص بالأندلس فأجابه الى السلم ، وأن لم تتم المصاهرة .

حضارة الأندلس فى عهد عبد الرحمن الداخل

بعد الفتح العربى اختلط العرب والبربر المسلمون بسكان البلاد الأصليين من القوط والأسبان واليهود ، وامتزجوا فيما بينهم ، ونشأت طبقة جديدة — المولدين — من تزاوج العرب والبربر بالاسبان . أما أهل أسبانيا الذين تعلموا اللغة العربية ، فسموا بالمستعربين ، وكانت الثقافة الاسلامية فى الوطن الأم — الوطن الاسلامى — تتوافد على الأندلس مع المهاجرين الجدد ، وحدث امتزاج بين طبقات أهل الأندلس ، وذيوع الثقافة الاسلامية بين هذه الطبقات الأمر الذى كان له أثره فى حضارة أوربا عموما . ويلاحظ أن التأثير الشامى فى الأندلس كان واضحا فى عصر الولاة ، لأنه وفد عليها مع الجند والمهاجرين من الشام حتى أن الحياة الأدبية كانت صدى لحياة الشام الأدبية ، فالشعر الأندلسى فى هذه الفترة كان شعرا كلاسيكيا يحاكى شعر الفرزدق والأخطل وجرير وكان الأمير عبد الرحمن شاعرا ، مثل أمراء بنى أمية السابقين ، وله شعر فيه حنين الى وطنه الأول الشام .

أيها الراكب الميمم أرضى أقر من بعضى السلام لبعضى

ان جسمي كما علمت بأرض وفـؤادي ومالكيـه بأرض
قد قضى الله بالفراق علينـا فعسى باجتماعنا سوف يقضي

عنى الداخل بقرطبة — حاضرة المسلمين فى الأندلس — وحصنها وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض اليانعة ، وأول أنشاءاته منية الرصافة ، وقصرها المنيف وكان قصر الامارة قد تقادم به الزمن وولت أيامه ، فأنشأ عبد الرحمن ضاحية ملوكية فى شمال غربى قرطبة ، بها قصر منيف ، جلب له مختلف البدور والغروس من الشـام وأفريقيـة ، وسـماها الرصافة ، كما فعل جده هشام بن عبد الملك من قبل ، الذى نقل مقر أمارته الى ضاحية جديدة سماها الرصافة فى الشمال الشرقى من الشام ، وجر الماء الى هذه الجنة الغناء وغرس بها نخلة أتى بها من الشام ، وقد جذبت هذه النخلة مشاعر عبد الرحمن فقال فيها :

تبدت لنا وسـط الرصـافة نخله فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى

والرصافة من الرصف أى المدينة الجانبية مثل رصافة بغداد ، وهى بغداد الشرقية . على كل حال ورث عبد الرحمن عن أجداده فى المشرق اتخاذ قصور فى الضواحى والصحارى بعيدا عن صخب المدن والاهتمام بالمنشآت المعمارية وسار خلفاؤه على هذا الأسلوب .

كذلك اعـاد عبد الرحمن الداخـل بنـاء جـامع قرطبـة سـنة ١٦٩هـ / ٧٨٥ م ، وتأثر فى بنائه بمسجد دمشق . كما أنشأ مساجد فى مدن أخرى فى الأندلس . وقد أنفق عبد الرحمن أموالا كثيرة فى تشييد هذه المسـاجد ، لكنه توفى قبل اتمام بناء جامع قرطبة ، فأتمه خلفاؤه من بعده ووسعوه وجددوه ، وزادوا فى زخرفته حتى أصبح قبلة المسلمين فى الغرب ، وقال بعض المؤرخـين : ليس فى بلاد الاسـلام أعظم منه ، ولا أعجب بناء ، ولا أتقن صنعة .

وعنى عبد الرحمن بأعداد جيش قوى من الموالى والبربر والرقيق واتخذ قواعد بحرية لبناء السفن فى عدة موانى بالأندلس ، وحصن مدينة قرطبة ، واتخذ لها سور قرطبة الكبير .

ونختتم هنا عهد عبد الرحمن ، ونقول انه قضى أكثر من ثلاثين سنه ، فى حروب مستمرة مع أعدائه فى الداخل والخارج ، يقهر خصما ، ليصارع خصما آخر ، وتغلب على كل هذه العقبات التى أعترضت حكمه . وبذلك أسس الدولة الأموية فى الأندلس ، ووضع القواعد والأسس التى أستمرت ثلاثة قرون .

هشام بن عبد الرحمن

(١٧٢ ـ ١٨٠ ﻫ / ٧٨٩ ـ ٧٩٦ م)

ترك عبد الرحمن أكثر من عشرة أبناء تخص بالذكر منهم ، سليمان وهشام وعبد الله ، أما سليمان فقد ولد فى الشام ، وكان يحكم طليطلة فى ولاية أبيه ، ويحظى بمحبة أهل الشـام وعبد الله ، وكان يحكم بلنسـيه وكان سليمان أكبر أبناء عبد الرحمن ، الا أن عبد الرحمن كان يفضـل ابنه هشام ـ حاكم مارده ـ وأمه أم ولد تسمى حلل و حلال وعرف عن هشـام الورع والتقوى والتواضـع وحب الخير لم يعرف عنه كما يقول ابن حيان : هفوة فى حداثته ولا زلة فى أيام صباه .

سار عبد الرحمن سيرة آبائه الأمويين بتوريث الحكم أبنائهم ، وترك قبل وفاته وصية غامضة لابنه الثالث عبد الله ، يوصيه فيها بتسليم الحكم لمن يدخل العاصمة قرطبة أولا من الأخوين ، سليمان وهشام ، فقال . فان سبق اليك هشام فارم اليه الخاتم ، فله فضل دينه ، واجتماع الكلمة عليه ، وان سبق اليك سليمان فله فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له .

ووصل هشام الى العاصـمة قرطبة قبـل أخيه سـليمان ، وولى الخـلافة . ولكن سـليمان لم يعترف به ، ودعـا لنفسـه فى طليطـلة وما جاورها ، وانضـم اليه أخوه عبد الله ، ولحق به فى طليطلة ، وأعلن الاخوان الثورة ، وأنضم اليهما الكثير من أهل الشام ، وهاجم سـليمان قرطبة ، ولكن الجند ، ردوه على أعقابه ، فذهب الى ما رده ، ومنها الى بلنسية ، وعاث فى البلاد نهبا وفسادا ، ولكن كل محاولاته باءت بالفشل ، فلجأ عبد الله الى قرطبة وطلب من أخيه هشام العفو والصفح ، فعفا عن أخويه سـليمان وعبد الله على أن يعبر كل منهما بأهله وولده الى المغرب وأقاما بعدوة المغرب . وأنتهت بذلك ثورة الاخوين (١٧٤ ﻫ / ٧٩٠ م) .

استطاع هشـام بن عبد الرحمن التصـدى لكل المحـاولات التى

استهدفت النيل من ملكه ، ودخل في حروب عديده مع معارضيه ، فبعد أن قضى على ثورة أخويه — كما قدمنا — أخضع ثورتين يمنيتين قامتا في نواحي سرقسطه وبرشلونه ، الأولى كانت بقيادة سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري والثانية بقيادة مطروح بن سليمان بن يقظان (ابن الأعرابي) وسبق القول أنه هاجم مؤخرة جيش شارلمان أثناء انسحابه الى فرنسا . الأولى قضى عليها المضرية ، ودعوا لهشام ، والثانية قضى عليها عبيد الله ابن عثمان — قائد الأمير هشام — بعد ان استولى على طرطوشه ، وحاصر سرقسطه ، وفيها مطروح وصحبه ، وظل يواصل الحصار حتى استسلمت سرقسطه ، وقتل مطروح سنة ١٧٥ هـ . وبذلك فتسلت الثورة في تلك الأنحاء . كما جرد هشام عدة حملات على جموع البربر الثائرة في رنده أو تاكرنا سنة ١٧٨ هـ ، وشتت جموعهم ، وأرغمهم على الطاعة والولاء .

الموقف من نصارى الشمال

بعد أن قهر هشام الفتن الداخلية في دولته ، اعتزم تأديب نصارى الشمال الذين لجأوا الى العنف واقتطاع الأراضي والاغارة على ممتلكات الدولة الأسلامية منتهزين فرصة موت عبد الرحمن ، والقلاقل التي أعقبت وفاته ، وللنصارى جبهتان في اسبانيا تقاوم كل منهما الحكم الاسلامي ، جبهة شرقية وهي منطقة القلاع ، التي صارت قشتالة فيما بعد ، وجبهة غربية وهي منطقة جليقية ، وشجع النصارى في الجبهتين الفرنجة والبشكنس ، فأرسل هشام الجيوش التي اخترقت قلاع قشتاله وأغوار جليقية ، وهزم عبد الله بن عثمان برمند — ملك جليقية — سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م ، وواصل المسلمون غاراتهم على جليقية حتى تنازل الملك عن عرشه لولده ألفونسو الثاني .

ولم يكتف هشام بذلك بل سير سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م حملة أخرى الى جليقة بقيادة عبد الكريم بن الواحد بن مغيث فلخترق المسلمون مغاور جليقية ، ففر السكان الى رؤوس الجبال ، ودارت رحى معركة رهيبة بين ملك جليقية والقائد المسلم ، انتهت بهزيمة الجلالقة ،

وغنم المسلمون مغانم كثيرة ، وبذلك عادت الولايات الشمالية الى الهدوء والطاعة .

وأراد هشام اعادة عهد الجهاد فيما وراء البرتات ، فأرسل حملات صيفية على ولاية سبتمانيا الفرنجية فى جنوب فرنسا وغنم منها مغانم كثيرة ، مكنته من بناء عدة مساجد على شاطىء الوادى الكبير ، وتوسيع نطاق مسجد قرطبة الذى أسسه والده ، كذلك أعاد بناء الجسر القديم الممتد على الوادى الكبير ، والذى يربط العاصمة بأراضيها الجنوبية ، وصار يعرف بجسر قرطبة .

وقد كتب المؤرخ الفرنسى رينو يقول أن هشاما أراد أن يوجه المسلمين الى الجهاد ، بدلا من أن يحارب بعضهم بعضا ، ويجمع شملهم بشرف الجهاد ، ويشغل المسلمين عن أثارة القلاقل والاضطرابات ، وأراد فى نفس الوقت أن يثبت لنصارى الشمال قوة المسلمين ، وشدة بأسهم ، وأن يعوض ما ضاع من المسلمين من أرض نتيجة لغزوات بيبن وشارلمان ؛ وأصدر هشام منشورا قرىء فى الجوامع يدعو الناس الى الجهاد بالنفس أو بالمال ، ولقيت دعوته قبولا وحماسا من الأهلين ، فنفروا الى قرطبة خفافا وثقالا من كل فج عميق حتى تجمع لديه مائة ألف مقاتل ، وأموال جمه ، فسير الحملات الى الشمال والى جنوب فرنسا ، كما سبق القول .

مذهب مالك فى الأندلس

من المعروف أن المذاهب الفقهية الرئيسية ، هى المالكى ، والحنفى والشافعى والحنبلى . وأنتشرت هذه المذاهب فى البلاد الاسلامية ، كل فيما يناسبه من مذهب ، وقد أنتشر المذهب الحنفى فى العراق ، لانه عراقى ، ولم ينتشر فى الأندلس لأنه مذهب الدولة العباسية المعادية ؛ ولأن مالك نفسه كان يعارض سياسة العباسيين ونقل عن الامام مالك ارتياحه الى سياسة هشام وورعه وتقواه ، وتطبيق أحكام الاسلام بأمانة ودقة ، وكان الفاتحون العرب والمهاجرون اليها من العرب أغلا من

أهل الشام أو من أهل الحجاز ، وأهل الشام تأثروا بمذهب الأوزاعى الذى انتشر فى الاندلس بعد الفتوح ، أما الحجازيون فقد حملوا مذهب مالك معهم الى الاندلس وكان من بينهم فقهاء ، حملوا أفكار هذا المذهب الى أهل الأندلس ، وسافر طلاب علم الى المدينة المنورة ، وتتلمذوا على أيدى هذا العالم الجليل ، وعادوا الى الأندلس فقهاء ينشرون هذا المذهب بين الناس ، ومن بين هؤلاء زياد بن عبد الرحمن ، وأخذ عنه يحيى بن يحيى الليثى الذى رحل الى الحجاز ، ليأخذ عن الشيخ ، وعاد الى الأندلس ليتم ما بدأه أستاذه زياد ، فانتشر المذهب فى الأندلس ثم عبر بلاد المغرب ، وانتشر فيها ، وحل مذهب مالك فى الاندلس محل مذهب الأوزاعى .

ويتضمن مذهب مالك آراء فقهيه فى القضاء والفتيا وفى العبادات والأحوال الشخصية ، فيها الحلول لكثير من مشاكل الدنيا . وهناك سبب آخر يرويه ابن خلدون وهو أن البيئة الأندلسية والمغربية أو طبيعة أهل المغرب والأندلس كانت تشبه الى حد كبير ، طبيعة أهل الحجاز من حيث البساطة والبعد عن التعقيد ، ولهذا فان عقلية أهل الأندلس والمغرب ، كانت تغلب عليها نزعة أهل الحديث .

ويختلف مذهب مالك عن مذهب أبى حنيفة ، فى أن مذهب مالك يتقيد بنصوص القرآن وبالأحاديث النبوية فى استنباط الأحكام الشرعية والفتاوى . ولا يعتمدون على الرأى والقياس الا فيما ندر . أما مذهب أبى حنيفة فيعتمد على الرأى والقياس الى جانب النصوص . لذلك عرف أنصار مذهب مالك بأهل الحديث . أما أنصار أبى حنيفة فعرفوا بأهل الرأى والقياس . وقد ظهرت فى العراق مشكلات عديدة ومعقدة بسبب تعدد الأجناس وازدهار الحضارة ، وظهور موضوعات جديدة فى حاجة الى الاجتهاد والرأى والقياس .

...عدت الأندلس فى أيام هشام . وأعجب الناس به وبسياسته ، والتفوا حوله ونصروه ، وشبهوه بأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فى ورعه وصلاحه وتدينه ، وزهده فى الدنيا . والسهر على مصالح الرعية . وكان

يرسل عماله الى الكور والاقاليم لتفقد أحوال الحكام والقضاه ، فاذا ثبت ظلم وال أو قاض ، استدعاه ، وعزله وعاقبه ، واذا ثبت العكس حمد الله على حسن أحوال الرعية . وأمر هشام بتدريس اللغة العربية فى معاهد النصارى ، مما أدى الى دخولهم فيه .

ويرجع الفضل فى هشام الى أنه كان يطبق الزكاه ، فيجمعها طبقا للشرع ويوزعها على المحتاجين ، وكان يطوف الشوارع ، ويتفقد أحوال الرعية ، وينظر فى المظالم بنفسه ، ويزور المرضى ، ويحث الناس على تعمير المساجد حتى امتلأت بالمصلين . لذلك أشاد الأمام مالك بعدله وتقواه .

ومادمنا قد تحدثنا كثيرا عن الامام مالك الذى عاصر هشام فيجب أن نشير بايجاز الى هذا الامام .

مالك بن أنس رجل يمنى من قبيلة ذى أصبح ، عاش بين عامى ٩٤ — ١٨٩ هـ أى أنه أدرك العصرين الأموى والعباسى ، واتخذ المدينة المنورة مقرا له ، وللامام مالك كتاب فى الحديث اسمه (الموطأ) مرتب حسب الموضوعات ، رتب فيه أبواب الفقة على الحديث بمعنى أنه ذكر أبواب الفقة المختلفة كالصلاة والزكاة والصوم والحج والمعاملات .. الخ ثم ذكر الأحاديث النبوية المتعلقة بكل موضوع من هذه المواضيع الفقهية .

قد عرف مالك بشدته فى تحرى الصحة فى الرواية والاسناد ولذا فكتابه من الكتب الصحيحة ، وعرف عنه سعة العلم وكان محدثا بارعا ، وأماما يعرفه القاضى والدانى . ويسعى الى تلقى العلم منه ، طلاب الحديث من المشرق والمغرب .

الأمير الحكم الربضي
(١٨٠ — ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ — ٨٢٢ م)

تجنب هشام بن عبد الرحمن المشكلة التي حدثت بعد وفاة أبيه بسبب ولاية العهد ، والتي أشرنا اليها . لذلك عهد الى ابنه الحكم بالحكم من بعده ، وسمي بالربضي لموقف بينه وبين أهل الربض من نواحي قرطبه .

تختلف شخصية الحكم اختلافا واضحا عن شخصية أبيه فبينما كان أبوه يعتمد على الفقهاء في أدارة شؤون الدولة رفض الحكم هذه السياسة . وأثبتت الأحداث التاريخية أن رجال الدين لا يمكن الاعتماد عليهم في الشؤون السياسية وأدارة أمور الدوله ، حتى أن العباسيين كانوا يرفضون تولية أصحاب الطيالس مناصب الوزارة .

نعود الى الحكم وموقفه من رجال الدين ، فقد أبعدهم عن مناصب الدولة ، ورفع عنهم الامتيازات التي منحها لهم هشام فأتهموه بالكفر والخروج على الدين ، وحرضوا عليه فئات الشعب ، وناصبوه العداء ، ووضعوا العراقيل في سبيل حكمه . ولكنه لم يأبه بمعارضتهم ، بل تصدى لهم بقوة .

الفتن والثورات الداخلية

لم يهدأ سليمان وأخوه عبد الله في المقر الجديد بالمغرب ، فكان سليمان يقيم في طنجة ، على حين يقيم عبد الله في المغرب الأوسط ، وكل من الأخويين يترقب الفرصة المواتية للعودة الى الأندلس ، والمطالبة بالحكم ، وأنتهز الأخوان فرصة وفاة أخيهما هشام ، وعبر سليمان الى الأندلس على رأس جموع من البربر والمرتزقة ، وحاول الاغارة على قرطبة عدة مرات ، ولكن الحكم هزمه سنة ١٨٢ هـ . وهزمه الحكم في العام التالي بالقرب من استجه ، ففر في أصحابه متجها الى مارده ، فبعث الحكم الجند في أثره وأرسل الحكم اليه جيشا هزمه ، وقبض عليه ، وسبق هو ورفاقه

الى قرطبة ، وأمر الحكم بأعدامهم ، وطيف برؤوسهم فى شوارع قرطبة ، ثم أمر بتشييع جنازة عمه فى احتفال مهيب ، ودفنه بالروضه بقصر الامارة بجوار والده عبد الرحمن .

أما عبد الله ، فقد أختفى فى بلنسـيه بعد هزيمه أخيه سليمان ، ولكنه فى النهاية لم ير مناصا من طلب العفو والصفح ، فأصدر الحكم له أمانا ، على أن يبقى فى بلنسـيه ، وتجرى عليه أرزاقه ، وزوج الحكم احدى بناته لعبيد الله بن عبد الله وركن عبد الله الى الطاعة والسكينة طوال عهد الحكم ، وأظهر عبيد الله بن عبد الله الولاء للحكم ، ودخل فى خدمته ، وتدرج فى سلك الجيش وظهر نبوغه فى تلك الصـوائف التى تسنها على المسيحيين فى الشمال ، ولذا لقب بصاحب الصوائف .

ثورات المولدين

المولدون — كما علمتم — هم طبقة نشـأت فى الأندلس من زواج المسلمين بالاسبانيات ، وشكلت هذه الطبقه بمرور الزمن الغالبيه العظمى من سكان الأندلس ، فمنهم المزارعون والطلبة والتجار والفقهاء والصناع ، وقد شعروا بالغبن من حكومة الأندلس التى كانت تحرمهم من المناصب الكبيرة ، وتثقل كاهلهم بالضرائب الفادحه ، فقاموا بثورات تهدف الى تحسين وضـعهم السـياسى والاجتماعى وأهـم هذه الثـورات ، ثورة فى قرطبة ، وأخـرى فى طليطـلة ولنتحدث الأن عن ثورات أهل طليطلة عاصـمة القوط القديمة وقاعدة الثغر الأدنى ، وكان بين أهلها الكثير من المولدين والمستعربين الذين يشعرون بضرورة التخلص من سلطان قرطبة الذى سلبهم حقوقهم السياسية والاجتماعية ، ولم ينسوا سالف عزهم ومجدهم أيام أن كانت مدينتهم دار ملك القوط ، وكانوا يعتزون بثروتهم وكثرتهم وحصانة مدينتهم ، ونشبت فى طليطلة عده فتن ، أجهدت جند الحكم ، ولم يسـتطع الحكم اعادة البلاد الى الهدوء والطاعة فلجأ الى الحيله والخديعة ، وعين عمروس بن يوسف — وهو من المولدين — واليا على طليطلة ، وكان عمروس من شيعة الحكم ، وكان الحكم موفقا فى هذا

الاختيار ، لأن عمروس شـأنه شـأن معظم أهل طليطلة من المولدين ، ويطمأنون اليه ، لذلك بعلاقته بالحكم من ناحية ، وبالمولدين من ناحية أخرى ، يستطيع أن يلعب دورا ناجحا فى أزاله التوتر من المدينة الثائره • وكتب الحكم الى أهل طليطلة يقول : انى قد اخترت لكم علانا وهو منكم لتطمئن قلوبكم وأعفيتكم ممن تكرهونه من عمالنـا وموالينا ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم ، ودخل عمروس طليطلة ، وتظاهر أمام أهلها ببعض بنى أمية حتى استمالهم اليه ، ثم شيد خارج المدينة قلعة جديدة ، متظاهرا أنه شيدها ليقيم فيها الجند بعيدا عن المدينة ، حتى لا يقلقوا الاهالى •

عول عمروس التخلص من زعمـاء الفتنة ، فأقام وليمـة فى القلعـة الجديدة ، ودعا اليها رؤساء وسادة أهل طليطلة المعارضين لحكم الحكم ؛ وأمر بقتلهم جميعا ، والقاء جثثهم فى مكان أعده لهم سنة ١٩١ هـ / ٨٠٧ م وكان لهذه الجريمة الشـنعاء أثرها فى ضـعف أهل طليطله ، فكفوا عن العصيان ، وعادوا الى الطـاعة والولاء لحكومة قرطبـه وانتهت الفتن والقلاقل فى هده المدينة العتيدة •

وثورة المولدين الثانيه ، كانت أشد خطرا من الأولى ، وأبعد أثرا ، وتعرف هذه الثورة ، بثورة الربضيين ، نسبة الى الربض ، ضاحية من ضواحى قرطبة ، يقيم فيها العمال والزراع والصناع وأصحاب الحرف المختلفة ، وكانت قرطبة قد ازدحمت بالسـكان خصـوصا من المهاجرين العرب والبربر ، وقد شيد هشام بن عبد الرحمن الجسر على نهر الوادى الكبير ، ليربط المدينة بأراضـيها الجنوبية ، فامتد العمران الى الضـفه الأخرى المواجهة للمدينة ، فنشأ حى الربض — الذى سـبقت الاشـاره اليه — وأمتد الى مدينة شقنده ، وهذه العناصر المتعصبة التى أقامت فى هذا الحى ، كانت تقع تحت تأثير الفقهاء الذين أغضبهم تحديد الحكم لنفوذهم ، كما أن أهل الربض — ومعظمهم من المولدين — شعروا بالظلم الاجتماعى ، وأنهم كطبقة اجتماعية لم يكن لها حقوق تجعلهم على قدم المساواة مع العرب أو البربر •

وقد حدث حادث بسيط ، ولكن نظرا لجو السخط العام الذى كان مسيطرا على المجتمع حينذاك ، فقد أدى الى ثورة كانت لها نتائج بعيدة فى الشرق والغرب • وملخص هذا الحادث أن جنديا من حرس الأمير ، ذهب الى حداد بحى الربض ليصلح سيفه ، فتباطأ فى أصلاحه ، وحدث خلاف بينهما لم يلبث أن تطــور الى جــدال عنيف ، فما كان من الجندى الا أن قتل الحداد ، الذى كان من طبقة المولدين ، وكان هذا بمثابة الشرارة التى أشعلت الحريق ، فقد أنفجر الســخط وتجمع الناس على الجندى فقتلوه ، ولم يكتفوا بذلك ، بل خرجوا جمــاعات كبيرة مســلحة بالبلط والعصى والسكاكين ، وما وصلت اليه أيديهم من سلاح ، وأندس بينهم الفقهاء وأغلقوا المتــاجر والحوانيت ، وأتجهــوا الى قصر الامارة عبر الجسر ، وتزعمهم الفقهاء ، ومن بينهم يحيى بن يحيى الليثى ، وحاصرت هذه الجموع الثائرة قصر الحكم ، وحاولوا اقتحام القصر وقتل الامير •

تصدى الحكم بسرعة لهذا الخطر الداهم الذى يهدده ويهدد ملكه ، فأستدعى رئيس حرسه الخاص ، وأمره بالدفاع عن القصر ، كما أستدعى ابن عمه عبيد الله بن عبد الله البلنسى — صاحب الصوائف — وأمر أن يبذل قصارى جهده ، ويشــق طريقه الى حى الربض ، واشــعال النار فيه ، ونجحت الخطة ، فأخترق جند الحكم النهر على مخاضة ، لأن الجسر كان مزدحما بالثوار ، وأحرق جند الحكم مساكن الثوار ، ولما رأى أهل الربض مساكنهم تحترق ، أسقط فى أيديهم ، وفزعوا وأسرعوا الى الربض تاركين قصر الحكم لانقاذ أولادهم ونسائهم • وعلى الجسر هاجمتهم القوات من خلفهم ومن أمامهم ، وأوقعت جند الحكم الثوار بين نارين ، وأحاطت بهم من كل جانب ، وأعملت فيهم السيف ، حتى مزقتهم كل ممزق ، وكانت هذه الواقعة حوالى سنة ٢٠٢ هـ ولم يكتف الحكم بذلك ، بل أمر أهل الربض بالرحيل من الأندلس ، وأمهلهم ثلاثة أيام ، فمن تخلف ، أمر بقتله ثم أمر بالربض ، وهدمت وحرثت مكانها وزرع ، وأوصى بألا يسكن هذا الحى بعد وفاته •

وأقترن اســم الحكم بالربض ، فســمى بالربضى ، ونفذ خلفاؤه

وصيته ، ولم يعمر هذا المكان حتى أواخر القرن الرابع الهجرى .

ومن أهم نتائج هذه الثورة ، أثبات مقدرة الحكم وكفاءته فى اخضاع الثورات ، ودانت له البلاد بالولاء والطاعة ، وتقلص نفوذ الفقهاء ، وخشوا بأسه ، وفر بعضهم خارج الأندلس . وكفوا عن مهاجمة الحكم فى الشوارع والأسواق والمساجد والاجتماعات ، وأتهامه بالكفر والالحاد .

أما النتائج الخارجية ، فهى خروج الربضيين من الأندلس بحثا عن موطن جديد وحياة جديدة ، وأرضا يهاجرون اليها ويستقرون فيها ، بعد أن طردهم الحكم من بلادهم .

عبر الربضيون مضيق جبل طارق الى العدوه المغربية حيث استقروا بين قبائل البربر فى الريف شمالى المغرب ، ورحب بهم أدريس الثانى — أمير دولة الأدارسة الناشئة — وكان وقتئذ يؤسس مدينة فاس ، وفى حاجة الى صناع وعمال وفنيين يعاونونه فى تأسيس المدينة الجديدة ، فرحب بالربضيين ، ونقلوا الى فاس مظاهر الحضارة الأندلسية لا سيما وأن معظمهم كانوا — كما قلت — من أهل الصناعات والحرف ، فأعطوا المدينة طابعا أندلسيا جميلا سواء فى أبنيتها البيضاء ذات الحدائق الداخلية فى أحواشها ، ونزل فريق منهم بحى ، عرف بحى الأندلسيين .

أما المدينة العالية التى أسسها أدريس الثانى على الضفة المقابلة فقد أسكنها لجماعة من أفريقية من نواحى القيروان ، وسميت مدينة القرويين ، وبمرور الزمن غلب اسم فاس على المدينتين ، وصار يشمل عدوة القرويين ، وعدوة الأندلسيين ، وقد اشتغل القرويون بالتجارة ، وأشتغل الأندلسيون بالزراعة والصناعة .

أما الفريق الآخر ، فقد سارعوا نحو الشرق برا وبحرا ، وهاجموا الاسكندرية ، وأستولوا عليها بمساعدة بعض العربان ، وأستقروا فيها ، وأقاموا لهم فيها واليا منهم . ولكن والى مصر عبد الله بن طاهر

ابن الحسين ، لم يتغاض عن أهل الربض فى الاسكندرية ، وانتزاعها من ولايه مصر ، بل صار الى الاسكندرية ، وشدد عليها الحصار ، ودارت عدة معارك بين الفريقين ، انتهت بتسليم أهل الربض الاسكندريه لعبد الله بن طاهر ، وعقد معهم صلحا ، بمقتضاه ، ينسحب أهل الربض من الاسكندرية الى أى أرض غير أرض العباسيين وأعد لهم مراكب لاجلائهم ، فقصدوا جزيره كريت وانتزعوها من أيدى البيزنطيين وأقاموا لهم فيها دوله اسلاميه ، عرفت بالدوله الكلبيه ، وظلت هذه الدولة مصدر تهديد لجزر وسواحل الدولة البيزنطية ، وحاول البيزنطيون اجلاء هؤلاء المسلمين من جزيرة كريت دون جدوى ، وكان المسلمون فى كريت يتلقون المساعدات من مصر والشام وافريقية الى هذه الجزيرة المجاهدة التى تتصدى للخطر البيزنطى • واستمرت دولة الكلبيين الصغيرة زاهره زهاء قرن وثلث (٢١٢ هـ — ٣٥٠ م) حيث استعاد البيزنطيون الجزيرة •

العلاقات الخارجية

لم تكف دولة الفرنجه المتأخمة لدولة المسلمين فى الأندلس عن محاولة غزو هذه الدولة ، والقضاء عليها ، وذلك لتأمين حدودها ، واستطاعت بالحرب والقتال انشاء ثغر قوطى فى أقصى أسبانيا الشمالية الشرقية ، مما يلى جبال البرتات وكان الثغر القوطى يتكون من مدن جيرونه وأوزونه وسولسونه ، ولم يكتف شارلمان بذلك بل عول على توسيع الثغر القوطى ، وتطلع الى فتح ثغر برشلونه المنيع ليكون معقلا لحماية أملاكه الجنوبية ، وحلقة اتصال بحرى سهل بينها وبين فرنسا ، ولتحقيق هذا الغرض عقد شارلمان تحالفا مع الفونسو الثانى — ملك جليقيه — لضمان ولاء البشكنس • وفى سنة ١٨٥ ﻫ أرسل شارلمان جيشا لتحقيق هذه الغاية بقيادة لويس بن شارلمان — أمير أكوتين — وكانت الفرصة مواتية ، بسبب انشغال الحكم بمقاومة الثورات التى اشتعلت ضده ، وقد واجه سعدون الرعينى — والى برشلونه — الحصار بشجاعه وبسالة ، وكانت حكومة قرطبة مشغوله عنه بمشاكلها الداخلية ولم تصله أية امدادات ، وشدد الفرنج الحصار على برشلونه حتى هلك معظم سكانها •

وبعد سبعة أشهر اقتحم العدو المدينة الحصينة • وأتخذ الفرنج برشلونه بدلا من جيرنده قاعده للثغر القوطى الذى سما فيما بعد • وغدا هذا الثغر الفرنجى أمارة نصرانية تسمى قطلونيه ، التى أندمجت فيما بعد فى مملكه أراجون • وخسر الاسلام بفقد برشلونه أمنع معوره فى قاصيه أسبانيا ، وأرتدت حدود الأندلس الى الثغر الأعلى ، بعد أن كانت تجاور جبال البرتات • وشن الفرنج بقياده لويس بن شارلمان هجمات على ولاية الثغر الأعلى سنة ١٩٢ هـ عدة مرات ، وحاصروا مدينه طرطوشة ولكن المسلمين ردوهم على أعقابهم خاسرين •

كذلك أنتهز الفونسو الثانى — ملك جليقية — سنة ١٩٤ هـ فرصه انشغال المسلمين بالثورات ، وعبر الى بلاد المسلمين عدة مرات وعاث فى البلاد نهبا وفسادا وتخريبا ، فتصدى لجيشه الحكم ، وصد هجماته ، وهزم النصارى فى عدة وقائع واطمأن المسلمون وأمنوا من هذه الغارات المتلاحقة ، وهاجم الحكم برسلونه ، ودارت حروب بين الفرنج والمسلمين بدون طائل ، فلجأ الطرفان الى الصلح ، وعقد الحكم وشارلمان صلحا ، أستمر حتى وفاة شارلمان سنة ٨١٤ م

وفى سنة ٢٠٠ هـ شن الحكم عدة هجمات فى جليقية وعلى البشكنس ، أضعفوهم ، وأنهك قواهم ، وأمن مكرهم ، وأعتصم النصارى بالوهاد والربى •

كان الحكم حاكما قويا مستنبرا ، يصل الى غايته بأى وسيلة ، صارما قاسيا ، شغوفا بأبهة الملك ، يترفع عن الرعية ، وهو فى ذلك يختلف عن أبيه وحده ، وكان يحسن اختيار رجال دولته ، ممن عرفوا بالعدل والورع والاستنارة • وهو أول من أظهر فخامة الملك ، وأول من أنشأ بالأندلس بلاطا اسلاميا ملوكيا ، ورتب نظمه ومراسمه ، واستكثر من الموالى ، وجعل منهم حرسه الخاص ، واستكثر من الصقالبة وعهد اليهم بمعظم شؤون القصر ، وكانوا من الرقيق الخصيان يؤتى بهم من بلاد الفرنج وحوض الدانوب وبلاد اللومبارد ومختلف ثغور البحر المتوسط النصرانية وكان

يؤتى بهم أطفالا ، ويربون تربية أسلامية ، ثم يدربون على أعمال القصر ، وتدرجوا فى سلك الوظائف حتى بلغ بعضهم الرياسة والقيادة .

وأستطاع الحكم تنظيم البلاد أداريا ، فكانت شرطته منظمة ومدربة على تأدية مهامها على أكمل وجه ، وله عيون وجواسيس يطلعونه على الاخبار . وعلى الجملة كان الحكم عظيم السلطان والهيبة .

الأمير عبد الرحمن الأوسط

(٢٠٦ — ٢٣٨ / ٨٢٢ — ٨٥٢ م)

يتميز عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، بالنقلة الحضاريه التى أنتقلت الى الأندلس فى أيامه ، فقبل عهد الأمير عبد الرحمن كانت المؤثرات الحضارية الاسلامية فى الأندلس ، مبعثها بلاد الحجاز أو بلاد الشام ، وكان النشاط الحضارى فى هذه البلاد محدودا ، وبالتالى فالفوائد الحضارية التى انتقلت الى الأندلس من تلك البلاد كانت محدودة ، ولما ولى الأمير عبد الرحمن الاوسط رأى ضرورة نقل بلاد الأندلس من شظف البداوة الى رونق الحضارة ، فتطلع الى بلاد العراق ، وهو الأمر الذى حرص أسلافه الأمراء على اغلاق هذا الباب ، نظرا للعداء الشديد بين الأمويين فى الأندلس ، والعباسيين فى العراق ، ولكن عبد الرحمن الأوسط أدرك بثاقب نظرة أنه لا يمكن تنمية بلاده حضاريا الا بفتح الباب على مصراعيه لاهل العراق ، ولثقافة أهل العراق •

وكانت بلاد العراق بالذات فى العصر العباسى قد بلغت شأنا كبيرا فى مضمار الحضارة ، وأنتقل الى بغداد الفرس ، وغيرهم من الأجناس الأخرى ، وأبرزوا علومهم ومعارفهم ، وحظوا بتشجيع الخلفاء ، وأنتشرت فى بغداد الكتب والمكتبات فى كل فرع ، وترجمت الكتب الاجنبية الى العربية فى مختلف العلوم والفنون ، ونبغ فى بغداد الشعراء والادباء والعلماء •

وشجع عبد الرحمن الأوسط العلماء على الانتقال والهجرة الى بلاده ، وساهموا فى أزدهار الحركة الثقافية ، كما أرسل الى العراق يشترى نفائس الكتب والمصنفات ، ولا غرو فقد ورث ملكا ممهدا ثابتا ، ودولة أمورها هادئة وخزائنها عامرة ، فحرص على أن يجعل الأندلس من دول العالم الكبرى تخطب ودها الدول الكبيرة مثل الدولة البيزنطية • ودولة الفرنجة وأنتقلت الى الأندلس حضارة للعراق ، ومن قبل ذلك حضارة

النسـام والحجار ، وبالجملة حضـارة الشرق ، وأمتزجت بحضـارات العرب ، وصهرها الأندلسيون ، وأخرجوا منها حضارة مميزة .

هاجر الى الأندلس ـ كما قلنا ـ علماء فى مختلف الفنون ، وكل من لم يبرز بعلمه فى المشرق ، كان يهاجر الى الأندلس ، حيث يجد التقدير ، ويعيش فى بلد بكر فى حاجة الى العلم وأهله ، ونشط الأندلسيون فى شراء تحف قصور الشرق والجوارى من ذوات الصيت الحسن ، فعمرت الأندلس برجال العلم وتحف الشرق ، ورسل الحضارة ، لذلك تحول هذا المجتمع من البداوة الى حياة مترفة راقية .

ومن أبرز مظاهر هذا الانتقال أيام عبد الرحمن الأوسط هو بروز شخصيات فى عهد هذا الأمير ، يدل على سعة أفق هذا الرجل ، وعلى أتاحة الفرصة لهؤلاء العلماء لاظهار معارفهم على مسرح الحياة الأندلسية ، واهتمامه بأفادة بلاده من مواهب هؤلاء الرجال ، وليس ـ كما يذهب المؤرخ دوزى من أن ظهور هؤلاء الرجال فى بلاد الاندلس ، وتمكنوا من السلطان ، انما يدل على ضعف هذا الأمير .

ولتأذنوا لى بالحديث عن أبرز هؤلاء الرجال :

يحيى بن يحيى الليثى

وهو الفقية المشهور الذى لعب دورا رئيسيا فى نشر مذهب مالك فى الأندلس ، وكان من المقربين لهشام بن عبد الرحمن وحظى بمكانة رفيعة عنده ، ولكن نفوذه تضاءل فى عهد الحكم ، وتزعم الثورة ضده ، ولكن الامير عبد الرحمن الأوسط قربه اليه ، وأسند اليه منصب قاضى القضاه ، وكان أشبه بوزير العدل فى أيامنا هذه ، يعين القضاة فى النواحى ، ويشرف عليهم ، ويتفقد أعمالهم ، وربما فى بعض الأحيـان ، يلى قضـاء بعض النواحى ، ويعين من القضـاة من ينيب عنـه ، وكان نفـوذه كبيرا فى الأندلس ، حتى أنه كان يتدخل فى الشؤون السياسية فى الدولة ، ويفرض رأيه على الأمير .

الحسين بن نافع زرياب

وصل زرياب الى قرطبة فى أوائل عهد عبد الرحمن الاوسط وهو مغنى عراقى فارسى الأصل ، ولقب زرياب ، وهى كلمة تطلق على طائر أسود حسن الصوت ، وشخصه زرياب فريدة فى بابها ، لا فى تاريخ الأندلس فحسب بل فى تاريخ الاسلام عموما ، وكان زرياب تلميذ للموسيقى العراقى الكبير اسحاق الموصلى — كبير المغنيين والموسيقيين فى أيام الرشيد — وقد نبغ فى فن الألحان على يد أستاذه ثم حدث أن غنى زرياب أمام الخليفة العباسى هارون الرشيد ، فأعجب الخليفة بفنه وبراعته ، وقد عزف زرياب أمام الرشيد بعود صنعه لنفسه ، ورفض أن يعزف على عود أستاده ، وأعجب الرشيد بزرياب وأثنى عليه ، فأدرك اسحاق أن تلميذه ربما يحتل مكانته فى يوم ما ، فهدده ، وطلب منه الرحيل عن العراق الى أى بلد يشاء .. فقرر زرياب الهجرة الى الأندلس ، فبلغها فى سنه ٢٠٧ هـ فى أوائل عهد عبد الرحمن ، فأكرمه ، ورحب بمقدمه ، وأنزله فى منزل يليق به ، ومنحه الرواتب والاقطاعات وأفسح له المجال لاظهار نبوغه وفنه على أوسع نطاق .

أحدث زرياب تطورا كبيرا فى الموسيقى الأندلسية ، ونقل معه الحياة العراقية بمظاهرها الفنية والاجتماعية ، ونجح فى أحلال الموسيقى العراقيه محل الموسيقى الحجازيه ، وجدد فى الألحان تجديدا لم يعرفه أحد من معاصريه ، وجعل مضراب العود من قوادم النسر بدلا من الخشب ، مما يساعد على نقاوة الصوت وسلامة الوتر ، وكان العود : آلة الطرب الرئيسية ويرمز الى طبائع البشر مختلفه ، وطبايع المواد الأولى فى نفس الوقت ، والطبائع هى الهادى والعصبى والصفراوى والبارد ، والمواد الأولى هى الماء والهواء والتراب والنار ، فأضاف زرياب للعود وترا خامسا جعله فى الوسط ، وهو يقابل النفس من الجسد ومازالت موسيقى زرياب ممثلة فى الموسيقى الأندلسية المعروفة حتى اليوم فى المغرب والجزائر وتونس . وزرياب أول من غنى فى وسط مجموعة من المنشدين والمنشدات ، ورتب طلابه على تنقية الصوت وتصفيته وظبطه

وتقويته ، والغناء طبقا للقواعد الموسيقية ، والتمشى مع الموسيقى فى الغناء • وبذلك أصبحت الموسيقى الأندلسية — بفضل زرياب — أرقى أنواع الموسيقى شرقا وغربا •

وكان لزرياب ذوق رفيع فى كل ما يتصل بشؤون الحياة والمجتمع فعلم الأندلسيين طريقة الطهى العراقى ، وضرورة الترتيب فى تقديم الأطعمة ، بدلا من وضعها دفعة واحدة ، فيبدأ الانسان بالمقبلات ثم بالخضراوات واللحوم ثم بالحلوى أو الفاكهة ، وأشار على الأندلسيين ، استعمال الأوانى الزجاجية فى الطعام بدلا من الذهبية أو الفضية ، وعلم الأندلسيين ، كيف يضعون فى الطعام التوابل ، وترتيب المائدة •

وزرياب علم الأندلسيين ، اتخاذ ثياب للصيف ، وثياب للشتاء ، وكان الناس قبله يتخذون الصوف صيفا وشتاءا ، أما هو فقد علمهم لبس القطن صيفا ولبس الصوف شتاءا ، وكان له ذوق رفيع فى أختيار ألوان الثياب وأنواعها •

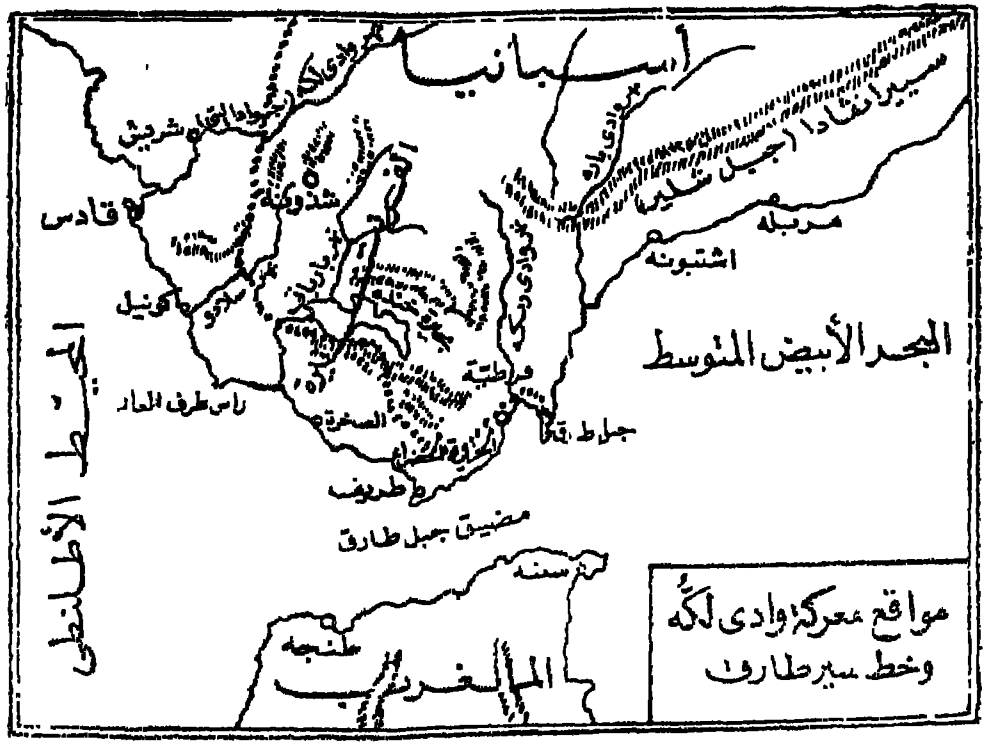
كذلك علم زرياب الأندلسيين طريقة تصفيف شعورهم ورفعه خلف الآذان ، بدلا من تركه مسدولا على جباههم وأعينهم ، وقد تبعه أهل الأندلس فى هذا التصفيف ، والجدير بالذكر أن أهل الاندلس كانوا لا يستعملون العمائم ، انما كانوا يتركون رؤوسهم دون غطاء ، شأنهم فى ذلك شأن جيرانهم الذميين • وعرفت هذه المراسم بمراسم زرياب ، وتمثل انتقال نزعة التجديد والاناقة فى ذلك العصر • وقد أثار وجود زرياب وآرائه ، وما أحدثه من تغيرات فى المجتمع ثائرة وحنق الوزراء وكبار رجال الدولة مثل يحيى الغزال ، وأنكروا على الأمير عطاياه له • ولكن الأمير لم يقبل الاقلال من شأن زرياب وقرب بينه وبين الوزراء • ومن عوامل صمود زرياب أمام منافسية عدم تدخله فى السياسة •

عباس بن فرناس

ومن أعلام ذلك العصر عباس بن فرناس ، وهو فليسوف وعلامة رياضى من نوع فريد فى بابه ، ويرجح أنه من البربر وقد شغف بدراسه الفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية ، حتى برع فيها ، وصار من أكبر علماء عصره ، وهو أول من أستنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وبرع أيضا فى الموسيقى ووضع آلة فلكية لتحديد الوقت ومعرفته سموها الميقاته وله اختراعات كثيرة أخرى ، ورسم فى بيته شكل القبة السماوية ، وقسمها الى بروج ومنازل للشمس وللأفلاك على مدار السنة ، وحاول أن يوضح اختلاف الفصول ، وأوجه القمر بآلات صنعها لهذا الغرض ، وكان يجرى تجاربه على ملأ من المقربين اليه ، والمهتمين بالعلم ، فمنهم من أستفاد ومنهم من رماه بالسحر والشعوذة وروى بعضهم أنه حاول أن يخترع أداة للطيران ، فصنع لنفسه جناحين على شكل معين ، وحاول الطيران من ناحية الرصافة ، فحلق فى الهواء ، ولكنه لم يلبث أن سقط على الارض • وكان هذا سبقا لم يسبقه اليه أحد من رواد الطيران • وأدى كثرة اشتغالة بالكيمياء الى اتهام الناس اياه بالسحر ، فرموه بتهم القتل والضلال ، ورفعوا أمره الى القاضى • ولكن ثبتت براءته ، والخلاصة أن أحد انوزراء قدر لهذا الرجل علمه وفضله ، وأثره فى الحضارة فقال : أبدع عباس بن فرناس طول أمده ابداعات لطيفه وأختراعات عجيبه ، وضرب بالعود ، وصاغ الألحان الحسنة وكان مع ذلك مجيدا للشعر ، حسن التصرف فى طريقته كثير المحاسن ، جم الفوائد •

يحيى الغزال

وينسب الى بكر بن وائل ، وأصله من مدينة جيان ولقب بالغزال لجماله وظرفه وتأنقه ، وكان شاعرا جزلا مطبوعا ، ونبغ فى شعر الغزل ، عالما بالفلك وانفلسفة وقد أكثر من التعرض للفقهاء ، وانتقادهم ، حتى سخطوا عليه ، وأتهموه بالكفر والالحاد ، وعرف عنه أصالة الرأى وحسن التصريف للأمور ، وقد رشحته هذه الصفات للقيام بمهام دبلوماسية كبيرة •



مواقع معركة وادى لكُه
وخط سير طارق

ويحيى الغزال شاعر لا يكسب بشعره . انما يقول الشعر للشعر ذاته ، ولا يتردد على الأمراء لمدحهم واستجداء عطائهم ، بل لا يتردد في هجائهم وهجاء كبار رجال الدولة لذلك كثر خصومه . واضطرته ظروف المعيشة الى تقلد بعض الوظائف الصغيرة ، ولكنه لا يتقيد بواجبات الوظيفة والتزاماتها ، ويسير في عمله وفق هواه ، ويهمل في أداء عمله ، فيفصل من الوظائف ، ويتفرغ لأهل قرطبة فكان يهجو كل من لا يحظى باعجابه وتقديره ، فكثرت ضده الشكاوى للأمير فطرده من الاندلس ؛ فلجأ الى بغداد وحضر مجالس الأدب التي تزخر بها العاصمة العباسية ؛ فتحدى العلماء والطلاب ، وأصابهم بلسانه ، فكثر أعداؤه في بغداد ، فغادرها ، واستأذن الأمير عبد الرحمن في العودة الى قرطبة ، فأذن له . وعهد اليه بعمل يتناسب مع قدراته ، وهي السفارة الى الملوك .

سعيد بن عبد ربه

ومن أبرز أدباء ذلك العصر ابن عبد ربه ، صاحب كتاب العقد الفريد ، وكان على نمط يختلف عن يحيى الغزال ، فكان يتكسب بشعره ، ويتقرب الى الامراء ، ويلوذ بهم ، ويمثل الأدباء التقليديين الذين يدرسون التراث العربي القديم ، وبه يغوصه في مجاد كبير ، يستمل الشعر والتاريخ وأخبار العرب وأيامهم ، ومن يقرأ هذا الكتاب يشعر أن المؤلف قد جمع له معلومات متنوعة ، أو أنزله في عدة بساتين ، بحيث يأخذ من كل بستان زهرة . والعقد الفريد كتاب أدب نموذجي ، سماه صاحبه العقد لانه جعل الفصول جواهر ، أشار فيه — كما هو الحال في كتاب الكامل لأبي العباس المبرد الى أيام العرب وأسواقها والخيل وأصنافها والشعراء الجاهليين وشعراء صدر الاسلام والعهد الأموي ، الى غرائب ما قيل في الكرم أو الشجاعة أو الفضيلة ، كل ذلك في لغة صحيحة ، تفيد القارىء ، وتوسع مداركه في اللغة .

وظهور هذا الكتاب في الأندلس يدل دلالة واضحة على أن الأدب في الأندلس استقى مادته من الشرق وأن الأندلسيين في دراستهم

الادبيه ، تلمسوا النشاط الملحوظ فى الشرق ، والمادة العلمية الغزيرة منه وبذلك توطدت الثقافة العربية الاصيلة فى الاندلس أو بعبارة أخرى عاش أدباء الاندلس فى جو عربى شرقى خالص ، لا يتأثر الا قليــلا بالحيــاة الاندلسية ، بدليل أن من يقرأ كتاب العقد الفريد ، لا يعتقد أن صاحبه أندلسى ، لقلة الاشارات فيه عن الاندلس . فى حين أن كل ما فيه من معلومات عن الشرق .

الثورات الداخلية

حدثت فى الاندلس عــدة ثورات داخليــة ، تغلب عليهــا الامير عبد الرحمن الأوسط ، ففى مستهل عهده ، عاد عبد الله البلنسى الى الثورة ، واحتل كورة تدمير سنة ٢٠٧ هـ وانضم اليه الكثير من الانصار والأعوان . وقوى بأسه ، وعول الزحف الى قرطبه على الرغم من شيخوخته ، ولكن المرض فاجأه ، وتوفى سنة ٢٠٨ هـ ، وأنتهت بذلك آخر فتنة ، كانت تحدث بعد تولية الأمراء الذين أعقبوا عبد الرحمن الداخل .

على أن فشــل هذه الثورة لم يؤد الى هدوء تدمير ، بل عادت الى الاضطراب من جديد ، بسبب فتنه بين اليمنية والمضرية سببها أن يمانيا قتله مضرى ، وفشلت حكومة قرطبة فى اخضاع المدينة الثائرة ، وأزداد الأمر اضطرابا بعد أن تغلب أبو الشماخ اليمانى على تدمير ، ولم تلبث أن هدأت الفتنة سنة ٢١٣ هـ ، بعد أن شغلت حكومة قرطبة وأرهقتها .

كذلك قضى عبد الرحمن الأوسط على ثورات فى قرطبة وفى طليطلة وماردة ..

وأستأنف عبد الرحمن سياسة أسلافه فى غزو بلاد الفرنجة ، فهاجم سنة ٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م ألبة والقلاع وهزم النصارى فى عده وقائع ، ودمر مدينه ليون ، ولقن أهلها درسا قاسيا . وفى غضون ذلك صد جيش عبد الرحمن الأوسط جيشا للفرنجة ، أرســله لويس — ملك الفرنج — وتحالفت البشــكنس معه فى هزيمة الفرنجــة عند بنبلونه ، كذلك أحيط

عبد الرحمن محـــاولات الفرنجة في الثغر القوطي، للتوسـع في أراضي المسلمين .

حرص عبد الرحمن على تسيير الصوائف أو حملات الغزو الصيفيه متعـــاقبة في كل عام الى الشـــمال ، تارة الى أطراف الثغر الأعلى ، حيث تشتبك مع الفرنج ، وتخرب أراضيهم وتارة الى ألبة والقلاع ، حيث تغير على أراضي البشـــكنس أو أطراف مملكة ليون (جليقيــه) ، واضـــطر البشكنس الى طلب الامان والصلح ، ووطد عبد الرحمن من خلال حملاته نفوذه في تلك الأنحاء سنة (٢٢٨ هـ / ٨٤٢ م) ولم يكن لهذه الغزوات نتائج مستقرة ، وكانت تقصد في الغالب الى ايقاع الرعب في قلوب نصارى الشـــمال ، وتخريب بلادهم ، وانهـــاك قواهم ، حتى يلزموا الســـكينة ، ويكفوا عن عدوانهم .

غارات النورمان

من المعروف أن شبه الجزيرة الأيبيرية لها سواحل طويلة على مياه البحر المتوســـط والمحيط الأطلسي شرقا وغربا وجنوبا ، وعرضـــها هذا لغزوات بحرية كثيرة ، وقد فطن المسلمون الى ذلك ، فأنشأوا دور الصناعة في الموانى المختلفة ، وتولى اليمنيون حراسة الموانى ، وحفظ السواحل من الغارات البحرية . واعتمدوا كذلك على جماعات بحرية أندلسية من المولدين والبربر والمستعربين ، وكان لهؤلاء البحريون الأندلســـيون مغامرات ومحاولات في المحيط الاطلسي لكشف مجاهله وظلماته في منتصف القرن الثالث الهجري ، ولهذه الجماعات البحرية نشاط ملحوظ في البحر المتوسط ، تمثل في الغارات التي شنتها على جزر البحر المتوسط المتاخمة للدولة البيزنطية أو الدولة الكارولنجية .

ساهمت القوات البحرية لعبد الرحمن الأوسط في غزو جزيرة صقلية بالتعاون مع دولة الاغالبة في أفريقية ، ولكن عبد الرحمن الأوسط توقف عن هذا الغزو بســـبب المعاهدة التي عقـــدها مع الامبراطور البيزنطي ، وتتضمن عدم مناصرة أي عدوان ضد الدولتين .

لكن موقف الأمـــويين من الفرنجـة ، كان يختلف عن موقفهـم من البيزنطيين ، ذلك أن الأعداء التقليدين للأمويين ، كانوا الفرنجة ، المجاورين لأراضيهم ، والطامعين فيها ، ولما أيقن عبد الرحمن الأوسط أن قـوته البحرية أقـوى من قوات الأمبراطـور لويس التقى أو الحـليم — أمبراطور الفرنجه — شن غارات بحرية متوالية من ٨٣٩ — ٨٥٠ م على شـواطىء دولة الفرنجة فى جنوب فرنسـا ، حتى قضى على قواعد المقاومة فيها مثل مرسيليا وغيرها ، وشملت هذه الغارات جزر البليار ، التى كانت فى حوزه الفرنجة ، ومازال المسلمون يهاجمونها ، حتى سيطروا عليها ، وخضعت لسيطرة الحكومة ، القرطبية سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م •

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن البحرية الأندلسية لم تكن بالقوة اللازمة التى تكفى لصد الغارات البحرية القويه ، خصـوصا على السـواحل الغربية ، ولهذا لم تستطع البحريه الاسـلاميه رد هجمـات النورمان أو الفايكنج السريعة ، وأسهمها النارية الخاطفة ، وأشرعتها السوداء ، التى جعلت بعض المعاصرين ، يراها وكأنها ملأت البحر طيرا أسود •

وهؤلاء المهاجمون ، يسمون النورمان أو سكان الشمال أى سكان الدول الاسكندنافية ، وسماهم العرب بالمجوس أى عباد النار ، لأنهم كانوا يشعلون النار فى كل مكان يحلون به ، بل كانوا يحرقون جثث الموتى من زعمائهم بسفنهم فظن العرب أنهم يعبدون النار كالمجوس ، وسموا كذلك بالفايكنج ، وكان هذا الاسم يطلق على سكان الخلجان الاسكندنافية • ولكن المراجع الاسبانية تفسر كلمة فايكنج بمعنى المحاربين •

والشعوب الاسكندنافية — كما هو معروف — تنقسم الى سويديين ونوربجيين ودنماركيين • والدنماركيون هم الذين هاجموا سواحل انجلترا وفرنسا والاندلس والمغرب وتزعموا حركة القرصنة فى البحار ، وألقوا الرعب والذعر فى نفوس أهل السواحل ، وعاثوا فسـادا ونهبا فى البلاد الساحلية •

ولم تكن تجمع غارات النورمان قيادة واحدة أو خطة مشتركه ، بل كانوا مجموعات متفرقة ، كل مجموعة تعمل لحسابها الخاص . وكانت هذه الجماعات تتجنب مهاجمة السواحل المحصنة التى بها حراسة ورقابة بحرية ، كالسواحل الشرقية ،وانما تهاجم السواحل غير الحصينة ، كالسواحل الغربية ، ومن هنا اشتدت هجماتهم على قادس ، واحلتوها وأخترقوا نهر الوادى الكبير من مصبه ، وصعدوا فيه لسفنهم ، واستولوا على مدينة أشبيلية ونواحيها سنة ٢٣٠ هـ ، وأمعنوا فى السكان قتلا وتنكيلا وعاثوا فيها فسادا ، وعسكروا فى ظاهرها ، وأرسل عبد الرحمن الأوسط قوات لصدهم ، ودارت بين الفريقين معركة حامية ، هزم النورمانيون بعد قتال عنيف ، وقتل منهم نحو ألف ، والأسرى أكثر من أربعمائة ، وأحرق من سفنهم ثلاثون ، وارتد النورمان خاسرين ، بعد أن فقدوا قائدهم ؛ وتحصنوا بسفنهم ، ثم غادروا السواحل الاندلسية ، والمسلمون من ورائهم يتعقبونهم ، ويفتدون أسراهم ، وانتقم النورمان لانفسهم أثناء أنسحابهم بالاغارة على بعض البلدان بعد أن قضوا فى البلاد أياما عديدة ألقوا فيها الرعب فى نفوس أهلها .

أما الاسرى النورمان ، فقد اعتنق بعضهم الاسلام واختلطوا بالاهالى ، وتكونت منهم جالية نورمانية اشتغلت بتربية المواشى وصناعة منتجات الألبان ، نبهت هذه الهجمات الأمير عبد الرحمن الأوسط الى تحصين الموانى والسواحل ، واعداد العدة لمواجهة أى هجوم فى المستقبل ، فأحاط مدينة أشبيلية بأسوار حجرية عالية ، وبنى فيهادار صناعة لبناء السفن الحربية وزودها بالأسلحة الى جانب المتارس والرباطات ، وزود هذه التحصينات برجال مدربين على القتال ، وصد الغارات البحرية ، وزود السواحل بالمنارات وبث عيون المراقبة على أماكن عالية ، للكشف عن العدو اذا اقترب ، وقويت البحرية الأندلسية ، التى لم تلبث أن سيطرت على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، وكان للأندلسيين أسطولان أسطول البحر المتوسط . وأسطول المحيط الأطلسى ، وكان للأسطول مراكز كثيرة على الساحل الغربى والجنوبى والجنوبى الشرقى

بصفة خاصة ، وكان رجال البحر يعتبرون سلاحا خاصا من أسلحة الجيش ، ولهم أجور عالية ونظام خاص فى الاندلس •

فتنة المستعربين المتطرفين فى قرطبة

المستعربين هم النصارى الذين بقوا على دينهم ، ودخلوا فى ذمة المسلمين وتعلموا اللغة العربية ، واندمجوا فى الحياة الاسلامية ، وتولوا الوظائف الحكومية ، وتمتعوا بتسامح المسلمين ، فبقوا على دينهم • يمارسون شعائرهم الدينية بحرية تامة ، ولكن بعض القساوسة المتعصبين فى قرطبة نفروا من الاسلام ، وحرضوا اخوانهم المستعربين على الثورة ضد دولة الاسلام وأبرز هؤلاء القساوسة هو الراهب الفارو القرطبى وكان شابا غنيا ، فأعلن الثورة على المسلمين ، واستنكر من اخوانه النصارى أقبالهم على الثقافة العربية ، ونسيانهم اللغة اللاتينية وكتابات آباء الكنيسة وسفراء اللاتين •

أتخذت هذه الفتنة طابعا خطيرا باسم الدين ، فكرهوا المسلمين وسخروا من دينهم ونبيهم وتعاليمه ونسبوا الى الاسلام خرافات وأباطيل •

ثار المتعصبون فى المدن الاسبانيه — خصوصا قرطبه — وقاتلو الحكام ، وحاولوا الاستشهاد بطريقة التحدى والاستبناك ، وعمد القسس والمتعصبون الى تحقيق غايتهم بوسيلة خطيرة ، وهى سب الاسلام ونبى الاسلام علنا ، وهى جريمة تعرض مرتكبها للقتل ، وقاد زعماء الثورة من القساوسة الثوار ، وساروا فى شوارع قرطبة فى سب نبى الاسلام جهرا ، واذا ما قبض عليهم ، حاول القضاه انتزاع اعتذار منهم على خطئهم ، ولكنهم كانوا يصرون على سب نبى الاسلام أمام القاضى ، لذلك كان جزاؤهم الموت • وأدى اعدام بعض الثوار ، الى زيادة اشتعال الفتنة ، وأضفوا على المقتولين صفة الشهداء ولم يتورع الكثير من الثوار المتعصبين عن اعلان السب لنبى الاسلام طلبا للشهادة فرادى أو فى مواكب •

اعتزم عبد الرحمن الاوسط على معالجة هذا الخطر الداهم بالحوار البناء والتفاهم ، فاستدعى مجلسا من الاساقفة ، عقد فى قرطبه برئاسة مطران أشبيليه وبالمجلس ممثل للامير ، وأصدر المجلس بعد مناقشات مستفيضة قراره بعدم جدوى هذه الفتنه الطائفيه التى ستؤدي الى الخراب والدمار وازهاق الانفس والاموال ، واستنكر المجلس مسلك أولئك المتطرفين وتحذير النصارى من السير فى طريق الثورة ، ولكن قرار هذا المجلس لم يؤد الى انتهاء الثورة ، بل ظلت مشتعلة واعتقل الكثيرون ومنهم فتيات مسلمات ، وقعوا تحت تأثير الثوار ، وتنصروا ، وتمادوا فى سب النبى ، ومن بين هؤلاء الفتيات فتاة رائعة الحسن تدعى فلورا تشغف بها الأسقف أولوخيو حبا •

كانت فلورا ابنه مسلم من زوجه نصرانيه ، وتوفى ابوها وهى صغيرة ، فربتها أمها على مبادىء النصرانيه ، ودخلت فى النصرانية ، ولما علم أخوها المسلم شديد التعصب بتنصرها ، حاول اعادتها الى الاسلام بكل الاساليب ولكنه لم يستطع ، فأخذها الى القاضى ، واخبر القاضى بأن أخته تنصرت ، وسبت النبى، واعترفت فلورا وعاقبها القاضى بالضرب، ولكنها لم تكف عن عصيانها وأشعلت الثورة من جديد ، وتحدث المسلمين فى كل مكان بسب النبى ، وأظهرت من ضروب الشجاعة والبسالة والتفانى فى سبيل العقيدة ما جعلها من قديسات الكنيسة الاسبانية ، وحاول القاضى نصحها ، ولكنها أصرت على الضلال ، عندئذ حكم عليها بالاعدام •

واستمرت هذ الفتنة الخطيرة روحا من الزمن ، وتذرعت حكومة قرطبة فى قمعها بالحزم والشدة ، وهكذا انتهت هذه الفتنة التى أقلقت حكومة قرطبة ، ولم يجد فيها المتعصبون أملا ، وقد استنكر عامة النصارى ورؤساؤهم هذه الحركة ،وأيدوا الحكومة فى موقفها من أولائك الثائرين ، ولم تظهر هذه الفتن فى التاريخ الاندلسى الا فى القليل النادر وبشكل طفيف جدا •

العلاقات الدولية فى عهد عبد الرحمن الأوسط

صارت الأندلس فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، احدى دوا العالم الكبرى ، والدول الأربع الكبرى فى ذلك العصر ، الدولة العباسي فى المشرق ، ودولة الفرنجة ، والدولة البيزنطية ، والدولة الأموية آ الأندلس . وانقسم العالم الى معسكرين ، الدولة العباسية ودولة الفرنج فى جانب ، والدولة الأموية فى الاندلس والدولة البيزنطية فى جانب ، ذلك لأن مصلحة الفرنجة تتحد مع مصلحة العباسيين فى الضغط على الدو الأموية فى الاندلس ، واتحاد الدولة البيزنطية مع دولة الاموي فى الاندلس للضغط على دولة الفرنجة ، ولكن اتحاد فى كلا الناحيتين يتعد تبادل السفارات والهدايا . ولكننا نلاحظ أن الحروب فى ذ الوقت ، نشبت بين العباسيين والبيزنطيين فى عهد الرشيد والمأمو والمعتصم ، كما نجد شارلمان فى ذلك الوقت يعبر على أسماننا من الشد وكذلك ابنه ، مما يدل على ان الدبلوماسية الدولية ، كانت قائمة ع التفاهم .

وكانت الامبراطوريه البيزنطية منذ مطلع القرن الثالث الهجر تقاسى من غارات المسلمين على سواحلها وممتلكاتها ، والاغالبة حك أفريقية ، انتزعوا منها جزيرة صقلية ، وشنوا غارات على سواحل ايطاليا وواصلوا زحفهم فى الاراضى الايطالية حتى طرقوا أسوار مدينة روم والربضيون - كما علمتم - استولوا على جزيرة كريت ، وشنوا غار على جزر بحر ايجة وساحل تراقيا ، هذا الى جانب حملات العباسي على الأراضى البيزنطية .

وفى سنة ٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م ، أرسل تيوفيل الامبراطور البيزنطى ا الأمير عبد الرحمن الأوسط السفير اليونانى قرطيوس ، بهدايا فاخر ورسالة ودية .

وفى سنة ٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م ، أرسل تيوفيل الامبراطور البيزنطى الى الأمير عبد الرحمن الأوسط السفير اليونانى قرطيوس ، بهد

فاخرة ، ورسالة وديه : يسأله عقد محالفة معه ضد أعدائه العباسيين ، الذين قضوا على ملك أجداده الأمويين فى المشرق ، وطلب مساعدته ضد الاغالبة فى صقلية ، والربضيين فى كريت •

ورحب عبد الرحمن بالسفير ، ورد على رسالته ، ورد على الهدايا بمثلها ، وارسل الى الامبراطور البيزنطى السفير يحيى الغزال ، فقابله بالترحيب ، وأكرم وفادته ، وسلمه رسالة الامير وتضمن السخط على العباسيين والربضيين ، ولكن الرسالة لا تضمن وعودا بالانضمام اليه فى محاربة المسلمين • وتحدث فى الرسالة عن الأغالبة فى صقلية ، فوصفهم بأنهم مجاهدون فى سبيل الله ، واعتذر عن الوقوف ضدهم ، وعاد الغزال الى قرطبه ، يتحدث عن مشاهداته فى القسطنطينية وبلاط الامبراطور ، وأهوال رحلته فى البحر •

والخلاصه أن العلاقات الدبلوماسية التى قامت لأول مرة بين قرطبة والقسطنطينيه : توضح لنا أن كلا من العالمين المسيحى والاسلامى ، قد بدأ يخرج عن تقاليده القديمة تحت تأثير مصالحه الخاصة التى أصبحت هى المتحكمة فى سياسته لا الاعتبارات الدينية ، كما كان الحال من قبل •

أعماله الادارية والعمرانية

انتظمت الادارة فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وأعاد ترتيب وتنظيم الجهاز الحكومى ، وأجرى تعديلات فى الوظائف العامة ، ومن أهمها خطة الوزارة ، اذ قسمها الى عدة وزارات مختلفة ، وكان الوزراء يترددون على الأمير يوميا لمناقشتهم فى أعمالهم ومهامهم وانجازاتهم ، وكان هناك وزيرا للمالية ووزيرا للمراسلات ووزيرا للادارة •• الخ وأنحصرت الاعمال الوزارية فى بيوت معينة •

وأما أصحاب المناصب الاداريه فهم :

صاحب السوق ، وصاحب الشرطة العليا وصاحب الشرطة السفلى وصاحب المدينة ويشرف على المرافق العامة للمدينة ، وكانت الأندلس حتى

عهد عبد الرحمن الأوسط تعتمد على الدراهم الفضية والدنانير الذهبية من الشرق ، ولم تكن تضرب الا عملة برنزية محدودة ، وكان التعامل بين الناس فى كثير من الحالات يتم بطريقة المقايضة . فأنشأ عبد الرحمن الأوسط فى قرطبة دار للسكة لضرب عملة أندلسية خاصة بالبلاد .

وعنى عبد الرحمن الأوسط بالمنشآت العامة ، فزاد فى مسجد قرطبة الجامع ومازال هذا الجامع قائما حتى يومنا هذا بعقوده الاسلامية وأوضه ومحاربة ، وحول الى كنيسة فى القرن السادس عشر ، وعلى الرغم من ازالة قبابة ومعظم زخارفة الاسلامية لتحل محلها الزخارف النصرانية الا أن محاريبه الفخمة ، مازالت تحتفظ بنقوشها الاسلامية وآياتها القرآنية ، ولا يزال يحمل اسمه الاسلامى القديم (المسجد الجامع) .

كما أنشأ عبد الرحمن مسجد اشبيلية الجامع ، وشيد سورها الكبير عقب غارات النورمان ، وفى عهده حفلت قرطبة بطائفة من المساجد والقصور والقناطر والمنشآت المختفة ، وقد وصف القديس أولوخيو قرطبة بقوله : ان عبد الرحمن أسبغ على عاصمة مملكته ثوبا خارقا من العظمة ، وأغدق عليها الثروات ، ورفع من شأنها ، وحقق لها الرفاهية والمجد والسؤود ، وسبق انقول أن عبد الرحمن الاوسط اجتذب العلماء والادباء الى قرطبة ، وكان أديبا عالما اشترى كثيرا من الكتب والمصنفات من المشرق .

واستكثر عبد الرحمن الاوسط من الصقالبه والموالى واستبدلهم بجنده « العجم » وتدرجوا فى سلك الوظائف حتى بلغ نصر منصبا ساميا فى بلاط قرطبة .

والخلاصة أن المدن عمرت فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وزاد الخير فى الريف ، وأزدهرت الحياة فى المدن الأندلسية وظلت سمة هذه المدن طوال العصور الاسلامية .

عصر دويلات الطوائف الأولى
(٢٣٨ — ٣٠٠ هـ / ٨٥٢ — ٩١٢ م)

أشتد الاضطراب فى الاندلس ، عقب وفاة عبد الرحمن الاوسط ، وقد رأينا كيف نقل عبد الرحمن الأوسط بلاده من البداوة الى الحضارة ، ووحد البلاد ، وقضى على الفتن الداخلية ، الا أن خلفاؤه فتسلوا فيما نجح فيه عبد الرحمن وحكم البلاد فى فترة الفوضى والاضطراب ثلاثة أمراء وهم على التوالى :

محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ — ٨٨٦ م)

المنذر بن محمد (٢٧٣ — ٢٢٥ هـ / ٨٨٦ — ٨٨٨ م)

عبد الله بن محمد (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ — ٩١٢ م)

أى أن فترة الاضطراب هذه بدأت منذ نهاية عبد انرحمن الأوسط ، وأنتهت بتولية عبد الرحمن الناصر ، وقد ضعفت خلال هذه الفترة حكومة قرطبة ، وعجزت عن القيام بأعباء الحكم فى الأندلس الموحدة .

طبيعة بلاد الأندلس الجغرافية تجعل الوحدة بين سكانها أمرا صعبا . كما أن هذه البلاد فى ظل الحكم الاسلامى ، ضمت شعوبا متعددة ، فسكان الاندلس الاصليين ، انقسموا الى نصارى تعلموا اللغة العربية ، وسموا مستعربين ونصارى أسلموا ، واحتكوا بالعرب والبربر ، ونشأ عن التزاوج بين هذه العناصر جيل جديد ، يسمى المولدين ، أما الوافدون على الأندلس ، فانقسموا الى عرب ، والعرب أنقسموا الى قيسية ويمنيين ، وبين هذه العناصر عداء شديد وحروبا مستمرة ، والبربر وهم أكثر من العرب بحكم قرب وطنهم الأصلى (المغرب) من الاندلس وبين العرب خلاف مستمر ، ذلك أن العرب أستأثروا بأجود الاراضى ، واستحوذوا على المناصب الرفيعة ، أما البربر فقد ترك لهم العرب الأرض القاحلة الشديدة البرودة .

هذه العناصر التى يتركب منها المجتمع الاندلسى تجعل من الصعب على أمراء قرطبة فرض الوحدة فرضا ، لذلك كلما قويت الحكومة المركزية ، خضعت هذه العناصر ، وكلما ضعفت رفعت هذه العناصر شعار الاستقلال ، وهذا ما حدث بعد عهد عبد الرحمن الاوسط اذا انقسمت البلاد الى دويلات مستقلة •

ظهرت فى الاندلس خلال تلك الفترة دويلات يمنيه ، ودويلات مضرية ، ودويلات من المولدين ، وأخرى من المستعربين ، أى أن وحدة البلاد تمزقت الأمر الذى أدى الى خطورة الوضع السياسى فى الأندلس ، وسيؤدى ذلك فى النهاية الى ازدياد نفوذ النصارى فى الشمال ، وانهيار الحكم الاسلامى ودولة المسلمين فى الاندلس •

ومن أبرز هذه الدول ، دولة قامت فى أشبيليه ، أقامها بنو الحجاج اليمانية من قبيلة لخم ، وحرص أمراؤها على اظهار هيبتهم فى البلاط والتشبه ببنى أميه فى الترف والفخفخه ، ورفعوا من شأن دولتهم ، وسعوا الى تقويتها ، وبسط نفوذها على البلاد المجاوره ، وقويت هذه الدولة بصفة خاصة فى عهد ابراهيم بن الحجاج الذى كان له بلاط وخدم وحشم وجيش منظم ، وأضفى على بلاطه هيبة ورونقا ، بعد أن أجتذب اليه رجال الفن والعلم والشعراء والأدباء ومن أبرز رجال العلم الأديب المؤرخ ابن عبدربه صاحب كتاب العقد الفريد ، واستقدم الى بلاطه قمر البغدادية وهى أديبة مغنية ، أستقدمها من العراق ، ونشرت فنها فى الأندلس ، ومن جميل ألحانها •

(ما فى المغارب من كريم يرتجى الا حليف الجود ابراهيم) (انى حللت لديه منزل نعمة كل المنازل ما عداه ذميم) ، ومن دويلات البربر المستقلة فى ذلك العصر ، دويلة قامت فى الولايات الغربية وجنوب البرتغال ، وكانت أسرة ذى النون البربرية من أقوى الدويلات التى استقلت عن قرطبة ، وقويت فى عهد زعيمها موسى ، وعرف عنه هو وأولاده الشدة والبطش والظلم ، فأغارت هذه الأسرة على بلاد الأندلس ،

ونشروا الخراب والدمار فى كل مكان وأعملت السيف فى رقاب الأهلين ، وألقت الذعر والرعب فى نفوس الأندلسيين •

على ان أخطر هذه الدويلات ، دولة بنى حفصون التى بلغت شأنا كبيرا فى عهد زعيمها عمر بن حفصون — وهو من المولدين — وكان من أسرة فقيرة وكان يجالس فى شبابه : المولدين الناقمين على الحكم الأموى . والذين يقاسون فى ظل الحكم الأموى الشدائد ، والمتاعب الاقتصادية ، وعدم مساواتهم بالعرب الحاكمين ، وتحمس تحمسا شديدا لقضية المولدين ، وجمع حوله شباب المولدين ، ثم استولى على حصن رومانى قديم اسم ببشتر فى أعلى الجبال الاسبانية الجنوبية ومن هناك أخذ يبسط نفوذه على البلاد المجاورة حتى أقترب من قرطبة ، ولم يستطع الأمراء الأمويون الثلاثة محمد بن عبد الرحمن والمنذر بن محمد ، وعبد الله بن محمد ، القضاء عليه ، لكثرة أنصاره ، وقوة بأسه ، وأستثار أنصاره ، ووعدهم بأنه يعيد اليهم أموالهم التى أغتصبها العرب ، وظل ابن حفصون فى قوته حتى ارتد عن الاسلام ، ليغرى المستعربين بالانضمام اليه ، ولكن خطته هذه ، عجلت بنهايته ، وضعف أمره ، فانفض من حوله المسلمون ، ولم ينضم اليه النصارى وفقدوا الثقه به ، فلا حصل مسلما ولا حصل نصرانيا •

وظل ابن حفصون يحكم فى ولايته التى انتزعها من قرطبة حتى وفاته سنة ٣٠٥ هـ ، وحكم أبناؤه الولاية من بعده حتى قضى عليها الناصر ، واستولى على القلعة ببشتر •

هكذا كانت الأندلس خلال تلك الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها ، ممزقة الاشلاء ، ولم يعد لحكومة الأندلس المركزية من النفوذ والسلطان الا قرطبة العاصمة ، وصارت الاندلس دويلات مستقله عن بعضها ، كل ولاية تحارب الأخرى ، وتبسط سلطانها على حساب جاراتها ، وظل الأمر كذلك حتى ولى عبد الرحمن الناصر الأندلس فأعاد للبلاد حريتها وندولة الاندلس قوتها وهيبتها •

الا أن ركب الحضارة لم يتأخر على الرغم من التدهور السياسي فظهر ابن عبدربه الذي تحدثنا عنه والفيلسوف ابن صاعد ، صاحب كتاب طبقات الأمم ، يتكلم فيه المؤلف عن الأمم من حيث عنايتها بالثقافة والعلوم والفنون والآداب ويتكلم عن العلوم في الاندلس بشيء من التفصيل ، ويوضح كيف ومتى ظهرت في الاندلس ، ويقول ان أول ظهورها كان في عهد الأمير محمد ، الذي يميل الى العلوم والفنون والآداب .

واذا كانت الحروب والعداوات بين عناصر السكان في الاندلس ، قد أدت الى تدهور اقتصادي وانهيار اجتماعي الا أنها على المدى البعيد ، مزجت بين عناصر السكان في بوتقة واحدة ، وظهرت الشخصية الاندلسية ، تمثل نتيجة المزج بين هذه العناصر ، ولم تعد الارستقراطية العربية متسلطة على العناصر السكانية في الاندلس ، وظهرت في الاندلس لغة مزدوجه العربية والاسبانية القديمة نتيجة لهذا الاختلاط الكبير بين العرب والاسبان .. وكان كبار رجال الدولة العرب يتكلمون مع الاسبان باللغة الاسبانية الى جانب اللغة العربية . ومعنى ذلك أن أهل الاندلس عرب واسبان ، كانوا يتكلمون اللغتين العربية والاسبانية .

ونشأ عن انتشار اللغتين بين الاندلسيين ، ظهور فن الموشحات وهو فن شعبي أندلسي .

ويعتبر هذا الفن الجديد ثورة في الشعر العربي ، وحركة من حركات التجديد فيه ، واذا كان المشرق قد أعطى المغرب فن القصيدة الشعرية ، فان المغرب أي الاندلسي أعطى المشرق فن الموشحة التي لا تلتزم بنظام القوافي الموحدة ، كالقصيدة الشعرية وانما تسير على قوافي متعددة ، ووحدتها المقطوعة الشعرية ، وليس البيت الشعري ، ويدخلها كلمات اسبانية ، أو عامية أندلسية دارجة .

ولم يلبث هذا الفن الجديد أن أنتشر في المغرب والمشرق ، وأستخدمه الصوفية في مدائحهم وأذكارهم والموشحة تطور منها الزجل ، وأثرت في الشعر الشعبي الأوربي المعروف باسم الشعر .

والخلاصـــه أنه ظهرت طبقه جديدة فى المجتمع الأندلسى هى طبقة المستعربين التى أشرنا اليها من قبل تكلمت اللغتين العربية والاسبانية ، وتأثرت بالعادات والتقاليد والثقافة العربيه والحياة العربية ، بل اتخذوا أسماء عربية •

وقد قام هؤلاء المستعربين بدور هام فى نقل الحضارة الاسلاميه الى الممالك المسيحية فى شمال الاندلس ، وأدت الى نشر الثقافة والتقاليد الاسلامية فى تلك الجهات ويظهر ذلك جليا فى اللغة الاسبانية ، التى بها أعداد تقدر بالالاف من الالفاظ العربية •

المملكة النصرانية فى الشمال

ترك المسلمون ــ كما قدمنا ــ جليقية اهمالا لأمر سكانها المستضعفين الذين لجاءوا الى هذه البقعة الجبلية الوعرة المسالك تقهقرا أمام غزوات المسلمين ، ولكن هذا البلد نما وترعرع دون أن يشعر المسلمون ، معتصمة ومتحصنة بالجبال الوعرة والمسالك المغلقه ، وقامت جنبا الى جنب مع مملكة المسلمين فى أسبانيا •

لجأت الجماعات المهزومة من انقوط والاسبان الى الجبال الشمالية ، وامتنعت فى مفاوز جبال استورية ، وقامت امارتان نصرانيتان صغيرتان فى كانتبريا وجليقية وكانت الامارة الاولى التى أسسها البعض بتروس لوقوعها فى الطريق الغربى من جبال البرانس فى سهول ناغار ويسكونيه عرضة لهجمات المسلمين فى حملاتهم على جنوب فرنسا ولكن امارة جليقيه كانت تنعم فى أعماق جبال أشتورش الوعره ، بعيدا عن غزوات الفاتحين ، وفى هذه الهضاب اجتمع بلايو وأنصاره ، ولجأ الى مغاور منيعه ، ويسميها العرب بالصخرة •

وقد تعددت حملات المسلمين على جليقيه ، لما ظهر المسلمين موطئ يتحالف أهلها مع البشكنس فى عصر الولاة ، ولكن هذه الحملات كانت توقع بالنصارى الذعر والرعب دون أن تتمكن من القضاء على جليقية نهائيا لوعورة هذا البلد ، وصعوبه مسالكه •

ولكن انسحاب المسلمين قوى من شأن بلايو ؛ وعظم بأسه وانضم اليه كثير من النصارى فى كانتبريا وسهول جليقيه ، ورأوا فيه خير من يقودهم فى مواجهة الخطر الاسلامى ؛ والتصدى له ، وانتهز الفرصة لتوسيع رقعه دولته ، فأغار على بعض البلاد الاسلاميه المجاورة ؛ منتهزا فرصة انشغال المسلمين بحروبهم الأهليه ، وقمع الفتن والدسائس • ومع ذلك فقد تصدى بلايو للحملات التى أرسلها ولاة المسلمين الى بلاده ؛

بل هزم هذه الحملات هزائم منكـرة ، عندئذ ازدادت قـوته ، وعظمت هيبته ، وتحول من الهجوم الى الدفاع ، فاخترق بسكونية . وشن عدة غارات على المسلمين .

ولما انشغل المسلمون بغزواتهم فى جنوب فرنسا ، وكفوا عن مهاجمة جليقية ، تعددت غارات أهل جليقية على البلاد الاسلامية فى شمال نهر دويره ، وفى منطقة استرقة ولم يستطع عقبة بن الحجاج فى حملته على جليقية الانتصار عليهم ، لاعتصامهم فى الجبال والمعاقل .

ولما كثرت الفتن الداخلية فى الاندلس فى عصر الولاة أزدادت قوة أهل جليقية ، وكثرت غاراتهم على الاراضى الاسلامية ، وكانت مقاومة قرطبة من الضعف بحيث لم تستطع قهر هؤلاء المغيرين . لذلك قويت هذه الامارة النصرانية ، ورأى فيها نصارى اسبانيا الحصن الحصين والملاذ المنيع الذى يعيد اليهم بلادهم التى استولى عليها المسلمون ، فلجـأ النصارى من أنحاء الاندلس الى بلايو يقدمون له العون والتأييد[١] .

لما توفى بلايو سنة ٧٣٧ م على الأرجح ، خلفه ابنه فافيلا ، ولكنه لم يلبث أن توفى سنة ٧٣٩ م ، فخلفه ابنه الفونسو — دوق كانتبريا ، واتحدت الامارتان فى مملكة واحدة ، هى مملكة ليون النصرانية أو مملكة جليقية ، وتمتد من بلاد البشكنس شرقا الى شاطىء المحيط غربا ، ومن خليج بسكونيه شمالا الى نهر دويره جنوبا[٢] .

ويعتبر الفونسو الاول المؤسس الحقيقى لمملكة قشتاله الذين خاضوا معارك متعددة عبر القرون انتهت باستردادهم اسبانيا من المسلمين بسقوط غرناطه آخر معاقل المسلمين سنة ١٤٩ م

وأتت الفرص لالفونسو الاول لتوسيع رقعة دولته ، فقد اسندت

---

(١) عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ٢١٦ .

(٢) نفس المصدر ٢١٣ .

الفتن الداخلية في الاندلس ، وكان من نتيجتها خراب الاراضى المجاورة لجلقيقيه فى شمال غرب الاندلس ، وفى سنة ١٣٣ هـ — ٧٥٠ م حدث فى البلاد قحط شديد ، حتى هجر الكثير من سكان شمال غرب الاندلس من المسلمين بلادهم لذلك شن الفونسو غارات على هذه البلاد ، واستولى عليها فى غفلة المسلمين ، وفى صراعاتهم المريرة مع بعضهم البعض ، واستولى الفونسو على استرقة وعلى كثير من البلاد والضياع المجاورة وضمها الى حوزته ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م • وبذلك اتسعت رقعة المملكة النصرانية ، وأصبح فى أمكانها التصدى للمسلمين بل وضم المزيد من أراضيهم الى مملكتهم الناشئة •

وعهد الفونسو بامارة كانتبريا — وهى القسم الشرقى من مملكته — الى أخيه فرويلا ، فشدد هجماته على أراضى المسلمين منتهزا الحرب الأهلية فى الاندلس فى عهد واليها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وغزا الفونسو مدينة لك الحصينة ، واستولى عليها ، وهى اقصى معاقل المسلمين فى الشمال الغربى ، ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م ؛ وعبر الفونسو نهر دويره أكثر من مرة ، وعاث فى أراضى المسلمين فسادا وتخريبا ، وظل يحارب مع أخيه فرويلا المسلمين ويوسع ملكه على حسابهم حتى توفى فرويلا سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٤ م ولم يلبث أن لحق به أخوه الفونسو الاول سنة ٧٦٥ م ، فخلفه ابنه فرويلا الاول •

عاصر فرويلا الاول : عبد الرحمن الداخل ، وكان هذا الامير الاموى مشغولا بالثورات التى قامت ضده فى الاندلس ، فانتهز فرويلا الفرصة فغزا لك وبرتقال وشلمنقه وشقوبيه وآبله وسموره وقشتاله ، واستولى عليها وانتزعها من المسلمين ، وأشاع الخراب والدمار فى البلاد المجاورة ، وضمها الى ملكه • وبذلك قويت المملكة النصرانية ، وأصبحت تشكل خطرا جسيما على ملك المسلمين فى الاندلس •

تنبه عبد الرحمن الداخل الى الخطر الجسيم لهذه المملكة النصرانية ، فشن عليها عدة غارات ، منها حملة بقيادة مولاه بدر أغارت

عنى آلبه والقلاع وتقع بين بلاد البشكنس وجبال كانتبريا ، وأرغمها على أداء الجزية[1] ولكن هزم النصارى المسلمين فى غزوات شنوها عليهم وقتلوا منهم الكثير .

وكان فرويلا شديد البطش فثار ضده رعاياه ، ولكنه كان يخمد الثورات بشدة وعنف ، وحدث انقسام فى المملكة النصرانية بعد وفاة فرويلا ، انتهت بعودة الوحدة اليها وحكم سيلو جليقية المتحده ثلاث سنين وتوفى سنة ٧٨٤ م

انقسمت المملكة بعد موت شيلون وفى بداية عهد خليفته مورقاط (٧٨٣ — ٧٨٩ م) الذى حكم جليقية ، بينما الفونسو المطالب بالعرش تمركز فى الجزء الشرقى من الدولة فى نبره ، وهناك ، واستعان بالفرنجة ، فاستعان مورقاط ضده بالمسلمين الذى يشعر بالقرب منهم ، لأن أمه جارية عربية .

استطاع الفونسو ولد فرويلا أن يسترد عرش أبيه بعد وفاة مورقاط ، ولكن حيث انقسام فى البيت الحاكم انتهى بتولية برمند (٧٨٩ — ٧٩١ م) ومن بعده الفونسو الثانى (٧٩١ — ٨٤٢ م) . وكانت الدولتان المسلمة والنصرانية فى عهد هشام بن عبد الرحمن مشغولتين عن الصراع بينهما بالفتن والثورات داخلها .

انقسمت المملكة النصرانية بين برمند الذى استقل بالجزء الغربى من المملكة بتأييد الأشراف ، واستقل الفونسو بالجزء الشرقى ، لكنهما تصالحا واتحدا فى وجه العدو المشترك ، وهو هشام بن عبد الرحمن الذى أعلن الجهاد ضد النصارى . ولم يلبث أن توفى برمند ، وتولى الفونسو حكم مملكة النصارى كلها : وبذلك عادت الى المملكة النصرانية وحدتها .

كان الفونسو يلقب بالعفيف ، وكان ملكا قويا تولى الملك سنة ٧٩١م ، فأعاد الهدوء والسكينة الى البلاد ، وأصلح أحوالها وادارتها ، وحصن

---

(١) عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ط ١ ص ٢١١ — ٢١٣ .

ثغــورها وقواعدها ، واتخذ أوبيدو Oviedo عاصــمة له وكانت مملكة جليقية تمتد من ولاية بسكوينة شرقا الى المحيط غربا ، ومن خليج بسكوينه شمالا حتى نهر دويره جنوبا ، واستقلت عنها نافار وبلاد البشــكنس ، وقامت بها مملكة نصرانية •

طال حكم الفونسو الثانى حتى تجاوز النصف قرن ، عاصر خلالها هسام بن عبد الرحمن ، والحكم بن هشام ، وحفيده عبد الرحمن ، وفى خــلال هذه الفترة ، نشــبت بين الفريقين حروب متعددة ، ومن أهم هذه الاشتباكات التى هزم فيها النصارى شر هزيمة ، موقعة الصخرة فى أقصى بلدان ومواضع جليقية سنة ٧٩٥ م / ١٧٩ م • وفى عهد الحكم بن هشام تجاوز الفونســو نهر دويره ســنة ٨١٠ م / ١٩٣ هـ ، وهاجم الاراضى الاسلامية ، وتوغل فيها حتى قلمريه وأشبونه ، وعاث فى بلاد المسلمين فســادا فرد عليه الحكم بغزوة فى جليقيه ، ضرب فيها المواضــع التى اجتازها •

ولما غزا الفونسو الثغر الأعلى فى عهد عبد الرحمن الأوسط أرسل هــذا الامــير حمــلة بقيــادة الحــاجب عبد الكـــريم بن مغيث فى سنة ٨٢٣ م / ٢٠٨ م ، فغزت ألبة والقلاع ، وأغارت على مدينة سالم ، ونكل المسلمون بالنصارى ، وخربوا بعض أراضى جليقية ، ودمروا مدينة ليون ، وأجبروا النصارى على صلح مهين •

ولما توفى الفونسو الثانى سنة ٨٤٢ م خلفه ابنه راميرو ، وقد شغل راميرو منذ توليه الحكم بقمع الثورات التى قامت ضده خصوصا ثورات الاشراف ، كذلك شغل عبد الرحمن الأوسط بصد النورمان ، ودرء خطرهم عن المملكة الاسلامية ، ولما انتهى عبد الرحمن الاوسط باصلاح التخريب الذى ألحقه النورمان ببلاده ، انصرف الى غزو النصارى والجهاد فى ســبيل الله ، فســير ولده محمد فى سنة ٨٤٨ م الى جليقية ، فاخترق بسائطها ، وحاصر مدينة ليون ، وأحدث الخراب والدمار فى هذه البلاد ، وتوفى راميرو سنة ٨٥٠ م بعد حكم دام ثمانية أعوام •

تربع أورد رينو على عرش أبيه ، وحرص فى بداية عهده على تحصين بلاده من أخطار وهجمات المسلمين وأصلح القلاع والحصون ، وساعد بعض الثوار ضد حكومة قرطبة فى بداية عهد الامير محمد بن عبد الرحمن ، ولكن المسلمين أحبطوا محاولته ، وقضوا على الثورة •

ولما اشتدت الفتن فى الدولة الاموية فى الاندلس ، انتهز أوردرينو الفرصة ، وغزا مدينة قورية ، ثم غزا شلمنقه وهزم المسلمين ، وعاث فسادا وتخريبا فى ديارهم ، فسير الأمير الاموى محمد جيشا الى الشمال بقيادة ولده المنذر ، فسيطر على ألبه والقلاع ، وألحق عدة هزائم بالنصارى ، وهزم المسلمون النصارى عدة هزائم واعتزم الامير محمد القضاء نهائيا على مملكة جليقية فسير السفن الى المياه الغربية لتغزوها من البحر ، ولكن الاسطول لم يستطع تحقيق هدفه بسبب الأحوال الجوية •

وفى سنة ٨٦٦ م توفى الفونسو الثانى ، وخلفه ولده الفونسو الثالث • وقد نشبت ضده عدة ثورات فى بداية حكمه ، ولكنه أخمدها ، وظل يحكم البلاد قرابة أربعة وأربعين عاما ، اتحدت البلاد فى عهده ، وقويت المملكة ، واستطاع خلال حكمه الطويل ان يوصل حدود مملكته الى جبال البرانس شرقا ، وعبر نهر دويره كثيرا الى أراضى المسلمين ، ووصل فى غزواته الى ضفاف أنتاجه ، وغزا عددا من المدن الاسلامية المتاخمة مثل مارده وقلمريه وبازو وقوريه وشلمنقه وبذلك أصبح فى مركز قوى يستطيع به مواجة المسلمين ومنعهم عن بلاده ، وهزم المسلمين فى سموره بعد أن حاولوا مهاجمة ليون واسترقه ، وبلغت غزواته فى بلاد المسلمين مارده ووادى أته •

كان امراء البيت الحاكم يعارضون حكم الفونسو ، ودبروا عدة

مؤامرات للتخلص منه ، وقبض على المتآمرين ، ومن بينهم ابنه غرسية ، ودبرت مؤامرة أخرى ضده قادها زوجه خمينا ، واشترك فيها أولاده ، وسيطروا على بعض بلدان المملكة • وخشى الفونسو من مغبة هذا الانقسام ، فتنازل عن العرش لولده الاكبر مرسيه ، ولم يلبث أن توفى •

سميت مملكة جليقية بعد وفاة الفونسو مملكة ليون ، وانتقلت عاصمة الدولة من أوبيدو الى ليون المجاورة لأن نافار كانت تخشى من مطامع ليون فى أراضيها ، وقد حارب غرسية انيجيز أردونيو ملك ليون الى جانب صهره موسى بن موسى فى موقعة البلدة وقتل سنة ٨٦٢ م

وخلف غرسية ولده فرتون ، ثم خلفه ابنه سانشو غرسية ، وهو أول من تلقب فى نافار بلقب ملك وبه تبدأ مملكة نافار الحقيقية • وقد حكم سانشو حتى سنة ٩٢٦ م ، وخاض ضد الامير عبد الله عدة حروب ووقائع ، ومع الامارات المجاورة كذلك •

ظهرت نبره على المسرح السياسى منذ بداية القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، وكانت قبل ذلك تسير فى فلك ملوك جليقية أو مملكة الفرنجة ، واشتركت مع جليقية فى الهجوم على منطقة الثغر الأعلى عام ٢٠٠ هـ — ٨٤٥ م ، فخرج اليهم الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث فى عدة معارك •

كانت مملكة نبره تقوم فى غربى البرانس فى بلاد البشكنس الجبلية وتسمى نافار ، وكانت بلاد البشكنس أو نافار منذ الفتح الاسلامى مسرحا للعمليات الحربية بين المسلمين والفرنجة وقد حاول أمراء جليقية غزوها غير مرة ، وضمها الى المملكة النصرانية ، ولما انصرف عنها الجلالقة بصراعاتهم الداخلية ، وبعدت غزوات المسلمين ، هاجمها المسلمون مرارا •

وقد استقل بها أحد الزعماء والقادة سنة ٧٩٩ م ويدعى آزوار ،

وأعلن نفســه أميرا على البلاد ، ولما توفى ســنة ٨٣٦ م خلفه أخــوه سانشو ، ولكن أحد الزعماء البشــكنس عزله ، وولى مكانه ، ويســمى انيجيز أريستا ، وفى عهده اتخذت نافار شكل المملكة المستقلة ، وتعاقب الملوك على الحكم فى هذه المملكة .

وقد تحســنت العــلاقات بين مملكــة نافار النصرانية والمملكــة الاســلامية المجــاورة وتســمى امارة بنى قسى ، وأرتبطت الدولتــان الحليفتان بعلاقة المصاهرة ، وقد رأى غرسيه انيجيز أن يتألف مع عمر ابن حفصون الثائر ضد الحكم الأموى فى الأندلس .

المغرب الاسلامى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة

١ ـ المغرب من سقوط الدولة الأموية حتى قيام دولة الأغالبة :

سقطت الدولة الأموية فى سنة ١٣٢ هـ فأعلن عبد الرحمن بن حبيب دخوله فى طاعة أبى العباس . فلما توفى أبى العباس فى سنة ١٣٦ وبويع أبو جعفر المنصور بالخلافة ، أقر ابن حبيب على ولاية أفريقية وأرسل اليه خلعة سوداء . وهو أول سواد دخل أفريقية . ثم كتب الى عبد الرحمن بن حبيب يدعوه الى الطاعة ، فأجابه ودعا له ، ولكنه أرسل اليه رسالة أوضح له فيها سوء الاحوال الاقتصادية فى أفريقية ويطلب منه ألا يطالبه بمال . فغضب المنصور وكتب اليه يتوعده وعندئذ أعلن ابن حبيب خروجه عن طاعته وأحرق خلع المنصور . ثم تعرض عبد الرحمن بن حبيب لمؤامرة دبرها أخوه الياس ، اذ دخل عليه وهو مريض وطعنه بسكين فى صدره وقتله فى سنة ١٣٧ هـ ، وتولى الامارة مكانه بينما فر حبيب بن عبد الرحمن الى عمه واتفق مع عمه عمران على محاربة عمه الياس قاتل عبد الرحمن . فأعد جيشا لذلك الغرض ، ولكن الياس بادر ابن اخيه بالهجوم ، واشتبك الفريقان فى قتال يسير انتهى فى سنة ١٣٨ بالصلح على أن تكون أفريقية كلها لالياس وتكون قفصة وقسطنطينية ونفطة لحبيب وتونس لعمران . ولكن الياس كان يضمر السوء بأخيه عمران ، اذ كان يخشى منه على امارة افريقية ، فعمل على التخلص منه أولا ، ثم يتفرغ بعد ذلك للتخلص من حبيب . فلما رحل حبيب الى مقر ولايته ، غدر الياس بعمران فقتله وقتل أنصاره من أشرافه العرب وأسترجع تونس وعاد الى حاضرته القيروان وقد اطمأنت نفسه ظنا منه أنه أصبح سيد الموقف ، وبعث بطاعته لأبى جعفر المنصور . لتطهيرها من دنس ورفجومة وتحرير أهل القيروان من طغيانها . فتصدى له الصفرية بقيادة عبد الملك الورفجومى فى صفر سنة ١٤١هـ ودارت

الدائرة على عبد الملك وأنهزمت جموعه وسقط صريعا ، وتمكن عبد الاعلى من دخول القيروان • ثم ترك عليها زميله عبد الرحمن بن رستم الفارسى أحد كبار علماء الاباضـية وعاد الى طرابلس اسـتعدادا لملاقاة القوات العباسية التى سيرها أبو جعفر المنصور لمقاتلته •

أما المغرب الأقصى فقد أضطرب أمره بعد انهزام الصفرية فى موقعتى القرن والأصنام على يدى حنظلة بن صفوان ، وتفرقوا فى نواحى المغرب الاقصى وأنضم معظمهم الى عسكر برغراطة بزعامة طريف بن شـمعون وكان هرطقيا أدعى أنه أنزل عليه قرآن الصفرية • كذلك أنضم فريق آخر من الصفرية الى أبى القاسم سمغون بن واسول المكناسى فى الموضع الذى أسست فيه سجلماسـة ، وأبو القاسـم هذا هو جد بنى مدرار أصحاب سجلماسة •

وكان أبو جعفر قد بلغه ما ارتكبته قبيـلة ورفجومة فى القيروان من المحرمات والفظـائع فولى على مصر وأفريقية محمد بن الاشـعث الخزاعى ، وسير من مصر جيشـا عباسـيا يقوده أبو الأحوص العجلى لاسترجاع أفريقية • فاشتبك العباسيون مع جيش عبد الاعلى فى سرت فى سـنة ١٤٢ فانهـزم العباسـيون • فعزل المنصـور محمد ابن الاشعث عن ولاية مصر وولاه قيادة الجيوش فى المغرب • فخرج ابن الاشعث على رأس جيش كبير عدته خمسـون ألف مقاتل ، وكان فى جملة عسكره عدد من كبار القادة العباسيين منهم الاغلب بن سالم والمحارب بن هلال وفاجأ ابن الاشعث قوات عبد الاعلى على غير استعداد للحرب فوضع العباسيون السـيوف فى الخوارج وأسـفرت الموقعـة عن مصرع عبد الاعـلى ومعظم أتبـاعه فى سـنة ١٤٤ وكان عبد الرحمن بن رستم قد تأهب لنجدة أبى الخطاب فلما وصل الى قابس بلغه ما انتهى اله مصير أبى الخطاب ، فحمل ولده وخرج من القيروان ولحق باباضية المغرب الاوسط ، فالتفوا حوله وبايعوه بالامامة ، فأسس مدينة تاهرت فى سنة ١٤٤ هـ وأستقر بها فى سنة ١٤٥ مؤسسا دولة بنى رستم أول الدولة الرستمية •

أما ابن الاشعث فقد دخل القيروان فى أول جمادى الاولى سنة ١٤٥ ، وأذعن له أهل أفريقية بالطاعة وأكتفى ببسط نفوذه على أفريقية اذ كان العباسيون يحرصون على الاحتفاظ بها لتكون سدا منيعا أمام حركات الخوارج وتتابع على ولاية افريقية من قبل ولكن ذلك لم يمنع حبيبا من اعداد العدة للاستيلاء على القيروان ، والتف حوله موالى أبيه وأنصاره ثم زحف الى القيروان وأستولى على الاريس فخرج اليه عمه الياس لمقاتلته وأشتبك معه اشتباكا خفيفا ، فلما جن الليل وتوقف القتال أوقد حبيب النار فى معسكره وأوهم عمه فى المعسكر المقابل أنه مقيم فى معسكره ثم أسرى وأسرع بدخول القيروان فأستولى عليها ، وأخرج من السجون من كان محبوسا ، فكثرت جموعه ، فلما عاد الياس اليه تصدى له حبيب ثم نازله فقتله • فهرب أخوه الياس بعد قتله الى قبيلة ورفجومة وكانوا من غلاة الخوارج الصفرية ونزلوا فى كنف أميرها عاصم بن جميل • فكتب اليه حبيب يأمره برد أعمامه ولكن عاصم امتنع عن اجابته ، فزحف اليه حبيب وأصطدم معه فى موقعة انتهت بهزيمته ، فقوى أمر ورفجومة وتقدموا نحو القيروان وسحقوا من تصدى لهم من أهلها ثم دخلوها فى ذى الحجة ١٣٨ هـ فأستحلوا المحارم وأرتكبوا الكبائر • ثم ترك عاصم نائبا عنه فى القيروان يسمى عبد الملك بن أبى الجعد وسار لمقاتلة حبيب فى قابس فأنهزم حبيب وأحتمى ببربر جبل أوراس ، فطارده عاصم وأشتبك معه من جديد فى قتال عنيف أسفر عن هزيمة عاصم ومقتله • وعندئذ تقدم حبيب الى القيروان وحاول اقتحامها ، فهزمه عبد الملك وقتله فى المحرم سنة ١٤٠ هـ • وبمقتل حبيب تمت سيادة البربر الخوارج على أفريقية والمغرب وفقد العرب كل سلطان لهم فى هذه البلاد وأنقرضت بذلك دولة بنى حبيب الفهرى •

وفى هذه الاثناء انتهز الخوارج الاباضية بنواحى طرابلس هذه الفرصة وبايعوا أبا الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى اماما عليهم

فى طرابلس سنة ١٤٠ هـ من خليج سرت الى قابس ، وانضم اليه معظم سكان المغرب الأوسط المتشبعين بتعاليم الخوارج الاباضية وبايعوه أيضا بالامامة • أما افريقية فقد ظلت خاضعة لقبيلة ورفجومة الصفرية المتطرفة وكان أميرهم المقتول عاصم قد أدعى النبوة والكهانة ولذلك قاست ورفجومة من الفساد والظلم والاستهتار بالدين بحيث استحلوا المحرمات واستهانوا بالمساجد وارتكبوا كثيرا من الفظائع فى القيروان • وذكروا ان رجلا اباضيا شاهد فى القيروان قوما من ورفجومة أخذوا امرأة قهرا والناس ينظرون فأدخلوها الجامع ، فغضب الاباضى وقصد أبا الخطاب فى طرابلس فأعلمه بذلك ، فخرج أبو الخطاب وهو يقول : « بيتك اللهم بيتك » فاجتمع اليه حشد كبير من الاباضية فى طرابلس الغرب وزحف بجموعة نحو القيروان وانتزعها من العباسيين بعد أن خلع ابن الاشعث عن ولايتها فى سنة١٤٨ووليها عدد من الولاة هم : الأغلب بن سالم التميمى (١٤٨—١٥٠) الذى استشهد فى تونس ، وعمر بن حفص الذىقتله الصفرية فى ١٥٤ ، ويزيد بن حاتم الذى توفى سنة ١٧٠ وأخوه روح بن حاتم حتى وفاته سنة ١٧٤ ثم الفضل بن روح الذى قتل فى سنة ١٧٨ ، ثم هرثمة ابن أعين (١٧٨—١٨١) ثم محمد بن مقــاتل العكى (١٨١—١٨٤) الى أن تولى ابراهيم ابن الأغلب على امارة افريقية واستقل بامارته استقلالا جزئيا عن الخلافة العباسية فى ستة ١٨٤هـ •

وبولايه ابراهيم بن الاغلب يبدأ عهد جــديد فى تاريخ افريقيــة والمعرب •

٢ ــ دولة الاغالبة فى المغرب الادنى (١٨٤—٢٩٦) :

شهد المغرب الاســـلامى منذ أواخر القرن الثانى الهجرى قيام دويلات مستقلة فى سائر أجزائه : ففى المغرب الادنى (أفريقية) قامت دولة الاغالبة ومركزها القيروان ، وفى المغرب الاوسط (الجزائر) قامت

دولة الرستمين ومركزها تاهرت ، وفى المغرب الاقصى قامت أربع دويلات صغيرة هى دولة الأدارسة الحسنيين (نسبة الى أدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب) فى فاس ودولة بنى المدرار فى سجلماسة ودولة بنى صالح فى نكور ودولة بنى صالح بنى طريف البرغواطى فى شالة وتامسنا . ودولة الاغالبة هى أهم هذه الدويلات جميعا ، والاغالبة أسرة مستنيرة حكمت أفريقية طوال القرن الثالث الهجرى ، أسسها ابراهيم بن الاغلب بن سالم التميمى الذى ثبته الرشيد فى ولاية افريقية فى سنة ١٨٤ هـ ، وهى أسرة عربية راقية عملت على نشر بذور الحضارة الاسلامية فى البلاد التى خضعت لنفوذها أى فى أفريقية وصقلية وأقام امراؤها المدن والقصور وشيدوا المساجد والحصون وشجعوا الآداب والعلوم والفنون .

وأول أمراء هذه الدولة ابراهيم بن الاغلب (١٨٤—١٩٦ هـ) وكان من أفضل ولاة أفريقية ، فقد كان يجمع الى علمه وتفقهه فى الدين وأدبه حسن الرأى والنجده والبأس والحزم والقيادة ، ولم يل أفريقية أحسن سيرة ولا سياسة ولا أشفق على رغبة ولا أوفى بعهد منه .

وأتخذ ابراهيم مدينة القيروان عاصمة لولايته ، وأخذ يعمل منذ استقلاله عن الخلافة العباسية على تكوين قوة بحرية هائلة مكنت أعقابه من بعده من غزو جزيرة صقلية وافتتاحها منذ سنة ٢١٢ هـ وغزو مالطة وسواحل ايطاليا الجنوبية الغربية . ولقد أهتم ابراهيم بن الأغلب بالعمران اهتماما خاصة ، فشرع فى سنة ١٨٥ فى بناء مدينة القصر القديم التى تقع أطلالها على بعد ثلاثة أميال جنوبى القيروان وسماها العباسية تعبيرا عن ولائه للعباسيين . ولم يخل عهد أبن الاغلب من الثورات والفتن ولكنها كانت لا تقاس بالثورات التى كانت تضطرم فى أفريقية فى العهود السابقة .

وأعظم انجاز قام به الاغالبة هو فتح صقلية فى عهد دولة زيادة الله ابن ابراهيم (٢٠١ — ٢٢٣) أعظم أمراء بنى الاغلب وأفضلهم على الاطلاق ولم تنعم البلاد التونسية فى عهودهم كما نعمت فى عهده ، وكان رجل بناء وتشييد فقد ترك لنا آثارا كثيرة بالقيروان والعباسية وتونس وسوسة ، وكان يجمع الى جانب حبه للفنون والعمارة والآداب مقدرة وكفاية حربية ، فقد تمكن من اخماد الثورات التى اشتعلت بمجرد تولية الامارة وعكف على الاصلاح والبناء والتشييد ، وتشهد بذلك آثاره فى سوسة والقيروان وتونس من مساجد وقناطر وأربطة وخزانات • ومن مآثر زيادة الله عنايته بالاسطول الاسلامى وقيامه بغزو بعض الجزر القريبة من تونس • ففى سنة ٢٠٦ بعث أسطوله الى جزيرة سردانية فغزاها ، وغنم منها غنائم كثيرة وأهم الغزوات البحرية التى تمت فى عهده فتح جزيرة صقلية • وترجع أسباب فتح صقلية الى العوامل الآتية :

١ — القضاء على غارات الروم وعودة الى سياسة الجهاد البحرى التى جرى عليها ولاة بنى أمية •

٢ — كانت صقلية بالنسبة للمسلمين بلادا غنية فى الوقت الذى أقفرت بلاد المغرب من الخيرات وكانت صقلية لذلك تمثل أراضى جديدة يمكن استغلالها •

٣ — هناك عامل دينى هو الجهاد فى سبيل الله ، ولا ننسى أن أهل أفريقية كانوا قد تفهموا الدين وأصبح منهم العلماء والفقهاء ، وساعدت الرباطات على تكوين طبقة من الصالحين الذين كرسوا حياتهم للجهاد ضد الروم •

ومن أسباب الفتح العربى لصقلية سبب مباشر يتلخص فى ان رجلا يسمى فيمى عارض حكم قسطنطين — بطريق صقلية وأعلن الثورة ، وشق عصا الطاعة ، ذلك لان حكومة بيزنطة كانت تشك فى نوايا فيمى الانفصالية ، وحرضت بطريق صقلية على التنكيل بفيمى • وأعلن فيمى الثورة فى سرقوسة ، ولكنه فشل ، فأعتزم التخلص من البطريق ومن حكم بيزنطة ، فاستنجد بالعرب •

اذن نوايا فيمى الاستقلالية والانفصالية كانت من أسباب استعانته بالعرب لتخليصه من بطريق صقلية • وتضيف الروايات التاريخية عاملا آخر ، وهو أن فيمى احب اومونيزا الجميلة ، ولكن صاحب صقلية ، اغتصبها منه ، فأعلن الثورة ، واستنجد ببنى الاعلب • وهذه الرواية قد تبدو ضعيفة • ولكننا نستطيع أن نقول بان هذا القائد فيمى كان طامعا فى الملك وفى حكم صقلية • وكانت جزيرة صقلية قد تعرضت من قبل لغارات عربية ، فنبهت الروم الى هذا الخطر الداهم ، واتخذوا من صقلية قاعدة لحماية الامبراطورية عند حدودها الجنوبية ، فحصنوها بالقلاع ، ولم يتركوا جبلا الا وبنوا عليه حصنا ومن وقت لآخر كانت تخرج دوريات عسكرية تطوف بالجزيرة لمراقبة ، ما قد يشنه العرب من حملات على سواحل الجزيرة •

كانت بين أفريقية وصقلية هدنة ، ولكن استنجاد فيمى بأمير أفريقية — زيادة الله — شجع هذا الأمير على نقضها ، ورآى انه آن الاوان ، وتهيأت الفرص لتحقيق حلم بيته المنشود فى فتح صقلية ، وضم أراض جديدة الى دولة الاسلام ، الامر الذى يكسبه تأييدا ومكانة ومهابة فى نظر المسلمين عامة والعباسيين خاصة ، كما انه آن الاوان لتأمين حدود بلاده من غزو بيزنطى عن طريق صقلية •

ومهما يكن من أمر جمع زيادة الله كبار رجال أهل القيروان والفقهاء والقضاة ، ومن بينهم اسد بن الفرات ، واستفتاهم فى أمر الهدنة ، وتقرير مصير صقلية ، هل يبقيها تابعة للدولة البيزنطية ، أم يضمها الى

الدولة العباسية ودنيا الاسلام ، وانقسم المجتمعون قسمين ، فريق يرى ضرورة الجهاد ، وغزو أراضى صقلية ، وفريق يرى التريث وعدم نقض الهدنة ، ولا يوافق الفريق الأول فى نقض الهدنة ، ولكن فى النهاية تغلب رأى أسد بن الفرات بنقض الهدنة ، وقال لهم :
ولا تهنوا وتدعو الى السلم وأنتم الاعلون •

وأنتصر رأى اسد حينما تأكد للامير زيادة الله وجود اسرى مسلمين فى جزيرة صقلية ، فلابد من فداء اسرى المسلمين ، والجهاد فريضة على المسلم • وأسند زيادة الله لاسد بن الفرات بقيادة جيش لغزو جزيرة صقلية ، وأقلع الاسطول الاغلبى الاسلامى من مدينة سوسة فى منتصف ربيع الاول سية ٢١٢ هـ فى نحو مائة مركب ، وانضم الى هذا الاسطول مراكب فيمى •

وتعرض المسلمون لخطر داهم ومشقات وأهوال ، فأنتشر بينهم الوباء وأهلكهم الجوع ، فمات الكثير من جند المسلمين ، وكل ذلك وزيادة الله فى انشغال عنهم بفتن داخلية ، ومتاعب خارجية ، ولما انتهى من مشاكله ، أرسل نجدة للمسلمين مكنتهم من فتح بلرم — عاصمة صقلية — وكان فتح بلرم خطوة كبيرة وهامة فى فتح باقى بلدان صقلية ، ذلك ان بلرم تقع على البحر ، ومن خلال البحر يستطيع المسلمون تلقى الامدادات من أفريقية ، كما أن بلرم صارت قاعدة عسكرية للمسلمين ، يتخذها المسلمون لشن الغارات على باقى بلدان صقلية وفتح مدنها وقراها ، بدلا من القلاع التى كانوا يعسكرون فيها من قبل ، ثم ان المنطقة حول بلرم خصبة ، ويكفيها ان تزود عساكرهم بما يحتاجون اليه من مسيرة وعلوفه ، ومن بلرم كانت السرايا تخرج كل يوم فتشن الغارات فى انحاء الجزيرة ، وتعود محملة بالغنائم والاسلاب وخاصة الرقيق • وأدت هذه الغارات المتكررة فى أنحاء الجزيرة ، الى ضعف المقاومة الوطنية فأستسلموا للمسلمين ، وطلبوا منهم الامان ، ودخلوا فى طاعتهم •

واجه المسلمون مقاومة عنيدة ومريرة من بطريق صقلية من ناحية ، وجيوش الدولة البيزنطية من ناحية أخرى وكانت أقوى مراكز المقاومة ، وأكثرها ثباتا قصريانة وسرقوسة وطبرمين ومنطقة دمنش •

واجه المسلمون كل هذه الاخطار ، وحاولوا جاهدين اضعاف مراكز المقاومة ، واستولى المسلمون على مسينة فأنفتح أمامهم الطريق الى جنوب ايطاليا ، وقد صرفتهم هذه الجهود نحو جنوب ايطاليا عن تثبيت أقدامهم فى صقلية ، وعن اتمام فتحها ، وأتاحت لمدن صقلية فرصة لاسترداد قوتها ، وتقوية وسائل الدفاع عن استقلالها ، واعداد العدة لشن الهجوم على المسلمين ، ورغم ذلك ظلت السرايا الاسلامية تشن هجماتها صيفا وشتاءا ، ونتيجة لاصرار المسلمين على مواصلة الفتح ، سقطت قصريانة بيد العرب ، ذلك ان العباس بن الفضل حاصرها ثلاثة أشهر متوالية ، قاسى خلالها أهل المدينة الجوع والعطش والحرمان ، وفى فصل الشتاء غطى الثلج البقاع ، وأعتقد أهل قصريانة انهم آمنون من هجمات المسلمين، وجعلهم البرد غيرمستعدين للقاء العدو، ولكن أحد البيزنطيين أتصل بالعباس ، ووعده بتيسير مهمة المسلمين فى فتح قصريانة ، فأمده العباس ببعض فرسانه وقاد الرومى الفرسان الى مدخل المدينة ، ودخل المسلمون قصريانة ، وشيد العباس بها مسجدا ، واسر من فيها من بنات البطارقة ، وغنموا منها مغانم كثيرة • وبسقوط قصريانة أصبح المسلمون أكبر قوة فى صقلية يعمل لها كل حساب • وبات واضحا أن الحكم البيزنطى بصقلية على وشك الزوال • لذلك أرسلت بيزنطة الأساطيل لطرد المسلمين ولكن المسلمين قهروا كل مقاومة بيزنطية •

وحصن المسلمون قصريانة ، حتى يتحصن المسلمون فيها من العدو ، وأتخذ الروم من سرقوسة مركزا للمقاومة وشن الهجمات على المسلمين ، وكان القسم الشرقى من صقلية لا يزال مستقلا عن العرب ، ولما كان هذا القسم أقرب الى القسطنطينية ، فقد أتخذه أهل صقلية

مركزا للمقاومة ، مستعينا بالامدادات البيزنطية ، وعادت القلاع التى استسلمت للمسلمين الى الثورة من جديد سنة ٢٤٦ هـ ومات القائد المسلم العباس بن الفضل فى ساحة القتال ولكن ظل المسلمون يشنون الغارات على سرقوسة وغيرها ، وكادت طيرمين تسقط فى أيديهم •

ولى جعفر بن محمد أمر صقلية ، وظل يقاوم الاخطار التى واجهته فى صقلية ، ويعمل على اتمام فتح البلاد ، وظلت سرقوسة تقاوم منذ أيام أسد بن الفرات حوالى نصف قرن ، وصمدت فى مواجهة هجمات المسلمين القوية ، ولكن اهلها ضعفوا ووهنوا فى عهد جعفر ، حينما استولى على بعض أرباض المدينة ، ودمر المسلمون مراكب الروم التى جاءت لنجدة سرقوسة ، وحاصر المسلمون البلدة تسعة أسهر قاسى فيها الأهلون البؤس والجوع والحرمان واعد المسلمون معدات كثيرة لحصار البلدة ، وضعف الأهلون بسبب نفاذ المؤن والمعدات ، واضطرب أهل البلدة وعم فيها الاضطراب بسبب البحث عن القوت ، ونهب الناس بعضهم بعضا : وضعف أهلها ووهنوا ، وكان جيش صقلية ضعيفا ، اختلطت فيه جنود من جنسيات شتى • بينما يسود الجيش المسلم النظام والطاعة لاوامر قائدهم الاعلى • وخربت المدينة ، وتمكن المسلمون من أسر الكثير من أهل البلدة ، والحصول على الغنائم ، ونقل العرب غنائمهم واسراهم الى بلرم ، وثارت فى نفوس هؤلاء الاسرى عواطف الوطنية ، وتطلعوا الى مقاومة العرب •

ويحدثنا صاحب كتاب العرب فى صقلية بأن ثيود وسيوس نقل مع الاساقفة ورئيسهم صوفرنيوس بعد خمسة أيام الى الامير الاعلى ، ويعنى به والى • صقلية ، فوجدوه «جالسا فى رواق وقد احتجب عن الاعين خيلاء وجبروتا» •وتحدث الأمير الى رئيس الاساقفة والمترجم يوجه الحديث بينهما فى جدل دينى قصير ، ثم أذن لهم فأنصرفوا[1] •

---

(١) انظر : احسان عباس « العرب فى صقلية » •

كان سقوط سرقوسة نهاية محاولات طال مداها ، وقد بقى القسم الشرقى غير خاضع للمسلمين ، وظل الروم يجددون محاولاتهم لاسترداد ما فقدوه ، وظلت قطانية وطبرمين وغيرها من المدن الشرقية شوكة فى جنب الدولة الاسلامية ، وكانت الروح الدينية فى هذه المنطقة ذات أثر فى اذكاء روح المقاومة ، وظل والى بلرم يخرج بجيشه أو يبث سراياه ، ويفسد الزروع والثمار ، ويحرق الكروم ، ولما قرر ابراهيم بن الأغلب الخروج للجهاد سنة ٢٨٩ هـ ، استطاع فتح طبرمين وكان وقع الخبر على سماع الامبراطور مؤلما ، وارتكز عمل ابراهيم فى منطقة دمنش ، ولكن منيته لم تمهله ليتم فتح هذه المنطقة وأخذت الفتن المحلية تشغل بال المسلمين ، ووافق ذلك ظهور العبيديين وسقوط الأغالبة ، وكانت مهمة أول والى عبيدى على صقلية أن يحارب دمنش ، ولكن استمرار الفتن مدة طويلة أراح شبه الجزيرة من الحاح الجيش الاسلامى ، حتى طبرمين التى فتحها ابراهيم عمرت من جديد ، واضطر أحد ولاة الكلبيين على الجزيرة أن يعاود فتحها سنة ٣٥١ هـ ويدمرها ، وبقيت المنطقة الشرقية غير معترفة تماما بسلطان المسلمين الى آخر أيامهم بالجزيرة ، وقنع منها الولاة بالجزية ، ووجهوا جهودهم الى الفتح جنوبى ايطاليا .

وخضع أهل صقلية للأنظمة المالية الاسلامية المتعارف عليها فى افريقية ، وازدهرت أحوالهم الاقتصادية على الرغم من كثرة الحروب وتغيرت الاحوال الاجتماعية ، باختفاء العنصر البيزنطى صاحب السيادة على الجزيرة ، وتحرر العبيد بدخولهم فى الاسلام ، وظهرت عناصر جديدة فى المجتمع من العرب والبربر والفرس والخراسانيين ، كما شهدت صقلية ازدهاراً فى الثقافة الاسلامية ، وأصبحت المساجد بمثابة مدارس لتعليم الفقه المالكى ، وألف سالم بن سليمان الكندى قاضى صقلية كتابه فى الفقه المعروف بالسليمانية .

وانتشر علما القراءات والتصـوف ، وعمت الرباطات سواحلها ومن أبرز نتائج الفتح الأغلبى لصقلية انشـغال الجند بحركة الجهاد فى الجزيرة بدلا من انصرافهم الى الخلافات والمشاحانات فيما بينهم ، الأمر الذى جنب دولة الأغالبة ويلاتهم ٠

يضاف الى ذلك انتعاش الأحوال الاقتصادية فى افريقية بعد حصول العرب الفاتحين على الكثير من الغنائم وتحف الكنائس ولم يعد البيزنطيون أصحاب السيادة الحقيقية فى حوض البحر المتوسط ، وفقدوا موردا ماليا هاما بانفصـال صـقلية عنهم وأدى اللقاء بين البيزنطيين والأغالبة ، الى استفادة الاغالبة من الفن البيزنطى ويتجلى ذلك بوضوح فى القلاع والحصون والعمائر التى شيدت فى افريقية فى عصر الاغالبة ٠

الأغالبة والفرنجة :

بدأ العداء بين الاغالبة ودولة الفرنجة سنة ٢٠٦ ٨٢١ م وشنت السفن الاغلبية عدة غارات على سردينية عادت محملة بالغنائم وشن الفرنجة بدورهم غارات على افريقية ، واشتدت غاراتهم حتى بلغت أبواب القيروان ، ولم ينسحبوا الا بعد جهود مضنية قادها محمد بن سحنون ، واشتد العداء بين الاغالبة والفرنجة بعد حملة الاغالبة على صقلية ، وعبورهم مضيق مسينا الى شبه الجزيرة الايطالية ، التى كان يخضع معظمها للكارولنجية ٠

شجعت العناصر المناوئة لنظام الحكم فى ايطاليا الاغالبة على غزو الجزيرة ، فقد نشب نزاع بين دوقية نابلى ودوقية بنيفنت اللومباردية وانتهى هذا النزاع بعقد هدنة بين البلدين بمقتضاها وافقت نابلى على أداء جزية للدوق سيكر اللومباردى ، ولم يوافق لويس التقى امبراطور الفرنجة على مساعدة نابلى فى نزاعها ضد اللومبارد ٠ لذلك لم ير دوق نابلى أندريه بدا من الاستعانة بالأمير الأغلبى فى بلرم بصقلية ، واستطاع أسطول الأغالبة أن يرفع الحصار عن اللومباردى الذى كان مفروضا على

نابلى ، لذلك أضطر سيكر على عقد صـلح مع دوق نابلى ٢٢١/٨٣٧ ؛ ومن ثم بدأ التحالف بين نابلى والاغالبة •

ورأى الاغالبة فى وجودها فى جنوب ايطاليا تأمينا لجزيرة صقلية من غارات البيزنطيين عليها ، لذلك رأى الاغالبة ضرورة ضرب معاقلهم فى الطرف الآخر من مضيق مسينا ، وبصـفة خاصة أسـطول البندقية الذى كان يهدد شمال صقلية • وتوفى سيكر سنة ٢٢٥ وانقسمت مملكة اللومبارد الى امارتين متنازعتين هما بنيفنت وسـالرن ، وشـجع ذلك الاغالبة على العبور الى شبه الجزيرة مرة أخرى ، واتجهوا الى الفتح المنظم وقد اتت لهم المدن والمعاقل فى أرض قلوريه وأنكبرده ، وانتصروا فيها بصفة دائمة ، ومن أهم هذه المدن مدينة تارنت الشهيرة كما ضربوا كابوا فى غزوة خاطفة ، وأحرق الاسطول الأغلبى سفن البندقية التى حاولت استعادة تارنت سية ٢٢٦ / ٨٤٠ م •

وواصل الأغالبة زحفهم حتى وصـلوا نهر ألبو ، واسـتولوا على بارى ، واتخذ الأغالبة من بارى قاعدة عسكرية تخرج منها السرايا لشن الغارات على سائر أنحاء شبه الجزيرة •

وأثبت دوق نابلى حسن نواياه من الاغالبة ففى سنة ٨٢٨ — ٨٤٢ وقف الى جانب الاغالبة أثناء حصارهم مدينة مسينا فى صقلية ولكن نابلى عادت عن موقفها الودى من الاغالبة ، وناصـب دوقها العـداء للاغالبة ، وواصل الاغالبة غاراتهم على شـبه الجزيرة الايطالية حتى استولوا على أربعة وعشرين حصنا •

وتعرضت روما نفسها لغزو الاغالبة بعد أن استطاع المسلمون ا صقلية الاستيلاء على مسـينا ، ويبدو أن هدف الاغالبة فى ذلك الوقت فتح جنـوب ايطـاليا ، وقد باغت الاغالبـة مدينـة أوسـتى على التيبر ، ووصلوا الى أسوار روما سنة ٢٣٣ ، وهاجموا الجانب الغربى لأنه لم يكن محصنا وغنموا غنائم كثيرة ، واستولوا على كنوز القديس

بطرس والقديس بول ، وعادت الحملة الاغلبية الى أفريقية ، حين تعرض لها قيصر بن الدوق سيرجيوس حاكم نابلى •

وانشـــغل الملك الكارولنجى عن الأغالبة بغزواته خارج ايطـاليا وازداد الخطر الاغلبى على جنوب ايطاليا بتخريب بنيفنت وحصـــار جاثيه حـــول منتصـــف عام ٢٣٣ / ٨٤٦ ، لذلك ظهـــر لويس الثانى فى جنوب ايطاليا على جيش قوى لمقاومة الأغالبة ولكن الاعالبة انتصروا عليه ، ولم يستطع الملك أن يجمع شـــمل الامراء الايطاليين لدفع خطر الاغالبة عن ايطاليا •

وانتهز الاغالبـــة الفرصـــة فأغاروا على ســـواحل الكارولنجيـــة فى ايطاليا وخارجها ففى سنة ٢٣٥ / ٨٤٩ سقطت مدينة آرل فى أيديهم كما عاودوا غزو روما وجهزوا لذلك أسطولا كبيرا فى جزيرة سردينيه ، وأبحروا تجاه مدينة أوستى ، ولم يستطع المسلمون اقتحام مصب التيبر لحصانته ومناعته ، ودمرت عاصفة عاتيه الاسطول الاغلبى •

وأظهرت تهديدات الاغالبـــة ضـــعف البـــابوية وعـــدم قدرتها على مواجهة الغزو ، لذلك لم يجد البابا مناصـــا من التســـليم للويس الثانى بتبنى الدفاع ضـــد المســـلمين فى الغرب ، خصـــوصا وأن الامارات الايطالية لا تستطيع الاضطلاع بهذا العبء بسبب ما بينها من خلافات • ولم يســـتطيع لويس الثانى مواجهة الاعالبة فى جنوب ايطاليا ، لذلك تمكن الاغالبة من الاستقرار فى جنوب ايطاليا ، وعسكر الجند الاغالبـــة فى المنطقة • فتدخـــل البيزنطيـــون لطـــرد العـــرب من ايطاليا ، واستولى الامبراطور البيزنطى على بارى ، لذلك ضعف شأن الاغالبة فى جنوب ايطاليا وشنوا الغارات على السواحل الغربية لشبه الجزيرة •

وبتولى شارل الاصلع حكم الامبراطورية وبتخليه عن أمور ايطاليا ازداد نفـــوذ الاغالبـــة فى جنـــوب ايطـــاليا من جـــديد ونجح الاغالبة فى مصانعة بعض الامراء اللومبارد الصغار فى الجنوب ،

بل ظهروا فى دوقية نابلى ، وهددوا روما نفسها ، وتواطأ معهم بعض موظفى البلاط البابوى على تسليم المدينة اليهم عام ٢٦٣/٨٧٦ م ، ولما ضعف البابا عن صد الاغالبة ولم يجد عونا من الامراء والملوك ، دفع للاغالبة اتاوة مالية كبيرة مقابل الكف عن روما • وفى نفس الوقت اتجه البابا لبيزنطة لتخليص بلاده من الاغالبة •

وكان فى امكان الاغالبة الاستيلاء على ايطاليا كلها لولا ضعف الاغالبة بعد موت ابراهيم بن أحمد ، واضطربت دولة الاغالبة فى أفريقية فى عهد ابنه أبى العباس عبد الله ، وانشغال خليفته زيادة الله الثالث بمقاومة الخطر الشيعى ، وأدى ذلك الى انصراف الاغالبة عن أعمال الفتح فى ايطاليا ، وكان سقوط الدولة الاغلبية على يد الفاطميين الشيعه خلاصا لايطاليا من الخطر الاغلبى ومع ذلك فقد احتفظ الاغالبة حتى سقوط دولتهم بعدة قواعد حصينة فى ايطاليا مثل سابينو شمال بنيفنت وجنوب بسطوم •

* * *

كان عصر الاغالبة عصر ازدهار فى تاريخ أفريقية ، فلم تعرف هذه البلاد منذ العصر الرومانى ازدهارا اقتصاديا كما عرفته أيام الاغالبة ، فقد أصيب اقتصادها منذ النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى حتى أواخر القرن السابع باضطراب شديد بسبب تعاقب الغزاة على أفريقية وقيام البربر بالثورات على حكامهم ، والفتن المواكبه لغارات سكان الجبال والبدو على المدن والسهول • وعلى هذا النحو لم تكن المزارع الافريقية تعرف الامن اللازم لقيام الزراعة واتصال عبور القوافل التجارية • وكان البناء الاقتصادى فى أفريقية عند بداية الفتح العربى للمغرب فى غاية التصدع وعجلت ثورة كسيلة والكاهنة على هذا التصدع وآتى عليه تشدد أمراء بنى أمية فى جباية الضرائب ومانبع ذلك من حركات بين حشود البربر الخوارج المنادين بالمساواة • ولما قامت أسرة الاغالبة بامارة أفريقية أحس المزارعون بنوع من الاستقرار النسبى كانوا يفتقدونه منذ عهود طويلة وفى ظل هذا الامن الذى ساد

فى معظم عهود الاغالبة زادت المحاصيل الزراعية ولم تتعرض أفريقية للقحط • وقد أبدى اليعقوبى الجغرافى دهشـته لمظهر الخضرة وكثافة الاشجار فى المنطقة الممتدة من قعودة الى الساحل ، حيث تسود زراعة الزيتون والنخيل والكروم أما المنطقة الواقعة شمال قعودة فكانت مزارع للحبوب • ومن حيث ثروة أفريقية المعدنية فقد اشتهرت مجانة بمعادنها الكثيرة لا سيما الفضة والحديد والرصاص • وبفضـل توفر المعادن ازدهرت الصناعات فى عصر الاغالبة ومنها صناعة الالات الحديدية اللازمة لصناعة السفن والسيوف والسروج ولجم الخيل وصناعة التحف الزجاجية وكان فى القيروان حى خاص بالزجاجين مما يدل على شهرة القيروان بهذا النوع من الصناعات • أما صناعة الخزف فقد تأثرت فى أفريقية بالتقاليد العراقية حيث كانت ترد على القيروان القراميد المذهبة البغدادية لتزين قصور الأمراء • كذلك اشتهرت أفريقية بصناعة السجاد والمنسوجات وأهمها الثياب السوسية الرفيعة ناصعة البياض •

وأزدهرت الحياة التجـارية فى القيروان أزدهارا عظيما وكثرت فى أيدى أهلها الاموال بسبب التجارة وكانت القوافل التجارية تسـير فى الطرق المؤدية الى أفريقية والمغرب آمنة مما يدل على الرخاء الاقتصادى والاستقرار •

تطور المجتمع الاسلامى فى أفريقية فى العصر الأغلبى ، واستقرت البلاد ، وانتعشـت الحياة الاقتصـادية فنمت المدن ، واتخذت طابعا اسلاميا مثل القيروان وتونس وسوسه ، فازدانت بالمساجد والمنشـآت العامة كصهاريج الماء ودور الصناعة ودور الحكم وقصور الأمراء وكبار رجال الدولة •

ومن أبرز سمات المجتمع الاسـلامى فى أفريقية فى العصر الاغلبى تماسـك هذا المجتمع فى عقيدة واحدة ومذهب واحد ، هو مذهب أهل السـنة ، أما الخوارج فكانوا قلة فى هذا المجتمع لا تأثير لهم فى تطـور شؤونه •

واهتم الولاة المهالبة بتطوير جامع القيروان وانشــاء أســواق فى القيروان وتونس ، وانشـــاء الدور للمرابطين والزهاد ، والمحارس على الساحل .

ولكن د . حسن مؤنس[1] يقول بأن بنى الاغلب هم الذين أدخلوا الحضارة الاسلامية فى افريقية والمغرب الاوسط ، وجددوا مســجدى القيروان وتونس الجامعيين ، وهما مسجد عقبة ، ومسجد الزيتونة ، وقد أنفق زيادة الله بن الاغلب الاموال الطائلة فى تجديد مئذنته ، واعطــائه الصورة الرائعة التى هو عليها الآن ، وكان يقول : ما أبالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفى صحيفتى أربع حسنات : بنائى المسجد الجامع بالقيروان وبنيانى قنطرة أم الربيع ، وبنيانى حصن مدينة سوسه وتوليتى أحمد بى أبى محرز قضاء أفريقية . وهذا يدل على اهتمام زيادة الله بتعمير بلاده ، واصلاح أحوالها ، ونشر العدل بين ربوعها . واهتم ذلك باصلاح جامع تونس فأمر ببناء قبابه المضــلعة ، ووضــع فيه أعمدة الرخام ، وزينه بالزخارف والنقوش والكتــابات الكوفية الجميلة ، كما أمر ببناء القبة الكبيرة فى جامع القيروان التى تعتبر من أجمل القباب فى تاريخ المساجد .

ومن الآثار المعمارية الرائعة التى خلفها الأغالبة ، جامع سوســة الذى جدد بناؤه خامس الأمراء الأغالبة ، أبو العباس محمد بن الأغلب .

كذلك أهتم أمراء الأغالبــة بالمنشآت العسكرية مثلمــا اهتمــوا بالمنشآت الدينية ، فأقاموا دار صناعة فى تونس وســوسة ، كما شــيد الأغالبة الرباطات ، وهى بيوت يقيم فيها المجاهدون فى سبيل الله ، سواء رجال تطوعوا للجهاد أو جند فى جيش الدولة ، وقد تضخم الرباط بمرور الزمن حتى تحول من معســكر للمجاهدين الى مدينــة كبيرة تتضــمن معسكرات ومساكن وأماكن للحراسة وأخرى للعبادة ، ويرعى هذا الرباط ويديره شيخ من رجال الدين والتقوى والجهاد ، ينظم شؤونه ، ويقود

---

(١) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٩٦ .

رجاله ، ويبصرهم بشؤون دينهم ، ويحدد واجباتهم نحو الله والوطن .

كان الشيوخ والفقهاء والزهاد رؤساء الناس والمتحدثين باسمهم أمام الحكام ، لأن بنى الاغلب لم يختلطوا بالبربر ، وانعزلوا فى مدنهم الملوكية ، يحيط بهم جندهم وعبيدهم وحواشيهم ، ولا يتصلون بالعامة الا عن طريق الشيوخ وأهل العبادة ، وكان الفقهاء فى الغالب يكرهون التردد على الحكام ومجالستهم ، لانهم فى نظرهم أهل ظلم ، ولا يتقون الله فى القول والعمل ، لذلك كرهوا منصب القضاء ، وان كانت السلطات ترغمهم عليه أحيانا .

ومن أبرز الفقهاء فى ذلك العصر سحنون وهو أبو سعيد عبد السلام ابن سعيد بن حبيب التنوخى ، كان يجلس فى جامع القيروان يعلم الطلاب الفقه ويفتى ، ويعلم طلاب العلم علوم الدين وآداب السلوك ، وقد عاصر الامراء الاغالبة الاربعة ، وكان لا يخشى فى الحق لومة لائم ، وينوم الحاكم على ظلمه ، وينصحه ، ويحذره من معصية الله ، لذلك تعرض للاضطهاد من قبل زيادة الله الاول ، وفى عصره أصدرت الدولة العباسية أوامرها بامتحان الفقهاء والقضاة فى قضية خلق القرآن ، وكان سحنون هو وكثير من فقهاء المغرب يرفضون القول بخلق القرآن ، وقبل أن يتعرض سحنون للعذاب انتهت المحنة ، وتوقف تعذيب المعارضين للقول بخلق القرآن .

والى سحنون ينسب أحسن تدوين عرف للسماع عن مالك بن أنس ، وهو المعروف بالمدونة ، وهى كتاب فقه على المذهب المالكى ، يعرض لمسائل الفقه الرئيسية من العبادات والمعاملات عرضا بليغا وموجزا ، وتعتبر المدونة من أشمل كتب الفقه الاسلامى[١] .

ويعتبر حكم الاغالبة فترة انتقال فى تاريخ افريقية ، فقد تحولت البلاد من مجتمع مضطرب الى مجتمع له سماته وخصائصه من البربر

---

(١) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٩٩ .

والعرب الوافدين والخراسانيين والاندلسيين يعملون جميعا بالزراعة والتجارة والصناعة ، ويندمجون مع بعضــهم البعض ، ليظهر من هذا الاندماج مجتمع جديد ، يضم خلاصـــة هذه العناصر ، وخصـــائصها وميزاتها ، ويبرز شخصية هذا المجتمع المتميزة .

وفى أفريقية ظهرت المدن بكل امكاناتها بها المساجد الفخمة والقلاع الحصينة والاسوار والقصـــور المنيفة ، وظهرت هذه البلاد فى أواخر القرن الثالث الهجري التاسع الميلادى شـــعبا اســـلاميا عربيا مكتمـــل التكوين ، وله مكانه الواضح المتميز على الخريطة العامة للعالم الاسلامى فى عصره الذهبى[1] .

٣ ــ دولة الادارســـة فى فاس

استطاع العلويون بعد ثورات متعددة فى العهد الاموى وفى العصر العباسى الاول تحقيق هدفهم الرامى الى اقامة دولة يحكمها امام من ال بيت رسول الله ، ذلك هو ادريس بن عبد الله وهو الاخ الرابع لابناء عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، واستشهد اخوته الثلاثة فى ثوراتهم ضد الخلافة العباسية ، وأولهم هو محمد ذو النفس الزكية ، وثانيهم ابراهيم شهيد باخمرى ، وثالثهم يحيى بن عبد الله ؛ ورأى ادريس البعد بثورته عن مركز الخــلافة العباســية ، فلجأ الى المغرب الاقصى وأيده البربر . وأقام دولة الادارسة .

ودولة الادارسة هى دولة طويلة العمر ، قامت فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، واستمرت حتى أواخر القرن الرابع الهجرى أى أنها استمرت قرنين ونصف قرن أى ضعف ما عمرته دولتا الاغالبة والرستميين ، واستطاعت أن تصمد فى وجه دعاة الفاطمية ، وحافظت على استقلالها من دولة الامويين فى الاندلس ولكنها رغم صغرها أدت دورا حضاريا بارزا فى تاريخ المغرب سواء فى نشر الاسلام أو فى تعريب

(١) المصدر السابق . ص ١٠٠ .

البــلاد وفد ادريس الى الغرب الاقصى ومعــه مولاه راشــد يقــال انه من أصل بربرى ، وكان راشد يتريابزى التجار ويتظاهر بأنه السيد وادريس خادمه ، يأمره أمام الناس فيطيع أمره ، ذلك ليخفى شخصيته أمام الناس وفى خلال سنة ١٧١/٧٨٨ ظهر الاثنان فى طنجه وأخذ راشد يدعو لامير علوى يحمل راية الاسلام ، ويخلص الناس من الظلم والزندقة •

وقد التف الناس حول راشد حيث جذبتهم الدعوة لرجل من آل بيت رسول الله ، وواصــل راشد الدعوة بين أفراد قبيلة أوربه ، وكثر أنصــاره ومؤيدوه فى بلده وليلى ، وهى أصــلح ما تكون كمركز لدعوة سياسية ، لانها مركزا تجاريا ممتازا وسوقا عظيما للقبائل ، وتشــهد تجمعات كثيرة من البربر ، ونزل ادريس مدينة وليلى حوالى ١٧٢ ، وبدأ يدعو لنفسه ، وأيده شيوخ أوربه ورأوا فيه خير منقذ لهم من ســلطان برغواطه ، وتطلعوا الى أن يقيم بهــم دولة مســتقلة مثــل دولة بنى رســتم فى تاهرت خصــوصا أن هذا الداعى من آل البيت ، وبعد جهد ليس باليسير عهد شيوخ القبائل الى ادريس بحكم وليلى وزعيم الجناح الغربى من قبيلة أوربه ، وتبعه بعض أفراد القبــائل الصغيرة المقيمة فى تلك النواحى ، وكانت ناقمة على برغواطه ، وواصل ادريس بث ســلطانه فى تلك النواحى سلما أو حربا حتى امتد ســلطانه فى أقل من عام الى بقعة كبيرة فى الشرق الأقصى •

وقد استاء الرشيد من اقامة دولة الادارسة ، فقد اقتطع ادريس جزءا من دولته ، ورأى الرشيد أنه من الصعب ارسال جيش للقضاء على هذه الدولة لبعد المســافة ، ولان ادريس يتمتع بتأييد البربر ، وينسب المؤرخون الى الرشيد بأنه لجأ الى التآمر للتخلص من غريمه ، فأرسل طبيبا يقال له الشــماخ ، قدم لادريس دواءا فيه مادة ســامة قضى عليــه ، وتوفى ادريس بعــد حكم دام ثلاث ســنوات ســنة ١٧٥ / ٧٩١ م •

حافظ راشد على استقرار حكم الدولة الجديدة فى آل ادريس ،

وقد ترك ادريس جارية له حاملا ، فاتفق ادريس مع شـيوخ القبائل على الانتظار حتى تلد الجارية ، وأنجبت ولدا ، فظل ادريس وصيا عليه حتى بلغ العاشرة من عمره وولاه سنة ١٨٦ م حكم الدولة الجديدة .

ولى ادريس الثانى الحكم خلفا لابيـه — وهو طفـل — فكفله راشد ، وأحفظه القرآن فى طفولته وعلمه الحديث وعلوم اللغة وسير الملك وأخبار الماضين وأيام الناس وركوب الخيل والرمى ، والخلاصة أعده للملك خير اعداد .

ولما تهيأ ادريس للملك ، أخذ راشد له البيعة من سـائر القبائل سـنة ١٨٦ هـ ، ولكن ابراهيم بن الاغلب خشى على ملكـه من دولة الادارسة ، وكان يرى أن راشد هو المدبر الحقيقى لهذه الدولة ، لذلك دبر مؤامرة للتخلص منه ، على أن هذا العمل لم يؤثر ولم يضعف دولة الادارسة ، بل تولى أبو خـالد يزيد بن الياس العبدى الاشراف على المملكة واستقرت الامور ، وقويت الدولة .

ازدادت قوة ادريس بتوافد العرب عليه ، وقربهم ورفع منازلهم ، وجعل منهم بطانته دون البربر . وبذلك خرج ادريس من سـيطرة البربر على الحكم .

قرر ادريس الثانى بناء مدينة ليقيم فيها هو وخاصته وجيشـه ووجوه مملكته ، واشترى أرضا فى موضع مناسب لبناء مدينته ، وشرع العمال فى البناء فى موقع يقع بين جبلين صغيرين ، على ضفتى نهر صغير وهو نهر فاس ، وبدأ البناء فى سنة ١٩٢ هـ بعدوة الاندلس ، وقد سمى هذا الشق من المدينة فيما بعد باسم المهاجرين الذين أجلاهم الحكم ابن هشام عقب الفتنة الربضية ، وشيد ادريس سور المدينة ، والمسجد الجامع ، وأما عدوة القرويين فانها أسست سنة ١٩٣ هـ ، وأذن ادريس للناس ببناء الدور وغرس الاشـجار والبساتين حولها ، وبنى جامعا

متصـــلا بمنزله ، وهو المعروف بجامع الشرفاء ، وعقب اتمام أســـوار شقى المدينة والجامعين ، أنزل ادريس الثانى الوافدين عليه من الاندلس بالعدوة الشرقية ، فسميت عدوة الاندلس وأنزل الوافدين من القيروان الذين كانوا معه بالعدوة الغربية ، وســـميت عدوة القرويين ، ثم أمر بزيادة البناء والغرس والدور والمساجد والحوانيت ، وعمرت الارض وكثرت خيراتها ، وقصدها الناس من مختلف المناطق للاقامة والتملك ، وسكنها العلماء والادباء والتجار والصناع . وهكذا كانت مدينة فاس عبارة عن مدينتين منفصلتين مسورتين ، كلتاهما فى سفح جبل ، ويفصل بينهما نهر ، تمتد عليه جسور ، ويستمد مياهه من عين غزيرة ، وقد احتفظت كلتـــا العدوتين بكيانها على النمط الذى خططه ادريس الثانى حتى عهد ملوك زناته فى أواخر القرن الرابع الهجرى . فكـــان لكل من المدينتين مساجدها وأسواقها وولاتها .

حـــاول ابراهيم بن الاغلب التخلص من ادريس الثانى ، وذلك باحداث الفرقة بين أصحابه وحملهم على مبايعة الرشـــيد ولكن هذه المؤامرات باءت بالفشل ، ثم خرج ادريس سنة ١٩٧ هـ لغزو من بقى من الكفار بنفيس ، ودخل هذه المدينة ثم اتجه الى الجنوب ، واستولى على مدينة أغمات ، وبعدها أخضـــع البلاد بين المنطقتين ، ثم دخـــل تلمسان صلحا وقضى فى تلمسان ثلاث سنوات نظم أمورها ، وأضعف الخوارج ، وبعدها عقد هدنه مع الاغالبة ، أمن بها من بطش الاغالبة وتوفى ادريس الثانى سنة ٢١٣ هـ .

ويعتبر ادريس الثانى بحق المؤسس الحقيقى لدولة الادارسة وهى أول دولة كبيرة فى المغرب منذ الفتح الاسلامى — فقد تمكن من درء خطر الاغالبة ، وسيطر على البربر سيطرة كاملة ومد حدود مملكته — التى كانت تضم أوربه — عبر جبال الاطلس الاعلى فى جنوب مراكش حتى درعة ولذلك ضمن لنفسه الاستفادة من موانى المحيط الاطلسى والسيطرة على مضيق جبل طارق من طنجه وسبته قاعدتا الزحف الى الاندلس .

ومن أهم انجازات ادريس الثانى التوغل عبر الجبال المنيعة ومواجهة القبائل شبه المتوحشه المعتصمة بهذه الجبال ، والتى ظلت فى معزل عن الدنيا ، واجتاز ادريس الثانى هذه الصعاب ، ونشر الاسلام بين أهل هذه الجبال الذى امتد منها الى الصحارى الواسعة التى تمتد وراءها • ومن أهم انجازات ادريس القضاء على الخوارج الصفرية الذين أضعفوا بلاد المغرب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا أما خوارج بنى مدرار والدولة الرستمية فقد تعايش ادريس معها سلميا •

بلغت دولة الادارسة — كما قلت — أوج عظمتها فى عهد ادريس الثانى ، وأما عهد ابنه محمد بن ادريس ، فهو يمثل استقرارا للامور ، والمحافظة على المكاسب التى حققها أبوه ، وأعقبه عهد تدهور كبير بقيام الدولة الفاطمية بالمغرب ، والتنافس بينهم وبين الامويين فى الاندلس •

تأسيس مدينة فاس

فى الواقع نشأة مدينة فاس ، هو نشأة مدينتين احداهما قريبة جدا من الاخرى ، وان بقيتا مستقلتين برغم هذا سنة واحدة ويسترعى الانتباه كيف استطاع ادريس الثانى القيام بهذا العمل الضخم على الرغم من صغر سنه ، تأسيس مدينتين متباينتين فى مكان واحد ، وجعل لكل منهما سورا بدلا من احاطتهما معا بسور واحد ، وحقيقة الامر أن مدينة فاس قد بنيت فى سنة١٧٢ هـ عندما دخل المغرب ادريس بن عبدالله هاربا من تعقب أبى جعفر المنصور له حيث التف حوله البربر عند ذلك ، وجعلوه على رأسهم وبنوا له مدينة فاس على مستنقع عشبى ، وعندما حضرت الاسس — استكشفت فأس فى الأرض ، وهكذا سميت بمدينة فاس ، وضربت بها النقود ابتداء من تاريخ غير محدد ، ولكنه يرجع على الاقل سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م ، ويقضى ادريس الثانى ولايته فى المدينة الجديدة ولما كان ولعا بالتجديد ، بنى هو الاخر فى الجزء الواقع الى الغرب من نفس الموقع ، والذى وجده الافضل مدينة جديدة على

الطراز الشرقى ، أو على الطـراز الافريقى ، هذه المدينة أطلق عليها رسميا اسم العاليه ، ولعلهم سموها أيضـا فيا ذكر اليعقوبى اسـم أفريقية وهو اسم له علاقة واضحة بالاسم الذى انتهى به الامر الى أن صار شائعا على ألسنة الناس ، فقالوا مدينة القرويين أو مدينة القيروانية ، وبعد ذلك بتسع سنين سنة ٢٠٢ هـ كان حضـور القرطبيين المعروفين باسم ثوار الربض الى ادريس الثانى مؤديا الى اضعاف الصفة التى اتسمت به مؤسسة أبيه الواقعة على الضفة اليمنى من وادى فاس ، حين استقروا فيها ، وقد انشـأوا مدينة فاس على النمط الاندلسى ، وما لبثوا أن أعطوها طابعـا جديدا لمدينة منظمة لم يكن لها من قبل ، وهكذا لم يلبث اسم مدينة الاندلسيين أن حل محل الاسم القديم ، وهو مدينة فاس فصار يطلق بعد ذلك على كل الاقليم والمدينتين القائمتين فيـه ٠

كانت مدينة فاس فى عصر ادريس الاول لا تبـدو أكثر من أنها مدينة بربرية صـغيرة ولم يزل بمراكش أمثـلة عدة لهذا النوع من المدن مما يجعـل طابع القرى الرغوية خاصـة وهى غالبـا تكتلات قليـلة الكثافة الى حد ما تنشأ فى طريق جبلى أو فى الجبل نفسه ، وتكون محصنة تحصينا بدائيا ، حيث نجدها متراصة بوجه عام على سطح ينحدر الى بطن أحد الأودية ، وفيها سوق أسبوعى ٠ أما فى الداخل بيوت متواضعة ومراع للماشية ومخازن الغلال وجامع متواضع ٠

وفى عهد ادريس الثانى عاشت فاس فى رخاء وضربت فيها عملة سنة ١٨٥ هـ ، واستقبل فيها ادريس الثانى المهاجرين العرب الذين لجأوا اليه من الاندلس ومن أفريقية الاغلبية وكان وجودهم فى فاس مكسبا كبيرا لادريس الذى كان يشعر أنه فى عزلة وسط البربر ، وأخذ يستعد لاستغلال هذا العنصر المهم من العرب للتخلص من البربر ، وأخذ يستعد واتخذ بلاطا عربيا له وزير وكاتم سر وقاض من أفاضل العرب ٠

والظاهر أن الوزير عمير الذى تزوج عاتكة — ابنة ادريس الثانى —

قام بدور مهم حاسـم فى تأسـيس مدينة عدوة القروانيين ولا شـك أنه أقنع سيده الشاب بألا يقيم مقره فى مؤسسـة أبيه بمدينة فاس وأنه يستقر بقربها على الجزء الاكثر ماء من هذا الموقع ، وأن يحسن انشاءها المدنى الحقيقى الجدير بالمدن السـورية والاندلسـية الزاهرة فى ذلك الوقت ، فأنشـأ فى المدينة الجديدة قصرا للامارة ، كما بنى مسـجدا اسمه مسـجد الاشراف وكان لابد للمدينة الجديدة من أن تنمو سريعا ، وكان أحد أحيائها خاص بيهـود اسـتقروا فيه ، وتزعموا النشـاط التجارى ، على أن العرب والموالى كانوا فى الغالب من الفارين القروانيين ممن وفدوا لخدمة الحكومة الاغلبية بأفريقية • أما البربر فلم يكن لديهم ما يشكون منه ، اذ كانت لهم مدينتهم الخاصة ذات الطابع الذى يميز حياتهم ، وكانت قريبة من منازلهم •

ومن هنا نرى أن ادريس الثانى قد احتفظ بمدينة فاس لكى تكون سكنا لجنده البربر ولضباطهم •

وكل الدلائل تدل فى النهاية على أنه بينما كانت مدينـة ادريس الثانى تنمـو وتزدهر اذا بمدينة فاس القديمة تظل متأخرة فى مضـمار المدن العربية بل وتزداد اضطرابا لدرجة أنها بعد ذلك بعدة سنين عندما سمح الامير للقرطبيين من أهل الربض بالاقامة فيها ، لم تكن بلا شـك أكثر من مجرد تربة كبيرة تقوم عليها بيوت متواضعة من اللبن مغطاة بفروع الاشجار ، وكان على الاندلسيين أن يحسنوا مدينتهم سريعا ومع هذا فقد تركوا فى أحيائها المتطرفة طابعا ريفيا قويا •

حركات الخوارج فى المغرب

الاباضية فرقة من الخوارج ، وقبل أن نشير الى حركتهم فى بلاد المغرب فى أواخر العهد الاموى ، يجب أن نتكلم بايجاز عن الخوارج •

الخوارج مفردها خارجى ، وهم أتباع أقدم فرقة فى الاسلام ، وقد نشطوا فى أواخر عهد على بن أبى طالب ، وتولية معاوية الخلافة ، وأحدثوا اضطرابات كثيرة فى الدولتين الاموية والعباسية ، وقدر لبعض حركاتهم النجاح فترة من الزمن[١] •

نشأت فرقة الخوارج أثناء معركة صفين بين على بن أبى طالب ، ومعاوية ابن أبى سفيان ، وطلب جند معاوية تحكيم كتاب الله فى النزاع بين الفريقين ، وعارض فريق من جيش على التحكيم على اعتبار أن الرجال لا يصح أن يحتكم اليهم فى حكم الله • وهذا الفريق قوامه قبيلة تميم بالذات ، وهجروا جيش على قائلين لا حكم الا لله ، ثم تركوا الجيش ، وانسحبوا الى قرية حروراء غير بعيد عن الكوفة ، وارتضوا بعبد الله بن وهب الراسبى قائدا عليهم[٢] •

وسمى هؤلاء الخوارج الأوائل بالحرورية[٣] ، وانتعشت هذه الفرقة ، وانضم اليها القراء فى جيش على • بعد ما شعروا بالخذلان وخيبة الأمل من نتيجة التحكيم التى كانت فى صالح معاوية وفى غير صالح على وأظهر الخوارج مذهبهم وقالوا بعدم أحقية على فى الخلافة ، وأصبحوا يعتقدون أنهم وحدهم المسلمون ، ومن ليس على عقيدتهم كافر[٤] ، وعليهم رد هؤلاء الكفار الى حظيرة الدين ، وطعنوا فى مسلك عثمان ، وأبوا الثأر لمقتله ، وقوى أمر الخوارج شيئا فشيئا بتزايد

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية .
(٢) المسعودى : مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٥٥ .
(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٥٨ — ٦٠ .
(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ ١ ص ٣٣٤ .

المساواة بين الشعوب فى الاعتقاد وهو المبدأ الذى قال به الخوارج[١] .

وكان على بن أبى طالب قد عول على الزحف الى الشام لمحاربة معاوية ، واعادة الوحدة الى دولته ، بعد أن رفض قرار الحكمين لكنه علم أن الخوارج تجمعوا فى النهروان ، وقوى أمرهم واشتد خطرهم ، وقتلوا مخالفيهم ، وأشاعوا الذعر بين الناس ، وسبوا النساء وأشاعوا الخراب والدمار ، فتحول على الى النهروان ، وألحق بهم الهزيمة سنة ٣٨ هـ[٢] ، ونكل بهم ، لكنه مع ذلك لم يتيسر له القضاء عليهم وعلى آرائهم ، فظل بعضهم يقيم معه بالكوفة ، كما أقامت جماعة منهم بالبصرة ، وقتل على بن أبى طالب بيد أحد الخوارج سنة ٤٠ هـ . ولما قامت الدولة الاموية قوى شأن الخوارج ، واعترضوا على تولية معاوية الخلافة ، لانه لم ينلها باجماع كلمة المسلمين ، وخالف سيرة الخلفاء الراشدين باتخاذه الحرس والحجاب وتشييده قصر الخضراء مقرا له ، وقوى أمرهم فى البصرة والكوفة[٣] .

اشتد ولاة بنى أمية فى العراق فى قمع الخوارج ، وتعقبوهم ، ونكلوا بهم لكنهم لم يهنوا ولم يضعفوا ، وظلوا يعارضون الحكم الاموى ، ولما أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة فى مكة ، انضم اليه فريق من الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق وذهبوا الى مكة ليجاهدوا مع ابن الزبير ضد الحكم الاموى ، ويذودوا عن البيت الحرام[٤] .

على أن الخوارج اختلفوا مع ابن الزبير حول رأيه فى عثمان فقال لهم : انى ولى لابن عفان فى الدنيا والاخرة ، وولى أوليائه وعدو أعدائه ، فقالوا له : برىء الله منك يا عدو الله . ثم انصرفوا عنه .

---

(١) نشوان الحميرى : الحور العين ص ١٧٠ .

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ٣٨ هـ .

(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٠ هـ .

(٤) محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية ص ١٠٠ .

فسار جماعة منهم الى البصرة وفيهم نافع بن الازرق الحنفى وعبد الله ابن صفار السعدى ، وعبد الله بن اباض[١] .

ساد الاضـطراب بلاد العراق بعد وفاة يزيد بن معاوية ، وعجز ولاته عن مقاومة الخوارج ، فأعادوا تنظيم صفوفهم ، وأعلن نافع بن الازرق نفسه أمير المؤمنين فى الاهواز ، وبايعه أنصاره ، وعارض بيعته عبد الله بن صفار وعبد الله بن اباض ، وأتباعهما من الخوارج .

واصل الخوارج شن غاراتهم فى شرق الدولة الاسلامية . وكانت غاراتهم أشبه بحرب العصابات . ويرجع الفضل فى معظم انتصاراتهم الى سرعة حركة فرسـانهم فكانوا يتحـركون فجأة لا يتوقعهم أحد ، ويكتسحون البلاد ، ويباغتون المدن غير الحصينة ، ثم ينسحبون مسرعين تخلصا من مطاردة جيش الدولة لهم[٢] .

وكان على ولاة بنى أمية بعد القضاء على ابن الزبير أن يخوضوا حـربا لا هوادة فيها على الخـوارج الذين كانوا أعـداء لابن الزبير والامويين على السـواء . وانقسم الخوارج الى أزارقة وصـفرية واباضية وتعدّدت فتنتهم فى شرق الدولة الاسـلامية وازداد خطرهم نتيجة لاعمالهم التخريبية . وانتفاضـاتهم التى اتسمت بطابع العنف والقسوة بل والوحشية ، ولم تفت فى عضدهم ، ولم يضعفوا ولم يهنوا من بطش الامويين وتنكيلهم بهـم . على أن المهلب بن أبى صـفرة . والحجاج بن يوسف الثقفى . قد تمكنا بعد جهد جهيد وعناء شـديد دام عدة سنوات من هزيمة جموع الخوارج[٣] .

وكانت جزيرة العرب مسرحا لحركات الخوارج وبالذات بين عامى

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٤٢٣ .
(٢) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص ٩٦ .
(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٨٠ .

٦٥ ــ ٧٢ هـ حيث استولوا على اليمامة . وامتد نفوذهم الى حضر موت واليمن ومدينـــة الطائف ولم يمنعهم من الاســتيلاء على مكة والمدينة الا خوفهم من اثارة الشكوك فى دينهم . حقيقة نكل بهم الحجاج بن يوسف ولكنه لم يكن قضاء مبرما . فقد بقى أفراد من الخوارج فى بلاد اليمن يتهيئون للثورة ضد الحكم الاموى حينما تتاح لهم الفرصة . فيذكر الخزرجى(١) أن الخوارج قدموا الى صنعاء سنة ٧٢ هـ . فجمع وهب بن منبه الناس لقتالهم .. فقال له الناس : لا طاقة لنا بهم ، ونحن نخشى أن يستحلوا دماءنا فتفرق الناس . وصالحوا الخوارج على مائة ألف دينار .فاستعان أهل صنعاء بأهل المخاليف على المـــال . فأمدوهم بالمال . وتفرق الخوارج .

اضطربت الأمورفى الدولة الأموية بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ وتولية الوليد بن يزيد الخلافة ــ الذى قضى معظم أيام خلافته فى البادية . وبقى فى الخلافة سنة وشهرين . ثم قتل لســـوء سيرته سنة ١٢٦ هـ . وخلفه يزيد بن الوليد الذى توفى بعد خمسة أشهر وبويع أخوه ابراهيم ، وفى عهده تجلى الاضطراب فى البيت الأموى فلم يكن هناك اجماع على توليته . فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة ، وناس بالامارة .. وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما . وانتهى الأمر بعزله وقتله على يد مروان بن محمد(٢) . ولما ولى مروان بن محمد الخلافة تعصب للقيسية وطالب اليمنيين بدم الوليد بن يزيد . فثار عليه يزيـــد بن خالد القسرى بدمشق(٣) وانضمت اليه اليمنية فأرسل مروان الى دمشق جيشاً أخمد الثورة كما قضى على ثورات أخرى فى بلاد الشام قام بها اليمانية(٤) .

ولم يكد يستقر الأمر لمروان بن محمد فى بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك . ودعا أهلها الى خلعه . وانضمت

---

(١) الكفاية والاعلام ص ٦٨ .
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١١٦ .
(٣) ابن طباطبا : الفخرى ، فى الاداب السلطانية ص ١٢٣ .
(٤) الداينورى : الاخبار الطوال ص ٣٣٤ .

اليه اليمانية . فسار اليه مروان . وأوقع به[1] الهزيمة ولما كانت أكثر عرب الشام من العنصر اليمنى فقد آثر مروان بن محمد أن يتخذ حران حاضرة لدولته بدلا من دمشق حيث كانت تقيم القيسية عماد دولته[2] .

وكان مروان بن محمد من أقدر خلفاء بنى أمية فى الادارة والحرب والسياسة ، ولكنه ولى فى وقت كثرت فيـه القلاقل والاضطرابات فى الدولة ، وتعددت الثورات ، وانقسـم البيت الحاكم على نفسـه ، وانتشرت الدعـوة العـلوية فى الكثير من أرجـاء الدولة الاسـلامية ، ونجحت الدولة العباسـية فى اقليم خراسـان نجاحاً كبيراً . وازداد نشاط الخوارج .

قيـام الدولة الرسـتمية

قام نزاع بين حبيب بن عبد الرحمن والى العباسيين على أفريقية مع ورفجومة وما أنضم اليها من الخوارج وأضطربت الأمور فى أفريقية حيث دخلوا القيروان وربطوا دوابهم فى المسـجد الجامع ، وقتلوا كل من كان من قريش وسامت أهل القيروان سوء العـذاب ، وندم الذين دعوهم أعانوهم أشـد ندامة فى هذا الوقت . رأى الأباضـية فى منطقة طرابلس وجبل نفوسة الوقت قد حان ليكونوا لهم امارة مستقلة ينظمون فيها شؤونهم وفق تعاليمهم ومبادئهم ، ويكون على رأسها امام تتوافر فيه الشروط التى يجب أن تكون فى الامام كما يرى ذلك علماؤهم ويقول المؤرخون أن الأباضية فى منطقة طرابلس صاروا فى دور (الكتمـان) بعدما أقتتل الحارث بن تليد وعبد الجبار بن قيس الهوارى من طرف عبد الرحمن بن حبيب ، وظلوا كذلك حتى قـدم أبو الخطاب وأصحابه من المشرق ، فتطلعوا الى الخروج من هذا الدور الى دور (الظهور) وخاصة بعدما قدروا قواتهم . وقدروا مكان مدافعة عدوهم ورأوا أنهم قادرون على الدفاع عن كيانهم بعد ظهورهم .

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ١٥٦ .

(٢) المصدر السـابق جـ ٥ ص ١٥٧ .

وقد تطلب أمر الظهور منهم تعيين أمام يقـود حركتهم • وكان الامام الذى اتفقوا عليه هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعفارى الذى أشـار له بالامامة من قبل أبى عبيدة مسـلم بن أبى كريمة ، وقد أشترط الأباضية عليه أن يحكم بينهم بكتاب الله وسنة رسـوله وآثار الصالحين ، أما هو فقد اشترط عليهم — حتى يقبل الامامة — ألا يثيروا مسألة الحارث وعبد الجبار التى أحدثت الفرقة بين صفوفهم وقبلوا منه ذلك فبايعوه على القيام بحقوق الله ، وعلى ما فى الكتاب والسنة واتباع أئمة المهتدين ، وكان ذلك على رأس ١٤٠ هـ • وآتاه أهل القيروان داخلين فى حماه وطالعوه بما ارتكبـه الورفجوميون من ضروب البطش والظلم والفساد ، وأستباحة الأعراض وتدنيس المساجد • فلما بلغه ذلك غضب وأنكر من ورفجومة سـلوكها فتحركت فى نفسه عوامل الغـيرة على الاسلام • فأسـتنفر أتباعه من الأباضـية وشـايعة بربر طرابلس وفى مقدمتهم هوارة وزحف بجمـوعه يريد القـيروان لقتـال ورفجـومة ، فالتقى معهم وقـاتلهم ، ثم هزمهم وتبعهم يقتلهم ، ثم أنصرف الى القيروان •

تزعم أبو عبيدة حركة الأباضية السرية ، وأوجد مجتمعا متعاونا متماسكا ، وكون جماعة تعمل فى سرية وكتمان على نشر المذهب الأباضى وأنشـأ مدارس سرية لتعـليم الدعاة وتوجيههم ، وهؤلاء الدعاة الذين عرفوا بحملة العلم ، انتشروا فى بقاع العالم الاسلامى لنشر المذهب الأباضى ، وعرفوا بحملة العلم ، وقد وفقوا فى نشر المذهب الأباضى فى كثير من البلاد ، ومن بينها المغرب ، التى عرفت أفكـار الخـوارج منذ نشأتها • وأول من دعا للأباضية فى المغرب ، سلمة بن سعد الحضرمى فى أواخر القرن الأول الهجرى •

استقر سلمة بن سعد الحضرمى فى جبل نفوسة فى منطقة طرابلس وأخذ يدعو لمذهبة بين قبائل هوارة البربرية التى كانت تسكن فى تلك المنطقة ، وكان سلمة شديد الحماس ، متفانيا فى نشر مذهبه ، مضـحيا

فى سبيل ذلك بالنفس والنفيس ، وقد استطاع هذا الداعى اقناع بعض مؤيديه المتحمسين للمذهب بالذهاب الى البصرة للتفقه بأصول الدعوة الأباضية على يد زعيم الحركة فى البصرة الامام أبى عبيد مسلم بن أبى كريمة التميمى(١) .

وبعد أن انتشرت الدعوة الأباضية فى المغرب ، توافد الطلاب على البصرة لتلقى الدروس عن فلسفة المذهب ، ومن أبرز هؤلاء الطلاب عبد الرحمن بن رستم من القيروان ، ومكثوا فى البصرة عدة سنوات يتعلمون علوم المذهب الأباضى فى المدرسة السرية للاباضية هناك ، وعادوا الى بلادهم لنشر المذهب ، ودعاهم الامام بالرجوع اليه فى كل ما أشكل عليهم من أصول المذهب وقد نشط هؤلاء الدعاة فى نشر مذهبهم بين أهليهم من سكان المغرب ، وقاموا بتأسيس المدارس السرية على غرار مدرسة البصرة ، وتخرج على أيديهم عدد من الدعاة الأباضية المغاربة يسمون تلاميذ حملة العلم ، وأخلص الأساتذة والتلاميذ فى نشر دعوتهم ، واستطاعوا بعد اشتباكات ومعارك متعددة مع الولاة العباسيين فى المغرب ، أن يعلنوا امامة الظهور سنة ١٤٠ هـ ، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى اماما عليهم ، وتمكن الاباضية بقيادة أبى الخطاب من الاستيلاء على طرابلس ، ومعظم بلاد المغرب الأدنى ، والقيروان خاصة أفريقية .

تصدى الولاة العباسيون للحركة الأباضية الناشئة ، ورأوا ضرورة القضاء عليها فى مهدها ، فحاربهم الوالى العباسى محمد بن الأشعث الخزاعى سنه ١٤٤ هـ ، فقتل الامام الأباضى أبا الخطاب المعافرى فى معركة تاورغا سنة ١٤٤ هـ .

ويرى المؤرخون من الأباضية ما أن أبا الخطاب بعد انتصاره على ورفجومة وأهل القيروان الذين ناصروه طبق مبدأ الأباضية الذى

---

(١) عوض محمد خليفات : النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية فى شمال افريقية جـ ١٧ .

ينص على أن أموال المخـالفين ودماءهم حرام أخـذها ، ولا يحـل الا السلاح ، ومحاربة السلطان وجنده فقط ، لأن المخالفين ليسوا مشركين ولكنهم كفار نعمة .

وآثر أبو الخطاب أن يرجع الى طرابلس ، ويتخذها عاصمة له ، فغـادر القيروان بعد أن عين عليهـا ومن والاها من المدن عبد الرحمن ابن رستم الذى تلقى العلم معه فى مدرسة أبى عبيدة بالبصرة والذى سيصبح له شأن كبير فيما بعد عندما يؤسس دولة أباضية بالمغـرب هو وأولاده قرابة المائة والخمسـين سنة . ومن القـيروان استطاع عبد الرحمن بن رستم أن يراقب المغرب الأوسط عن كثب ، وأن يغذى المذهب الأباضى بالكثير من الأنصار والأتبـاع ، اذ رأى فى المغـرب الأوسط أمتـداد يحمى الدولة الناشـئة من طرابلس ويؤكد نظـرة عبد الرحمن بن رستم الى المغرب الأوسط ، ما تحدث عنه ابن خلدون من وجود تحالف وطيد بن عبد الرحمن بن رسـتم وقبيلة لماية البترية التى كانت تسكن فى هذا الاقليم .

لكن عبد الرحمن بن رستم لم ينعم بمقامه طويلا فى القـيروان ، وذلك لتطور الأحداث السياسية من جديد فى اقليم طرابلس . فبعد أن هزم أبو الخطـاب عبد الأعلى بن السـمح ورفجومة وفد جمـاعة من رجالات العرب بها على الخليفة المنصور واستصرخوه على الخوارج ، وشكوا اليه تسلقهم على كرسى الامارة بالقيروان .

فولى المنصور محمد بن الأشعث الخزاعى على مصر وأفريقية . وسير من مصر جيشاً من المسودة بقيادة أبى الأحوص عمر بن الأحوص العجـلى لاسـترجاع المغرب وكان ذلك سـنة ١٤٢ هـ فخرج اليـه أبو الخطاب ، فالتقوا بمقداس على شاطىء البحر ، فانهزم أبو الأحوص وأصحابه ، وأحتوى أبو الخطاب على عسكرهم . ورجع أبو الأحوص الى مصر ، وأنصرف أبو الخطاب الى طرابلس . وكانت أفريقيـة كلها فى يديه .

ولم ينعـم أبو الخطاب بالنصر الذى أحرزه ، اذ مالبث أن رأى

جيوش العباسيين قادمة الى المغرب لاستعادة نفوذها وسيطرتها عليه ، ففى سنة ١٤٣ هـ أتصل بأبى الخطاب أن محمد بن الأشعث والى مصر والذى عينه أبو جعفر المنصور كقائد الجيوش الى المغرب عازم على محاربته فخرج اليه أبو الخطاب فى زهاء مائتى ألف فعسكر بهم فى أرض سرت ، وأتصل ذلك بمحمد بن الأشعث . فسار اليه فى أربعين ألفا ومعه الأغلب بن سالم التميمى ، فالتقوا بأبى الخطاب ، وكان قد جمع أصحابه من كل ناحية ، ومضوا فى عدد عظيم ، فضاق ابن الأشعث ذرعا بلقاء ابن الخطاب لما بلغه من كثرة جيوشه . وانهزم أبو الخطاب ومن أسباب انهزامه حدوث انقسام فى جيشه ، حيث تنازعت زناتة وهوارة بسبب قتيل من زناتة ، فأتهمت الأخيرة أبا الخطاب بأنه يميل الى هوارة وافترقت جماعة من المعسكر بسبب ذلك .

ويقول المؤرخون أن أبا الخطاب عندما وصل الى (تاورغا) من أرض سرت وهى على مسيرة ثمانية أيام من طرابلس هو وعسكره تاقت نفوسهم الى الجهاد فى سبيل الله ، وألتقى بابن الأشعث وأشتد القتال ، فكانت الرجال فى الميدان تتهدم كالحيطان ، ولم يبرح أبو الخطاب وأصحابه حتى استشهدوا جميعا وكانوا فى أربعة عشر ألفا أو أثنى عشر ألفا .

وكان مقتل أبى الخطاب وعامة من معه فى صفر : كما يروى ابن الأثير أو ربيع الأول كما يروى النويرى سنة أربعة وأربعين ومائة . فاجتز ابن الأشعث رأس أبى الخطاب وبعث به الى المنصور ببغداد .

وعندما علم الأباضية بقتله هربوا الى الجبال ، ولجأوا الى الحصون المنيعة والقلاع العالية ، ورجع عبد الرحمن بن رستم عامل القيروان . عندما علم بالهزيمة بعدما انتهى الى مدينة قابس ، وكان فى طريقه الى أبى الخطاب مع المدد الذى طلبه منه . وقبل أن يدخل القيروان ، علم أن أهلها أوثقوا عاملها فى الحديد ، وولوا عليهم عمر بن عثمان القرشى من الموالين للخلافة فاتجه الى تاهرت بالمغرب الأوسط حيث جمع حوله الأباضية ، وأسس دولة هناك .

على كل حال — أثمرت اتصالات ابن رستم بأباضية المغرب الأوسط ، فآزروه فى حصار عمر بن حفص بطبنه ١٥١ هـ/٧٦٨ م وكانت هزيمتهم فى تهوده فى نفس العام سببا فى اقتناعهم بضرورة تأسيس دولة تجمع شمل أباضية المغرب وإنشاء مدينة تكون قصبة الدولة ومركزا للمذهب ، وكانت هذه الدولة اسلامية فى قضائها ، عربية فى معارفها ، بربرية فى عصبيتها ، فارسية فى ادارتها .

وأقام عبد الرحمن بن رستم بين قبائل لماية ، واستقر رأى الأباضية على تنصيب عبد الرحمن بن رستم لما رأوا فيه من حميد الخصال ومجيد الأعمال وقالوا (يا عبد الرحمن رضيك الامام أبو الخطاب فى ابتدائنا ونحن الان نرضى بك ونقدمك على أنفسنا ، فقد علمنا أنه لا يصلح أمرنا الا امام نلجأ اليه فى أمورنا ونتحكم اليه فى قضايانا فقال لهم ان اعطيتمونى عهد الله وميثاقه على الطاعة فيما وافق الحق وطابقه قبلت ذلك منكم فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك وشرطوا عليه مثلما شرط عليهم ، وقدموه على أنفسهم وألقوا اليه بأيديهم . ثم قالوا له لابد لنا من امامة ظهور بعد تأسيس مدينة حصينة منيعة بعيدة عن مهاجمات العدو وتكون مأوى ومقر لامامتنا وملجأ لنا فى حربنا وسلمنا فأجابهم عبد الرحمن الى ذلك واستحسن رأيهم . فأختاروا من أهل العلم والخبرة بالأرض جماعة ليرتادوا مكانا جيد الهواء كثير الحياة خصب الأرض ، قابلا للعمارة . مأمونا من العدو كما طافوا أقطار تلك الجهات الى أن عثروا على المكان الذى بنيت فيه وهى فى سفح جبل يقال له جزول . ولما أراودا بناء المدينة أى تاهرت كانوا يبنون النهار كله ، فاذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهى الحديثة وتبعد عن تاهرت القديمة بخمسة أميال . وكانت تاهرت القديمة موجودة قبل ذلك التاريخ فالمدينة قديمة ترجع الى العصر الرومانى ثم البيزنطى ولقد جاء ذكرها أيام الفتوح الاولى سنة ٦٢هـ/٦٨١ — ٦٨٢ م .

دخول عبد الرحمن بن رستم المغرب الاوسط وبناء مدينة تاهرت :

لما علم عبد الرحمن بن رستم بمقتل أبى الخطاب عبد الأعلى عبد السمح ، وجد أن من الاسلم له ولاتباعه النجاة الى المغرب الاوسط حيث يستطيع بفضل أنصاره هناك أن يعيد انشاء دولة على المذهب الأباضى على نسق دولة أبى الخطاب فى طرابلس •

فخرج مستخفيا هو وأبنه عبد الوهاب وعبد لهما متوجهين الى أرض المغرب وليس معهم حمولة ولا مركوب غير فرس واحد فمات الفرس فى بعض الطريق فدفنوه مخافة أن يقتفى أثرهم أحد من حزب عبد الرحمن بن حبيب فيطمع فيهم ، فسمى ذلك الموضع قبر الفرس ، ولما كانت المسافة الى لماية طويلة والتى توجه اليها عبد الرحمن بن رستم لحلف قديم بينه وبينهم فقد كان من الطبيعى أن يحس عبد الرحمن ابن رستم بالتعب ، لكبر سنه وشيخوخته تعاون معه ابنه يحمله تارة ويحمله العبد تارة أخرى •

وأخترق شمال وادى سوف ، وسار الى سوفجج غاية المنعة والحصانة لصعوبة مرقاه •

وبهذا الجبل لحقه من طرابلس ستون شيخا من شيوخ الاباضية ، من أكابر العلماء وأهل الرأى ، وتنازعت قبائل هواره ولواته ، ولماية بالانضمام اليه ، والالتفاف حوله • ولما علم ابن الأشعث فى القيروان بتمكن ابن رستم من الفرار الى المغرب الاوسط أقبل مجدا فى طلبه فأخبر بانه فى جبل منيع فقصده حتى وصله فحاصر عبد الرحمن بن رستم بعد أن خندق على عسكره مخافة أن يأتيه أبن رستم وأصحابه ، فأطال المكث تحته ، وسئم جنده بعد أن فشى بينهم وباء الطاعون ، فهلك منهم عدد كبير ، وقد اضطر الى فك الحصار والعودة الى القيروان ، وعبر عن صعوبة فتح الجبل بقوله أن سوفجج لا يدخلها الا دارع ومدجج •

فأنتقلوا بذلك الى تاهرت الحديثة وبقبيلتها لواته وهوارة ويغربها زواغة ويجوفيها مطمامة وزناته ومكناسة وكانت الأرض التى بنيت تكتنفها غابة ملتفة بالأشجار ، يسكنها أنواع من الوحوش فاستأنسوا فأتفق على بنائها وكانت أرضا صالحة للزراعة حيث تنبع فيها العيون الطبيعية ويجرى فيها نهر لا ينقطع ماؤه أسمه نهر مينة وهو فى قبليها ونهر آخر يجرى من عيون تجتمع تسمى تاتش ومن تاتش شرب أهلها وكانت هذه الأرض ملكا لقوم مستضعفين من مراسة وصنهاجة فساومهم عبد الرحمن على البيع فأبوا فوافقهم على أن يؤدوا الخراج من الأسواق ويقول النفوسى فى روايته أنهم أمروا مناديا فنادى بأعلى صوته يا من بها من الوحوش والسباع ان اخرجوا وارتحلوا فانا نريد عمارتها ونازلون بها ولكم أجل ثلاثة أيام ولم تمر الاجل ولم يبق من تلك الوحوش شىء فأوقدوا شجرها نارا ، ولما خمدت النار وتمت تنقية الأشجار • وصارت صالحة للعمارة • شيدوا مسجدها الجامع ، وكان يتألف من أربع بلاطات وكان لهذا الجامع مصلى للجنائز • وبديهى أن يهتموا بتحصين المدينة وحمايتها فأقاموا سورا حولها وجعلوا لها أبواب أربعة وهى باب الصفا وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن وأصبحت المدينة الجديدة فى مأمن من اعدائها ، ولا غرو فقد أطلق عليها معسكر عبد الرحمن وقيل معسكر المبارك •

ولقد أعجب بهذه المدينة جميع المؤرخين • اليعقوبى الذى كان معاصرا لائمة بنى رستم يصفها بقوله : والمدينة العظمى مدينة تاهرت جليلة المقدار عظيمة الامر تسمى عراق المغرب ، بها أخلاط من الناس تغلب عليها قوم من الفرس يقال لهم بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم الفارسى •

امامة الامام عبد الرحمن بن رستم (١٦٠ ــ ١٦٨ هـ / ٧٧٦ ــ ٧٨٣ م) :

كان تأخير اعلان الدولة ومبايعة امامها دهاء كبير من عبد الرحمن ابن رستم وصحبه ، أنهم لو أعلنوها قبل أن ترسخ عروقها ، ويشتد جذعها ، وتدخل فى شبابها ، لجعلها العباسيون نصب أعينهم . فلربما حشدوا لها من الجيوش الكثيفة ما حشدوا لدولة أبى الخطاب فينقضون عليها ، ولكنهم تمهلوا ، فنظموا كل أمورهم فى الداخل وحلوا كل المشاكل ، ووحدوا صفوفهم ، وبنوا عاصمتهم ، فبرزت شخصية الدولة وبدت سامقة فى الوجود ، وأصبح فى استطاعتها الوقوف فى وجه العباسيين .

وشرع عبد الرحمن بعد بيعته فى العمل على توطيد حكمه وارساء دعائم دولته ومواجهة المشاكل المصاحبة لقيام الدول سواء فيما يتعلق بسياستها الخارجية أو الداخلية وآثر بسياسة المهادنة فى الخارج ، فقد حرص على موادعة عمال بنى العباس وفى هذا الصدد يقول ابن خلدون ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة أحدى وسبعين ومائة فى موادعة صاحب القيروان روح بن قبيصة بن المهلب فوادعه وانكسرت شوكة البربر واستكانوا وتمكن الاسلام من قلوبهم ، وفرض على البربر الضرائب الشرعية ، وصاهر بنى مدرار .

ولما أطمأن الى سلامة دولته من الاخطار الخارجية شرع فى ارساء دعائمها . وكان عليه أن يبسط نفوذه على سائر القبائل داخل حدودها ويستكمل انشاء عاصمتها ويرسى دعامها . ويبسط نفوذه على سائر القبائل داخل حدودها ويستكمل انشاء عاصمتها ويرسى نظمها فى الحكم والادارة .

وعكف عبد الرحمن على تنظيم وتوطيد سلطانه ، ولا شك أنه استفاد من عبقرية الفرس فى الحكم والادارة ، ومع ذلك فقد غلب الطابع الدينى المذهبى على ما أتخذه من اجراءات فى هذا الصدد فكانت دولته مستقرة

وسيرته حسنه وقضاته مختارة ، وبيوت أمواله ممتلئة وأصحاب شرطته وعماله ، قائمون بما يجب ، وبفضل قدرته على ايلاف العناصر والعصبيات المختلفة داخل الدولة (لم ينقم عليه أحد فى خصومة ولا حكومة ولم يكن على يديه افتراق .

وفى سنة ١٦٠ بويع أبن رستم بالامامة بعد أن أرسى قواعد الدولة ووطد أركانها بحيث أصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها ، وهاجر الى تاهرت كثير من المشارقة والمغاربة والاندلسيين وقصدها التجار والكتاب ورجال الصناعة والفن من سائر أنحاء العالم الاسلامى وكان لذلك أعظم الاثر فى اتساع عمرانها ونمو تجارتها واتساع مواردها الاقتصادية .

ولما أحس عبد الرحمن بن رستم بقرب دنو أجله أقتدى بعمر بن الخطاب فاختار سبعا من خيرة رجال دولته ممن يتوسم فيهم الزهد والصلاح منهم مسعود الاندلسى ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وعمران بن مروان الاندلسى ويزيد بن فندين ثم توفى عبد الرحمن فى سنة ١٧١ . ثم اجتمع المرشحون للامامة شهرا وانتهوا الى اختيار عبد الوهاب ، وتمت مبايعته بالامامة . ولكن ابن فندين أحد المرشحين للامامة عارض فى امامته وأخذ يعمل على اشعال نار الفتنة وأنكر امامة عبد الوهاب من أصلها بدعوى أن فى المسلمين من هو أعلم منه ، وأدى ذلك الى حدوث انقسام مذهبى عند الاباضية الى نكارية ووهابية ، ثم دبر ابن فندين مؤامرة لقتل عبد الوهاب ، ولكن المؤامرة فشلت ، وقامت المعارك فى المدينة بين أنصار كل من الفرقتين وانتهت بهزيمة النكارية ومصرع رئيسها ابن فندين .

ولما توفى الامام عبد الوهاب فى سنة ٢١١ خلفه ابنه الامام أفلح . وفى عهد أفلح ساد الامن فى البلاد ووصلت حضارة الرستميين الى ذروتها ، وتوالى على الامامة بعده ولده أبو بكر ، ثم أبو اليقظان محمد ثم أبو حاتم يوسف بن محمد وآخرهم الامام اليقظان بن أبى اليقظان محمد ، الذى انقرضت الدولة الرستمية على عهده .

وكان من الطبيعى أن تتوتر العلاقات السياسية بين الاغالبة والرستميين ، اذ أن أمراء بنى الاغلب كانوا يمثلون الدولة العباسية كما أنهم كانوا ينازعون الرستميين أملاكهم بطرابلس الغرب ، وفى مقابل ذلك قامت بين الرستميين والامويين فى الاندلس علاقات ودية ، لأن العباسيين الذين كانوا يحاربون بنى أمية فى الاندلس ، كانوا أيضا أعداء للاباضية فى تاهرت ، فقامت بين قرطبة وتاهرت علاقات تجارية ، وكانت السفن تتردد بين وهران والمرية • وكانت تاهرت تضم جالية كبيرة من أهل الاندلس • وكان لافلح بن عبد الوهاب مع أمراء بنى أمية فى الاندلس مواصلة وأرتباط ومودة بها يودونه بالهدايا النفسية ويهاديهم بمثلها ، وظلت العلاقات الودية مع الاندلس قائمة فى عهد ابنه أبى اليقظان محمد ، وكان أبو اليقظان لا يتخذ قرار الا بموافقة محمد بن عبد الرحمن الأوسط •

وازدهرت الحياة العلمية فى تاهرت ازدهارا كبيرا ، فقد كان أئمة الدولة الرستمية علماء كرسوا حياتهم للعلوم ونشرها وشاركوا مشاركة فعالة فى الحركة العلمية فكانوا يتولون التدريس فى جامع تاهرت ، وكان عبد الرحمن من كبار علماء عصره برع فى علوم الدين واللغة والفلك وأقبل على التأليف ، وكان ابنه عبد الوهاب تواقا للعلم محبا له وكان يبعث الأموال الى العراق لشراء الكتب ولا يمل قراءتها • واشتهرت تاهرت بمكتبتها التى كانت تضم نحوا من ٣٠٠ ألف مجلد وقد حرقت هذه المكتبة على أيدى الفاطميين ومن حيث الحياة الاقتصادية توسع الرستميون فى الانتاج الزراعى بتوافر المياه وخصوبة الارض وغزارة الامطار • والى جانب الثروة الزراعية اعتمد الرستميون على التجارة البحرية مع الاندلس والبرية مع السودان وعانة وسجلماسة والمغرب الاقصى • وقد جنت الدولة الرستمية بسبب التجارة مكاسب هائلة فازدهر العمران وأشرقت الحياة وتألقت ، وتعددت المبانى والمنشآت وقد تبقى بعض آثار العمائر الرستمية فى الصحراء الجزائرية • حيث استقرت حتى اليوم بعض الاسرات الاباضية •

ومن نظم الاباضـية مجلس العزابة ، ويؤسـس فى كل مدينة أو منطقة ، يدين معظم سكانها بالمذهب الاباضى ، ولهذه الجماعة رئيس ينتخبونه من بين أعضائها ، ممن اشتهر بالسيرة الحسنة والعدل والغيرة على المذهب الاباضى ، وشؤون أفراده ، ومن بين هؤلاء الجماعة قضاة يحكمون فى المنـازعات التى قد تقع بين أفراد المذهب ، ومن بين هؤلاء شـيوخ لتعليم أبناء المذهب ، فكانت[1] مجالس العزابة تعقد فى مقر سرى ، وكان أعضـاء مجلس العزابة يسـتعملون فى قراراتهم السرية ألفاظا غير معروفة للاحتفاظ بسرية المذهب .

ولمجلس العزابة مهام دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية مثل الاشراف على المساجد والجوامع ، وضـمان تطبيق المذهب الاباضى وتعيين القضاة ، وتأليف الكتب ، وارسال الوعاظ الى تجمعات الاباضية لتفقيه الناس بأصول المذهب ، ومن مهام المجلس تنظيم العلاقات بين الاباضية فى المدينة والاباضية فى المناطق الأخرى سواء كانوا فى شمال افريقية أو فى زنجبار أو عمان ، وابرام الاتفاقيات مع الدول الاسلامية سواء فى شمال افريقية أو فى الدول الاخرى ، ويحرص المجلس على تكوين مجتمع اباضى يسـوده المحبة والوئام ، وذلك عن طـريق القاء الخطب والمواعظ واسداء النصائح والارشادات التى تدعو الناس الى التضامن والتمسك بالمذهب ، وكذلك مساعدة الاغنياء للفقراء حتى يخلو المجتمع الاباضى من الحقد والحسد ، ويحترم الاباضـيون بعضـهم بعضا ، وكان مشايخ الاباضية يراقبون الاسواق ، وينهون الناس عن الغش والربا وأنواع المعاملات التى لا يقرها الاسلام .

أنشأت مجالس العزابة فى المناطق التى يدين فيها الناس بالمذهب الاباضى مدارس للتعليم داخلية خاصـة بالتلاميذ الاباضـية ، وذلك للمحافظة على المذهب .

ويرأس المدرسة الاباضية الشيخ ، وهو المسؤول الاول فى المدرسة ،

(١) المصدر السابق .

ومن مهامه قبـــول الطلاب وتحديد المنـــاهج وتعليم الطلاب ، والنظر فى ادارة المدرسة وميزانيتها •

وقد حافظ نظام العزابة على وحدة الجماعة الاباضية وســـاهم فى نشر اللغة العربية بين بعض القبـــائل البربرية وكان علماء الاباضـــية يرتحلون الى الحواضر العريقة لتعلم فنـــون اللغة العربية واتقانها ، وقد حرص مشايخ العزابة على نصح طلابهم بالتزود بعلوم العربية واتقانها وذلك لفهم القرآن الكريم وعلوم التفسير والحديث وساهم شرط حفظ القرآن الكريم فى مدارس العزابة على تعلم اللغة العربية •

وساهم شيوخ الحلقة وتلاميذهم الى جانب التجار الاباضية فى نشر الاسلام فى بعض البلاد الافريقية جنوب الصحراء ، ونشر الاسلام طبقا للمذهب الاباضى فى بعض بلدان البربر ، كما ساهم هذا النظام فى نشر التعليم بين أبناء المذهب الاباضى[١] •

وقام شيوخ العزابة بنشاط كبير فى تأليف الكتب التى تبحث فى العلوم الاسلامية على المذهب الاباضى ونظام العزابه فيه من القسوة بحيث لا يترك للطالب فراغا ، كما عزل أتباع المذهب عن بقية اخوانهم من أصـــحاب المذاهب الاخرى بدعوى السرية والمحافظة على تراثهم وعدم كشف أسرارهم لمخالفيهم خوفا من تعرضهم للاذى والعدوان ، بل كان شـــيوخ العزابة يمنعون طلابهم من قراءة كتب بقية المسلمين[٢] حتى لا يضلوا •

دولة بنى مدرار

كان أهل ســـجلمانسة من مكناســـه يعتنقون مذهب الصـــفرية ، وتعلموه من مشايخ وفقهاء الخوارج الذين وفدوا على بلادهم ، وولوا عليهم سودانيا يســـمى عيسى بن يزيد — من موالى العرب — ويلاحظ

---

(١) المصدر السابق ص ٩٣ •
(٢) المصدر السابق ص ٩٤ •

أن الصفرية والاباضية كانوا من أكثر المذاهب الخارجية انتشارا فى المغرب عقب الفتح العربى ، كما كانوا أكثر المذاهب تسامحا واعتدالا مع المخالفين لمذهبهم •

ومؤسس الدولة المدرارية سودانى أسود اللون يسمى عيسى بن يزيد ، وأخذ يستأثر بالاموال فى أواخر أيامه ، مما أثار معارضة مواطنيه ، وتصدى له زعيم المعارضة ويسمى أبو الخطاب الصفرى ، وقال لاصحابه فى مجلس عيسى بن يزيد : « السودان كلهم سراق حتى هذا » وأشار الى عيسى ، فأخذوه وشدوه وثاقا الى جذع شجرة فى الجبل بعد أن طلوه بالعسل ، وتركوه حتى قتله البعوض والنحل والنمل فى سنة ١٥٥ هـ

ويشير الاستاذ الدكتور محمود اسماعيل الى أن تقليد عيسى ابن يزيد الاسود ، امامة الصفرية ، كان مرتبطا بتفوق عنصر السودان على سائر العناصر الاخرى المقيمة والمستقرة فى هذا الاقليم ، كما كانت هجرة مكناسة الى هذا الاقليم سببا فى سيطرتها على مصائر الدولة واحتكارها للامامة وتفوقها على سائر العناصر والقبائل الاخرى التى اختفى صوتها تماما فيما حدث من صراع على الامامة بين أفراد بنى مدرار المكناسيين ، وبايعوا كبيرهم أبا القاسم سمكو بن واسول بن مصلان ابن أبى نزول ، وكان من أنصار عيسى بن يزيد ، وهو الذى دعا أهله الى طاعته ، وظل يحكم هذه البلاد حتى وفاته سنة ١٦٧ هـ ثم خلفه ابنه الياس ، ولكنهم خلعوا طاعته ، وعزلوه سنة ١٩٤ هـ ، وولوا مكانه اليسع بن أبى القاسم فلم يزل أميرا عليهم ، وشيد سور سجلماسه ، وفى عهده قويت دولته الصفرية ، وأكمل بناء سجلماسه واختط القصور ، والدور ، والاسواق •

ولقد حرص الصفرية على انشاء هذه العاصمة فى مكان حصين ، فأقاموها فى موسطة الصحراء جنوبى تلمسان بعشرة مراحل ، وأسس الصفرية حصنا فى وسط المدينة أسموه العسكر ، كما أسسوا المسجد الجامع ودار الامارة ثم أقبل الناس على بناء دورهم حول الحصن •

فاتسع العمران حتى جاوزت المدينة فرعى نهر ملوية ، وشـيد لها سـور وأربعة أبواب •

ومما ساعد على ازدهار الحياة الاقتصادية فى سجلماسة توفر الماء فيها الصادر من نهر ملوية ، وشقت فيها الترع وغرست أشجار النخيل والفاكهة ، فتحولت الحياة من الرعى والبداوة الى الزراعة والاستقرار ، وقد أغرى الازدهار الاقتصادى لسجلماسة الصفرية فى أنحاء بلادالمغرب الى الرحيل اليها ، والاستقرار بها •

وتحسنت العـلاقات بين الصفرية وبين الدولة الرستمية المجـاورة وبزواج ابنه مدرار من ابنة عبد الرحمن بن رستم — أمير تاهرت — •

ولى مدرار حكم سجلماسه خلفا لأبيه سنة ٢٠٨ ولقبـه المنتصر ، وطال أمر ولايته ، وكان لها ولدان يدعى كل منهما مأمونا ، أحدهمـا من زوجته الرستمية والآخر من زوجـة أخرى تدعى بقيـة ، فعرف ابنهـا بميمون بن بقية وكان المنتصر يفضل ابن الرستمية على أخيـه حتى أنه عهد اليه بولاية العهد ، وكان ذلك انتصارا لأباضـية سجلماسه ، ودخل الاخوان فى صراع مرير ، اسـتمر ثلاث سـنوات ، ولم يستطع المنتصر انهاء هذا الصراع لذلك خلع نفسه ، وعهد الى ابن الرستمية بعد طرده ابن بقيـة من سجلماسه ، وأغضبهم هـذا التصرف شـيوخ الصفرية فى سجلماسه ، لانتهاكه تعاليم المذهب من ناحية ، ولخوفهم من وقوع البلاد تحت سيطرة الأباضية من ناحية أخرى ، فخلعوا ابن الرستمية ، وان كان قد رفض الامامة ، لذلك أعادوا أباه مدرارا الى الامامة •

لكن المنتصر أرسل الى ابنـه ابن الرستمية يطلب منـه العودة الى الحكم ، فخلعه شيوخ الصفرية ، وولوا ابنه ميمون ابن بقية سنة ٢٢٩هـ ، ولقبوه بالأمير ، وظل يحكم البلاد حتى وفاته سنة ٢٦٣ هـ ، وكان قد نفى

الى قــرية سجلماسه ، وخلفه ابنه محمد ، وكان أباضيا وتوفى ســـنة ٢٧٠ ه ، فخلفه اليسع بن المنتصر ، ووفد عليه عبيد الله المهــدى وابنه ، فزجهما فى السجن ، الى أن سار أبو عبــد الله الشيعى ، فأفرج عنهما ، ودخل مع أبى عبد الله الشيعى فى معركة قتل فيهــا سنة ٢٩٦ ه ودخلت سجلماسه فى حوزة الدولة الفاطمية الناشئة وبذلك سقطت الدولة المدرارية سنة ٢٩٧ ه .

الدولة الاسماعيلية الأولى

فى اليمــن

تزعم جعفر الصادق العلوى فى أواخر العهد الأموى ، وهو الامام السادس عند طائفــة الامامية ، وترى هذه الطائفة أن الامامة يجب أن تنحصر فى أبناء على الحسينيين ، وأنها لا تنتقل من أخ الى أخ بعــد أن انتقلت من الحسن الى الحسين ، ولا تكون الا فى الاعقاب ، وقد انقسم الامامية الى فرقتين بعد وفاة جعفر الصــادق سنة ١٤٨ هـ ، الاماميــة الموسوية والامامية الاسماعيلية • وسبب هــذا الانقسام ما قيل من أن جعفر الصادق ، عزل ابنه الأكبر اسماعيل — صــاحب الحق فى الامامة من بعده — لأنه نسب اليه أمورا تتنافى مع الدين ، وعهد الى ابنه موسى فرفض فريق من الامامية نقل الخلافة من اسماعيل الى موسى • وبذلك ظهرت فرقتان : الاسماعياية والموسويه •

بايع الاسماعيلية محمد بن اسماعيل بن جعفر الصــادق بالامامة ، بعد وفاة اسماعيل فى حياة أبيه ، ووفاة جعفر ، وظلت الامامة الاسماعيلية، التى ترى أن الامامة لا تنتقل من أخ الى أخ ، وأصبح محمد بن اسماعيل الامام السادس عندهم •

حرص الأئمة الاسماعيلية على نشر دعوتهم سرا ، خوفا من بطش بنى العباس فكان محمد بن اسماعيل يتنقل فى البلاد الاسلامية النائية ، خوفا من أن تلاحقه عيون بنى العباس ، حتى استقر به المقــام فى قرية تدعى سـمــلا بالقــرب من جبل دماونــد •• وأطلق عليهــا فيما بعــد — محمد أباد — •

اســتقر الامام عبــد الله الرضى فى سلمية — من أعمال حمص — وأصبحت دار هجرة للائمة الاسماعيلية ، ولما توفى عبد الله ، تولى ابنــه امامة الاسماعيلية •

وكان الدعاة ينبثون فى أرجاء العالم الاسـلامى يدعون الى المهدى المنتظر فى سالميه ويبشرون بقرب ظهوره ، ولمـا ولى الحسين بن أحمـد الامامة خلفـا لأبيه ، بذل كل جهـد لنشر الدعوة الاسماعيلية فى البلاد الاسـلامية •

بث الاسماعيليون دعاتهم فى سائر أنحاء العالم الاسلامى لتحقيق حلمهم المنشود وهو اقامة دولة اسماعيلية ، ولجأوا الى الستر ، ورأى الدعاة فى بلاد اليمن أرضا صالحة لنشر دعوتهم واقامه الدولة الفاطمية فيها ، نظرا لطبيعة البلاد الجبلية الوعرة وتضاريسها المعقدة ، وصعوبة سيطرة العباسيين عليها •

وكان الدعاة يلتقون بالشيعة المتحمسين فى الكوفة ، ويقربون اليهم من يلتمسون فيه الكفاءة والمقدرة وقوة الشكيمة ونفاذ البصيرة • وممن قربوه اليهم ، أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان الكوفى، وهو من ولد عقيل ابن أبى طالب ، وكان متعمقا فى دراسة علوم القرآن الكريم ، والفقه والحديث مخلصا لعقيدته الشيعيه ، على مذهب الاثنى عشرية (١) •

وقـد التقى بالامام الفـاطمى الحسين بن أحمد الذى تعرف على فضـله وعلمه ، ولا يمكن قبول ما ذكره بعض المؤرخين مثل الحمـادى اليمانى والجندى من أنه التقى بعبيد الله بن ميمون القـداح أو بميمون القداح نفسه ، لأنهما قد توفيا قبل مولد ابن حوشب بكثير ، كما أن ابن حوشب ، لم يذكر أنه اتصل بأحد منهما ، وقال ان الامام الحسين بن أحمد كان يخصنى ويقربنى ، ويرمز بقرب الأمر ودنو العصر (١) •

---

(١) الاثنا عشرية يقولون ان الامامة بعد موسى الكاظم ، تنتقل الى ابيه على الرضا ثم الى اعقابه من بعده حتى الامام الثانى عشر ، وهو محمد المنتظر ابن الحسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضـا ، وعرفت هذه الطائفة باسم الامامية الاثنا عشرية ، لانتظارهم امامهم الثانى عشر ، ويقال ان امامهم الثانى عشر دخل سردابا فى مدينة سامرا سنة ٢٦٠ هـ واختفى على اثر ذلك الاثنا عشرية ينتظرون عودته ليملأ الدنيا عدلا بعد ان ملئت ظلما وجورا •

(النوبختى : فرق الشيعة ص ٥٧ وما بعدها)

ومهما يكن من أمر فان الامام الفاطمى لقن ابن حوشب[١] أسرار الدعوة الفاطمية ووجهه الى بلاد اليمن ، وقال له : يا أبا قاسم . البيت يمانى والركن يمانى والدين يمانى ، والكعبة يمانيه ، وعهد اليه بأمر بث الدعوة الفاطميه فى بلاد اليمن وأن يتنبأ الناس بأن شمس الدولة الفاطميه ستظهر فى اليمن[٢] .

وفى نفس الوقت تعرف الدعاة الفاطميون على ، على بن الفضل الجيشانى — وهو يمنى من بنى جيسان — وكان تسيعيا اثنى عشريا ، وقد أدى فريضه الحج[٣] . وسار فى ركب حجيج العراق لزيارة قبر الحسين بن على ، وتأكد الدعاة من اخلاصه فى التسيع ، فقربوه اليهم ، وأقنعوه بالدخول فى المذهب الاسماعيلى[٤] . واتصل بالامام الاسماعيلى المستور — الحسين بن أحمد الذى اقتنع به ، ورأى ضرورة ضمه الى ابن حوشب والدعوة فى بلاد اليمن ، لأنه يمنى يتعرف على طبيعة بلاده وأهلها[٥] وجمع بينه وبين ابن حوشب ، ودعاهما الى التعاون والتضامن فى نشر الدعوه ، وقال لابن حوشب : « الى عدن عليها فاقصة ، وعليها فاعتمد ، فمنها يظهر أمرنا وفيها تعز دولتنا ، ومنها تفترق دعاتنا » وأمره أن يخلص للمذهب ، ويتخذ التأويل الذى هو من فلسفة التشيع ، ويقول بالظاهر والباطن[٦] . « فما خلق الله من ظاهر الا وله باطن » ، ودعاه

---

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٣٠ .
(٢) الحمادى اليمانى : كشف اسرار الباطنية ص ٢٢ .
(٣) الجندى : أخبار القرامطة المأخوذ من كتاب السلوك ص ٦٣ .
(٤) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص ٧٧ .
(٥) ادريس عماد الدين : نزهه الافكار جـ ٣ ص ٢٧ .
(٦) استدلوا على ما ذهبوا اليه بقوله تعالى : (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) — (وقل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) . فالظاهر ما يتظاهر به الناس وعرفه الخاص والعام . وأما الباطن فلا يعرفه الا الا قليل . من ذلك قوله تعالى (وما آمن معه الا قليل) وجميع ما عليه الناس أمثال مضروبة لممثولات وحجوبة . فأعرض للصلاة وما فيها وقف على باطنها ومعانيها ، فان العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه فمثلا (اقيموا الصلاة وآتوا وآتوا الزكاة) .. فالزكاه مفروضة فى كل عام مرة وكذلك الصلاة) .

الى العمل بالظاهر ، واخفاء الباطن ، ودعو الى ظهور المهدى من اليمن، وأن يجند الرجال ويجمع الأموال ، ويظهر الصـــوم والصلاة والزهد ، ثم أوصاه خيرا بعلى بن الفضــل ، وأوصى على بن الفضــل بأن يقف الى جانب أبى القاسم بن حوشب ، ويحسن صحبته •

وفى نهاية سنة ٣٦٧ هـ غادر الداعيان الاسماعيليان الكوفة ، وتوجها الى مكة المكرمة ، وأديا فريضة الحج، وبعدها غادرا بلاد الحجاز متوجهين الى اليمن ، وبلغا غلافقة فى مستهل عام ٢٦٨ هـ ، وكانت بنــدر مدينـــة زبيد ، تقع على ساحل البحر الأحمر ، ثم افترق الداعيان ، بعد أن اتفقا على أن يتصل كل واحد منهما بصاحبه ، ليتعرف أحواله[1] •

سار ابن حوشب فى صحبة التجار قاصدا عدن لاعه ، ورحل معهـــم وقال أنا رجل من أهــل العلم ، رغبت فى الخــروج معكم الى بلادكم ، ففرحوا به وقدروه وأكرموه ، وقالوا : نحن أحوج الى من يبصرنا بأمور ديننا ، ونحن نكفيك المونة ، وكان فى الرحلة يسامرهم ، ويروى لهم غريب الأخبار ، فأحبوه وأصغوا اليه وأكرموه حتى قدموا لاعه ، فادعى مذهب السنة والجمــاعة فتسامع به النــاس ، وأقبلوا اليه من كل ناحية ، وهو يظهر الزهد والورع [2] •

وانتشر أمره ، وطار ذكره فى البلاد ، حتى أيدته مغارب اليمن ، والتفوا حوله ، وولوه أمرهم ، وعهد الى الثقـــاة العـــدول منهم بجمع الزكاة عن أموالهم طبقا للشريعة الاسلامية [3] ، ولمـــا اســـتقر أمره فى مغارب اليمن ، وأطاعه الناس ، وأخلصوا له ، ولم يعد يخشى من القوى المحلية فى بلاد اليمن — وخصوصا بعد مقتل محمد بن جعفر ، واختلاف الحواليين فيما بينهم — وطلب من أتباعه وأنصاره بناء حصن يدع فيـــه

---

(١) ابن فيض الله الهمدانى . الصليحون والحركة الفاطمية فى اليمن
(٢) الحمادى اليمانى : كشف اسرار الباطنية فى اليمن ص ٣٥ .
(٣) الشيبانى : قرة العيون ص ١٨٢ .

الأموال التى تجمعت لديه (١) . ويتخذه معصما يعتصم به اذا هاجمه عدو ، وقاعدة لشن الهجمات على أعدائه ، فبنوا له موضعا يقال له عبر محرم ، وهو جبل تحت مسور ، وأقام فى الحصن بعد بنائه هو وأصحابه ونساؤهم وأولادهم (٢) .

استطاع حوشب من معقله التصدى لكل التحديات التى واجهته وهزم صاحب صنعاء من بنى يعفر — وبذلك ازدادت هيبته ، وقوى بأسه وعظم أمره ، ودخل فى طاعته من كان حوله طوعا أو كرها ، واتخذ الطبول والرايات (٣) وهنا تخلى عن ادعائه المذهب السنى ، وكشف للناس عن حقيقة أمره ، وأظهر أنه داع اسماعيلى يدعو الى المهدى المنتظر من آل محمد ، فبايعه عامة الناس على المذهب الاسماعيلى ، وسيطر على جميع مخاليف مغارب اليمن وعهد الى ولاة من قبله بحكم البلاد التى سيطر عليها وقمع كل المؤامرات التى تعرض لها ، واستولى على شبام ، وغنم مغانم كثيرة من أموال بنى يعفر (٤) ، وكتب الى عبيد الله المهدى سنة ٢٩٠ هـ يخبره بانتصاراته ودخول الكثير من البلدان اليمنيه الاسماعيليه ، وأوصى له بالهدايا النفيسة (٥) .

أما على بن الفضل ، فبعد أن فارق ابن حوشب بغلافقه ، قصد سرو يافع ، ورأى أن أهلها سريعو التأثر بمذهبه ، فطلع رأس الجبل ، وبنى فيه مسجدا ، وأظهر العبادة والورع والتقوى والزهد ، فكان نهاره صائما وليله قائما ، فاجتذب بذلك قلوب الناس اليه ، وولوه أمرهم . وسألوه أن ينزل عن ذلك الجبل ، ويسكن بينهم ، ولكنه رفض وقال : لا أفعل هذا ولا أسكن بين قوم جهال ضلال ، الا أن يعطونى العهود والمواثيق باتباع تعاليم الدين ، ونبذ ما نهى عنه الاسلام الحنيف ،

---

(١) الشيبانى : قرة العيون ص ١٨٤ .
(٢) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٦ .
(٣) الشيبانى : قرة العيون ص ١٨٩ .
(٤) الحمادى اليمانى : كشف اسرار الباطنية ص ٢٧ .
(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا : ص ٦٨ — ٦٩ .

وينكرون المنكر ، ويأمرون بالمعروف [١] .

فاستجاب لعلى ، وأمرهم ببنـاء حصن سرو يافع[٢] وشـن عـدة حملات على لحج وأبين ، وهزم سلطانها أبا العلاء ، وأخلص له الجنـد لأنه أظهر لهم أنه يجاهد أعداء الدين ، ورغبوا كذلك فى الحصـول على غنـائم الحرب ، وما زال يواصل انتصـاراته حتى دخلت قبيله مذحج وغيرها فى طاعته ، ودخل المذيخرة سنة ٢٩٤هـ واستولى على حصن التعكر وعلى يحصب ، ودخل بنكت ، ودمرها ، ثم زحف الى صـنعاء فلما بلغ عنس ، رأى ابن يعفر أن لا طاقه له بابن الفضـل وجنـده ، فخرج من صنعاء هاربا الى الجوف[٣] ، فدخل ابن الفضل صنعاء ، وسيطر عليها[٤] . وبذلك اسـتطاع ابن حوشب وابن الفضل اخضـاع معظم بلاد اليمن لسيطرتهما .

وقد أبدى الرجلان من التعاون والتنسيق ، ما جعلهما ينجحان فى نشر الدعوة ، وكانت سياستهما واحده ، فاتخـذ كل منهما حصنا لحفظ المال والاحتماء به ، واتخاذه قاعدة للهجوم على أعدائه .

وقد نال ابن حوشب تقدير الامام الفاطمى ، ولقبه المنصور ، وبلغ من ثقته به أنه كلفه بنشر الدعوة فى أرجاء بلاد الاسـلام ، فكان يرسل الدعاة من قبله الى مصر واليمامة والبحرين والهنـد والمغرب ، فضلا عن بلاد اليمن .

لم يكتف الامام محمد الحبيب بنشر الدعوة فى بلاد اليمن ، بل عول على بثها فى بلاد المغرب ، ذلك أن بلاد المغرب أرض صالحة لنشر المذاهب الاسماعيلى لأن أهلها عرفوا بمعارضتهم لبنى العباس ، وعبروا عن ذلك بانضـمامهم الى الأحزاب المعارضـة كالخوارج والشيعة . لذلك أرسل

---

(١) الشيبانى : قرة العيون ص ١٨٧ .
(٢) الحمادى اليمانى : كشف اسرار الباطنية ص ٢٨ .
(٣) الحمادى اليمانى : كشف اسرار الباطنية ص ٢٧ — ٢٨ .
(٤) الشيبانى : قرة العيون ص ١٨٧ .

الامام الفاطمى أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن زكريا المعروف بالسيعى الى ابن حوشب وأمره بالدخول فى طاعته ، وان يأخذ عنه تعاليم ومبادىء المذهب الاسماعيلى ، ويستفيد من تجاربه ، وبعدها يتجـه الى المعرب لنشر الدعوة على غرار ابن حوشب فى اليمن ، وهـذا يدل على أن ابن حوشب أصبح من أكبر الدعاة الفاطميين فى دار الاسلام .

ظل أبو عبد الله الشيعى فى اليمن عند ابن حوشب يتلقى منه تعاليم الدعوة حتى توفى الداعيان الفاطميان فى المعرب ، أبو سفيان والحلوانى، فأذن ابن حوشب لأبى عبـد الله الشيعى بالتوجـه الى المغـرب ونشر الدعوة فيهـا (١) .

بذل أبو عبد الله الشيعى جهدا كبيرا فى نشر المـذهب الاسماعيلى فى المغرب ، وبشر اهلها بقرب ظهور المهـدى ، وظل على اتصال بالامـام محمد الحبيب ، لما توفى خلفه ابنـه عبيد الله المهـدى أظهر له الطـاعه والولاء ، وأرسل يبشره بنجاح الدعوة فى المغرب ، بل أرسل اليه وفـدا من كتامة يدعوه الى القدوم الى بلاد المغرب (٢) .

على أنه فى نفس الوقت الذى كان يعتقـد فيـه رؤسـاء الدعوة الفاطمية فى اليمن ، أن المهدى سـيظهر فى اليمن ، كان دعاة الاسماعيليه فى المغرب يسعون أيضا الى ظهور الدولة الفاطميـة فى المغرب ، وأرسل رؤسـاء الدعوة فى اليمن ، كما أرسل رؤسـاء الدعوة فى المغـرب الى عبيد الله يطلبون قدومه الى بلدهم (٣) .

لما عـلم الخليفة المكتفى بازدياد نشاط عبيد الله المهـدى ودعاته ، بث عيونه فى سـلمية حتى يتمكن من المهـدى ، فغادر المهـدى سلمية

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٤ — ٧٥ .

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ٢٢٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٩٥ .

هو وحاشيته وأسرته ومواليه [١] ، وأظهر للمقربين اليه أنه يريد اليمن، ولما بلغ مصر ، غير وجهته ، وسار الى المغرب بدلا من اليمن فى وقت دس منصور اليمن ، ابن حوشب ــ يستعد لاستقباله فى اليمن .

تختلف الروايات التاريخية حول أسباب تغيير عبيد الله المهدى وجهته الى المغرب بدلا من اليمن . فيرى البعض [٢] أن المهدى علم بخروج ابن الفضل على ابن حوشب ، فكره أن يستقر فى بلد منقسم على نفسه بين الدعاة وغير موحد وتسوده القلاقل والاضطرابات . ولكن هذا الكلام بعيد عن الحقيقة ، لأن ابن الفضل لم ينتقض على ابن حوشب ، الا بعد أن علم بتغيير وجهة نظر المهدى من اليمن الى المغرب، فخلع طاعة المهدى وداعيه ، وارتد عن المذهب ، واستقل بالبلاد التى فى حوزته .

ولا يبعد أن عبيد الله المهدى اعتزم بعد خروجه من سلمية الذهاب الى المغرب بدلا من اليمن ، وقد أغراه بذلك أبو عبد الله الشيعى وزين له أمر المقام فيها . أما اعلانه لخاصته ومواليه حين مغادرته سلمية بأنه ذاهب الى اليمن ، وغير وجهته من مصر الى المغرب ، فيتمشى مع ما جبل عليه الاسماعيليون من اظهار غير ما يبطنون ، كما حرص الامام الفاطمى على ألا يتسرب الخبر الى بنى العباس فيتعقبونه وينكلون به .

غضب الداعى فيروز ــ الذى كان فى صحبة المهدى فى رحلته من سلمية الى مصر ــ من تغيير المهدى وجهته الى المغرب بدلا من اليمن ، فتخلى عن صحبته ، ورحل مغاضبا الى اليمن ، وأكرم ابن حوشب وفادته [٣] ولما علم ابن حوشب بخروج فيروز على الامام، شرع فى قتله ، فلجأ

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ٩٦ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٩٠ .
(٣) ابن المؤيد اليمنى : أنباء الزمن فى أخبار اليمن ص ٣١ .

فيروز الى على بن الفضل ، الذى ثارت ثائرته عندما علم بتغيير المهـدى وجهته[١] وخلع طاعته ، وارتد عن المذهب الاسماعيلى ، وكون لنفسـه ملكا عريضـا فى ربوع اليمن ، حكمـه بالقوة والعنف مستقلا عن الدوله الفاطمية ، واتخذ المذيخرة سنة ٢٩٤ هـ عاصمة لدولته [٢] .

حاول منصور اليمن أن يعيد على بن الفضل الى سابق طاعته للامام عبيد الله المهدى ، لكن بن الفضل أكد لابن حوشب أنه يحذو حذو أبى سعيد الجنـابى الذى اسـتقل بالبحرين ، وكتب اليه يقول : « ان لى بابى سعيد الجنابى أسوة . وأنت ان لم تنزل وتدخل فى طاعتى نابذتك الحرب » فكتب اليه منصور اليمن يعاتبـه ، ويذكره بالعهود والمواثيق التى أخذها عليه الامام ، كما حذره عاقبه الانقسام ، الأمر الذى سيكون له أثره فى اضعاف الدعوة . وقال فى كتابه : كيف تخلع طاعة من لم تر خيرا الا ببركة الدعاء اليه . وقد أعطينا من العهود ماقـد علمته [٣] . فأجابه ابن الفضل بقوله : « انما هـذه الدنيـا شـاة ، ومن ظفر بهـا افترسها » [٤] . وبذلك فشلت جهود ابن حوشب فى اعادة ابن الفضل الى المذهب الاسماعيلى ، ونشأ العداء بين الرجلين .

قاد ابن الفضـل عشرة آلاف رجل لحرب ابن حوشـب والتخلص منه ، حتى تصـفو له اليمن ، فـدخل قرية شـبام ، وخرج المنصور لقتاله ، وحاصره المنصور ، وشدد عليه الحصار فى جبل الحميمة ثمانيـة أشهر [٥] ، حتى مل المقام ، وأرسل اليه المنصـور ابنـه ، فأكرمه ابن الفضل ، وبقى عنده مدة ، ثم أطلق سراحـه [٦] . وبذلك لم يستطع

---

(١) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية ص ٣٣ .
(٢) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥ .
(٣) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية ص ٣٢ .
(٤) الشيبانى : قرة العيون ص ٢٠٢ .
(٥) المصدر السابق : ص ٢٠٥ .
(٦) زيارة : ائمة اليمن ص ٣٣ .

المنصور النيل من ابن الفضل ، وظل يحكم دولة كبيرة فى اليمن • وكان جبارا غاشما •

وأول من دعا الى المذهب الاسماعيلى بأفريقيه الحلوانى وأبو سفيان ، أنفذهما جعفر الصادق ، وقال لهما بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيىء صاحب البذر ، فنزل الرجلان ببعض بلدان كتامه، وبذلا جهودا مضنيه فى نشر الدعوة الاسماعيليه، وكان الامام الاسماعيلى محمد الحبيب ينزل بسلمية من أرض حمص ، وبعث هذا الامام محمد الحبيب — كما قلنا — على بن الفضل وابن حوشب الى اليمن لنشر الدعوة ، وفى غضون ذلك اتصل أبو عبد الله الشيعى بالامام الاسماعيلى، فلاحظ فيه مواهب الداعى ، فأرسله الى ابن حوشب فى اليمن ، ليتعلم منه أصول المذهب ، وعلوم الظاهر والباطن ، وواجبات الدعاة وأسرار الدعوة ، وبعد أن يتيقن ابن حوشب من تعلمه وتفقهه فى الدعوة ، يرسله الى المغرب ، ويقصد بلاد كتامه فيظهر بينهم الدعوة •

لزم أبو عبد الله الشيعى جانب ابن حوسب ، وشهد مجالسه واستفاد من علمه ، ثم خرج مع حاج اليمن الى مكة ، فلقى رجالات كتامه ورؤساءهم ، وجلس اليهم وسمعوا منه ، وألقى عليهم دروسا فى الدين والأدب ، وأعجبوا به خصوصا لما رأوا ماهو عليه من الزهد والعبادة ، فأحبوه وأخلصوا له ، وتعلقوا به ، وصار يتعهدهم فى رحالهم، فاغتبطوا به ، واغتبط بهم ، ولما أرادوا الرحلة الى بلادهم ،سألوه الصحبة ، فوافقهم ، وحرص على أن يخفى حقيقة مذهبه عنهم • واستطاع فى رحلته معهم أن يعرف أحوال بلادهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ولما بلغوا مصر تظاهر برغبته فى الانصراف عنهم ،ولكنهم ألحوا عليه ، وأصروا على أن يصحبهم الى بلادهم •

وفى سنة ٢٨٨ هـ وصل وفد كتامه الى بلادهم فى صحبة الداعى أبى عبد الله الشيعى ، وأكرم أهل كتامه وفادة الداعى الاسماعيلى ، وكانت

الدعوة الاسماعيلية قد انتشرت بينهم من قبل بفضـــل الحلوانى وأبو سفيان ، وكانا قد حرثا هده البلاد ، كما انتشر التشيع من قبل فى بلاد المغرب على يد الامام ادريس بن عبد الله الذى أقام أول دولة شيعية فى بلاد المغرب الأقصى بعد موقعة فخ ، التى قادها الثائر العلوى الحسين ابن على بن الحسن بن على ، وكان معروفا بالعلم والتقوى والكمال ، ولكن العباسيين تصدوا له فى ذى طوى بالقرب من مكة ، وقتل فى مكان يقال له فخ على بعد ستة أميال من مكة •

ومما أدى الى ســهولة مهمـــة أبى عبـــد الله الشيعى فى المغـــرب انتشار التشيع بينهم ، بل اعتنق بعض وزراء الأغالبة فى تونس المـــدهب الاسماعيلى •

تنافس أهالى كتامه على اكرام وفادة أبى عبد الله الشيعى وبشرهم بقرب ظهور المهـــدى الذى سيصلح الدنيـــا ويعيـــد العدل ويمنع الظلم ويطمئنهم على حاضرهم ومستقبلهم ، ولم يلبث أن كشف أبو عبـــد الله الشيعى عن نواياه لأهل كتامه ، فقال لهم : أنا صاحب البذر الذى أخبر به أبو سفيان والحلوانى •

انتشرت وراجت الدعوة لآل البيت بين أهل كتامه وناظر أبو عبدالله الشيعى علماءهم ، ودعا للرضا من آل محمد ، وكانوا يسمونه بالشيعى أو المشرقى •

استخدم أبو عبد الله الشيعى التنبؤ والسحر والتبشير كوسيلة من وسائل الدعاية التى تلائم عقلية البربر فى هذه البلاد ، ويروى المؤرخون أن الشيعى لما نزل افريقية سأل أين فج الأخيار ؟ وهو جبل من جبـــال كتامه ولم يكونوا قد ذكروه له ، فدهشوا من سؤاله ، ودلوه عليه ـ فقال ما سمى الا بكم • ولقـــد جاء فى الآثار أن للمهـــدى هجـــرة تنبـــو عن

الأوطـان ، تنصره فيهـا الأخيـار قوم اسمهم مشتق من الـكتمان أى كتامه) .

كذلك استخدم الداعى السحر ، وصنع من الحيل والطلاسم والرقى والأحجبة ما أذهل العقول .

لما علم ابراهيم بن الأغلب — أمير افريقيـة — بأمر أبى عبـد الله الشيعى ، أنكر ذلك ، ورأى أن وجوده فى المغـرب يشـكل خطرا على ملكه ، فبعث اليه بالتهديد والوعيد ، وتتبعه عمال الأغالبة ، فخشى رؤساء كتامه عليه ، وأخفوه عن أعين الأغالبة .

أظهر الداعى أبو عبد الله الشيعى الولاء والطاعة للامام الاسماعيلى — المستور — محمد الحبيب ، وكان يرسل اليه الهدايا وأخبار الدعوة فى بلاد المغرب .

لم يكتف أبو عبـد الله الشيعى بنشر الدعوة فى بلاد المغرب ، بل حرص على بسط سيطرته ونفوذه على افريقيـة ، فأرسل رجاله الموالين له الى بلدان افريقية ، فسقطت فى أيديهم الكثير من بلدان افريقيـة ، وكانت دولة الأغالبة ، قد اعتراها الضعف والوهن ، وانتشر التشيع بين كبار رجال الدولة ، وانقسم أفراد البيت على أنفسهم ، وفى خلال ذلك هلك ابراهيم بن أحمـد بن الأغلب ، وقتل ابنـه أبو العبـاس ، وقام بالأمـر ابنـه زيادة الله ، وانتقـل من تونس الى رقادة ، وانهمـك فى ملذاته ، وانتشرت جيوش أبى عبد الله الشيعى فى البلاد ، وعلا أمره ، وطار ذكره فى الآفاق ، وبشر النـاس بقرب ظهور المهـدى ، « فكان كما قال » .

لم تنقطع الحرب بين زيادة الله الثالث والشيعة على الرغم من أن وزراءه أيدوا دعوة الداعى الشيعى . وفى سـنة ٢٩٦ هـ دارت واقعـة الاربس التى أدت الى زوال دولة الأغالبـة بافريقيـة ، وامتـد نفوذ الفـاطميين فى ذلك الوقت الى أكثر أجـزاء بلاد المغرب حتى أصبحوا مسيطرين تماما على أكثر بلدان المغرب الواقعة الى الغرب من مدينـة القيروان .

ولمـا توفى محمد الحبيب بن جعفر بن محمد بن اسماعيل الامام عهد الى ابنه عبيد الله ، وقال له : أنت المهدى ، وتهاجر بعـدى هجرة بعيدة ، وتلقى محنا شديدة • واتصل خبره بسائر دعاته فى افريقيـه واليمن ، وبعث اليه أبو عبـد الله رجالا من كتامه يخبرونه بما فتح الله عليهم ، وأنهم فى انتظاره وشاع خبره ، واتصل بالعبـاسيين ، فتتبعـه الخليفة العباسى المكتفى ، وبث عيونه لملاحقتـه والقبض عليـه وعلى أنصاره واحباط الدعوة الاسماعيلية ، واستطاعت الخلافـة الكشف عن الموضع الذى يختفى فيه الامام ، لذلك رأى الامام الخروج من سلمية ، وفر هو وأنصاره ومواليه وأهله من أرض الشام ، الى العراق ، ثم لحق بمصر ، ومعه ابنه أبا القاسم غلاما حدثا معتزما اللحـاق بأبى عبد الله الشيعى ، والنزول بأرض المغرب ، وارتحل من الفسطاط الى الاسكندرية ، ثم خرج من الاسكندرية فى زى التجار ، وجاء كتاب الخليفـة المكتفى الى عامله على مصر عيسى النوشرى يأمره بملاحقـة عبدالله المهـدى والقبض عليه وعلى أنصاره واسـتطاع عيسى النوشرى تتبع المهـدى والقبض ليه ، لكن المهدى أغراه بالمال ، فأخلى سـبيله ، وزعم الوالى للخليفة بأن الرجل الذى قبض عليه ليس المهدى ، ولكنه أحد التجار ، وبذلك استطاع المهدى الفرار من أعين العباسيين •

واصل عبيد الله المهدى زحفه الى بلاد المغرب ، فبلغ برقة ، ومنها الى طرابلس ، وتعرضت قافلته لهجمات قطاع الطرق ، ونهب اللصوص فيما نهبوا كتبا فى الملاحم منقولة عن آبائه •

لمـا وصل عبيد الله المهدى الى طرابلس ، أرسل رسلا الى داعيه أبى عبد الله الشيعى ، يبلغه أنه فى الطريق اليـه ، ومن هؤلاء الرسل أبو العباس أخو أبو عبد الله الشيعى وجماعة من الكتاميين ، ولكن خبر هؤلاء الرسل بلغ زيادة الله وهو يسأل عنهم ، فقبض على أبى العباس ، ولم يستطع أن يعرف منه خبر عبيد الله المهدى ، والموضع الذى يقيم

فيه ، وطلب زيادة الله من عمله على طرابلس القبض على المهدى وعلى رفاقه ، ولكن المهدى كان قد غادر طرابلس متجها الى قسطنطينة ، ثم عدل عنهـا خشية على أبى العباس أخى الشيعى المعتقل فى القيروان ، فذهب الى سجلماسه وبها اليسع بن مدرار ، فأكرم وفادته ، وأنزله فى ضيافته غير أن زيادة الله أرسل الى اليسع يبلغه بأن الرجل الذى قـدم اليه هو المهدى • لذلك قبض عايه اليسع ، وزجه فى السجن •

واصل أبو عبـد الله الشيعى انتصـارانه فى بلاد المغرب وسقطت فى يده البلاد ، الواحدة تلو الأخرى ، وشاع عن الشيعى وفاؤه بالأمان ، فأمنه الناس ، وسار يريد رقاده فرأى زيادة الله أنه لا قبل له بالشيعى، ففر من رقاده الى المشرق ونهبت قصـوره ، ولجـأ أهـل رقادة الى القيروان وغيرها ودخل أبو عبـد الله الشيعى رقاده ، وأعطى للنـاس أمانا على أموالهم وأنفسهم ، وأكرمهم ، ورحب به أهل رقادة والقيروان، ودخل رقادة فى رجب سـنة ٢٩٦ هـ ، ونزل فى قصرها ، وأطلق سراح أخيه أبى العبـاس ، ونودى فى الناس بالأمان ، وقسم الشيعى الـدور فى رقادة على أهل كتامه واستولى على أموال وأسلحة زيادة الله ، وحذف اسم الخليفة العباسى عن الخطبة وعن العملة •

كان لابد لأبى عبد الله الشيعى بعد أن أسقط دولةالأغالبة واستولى على عاصمتهم رقادة ، أن يطلق سراح الامام عبيد الله المهـدى المعتقل فى سجلماسة ، فاستخلف على افريقية أخاه أبا العبـاس ، اهتز المغرب لخروجه ، وفرت زناته من طريقـه ، ثم دخلوا فى طاعته ، وأرسل الى اليسع بن مدرار — صاحب سجاماسة — يخطب وده ، لكن اليسع قتل الرسل ، ولم يقبل صـداقته ، بل خرج لمحاربتـه ، ولكنه لمس قـوة أبى عبدالله الشيعى ، وكثرة جنده ، وقوة بأسه ، فهرب هو وأصحابه ، وخرج أهل البلد للقـاء الشيعى ، وسـاروا فى صـحبته الى سـجن المهـدى وابنه ، وأفرجوا عنهما وبايع للمهدى ومشى مع رؤسـاء

القبائل بين أيديهما ، وهو يبكى من الفرح ، ويقول : هذا مولاكم .
ولنزل المهدى فى مخيم ريثما يتخلص من اليسع بن مدرار ، وفعلا قتله ، وسار فى صحبة المهدى الى رقادة سنة ٢٩٧ هـ وبويع المهدى البيعة العامة ، واستقام أمره وبث دعاته فى الناس ، فرضوا الا قليلا ، وقسم الأموال والجوارى فى رجال كتامه ، وأقطعهم الأعمال ، ودون الدواوين ، وجبى الأموال ، وبعث العمال على البلاد .

اتخذ عبيد الله المهدى رقادة حاضرة لدولته سنة ٢٩٧ هـ وأمر بذكر اسمه فى الخطبة من منابر البلاد ، وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين ، وبذلك قامت الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب ، وتطورت بذلك نظرية الخلافة ، فبعد أن كانت الخلافة وحدة واحدة لا تتجزأ ، صارت هناك خلافة جديدة ثانية ، لا تعترف بخلافة بنى العباس ، وتدعى أنها أحق لانتسابها الى آل بيت رسول الله .

أرسل عبيد الله المهدى بعد اعلان خلافته ، عمالا الى الولايات المختلفة ، واختارهم من زعماء كتامة ، وغيرهم من أهل المغرب الذين أظهروا الولاء والطاعة للامام ، وأمر أبو عبد الله الشيعى بتوحيد بلاد المغرب تحت سلطانه ، واستطاع أبو عبد الله الشيعى اخضاع بعض بلدان المغرب الأوسط والأقصى ، وفى سنة ٢٩٨ هـ أخضع قبائل زناته جنوبى بلاد كتامه ، فدانوا له بالولاء والطاعة .

وعلى الرغم من أن الدولة الفاطمية مدينة بوجودها وقيامها لجهود أبى عبد الله الشيعى ، الا أن المهدى تخلص منه ، ذلك لأنه استاء من استبداد أبى عبد الله وأخيه أبى العباس بالأمر دونه ، ذلك أن المهدى لما شعر بتحكم الشيعى فى أمره ، نهاه عن مباشرة الناس ، وقال : انه مفسد للهيبه ، وساءت العلاقات بين الأخوين من ناحية والمهدى من ناحية أخرى ، حتى أن أبا عبد الله الشيعى أوهم الناس أن عبيد الله ليس هو الامام المعصوم ، حتى أن رجلا من كتامه ، يعرف بشيخ المشايخ ، ذهب الى المهدى وقال له : جئنا بآية على أمرك ،

فقد شككنا فيك ، فقتله المهدى ، وحامت الشكوك حول امامة المهدى واتفق الكتاميون على قتله ، ولكن المهدى استقطب زعماءهم ، وأغراهم بالمال والمناصب ، وأرسل المهدى رجلا لقتل أبى عبد الله الشيعى وأخيه أبى العباس ، وحينما هم الرجل بقتل الشيعى ، قال له : لا تفعل . فقال : الذى أمرتنا بطاعته ، أمرنا بقتلك ، ثم قتلهما فى سنة ٢٩٨ هـ .

استاء الكتاميون من مقتل أبى عبد الله الشيعى ، وثاروا على عبيد الله المهدى ، ولكن المهدى أخمد الفتنة ، ثم اشتبك الكتاميون مع أهل القيروان فى معارك متعددة .

ولما استقام الأمر للمهدى بعد مقتل الشيعى ، وهدأت البلاد ، وتوقفت الفتن ، عهد عبيد الله المهدى بولاية العهد لابنه أبى القاسم نزار ، وولى على برقة وما اليها حباسة بن يوسف ، وعهد الى أخيه عروبه بولاية المغرب ، وفتح تاهرت .

لكن الكتاميين لم ينسوا حادث مقتل أبى عبد الله الشيعى ونصبوا طفلا لقبوه المهدى ، وزعموا أنه المهدى ، وأن أبا عبد الله الشيعى لم يمت ، فأرسل عبيد الله المهدى ابنه أبا القاسم اليهم ، فحاربهم وقاتلهم ، وهزمهم ، وقتل الطفل ، وبذلك هدأت هذه الفتنة .

وفى سنة ٣٠٠ هـ ثار أهالى طرابلس على الحكم الجديد ، والدولة الجديدة ، ولكن أبا القاسم أخضعهم وفرض عليهم غرامة مالية كبيرة .

تطلع عبيد الله المهدى لفتح مصر لأنها قلب العالم الاسلامى ، ولقربها من الحرمين الشريفين ، ولوفرة خيراتها ، ولعدم ثقته باستمرار ولاء أهل المغرب له ، فأرسل حملة من أهل كتامة ، بقيادة أبى القاسم سنة ٣٠١ ، يدعمها أسطول فى البحر بقيادة حباسة بن يوسف ، وامتلكت الحملة برقة ثم الاسكندرية والفيوم ، ولكن جيوش بنى العباس تصدت لهذه الحملة ، وأجلتها عن مصر .

استاء المهدى من هزيمة حباسة ، فقتله ، وانتفض لذلك أخوه عروبه فى المغرب ، واجتمع اليه خلق كثير من كتامه والبربر ، ولكن المهدى أخمد الفتنة ، كما قضى على فتنة فى صقلية .

اعتزم المهدى بناء مدينة على ساحل البحر يتخذها معصما لأهل بيته ، لما كان يتوقعه على الدولة من الخوارج ، وخرج بنفسه يرتاد موضعا لبنائها ، ومر بتونس وقرطاجنه حتى وقف على مكانها ، جزيرة متصلة بالبر ، وتقع على بعد ستين ميلا جنوبى القيروان ، واختط المهدى هذه المدينة ، وأسماها المهدية ، وجعلها دار ملكه ، وحاضرة دولته ، وأدار بها سورا محكما ، وجعل لها أبوابا من الحديد ، وابتدأ ببنائها أواخر سنة ٣٠٣ هـ ، وجعل زنة كل باب ألف قنطار ، وطوله ثلاثون شبرا ، ونقش على هذين البابين صور بعض الحيوانات ، وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجا ، عدا ما كان يجرى فيها من القنوات ، وبنى المهدى فى المهدية دارا للصناعة ، تسع أكثر من مائتى مركب ، وشيد فيها الأسواق والقصور والدور ومخازن الطعام والسلاح وصهاريج المياه ، ولما أتم بناء حاضرة دولته سنة ٣٠٦ هـ ، قال : اليوم آمنت على الفاطميات ، يعنى بناته ، وفى سنة ٣٠٨ رحل اليها ، وأقام فيها ، وراجت فيها التجارة ، وكان لكل طائفة من التجار سوق يمارسون فيها نشاطهم التجارى ، ولأرباب الحرف شوارع معلومه ، يقيم فيها أهل كل حرفة ، وقد انتقل الناس الى هذه المدينة الجديدة ، وأقاموا فيها ، وشيدوا بها الدور والبيوت ، فعمرت ، وانتعشت فيها التجارة .

أقام المهدى مدينة أخرى الى جوار حاضرته ، يفصل عنها ميدانا فسيحا ، وأحاطها بسور وأبواب ، وسماها زويلة ، نسبة الى احدى قبائل بلاد المغرب .

وفى سنة ٣٠٧ هـ أرسل المهدى ابنه أبا القاسم الى مصر لفتحها فملك الاسكندرية ، والجيزة والانسمونين ، وكثيرا من بلدان الصعيد ،

وكتب الى أهل مكة يطلب منهم الدخـول فى طاعته ، ولكنهم أبوا ، وكان مصير الحملة الفاطمية على مصر ، نفس مصير سـابقتها ، حيث ألحق جند بنى العباس بها الهزيمة .

وفى سنة ٣٠٨ هـ أخضع عبيد الله المهدى الأدارسـة فى المغرب الأقصى بسلطانه ، وضم فاس الى حوزته ، وزالت دولة الأدارسة ، وأخضع قواد عبيد الله المهدى بنى مدرار حكام سـجلماسه ، وقتلوا أميرها المدرارى المكناسى ، وتعددت الثورات فى بلاد المغرب ضـد الحكم الفاطمى ، فأرسل عبيد الله المهدى قادته لاخضـاع الثورات خصوصا الحركات المناوئة من قبل الخوارج الاباضية والصفرية . والخلاصة أن عبيد الله المهدى قضى سـنى حكمه فى اخضـاع الثورات المتعددة والمتفرقة فى بلاد المغرب .

وفى سنة ٣٢٢ هـ توفى عبيد الله المهدى ، وولى ابنه أبو القاسم محمد ، ولقب القـائم بأمر الله ، وكثر عليه الثوار وثار عليه بنواحى طرابلس ، ابن طـالوت القوشى ، وزعم أنه ابن المهـدى ، وحاصر طرابلس ، ولما ظهـر للبربر كذبه قتلوه وأخضـع ثورة فى فاس وفى الريف ، حتى خضعت هذه البلاد للدولة الفاطمية ، وشن عدة غزوات على بعض جزر البحر المتوسط وأرسل حملة الى مصر باءت بالفشـل .

وفى عهد هذا الخليفة شهدت بلاد المغرب ثورة كبيرة ، أشـعلها ضد الحكم الفاطمى ، أبو يزيد مخلد بن كيداد ، وهذه الثورة دافعها قومى ، ذلك أن أبا يزيد عبر عن مواطنيـه البربر الذين أقاموا ملكـا اسـلاميا فى الأندلس ، وفتحـوا هذه البلاد بسـيوفهم ودمائهم ، واستأثر العرب بالثروات والنفوذ دونهم ، ولم يجنوا ثمار كفاحهم ، وكذلك الحـال فى المغرب فقد رأى أبو يزيد مواطنيـه البربر أقاموا الدولة الفاطمية فى المغرب ، ولم يحصلوا على مكاسب من جهودهم ، فرأى ضرورة الثورة من أجل اقامة حكم وطنى من البربر ، وازالة كل حكم دخيل عن بلاد المغرب .

اعتنق أبو يزيد مذهب الخوارج الصفرية ، وسافر الى تاهرت وأقام بها يعلم الصبيان ، ولما صار الشيعى الى سجلماسه فى طلب المهدى ، انتقل أبو يزيد الى نقيوس يعلم فيها وكان يدعو الى ما يدعو اليه الخوارج الصفرية من استباحة الأموال والنساء والخروج على السلطان ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر سنة ٣١٠ هـ ، فكثر أتباعه ، ولما توفى المهدى خرج بناحية جبل أوراس ، وتلقب بشيخ المؤمنين ودعا للناصر الخليفة الأموى بالاندلس ، فانضم اليه جمع غفير من البربر ، وهزم عامل باغايه الفاطمى ، واستولى عليها ، ولكنه لم يلبث أن ارتد عنها ، ثم ملك اربس ، وأحرقها ونهبها ، ودخلت فى حوزته بعض البلدان التى يحتلها الفاطميون ، ولم يلبث أن اقترب من المهدية ، وشن عليها عدة غارات ، حتى هجرها أهلها الى البلاد المجاورة . وسار عسكره الى القيروان ، وامتلكوها سنة ٣٣٣ هـ ، وخرج اليه شيوخ القيروان فأمنهم ، ورمع النهب عنهم .

شاع الخراب والدمار فى بلاد افريقيه من غارات أبى يزيد فبعث القائم الى رؤساء كتامه والقبائل والى زيرى بن مناد — ملك صنهاجه — بالمسير الى المهدية لاخضاع الثوار .

ولم يلبث أن ضعف نفوذ أبى يزيد بسبب انضمام عدد كبير من البربر الى جيوش الفاطميين ، الأمر الذى اضطره الى مغادرة المهدية تاركا خلفه المؤن والعتاد ثم تقدم الى القيروان ، واوقع باهلها الهزيمه سنة ٣٣٤ هـ .

وفى هذه السنة توفى الخليفة القائم ، بعد أن عهد الى ابنه اسماعيل بالحكم من بعده ، وولى اسماعيل الخلافة ، وتلقب بالمنصور ، وكتم موت أبيه بسبب اضطراب البلاد من جراء ثورة أبى يزيد ، فلم يلقب نفسه خليفه ، ولم ينقش اسمه على السكه ولم يذكر اسمه فى الخطبه ولا البنود الى ان فرغ من أمر أبى يزيد .

رأى المنصور ضرورة التخلص من أبى يزيد ، واعادة الهدوء

والسكينة الى البلاد ، فأرسل جيشا وأسـطولا الى سـوسه لمحاصرة أبى يزيد ، فانهزم أبو يزيد ، واستبيح معسكره ، ولحق بالقيروان ، فمنعه أهلها من دخولهـا ، وطردوا عامله من بلدهم ودخل المنصـور القيروان ، أمن أهلهـا ، ودارت عدة حروب بين الخليفـة وأبى يزيد فى مواضع متفرقة ، وهزم جند أبى زيد ، ومزقوا شر ممزق ، ومضى أبو يزيد منهزما فى قلة من جنده ، ودارت الحرب بين الفريقين فى كل موضع وفى كل ناحية ، حتى لجأ أبو يزيد الى بعض القلاع ، ففتحها الفاطميون عنوة ، وأضرموا فيها النيران ، وقتل أصحاب أبى يزيد فى كل ناحية ، وقبض على أبى يزيد ، ومات متأثرا بجراحه سنة ٣٣٦ هـ .

تدهورت الأحوال الاقتصادية فى بلاد المغرب بسبب ثورة أبى يزيد ، فانهارت الزراعة ، وتعطلت التجارة ، وكشفت هذه الثورة عن مدى معارضة أهل المغرب للحكم الفاطمى واستعدادهم للانضمام الى الحركات المعارضة للدولة الفاطمية . وأخذ النفوذ الفاطمى يتضاءل منذ قيام هذه الثورة ، كما ابتدأت الحكومات المستقلة فى الظهور فى المناطق الغربية من الدولة الفاطمية .

وفى سنة ٣٣٧ هـ شيد المنصور فى الموقع الذى دارت فيه المعركة التى أنهت حركة أبى يزيد على مقربة من القيروان مدينـة سـماها المنصورية ، واتخذها حاضرة لدولته ، وكان لهذه المدينة خمسة أبواب ، الباب القبلى والبـاب الشرقى وباب زويـلة ، وباب كتـامه ، وباب الفتوح ، وكانت جيوش الفاطميين تخرج من هذا الباب . وازدهرت فيها التجارة والصـناعة ، وعم فيها العمران ، وظلت حاضرة للدولة الفاطميه ، حتى غادرها الخليفه المعز لدين الله الفاطمى الى حاضرته الجديدة ، القاهرة سنه ٣٦٢ هـ .

وفى سنة ٣٤١ هـ توفى المنصور ، وخلفه ابنه معد ، ولقب بالمعز لدين الله الفاطمى ، وحرص على توطيـد النفـوذ الفاطمى فى بـلاد المغرب ، وقهر معارضيه ، فارسل فى سنه ٣٤٧ هـ قائده جوهر الصقلى

الى تاهرت ، فاستولى عليها ، ونكل بواليها يعلى بن محمد الزناتى ، الذى خلع طاعة الفاطميين وأعلن ولاءه للخليفة عبد الرحمن الأموى فى الأندلس • وواصل جوهر زحفه الى البلاد المعارضة للحكم الفاطمى فوصل الى سجلماسه ، وقد سيطر عليها ابن واسول الذى تلقب بالشاكر بالله ، وخاطبه الناس بأمير المؤمنين ، ونقش اسمه على العملة ، وقد استطاع جوهر مطاردته ، وهزيمته ، واسترد نفوذ الفاطميين على سجلماسه •

وواصل جوهر جهوده فى بسط السيطرة الفاطمية على بلدان المغرب الأقصى حتى تم له ذلك باستثناء سبته وطنجه التى سيطر عليهما الأمويون فى الأندلس وبذلك استرد الفاطميون سيطرتهم على بلاد المغرب ، وان كان ذلك بصفة مؤقتة ، لأن المغاربة وان كانوا قد خضعوا للحكم الفاطمى ، الا أنهم كانوا غير راضين عنه ومعارضين له ، ويتحينون الفرص للثورة على هذا الحكم ، وقد وانتهم الفرص بعد انتقال المعز الى مصر •

الدولة الزيرية

لما اعتزم المعز لدين الله الفاطمي الرحيل الى مصر ، رأى ضرورة تولية أحد القادة الثقاة افريقية والمغرب ، حتى يضمن استمرار ولاء هذه البلاد لدولته ، فعهد الى بلكين بن زيرى بن مناد بحكم هذه البلاد نيابة عنه ، وأسماه يوســف بدلا من بلكين ، وكناه أبا الفتوح ولقبه سيف الدولة ووصله بالخلع والأكسية الفاخرة ، وأســند اليه قيادة الجيش والأسطول وادارة الولايات ، وأوصاه بثلاث : أن لا يرفع السيف عن البربر ، ولا يرفع الجباية عن أهل البادية ، ولا يولى أحدا من أهل بيته ، وأوصــاه بأن لا يسمح للأمويين بمد نفوذهم فى بلاد المغرب ، وأن يحافظ على السيطرة الفاطمية والنفوذ الفاطمى فى هذه البلاد •

اضــطلع بلكين بالمهمة التى أســندت اليه ، فأخضــع بلاد المغرب الأوسط ، وسيطر على ســجلماسة ، وقضى على ثورة أهل تاهرت ، وأخضع جموع زناته فى تلمسان ، وحاصر هذه البلدة حتى استسلمت له ، ولكنه لم يتوغل فى المغرب بناءا على أوامر الخليفة المعز ، ولم يلبث أن ضم اليه الخليفة ، طرابلس ، وعاد بلكين الى محاربة زناته ، وفرت أمامه ، فملك فاس وسجلماسه والبلاد المجاوره ، وطرد منهما عمال بنى أمية الأندلسيين ، ثم غزا جموع زناته بسجلماسه ، وأوقع بهم ، وقبض على ابن خزر — أمين مغراوه ، وقتله •

استنجدت جموع زناته التى لجأت الى سبته بالحاجب المنصور فى الأندلس ، فأمدهم بجيش كبير ، ولكن بلكين تراجع عن القتال ، بعد أن هاله قوة جيش المنصور ، وانسحب الى برغراطة ، وشــغل بجهادهم ، وقتــل ملكهم عيسى بن أبى الأنصــار ، وأزال الدعــوة الأمويه ، والنفــوذ الأموى من أنحــاء المغرب ، وتفرق الزناتيون فى الصحراء •

ولما توفي بلكين خلفه ابنه منصور ، فقام بأمر صنهاجة من بعد أبيه ، وفي سنة ٣٧٤ هـ أرسل جيشا الى المغرب الأقصى لاستعادة هذه البلاد من أيدي زناته ، الذين استولوا على سجلماسه وفاس ، ولكن زيرى بن عطيه المغراوي الملقب بالقرطاس — أمير فاس — هزم جيش منصور بن بلكين ، وتعددت غزوات الأمير منصور وحملاته على بلاد زناته في المغرب الأقصى ، وعلى فاس بالذات ، حتى أذعن زيرى بن عطية — أمير فاس — وتخلى عن طاعته للأمويين في الأندلس . وفي سنة ٣٨٢ هـ ، وفد على المنصور في القيروان فأكرم وفادته ، وعفا عنه ، وولاه تاهرت .

خلف باديس أباه المنصور في حكم الدوله الزيريه ، وأرسل عدة حملات لقهر زناته ، ولكنها هزمت ، واضطربت بلاد المغرب ، وتعددت ثورات زناته ، وقطعوا الطرق فاضطربت التجارة ، وساءت أحوال البلاد الاقتصادية ولكن حماد — قائد الأمير الزيرى — شن عدة هجمات على زناته سنة ٣٩٥ هـ ، وشق عصا الطاعة على سيده ، واستقل بما تحت يده من البلاد ، فسار اليه باديس ، لكنه توفي في معسكره ، فخلفه ابنه المعز ، فعاد حماد الى الثورة ، ودخل المسيلة ، فسار اليه المعز وهزمه ، واستسلم ، حينئذ نظم المعز بن باديس ادارة دولته ، وولى الولايات من يثق في اخلاصه ، وانقسمت الدولة الزيرية الى قسمين : دولة المنصور بن بلكين — صاحب القيروان ، ودولة آل حماد بن بلكين — أصحاب القلعة . ولكن المعز لم يقبل انفصال جزء من دولته فسار الى القلعة ، وحاصر حماد سنة ٤٣٢ هـ ، عدة سنين ، ثم أقلع عنها ، وعاد الى بلاده واستمر ملك المعز بافريقية والقيروان ، وكان أضخم ملك عرف للبربر بافريقية ، وقد بلغت الدولة في عهده أوج ازدهارها وعظمت ثروتها ، وازداد دخلها ، وقهر زناتة في معظم المعارك التي اشتبك فيها ، وقد رفض المعز المذهب الاسماعيلي ، اعتنق مذهب أهل السنه ، ولعن الشيعه وقتل من وجد منهم ، ونكل بدعاة الشيعة ، وقد استاء منه الخلفاء الفاطميون ،

وأرسلوا اليه يتوعدونه ، لكنه خلع طاعتهم ، وقطع الدعاء لهم سنة ٤٤٠ هـ فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وأحرق بنوده ، ومحا اسمه من الطرز والسكة ، ودعا للخليفة العباسى القائم . وبذلك زال النفوذ الفاطمى من بلاد المغرب ، وعادت الى حوزة الخلفاء العباسيين .

لما قطع المعز بن باديس الخطبة للمستنصر الفاطمى سنة ٤٤٠ هـ كتب اليه المستنصر يهدده ويتوعده ، فأرسل المستنصر بنى هلال الى افريقية ، وملكهم كل ما يفتحونه ، وبعث الحسين بن على التازورى وزير الدولة الفاطمية فى مصر — الى المعز بن باديس « قد أرسلنا اليك خيولا ، وحملنا عليها رجالا فحولا ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا » .

سار بنو هلال الى برقة ، فوجدوها خلية ، لأن المعز قد أضعف أهلها وشتت شملهم ، فاستوطن الهلاليون برقة ، ولكن المعز ارتاب فى شأنهم ، وساءهم ، العبث الذى أحدثوه فى البلاد ، وسيطرتهم عليها ، وتخوف على ملكه منهم ، كما تخوف من سيطرتهم على النواحى الاقتصادية للبلاد ، الأمر الذى قد يهدد سلطانه عليها ، لذلك عهد الى ثلاثين ألفا من أرقائه بالقضاء على بنى هلال ، واجلائهم عن افريقية ، فملكوها سنة ٤٤٦ هـ فخرج كبار رجال بنى هلال الى المعز بن باديس ، وطلبوا منه العفو والصفح ، فعفا عنهم ، ووصلهم ، وأجزل لهم العطايا . ولكنهم عادوا الى العبث والفساد فى الأرض ، ونتيجة لهذه الأعمال التخريبية توقفت الزراعة ، والتجارة ، فعم القحط والبلاء بالبلاد ، وانهار المجتمع ، وهجر الفلاحون قراهم ، وترك أصحاب الحرف أعمالهم ، فخرج اليهم المعز فى جموعه من صنهاجة والسودان فيما لا يقل عن ثلاثين الفا ، ولكن الهلاليين هزموا جند المعز باديس ، وقتلوا الكثير منهم ، واستباحوهم وعاد المعز الى القيروان مهزوما ، وعاد الى الاشتباك معهم فهزموه مرة ثانية وثالثة ، وملكوا مدنية باجة ، وأمر المعز أهل القيروان ، بالانتقال الى المهدية تجنبا لبطش

بنى هــلال وويلاتهم ، وانتقلت أيدى العــرب على القــيروان بالنهب والتخريب ، وعلى سائر الحصون والقرى •

وهاجر مع بنى هلال من مصر الى بلاد المغرب ، عرب بنى سليم ، وهم بطن من مضر ، وأكثرهم جموعا ، وكانت منــازلهم بنجد ، وكان بنو سليم حتى عهد الخلافة العباسية ، شوكة بغى وفتنة ، حتى لقد أوصى أحــد خلفــائهم ابنه ، بألا يتزوج منهم ، وكانوا يغــيرون على المدينــة ، وتخرج الكتائب من بغــداد اليهم ، وتوقع بهم ، وتحالفوا مع أمراء القرامطه من بنى طاهر أمراء البحرين ، وتغلبوا على البحرين بعد انقراض أمر القرامطه ، وظلوا بها معتنقين لمذهب الشيعة ، فطردوا عنها ، فهاجروا الى صعيد مصر ، وأذن لهم الخليفة المستنصر بالهجرة الى افريقيه ، لمحاربة المعز بن باديس ، واقاموا مع الهلاليين فى برقة وجهات طرابلس ، ثم صاروا الى افريقيه •

نعود الى المعز بن باديس ، فقد هاجمته القبائل العربية — كما رأينا — حتى اضطر الى الانسحاب الى المهدية ، وسقطت بلاد دولته الواحدة تلو الأخرى فى أيدى العرب الهلاليه وعرب بنى سليم ، وقضى السنوات الأخيرة من حكمه فى المهديه التى لم يبق له من ملكه سواها حتى توفى ســنه ٤٥٤ هـ — ١٠٦٣ م ، وخلفه ابنــه تميم الذى حكم المهديه وبعض البلاد المجاورة لها •

ويعتبر عهد تميم بن المعز بدايه النهاية للدوله الزيريه ، وتقاســم ملك آل زيرى الهلاليون وبعض زعماء زناته وصنهاجه ، يحكم كل قائد بلدا صــغيرا ، الامر الذى فتت وحدة البلاد ، واســاء الى اوضــاعها الاقتصاديه واضعف من قوه المجتمع فى افريقيه ومن تماسكه وادى ذلك فى النهايه الى انهيار اجتماعى خطير فى افريقيه •

وفى سنة ٤٤٤ هـ — ١٠٥٢ م استرد روجر الأول النورمنــدى جزيرة صقليه بعد جهود حربية قليله ، وانسحب آخر المدافعين عنها ،

وهو أبو الحواس بأهله وماله الى افريقيـة ، ولم تلبث قصريانة أن سقطت فى أيدى النورمانديين • وفى سنة ٤٨٤ هـ — ١٠٩٢ م سقطت بلرم — آخر معاقل المسلمين فى صقلية — وبذلك زال الحكم الاسلامى من صقلية ، وزالت دولة الاسلام ، وانطفأ نوره عن هذه الديار •

وقد قاوم تميم بن المعز النورماندى ولكن دون جدوى وأصبح النورمان يشكلون خطرا جسـيما على المهدية نفسـها ، فاسـتنجد على ابن تميم بالمرابطين ، ورفعوا الخطر عن المهدية ، وغزوا صقلية ، وبعد انصراف المرابطين عنها ، جمع روجر أسطولا ضخما ، وشن عدة غارات على المهدية ، وعجز الحسن بن على بن تميم عن الدفاع عن بلاده ، فسقطت المهـدية سنة ٥٤٣ هـ — ١١٤٨ م وكذلك كل مدن السـاحل الافريقى وطرابلس فى يد النورمان • ولكن الموحـدين أنقـذوا هذه البلاد ، واستردوها من أيدى النورمان •

ويجدر بنا أن نشـير الى ملحمه أبى زيد الهـلالى فنقول أن بنى هلال لما هاجروا الى المغـرب ، دارت بينهم وبين الزناتيين معـارك متعددة ، وكان الهلاليون يرسلون بأخبار هذه المعارك الى بنى جلدتهم فى مصر ، فينظمها شعراؤهم فى صورة قصص شعبى عربى مصرى ، عرفت فيما بعد بقصة الهلاليه ، وبطل القصه يسمى أبو زيد الهلالى أما خصمه ، فيسمى خليفه الزناتى او الزناتى خليفه • وهذه الملحمه تعتبر من أبرز الأشـعار الشـعبيه العربيه ، وتمتـاز بطابع شعبى خالص ، يجعلها فى الادب الشعبى المرموق •

ويرى الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بأن قصة بنى هلال فى الأدب تختلف عن وقائع التاريخ تماما ، فالقصـة الأدبيه تدور حول فتـاة جميلة من بنى هلال احبت فتى من أقاربها ، وأراد الزواج منها ، فرفض أهلها زواجـه من ابنتهم بعد تمـامه ، واحتـالوا على حبيبها ونقـلوها الى مكان بعيد فى المغرب، وزوجوها من ابن عمها ، ولكن قلبها ظل معلقا بعشيقها ، ولم ينس الفتى محبوبته ، وتنتهى القصة بموت الفتاة كمدا لحرمانها من عشيقها ، وموت الفتى حزنا على فراق حبيبته له •

وتجدر بنا الاشارة تفصيلا عن سيرة بنى هلال فى المغرب فنلاحظ أنهم نسوا خلافاتهم فى هذه البلاد ، وتحالف القيسية واليمنية بعد طول خصام ، ويقدم السلطان حسن بن سرحان على الزواج من أخت دياب ابن غانم وتدعى « ناقلة » ويتعهد السلطان حسن لشيخ اليمنية دياب ابن غانم على أن يزوجه أخته نوربارق التى سميت بالغازية أو الجازية وأصبح لها دور كبير فى تدبير أمور بنى هلال ، ورثته من أمها •

وحدثت عدة حروب قبلية ، أنتهت بهجرة بنى هلال الى المغرب — كما أشرنا من قبل — ولعب بنو هلال دورا كبيرا فى تعريب بلاد المغرب ونشر الاسلام بين البربر •

وعن هذا الدور الهلالى تتحدث السيرة عن قحط شمل الجزيرة العربية ، وتسبب فى هجرة الهلالية الى بلاد المغرب حيث الخصب والزرع ، وقادهم أبو زيد الهلالى ، مصطحبا الأمراء الثلاثة أبناء السلطان حسن بن سرحان ، مرعى ويونس ويحيى الى تونس ، ولكن حاكم هذه البلاد ، الزناتى خليفة خشى على ملكه من هؤلاء الهلالية ، وأوجس منهم خيفة ، فقبض على الأمراء الثلاثة ، وزجهم فى السجن • ولم يلبث أن أطلق سراح أبى زيد ، وعاد الى نجد ، وعقد العزم على غزو تونس ، وفك أسر الأمراء الثلاثة •

وسار أبو زيد الهلالى على رأس جيشه من بنى هلال وحلفائهم وأصطحبت الجازية الجيش ، وكانت فى مقدمته ، وكان لهذه الجيوش بطولات فى صعيد مصر ، ولما بلغت تونس ، وضع لها أبو زيد الهلالى خططا حربية ناجحة ، فهو يضلل الجواسيس تارة ، ويستولى على عيون الماء تارة أخرى ، وأثار جيش الهلالية الرعب فى نفوس الزناتى وجنده ، واستخدم أبو زيد الهلالى النساء كثيرا فى أعمال السلب والنهب داخل بلاد العدو لالقاء الذعر فى قلوب أهل البلاد ، والتمهيد لدخول الهلالية بلادهم ، وكانت الجازية تدبر هذه الخطط ، وتقود النساء الى تنفيذها • وتواصل السيرة الهلالية حديثها عن بطولة الجازية ، التى

تمكنت من اطلاق سراح مرعى ويونس ، ولـــم يلبث أن لقى الزنـــاتى مصرعه بمؤامرة دبرتها ابنته سعدة التى وقعت فى حب مرعى عندما كان فى سجن أبيها ، فهى التى أشارت على الهلالية بارسال دياب الى أبيها ومحاربته ، لأن دياب أقدر الفرسان على التعرض لخليفة •

وبذلك تغلب الهلالية على الزناتى خليفة ، ويكنى أبا سعدى وكان فارسا شجاعا ، وكانت المدينة حصينة منيعة ، وكان يأتمر بأمره أقيال ذوو بأس شديد ، وتحدثنا الســـيرة أن الهلالية دخلوا فى حرب ضارية ، قتل فيها الكثير من الطرفين ، وقتل زناتى عددا كبيرا من صناديد العرب وشجعانهم ، واستمرت الوقائع سجالا ، والفرسان يتساقطون زرافات ووحدانا وانتهت المعارك بانتصار الهلالية بعد أن قتـــل دياب زناتى خليفة ، وتفرق جنده ، ولاذوا بالفرار ، وتم فتح تونس ، وجلس دياب على عرشها ، ولبس تاجها ، وعلق رمحه على بابها ، وأمر العرب أن يمروا تحته ، اشارة الى تملكه عليهم • وثار به بنو هـــلال ، وكادوا يقتلونه(١) •

وواصل العرب تقدمهم فى بلاد المغـــرب ، ولكن عادت الصراعات التقليدية بينهم ، واشتد العداء بين القيسية واليمنية • ولكن ظل العرب رغم ذلك يواصلون زحفهم فى بلاد المغرب حتى بلغوا الأندلس •

ويمكن القول بأن هذه الجمـــوع العربيـــة أدت دورا كبيرا فى نشر الاســـلام واللغة العربية والثقافة العربية الاســـلامية فى بلاد المغرب • وبعبارة أخرى أحدثت تغيرا كبيرا فى البناء الاجتماعى لشعوب المغرب ، وحولته الى مجتمع عربى لغة ودينا وثقافة •

الفصل الخامس

الخـــلافة الأمـــوية
بالأندلس
(٣١٦ هـ — ٤٢٢ هـ / ٩٢٩ — ١٠٣١ م)

١ — الخليفة عبد الرحمن الثالث — الناصر لدين الله .

٢ — الخليفة الحاكم الثانى — المستنصر بالله .

٣ — الخليفة هشام الثانى — المؤيد بالله والدولة العامرية .

٤ — الحاجب المنصور محمد بن عبد الله بن أبى عامر .

٥ — أبناء المنصور نهاية الدولة العامرية .

عبد الرحمن الناصر

٣٠٠ — ٣٥٠ هـ / ٩١٢ — ٩٦٢ م

الانتقال من عصر الأمير عبد الله الى عصر عبد الرحمن الناصر يمثل بالفعل نقلة كبيرة من عصر الى عصر ، ومن فترة الى أخرى تختلف كل منهما عن الأخرى تمام الاختلاف ، وهذا الاختلاف هو تباين بين حكمين وبين عهدين كل منهما يتميز بصفة خاصة وكل منهما له خصائصه وسماته. ذلك أن الأمير عبد الله كان حاكما عاديا من حكام الأندلس ، أما عبدالرحمن الناصر فقد نهض ببلاده نهضة شاملة ، وحول الامارة الى خلافة ، وتمتع بحب شعبه واحترام أعدائه ومنافسيه .

حكم عبد الرحمن حوالى نصف قرن ، وطول العمر بالنسبة للحكام قد تتيح لهم الفرصة الكافية لاصلاح أحوال البلاد .

وعبد الرحمن حفيد سلفه الأمير عبد الله ، وقد عهد عبد الله لحفيده عبد الرحمن ، ولم يعهد لأحد من أبنائه ، ذلك أنه قتل ابنه محمد والد عبد الرحمن بعد أن وجه اليه تهمة التآمر ضده وضد نظام حكمه . ويبدو أن الأمير عبد الله ندم على قتل ابنه ، وشعر بتأنيب الضمير ، فليس من الهين على قلوب الآباء موت الأبناء بل التسبب فى موتهم — ولقد دفع هذا الندم الأمير على تكريم ابنه عبد الرحمن ، والمبالغة فى هذا التكريم ، ففضله على أبنائه وأحفاده ، ودفعته عقدة الذنب ، الى العهد لحفيده عبد الرحمن بالحكم من بعده متخطيا أبنائه ، ولما توفى عبد الله بايع أهل البيت الأموى والشعب عبد الرحمن ، ولم ينازعه فى ذلك منازع . ويبدو أن اضطراب بلاد الأندلس ، وكثرة الفتن والثورات بها ، جعلت الحكم محفوفا بالمكاره وأصبحت مهمة حاكم الأندلس شاقة، لا تدعو الى المنافسة ، ولا يتطلع اليها أحد . وعلى أمير الأندلس أن يواجه متاعب داخلية وخارجية للتغلب عليها من الأمور العسيرة . أى أن الأمير عبدالله ترك تركة لا يحسد عليها .

سياسة عبد الرحمن الناصر الداخلية

وجد الأمير عبد الرحمن أرض الأندلس مضطربة كل الاضطراب ، فبدأ عهده بمحاولة فرض الوحـدة على بلاد الأندلس ، وذلك بتـأديب العصاة ، والقضاء على الفتن والثورات . واعادة الهـدوء والاستقرار الى البلاد ، والعودة بدولة الأندلس الى سابق قوتها ، فأتبع سياسـة الترغيب والترهيب ، والشدة واللين ، فأنفذ الكتب الى العمال فى جميع كور الأندلس ، يطالبهم بالطاعة والولاء ونبذ الخلاف والشقاق ،ومبايعة أمير قرطبة ، والخضوع لحكومتها ، وبدأ باصـدار منشـور أرسله الى كل أمير أو ملك من هؤلاء المتغلبين على النواحى ، وفيـه يعـد ويتوعد ويحذر فالرجل الذى يقـدم ولاءه للحـاكم الشرعى ، فانه سيكون من المقربين وسيحقق له ما يريده من مال وسلطان تحت راية الأمارة المركزية ومن لم يفعل فينذره بحرب مدمرة لا تبقى ولا تذر ، فكان يرسل جيوشه الى الناحية ، ومع قائده خطـاب الأمان للمتغلب اذا تخلى عن الحرب ، وأقلع عن العناد ، فاذا رفض قائد الناحية الأمان ، لقنه جيش عبدالرحمن درسا قاسيا ، ويفرض الجيش عليه وعلى ناحيته الاستسلام . أما اذا وافق القائد على الصلح أعطاه الأمان ، ونقله هو وعائلته وأهله ومواليه الى قرطبة ، حيث يكفل لهم بها رغد العيش ، ينزله بمنـازل تليق به ، ويغدق عليه من الرواتب ، ما يجعله يعيش وأهله فى رخاء واطمئنان .

وعرف عن عبـد الرحمن الوفاء بوعوده ، لذلك اطمأن له الأمراء فى النواحى والقادة . ومن هنا نرى كيف استطاع عبد الرحمن أن يتغلب على هؤلاء الأمراء ، الذين قضوا السنوات الطوال فى حروب ، يستسلمون واحدا بعد واحد ، ويقبلون الى قرطبة ، حيث يعيشون فى أمن وعزه ، على أننا لاننكر أن الأمير عبد الله قـد عهـد لحفيده عبـد الرحمن أمر اضعاف هؤلاء الأمراء وانهاك قواها .

وكان أشد الأمراء عنادا بنى الحجاج فى اشبيليـة وبنى حفصون

فى بيشتر ، أما بنو الحجاج فقد استطاع عبد الرحمن أن يجتذب منهم اليه أحمد بن محمد بن مسلمة بن حجاج ، الذى ولى اشبيلية بعد وفاة عبد الرحمن بن ابراهيم بن حجاج سنة ٣٠١ هـ ، ثم أذعن له محمد بن ابراهيم بن حجاج صاحب قرمونية ، واستعمل عليها الناصر سعيد ابن المنذر فهدم سور اشبيلية حتى لا يتمكن الثوار من التحصن بداخلها ، وبنى القصر القديم المعروف بدار الامارة ، وحصنه بسور من الحجر .

والخصم العنيد الذى أشرنا اليه سابقا ، وهو ابن حفصون ، لما ضعف عمر بن حفصون بعد اعتناقه النصرانية ، تظاهر بالانضمام الى عبد الرحمن بن محمد حتى وفاته سنة ٣٠٢ هـ ، وخلفه ابنه جعفر الذى ذهب مذهب أبيه فى العناد والفساد ، فسير اليه عبد الرحمن جيشا سنة ٣٠٦ هـ ، واستولى فى طريقه اليها على حصن دوس أماننش، وحاصر حصن بلدة من حصون رية ، ودخل المدينة . وفى عام ٣٠٧ هـ ، افتتح عبد الرحمن حصن طرش خشين من أعمال ابن حفصون واستأمن صاحبه عبد الرحمن بن عمر بن حفصون داخل حصن بيشتر ، فخلفه أخوه سليمان ، وتظاهر سليمان هذا بطاعة الأمير ، فسالمه الأمير ، فلما قوى أمر سليمان ، نكث عهده ، وشن الغارات على قرطبة ، ودخل مدينة المنكب عنوة ، وقتل جميع سكانها وظل يشن الغارات على قرطبة ونواحيها ، ويشكل خطرا على دولة الأمويين فى الأندلس ، حتى قتل سنة ٣١٤ هـ ، فخلفه أخوه حفص فى قلعة بيشتر ، ولما لم يجد هذا الأمير فائدة من التمادى فى العصيان ، استسلم للأمير عبد الرحمن ، وأسلم الحصن وبذلك قضى الأمير عبد الرحمن على أخطر الخارجين عليه ، وهم آل حفصون .

وهكذا أعاد الأمير عبد الرحمن الى أسبانيا وحدتها وقضى على كل الحركات الانفصالية التى هددت كيانها ، وجمع شمل الأندلس تحت راية واحدة ، الأمر الذى جعل حكومة قرطبة قوية مهابة أمام أعدائها فى الداخل والخارج .

تحويل الامارة الى خلافـة

بعد أن أخضع الأمير عبد الرحمن الأندلس ووحدها تحت سلطانه رأى أن يعلن نفســه خليفــة ، ويلقب بأمير المؤمنين بدلا من لقب أمير الذى ورثه عن أســلافه الأمراء الأمويين ، فأصــدر منشوره فى ٢ ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ الى عماله فى الكور والمــدن الأندلسية يقول لهم : « وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنــا ، ورددوها علينا كذلك • اذ كل مدعو بهذا الأسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ، ومقسم بما لا يستحقه منه • وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنــا من ذلك حق لنــا أضــعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فمر الخطيب بموضــعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتــك لنــا عليه ان شاء الله » وأمر الناصر لدين الله باثبات عبارة « الناصر لدين الله أمير المؤمنين فى أعلامه وطرازه ودنانيره ودراهمه ، ونفذ الأمر بذلك » •

وهكذا تحولت الامارة الأندلســية الى خلافــة ، واســتمر خلفاء عبد الرحمن الناصر يلقبون بلقب خليفة ، حتى ســقوط الدولة الأموية سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١ م •

رأيتم أن الأمراء الأمويين — قبل الناصر — كانوا يلقبون بأبنــاء الخلائف أو الأمراء ، ولم يجرأ واحد منهم على التلقب بلقب خليفــة على الرغم من العداء الشديد بين الامارة الأموية ، والدولة العباسية ، وعدم اعتراف الأولى بالثانية ، ذلك أن مفهوم الخلافة عند المسلمين فى ذلك العصر ، أنهــا وحدة لا تتجزأ ، وأن الخليفــة ، هو حامى حمى الحرمين ، والمسيطر على الحجاز أهل العرب والملة • ولكن بمرور الوقت أفتى علماء الأندلس بجواز تجزئة الخلافة الى أكثر من واحدة ، بحيث يكون بينهما مسافات شاسعة ، منعا للحروب بين الخلافتين ، وذكر بعض المؤرخين أن الأندلسيين أنفسهم طلبوا من عبــد الرحمن ، اعلان نفســه خليفة ، ولقبوه الناصر لدين الله • وبذلك تكيف نظرية الخلافــة السنية تكيفا جديدا ، تبعا للواقع والضرورة السياسية ومصلحة المسلمين •

ونستطيع ان نجمل أسباب اعلان عبـد الرحمن نفسه خليفـه فى نقاط منها ، ان الخلافه العباسيه قد ضعفت فى العصر العباسى الثانى ، بسبب ازدياد نفوذ الأتراك ، وعدم مقـدرة الخلفـاء على السيطرة على بلدان الدوله ، وضـعف نفوذهم وسلطـانهم • وفى نفس الوقت قامت الخلافه الفاطمية فى المغرب ، وهى خلافه علوية لا تعترف بالعبـاسيين ، وترى أن الخلافـه يجب أن تنحصر فى آل بيت رسـول الله ، والخلفاء الفاطميون هم أول من جزأوا الخلافـه ، وشجعوا الأمويين على اعلان الخلافة فى الأندلس ، وكان لابد لعبد الرحن أن يعلن نفسـه خليفـه لمواجهة خطر الخلافه الفاطميه فى المغرب على دولته ، وبعد أن شـهدت الأندلس الانقسامات والفتن الداخلية ، كان لابد لحكومة قرطبـة من أن تحول الاماره الى خلافة ، حتى يكتسب حكمه هيبة دينيـة وسياسيه أمام رعاياه ، وتضفى على الدولة قوة ومهابة •

ونضيف الى ذلك ما سبق القول من أن أهل الأندلس قـد طلبوا من الأمير عبد الرحمن اعلان نفسه خليفة •

مهما يكن من أمر فقد قامت الخلافة الأموية فى الأندلس وهى تستند الى السياسة أولا ثم الدين ثانيا ، وتتبع قاعدة الوراثة فى الحكم ،وتختلف فى ذلك عن نظام الخلافة فى الاسلام أيام الراشـدين الذى يتبع قواعـد الشورى والانتخاب •

وبذلك قامت فى العـالم الاسـلامى ثلاث خلافات ، الخلافـة العباسية المتداعية ، والخلافة الفاطمية الناشئة فى المغرب ، والخلافـة الأموية فى الأندلس ، واذا ما قارنا بين هذه الخلافات الثـلاث لوجدنا أن الخلافة الأموية فى الأندلس أكثرها ديموقراطيـة ذلك أن الخلافـة العباسية تقوم على الاستبداد ، والخليفة يرى أنه مفوض من الله ، أو سلطان الله فى أرضه كما قال الخليفة المنصور • أما الخليفة الفاطمى فيرى أنه الامام المعصوم من الخطـأ ، ولا يسأل عما يفعل ، ورث العـلوم الدينية وخفايا الكون وأسرار الوجود عن رسول الله ﷺ •

أما الخلافة الأموية فى الأندلس ، فـلا تضفى على نفسها هـذه القـدسية ، وانمـا تتبع الديموقراطيـة فى الحكم ، وتستمع الى آراء المعارضة ودليلنا على ذلك ، أن عبد الرحمن الناصر حينما شيد مدينـة الزهراء ، وأنفق عليها أموالا باهظة ، عارضـه الأهالى بزعامة قاضى قرطبـة ، الذى هاجم الخليفة النـاصر على المنبر ، واتهمه بالاسراف والتبذير ، وتبديد أموال الدولة بدون وجه حق ولكن الخليفة لم يعزله، ولم يعاقبه ، بل تركه وشأنه •

وكانت الدولة الأندلسية تمتـاز عن الدولتين السابقتين من حيث الوحدة والتجانس بين الحاكم والمحكوم ، ثم انها كانت ثغرا من ثغـور المسلمين ، يواصل عملية الجهاد •

سياسة النـاصر الخارجيـة

١ ـ الخطر الفاطمى فى المغرب :

كان الفاطميون عند تأسيس الدولة الفاطمية فى المغرب ، يهدفون الى غزو الأندلس ، لجعل المغـرب الاسـلامى كله خاضـعا للسيطرة الفاطمية الشيعية ، وبهذا ينقسم العـالم الاسلامى الى قسمين ، قسم شرقى تابع للخلافـة العباسـية السنية ، وقسـم غربى تابع للخلافة الشيعية الفاطميـة ، فأرسل خلفـاؤهم العيون الى الأندلس ، لكشف عوراتها ، والتجسس على أحوالها أمثال ابن حوقل ، وقـد لعب هؤلاء الجواسـيس فى الأندلس ، دورا هـاما للدعـاية الفاطمية فـى الأندلس ، فى نفس الوقت الذى أمدوا فيه الخلفاء الفاطميين بمعـلومات غزيرة عن أوضـاع الأندلس الاجتماعيـة والسياسـية والاقتصادية ، وقد نجح هـؤلاء الجواسيس فى اجتـذاب أنصـار لهم فى الأندلس من العناصر الناقمة على حكومة قرطبة •

خشى عبد الرحمن الناصر من بأس هـذه الدولة المجاورة الطامعة

فى بلاده ، فاتخذ خطوات مضادة لحماية حدوده ، وتأمين بلاده من غزو فاطمى مرتقب ، فأعلن نفسه خليفه — كما قلنا — ليضفى على سلطانه مهابه ، وبث بذور الفتنه بين قبائل البربر فى بلاد المغرب ، وانضم اليه الأدارسه أمراء العدوة ، وملوك زناته ، وأمدهم عبد الرحمن بالمال والعتاد ، وساند الثائر موسى بن ابى العافية فى ثورته ضد الفاطميين ، حتى كثر جمعه ، وشكل خطرا على الحكم الفاطمى ، ولكى يؤمن الناصر حدود بلاده ، استولى على ثغرى سبته وطنجه ، وسيطر على حركه الملاحة فى مضيق جبل طارق ، وأخضع بقايا الادارسه ، كما وطد علاقته بأمراء تاهرت ، وشجع الثوار على الخليفه الفاطمى أمثال أبى يزيد مخلد بن كيداد كما أنشا عبد الرحمن اسطولا قويا نازع فيه أسطول الفاطميين فى البحر المتوسط ، كما قصد به الدفاع عن سواحل الأندلس ضد أى هجوم يقوم به أعداؤه الفاطميين ، وحدث أن هاجم الأسطول الفاطمى بقيادة الحسن بن على مدينة المرية سنة ٣٤٤ هـ وأحرق السفن الراسيه فى الميناء ، وسلب رجاله المدينة وأسروا عددا كبيرا من سكان البريه ، فعمد غالب — قائد أسطول عبد الرحمن الناصر — الى الرد على هذه الحملة ، فأغار فى ستين سفينه على سواحل أفريقيه سنه ٣٤٥ هـ وبالذات على مرسى الخزر ، ودمر كل منطقة سوسة •

كما وطد الناصر علاقته بأعداء الفاطميين ، فتحالف مع ملك ايطاليا هو جودى بروفانس الذى كان غاضبا من الفاطميين لتدميرهم ميناء جنوه ، كما تحالف مع امبراطور بيزنطه الذى كان يهدف الى استرداد صقلية من الفاطميين ثم وطد علاقته بالأخشيديين فى مصر ، وعمل على ارسال الفقهاء المالكية من الأندلس الى مصر لمحاربة المذهب الشيعى • وهذه السياسة منعت الفاطميين من غزو الأندلس •

٢ — الخطر الأسبانى المسيحى فى الشمال :

لما فتح المسلمون الأندلس أبقوا على بقعة جبلية وعرة وهى

جليقة دون فتح ، وأهملوا أمر الجماعات المستضعفة فيها ، ولكن هـذه البقعـة نمت وترعرعت وقـوى أمرها مستغلة الحـروب بين المسلمين والاضطرابات الداخلية فى البلاد ، وتزعم حركة المقـاومة ضد المسلمين بلاى ، ثم نمت هـذه المملكة ، وقوى بأسـها فى عهـد الفونسو الأول الذى استولى على مدينة ليون ، وسيطر على جميع المنطقـة الشماليـة الغربيـة التى صـارت تعرف بمملكة ليون وقـد حصنت هـذه المملكة حدودها من خطر المسلمين بسلسلة من القلاع ، ولم تلبث هذه القلاع أن اتحدت فى القرن الرابع الهجرى فى امارة واحدة عرفت باسم مملكه قشتالة .

ولم تقتصر حركة المقاومة الاسبانية على ليون وقشتالة بل انتشرت قواعد لها على سفوح جبال البرانس شرقا ، ومن أهمها مملكه نافار ، التى سيطرت بحكم موقعها الجغراف على المعـابر الجبلية التى تربط أسبانيا بأوربا ، وكانت قاعدتها مدينة بيلونة .

ويلاحظ أن هذه الممالك النصرانية نشأت فى الجبال خوفا من بطش المسلمين ، وتحصنت بها ، ولما قوى أمرها ، بسطت نفوذها على السواحل المجاورة ، واستولت على أراضى المسـامين وهذه الممالك كانت تستمد العون والتأييد من أهم القوى النصرانية المجاورة مثل فرنسا والعالم الكاثوليكى والبابوية .

ولما ولى عبد الرحمن الاندلس ، كان شانشو الأول — ملك نافار — وأوردنيو الثانى — ملك ليون — قد تحالفا على مهاجمة أراضى المسلمين فى الأندلس ، وضمها الى بلادهـم ، منتهزين فرصة الفتن الداخليه فى الاندلس ، واحتل الملكان فعلا بعض المدن ، واستوليا على بعض الأراضى، ولما هاجما الملكان قاعدة الثغر الأعلى — سرقسطة — رأى عبد الرحمن الناصر ضرورة التصدى لهذا الخطر الداهم ، فخاض عـدة حروب ضد هذين الملكان ، وألحق بهما هزائم كثيرة ، وهدم حصونهم وأسترد البلاد التى انتزعوها من المسلمين ، ومن هذه البلاد أسما وتطيلة ، ولكن راميرو

الثانى كان ملكا عنيدا واصل القتال ضد المسلمين ، واستمرت الحرب بينه وبين عبد الرحمن فترة طويلة ، وأشد هذه الحروب ضراوة ، تلك الحملة التى قادها نجده الصقلبى ضد راميرو ، غير أن هذه الحملة انتهت بهزيمة المسلمين عند خندق مدينة شمنقة سنة ٣٢٧هـ ومن أسباب هزيمة المسلمين فى هذه الواقعة الانقسام بين العرب والصقالبة أثناء المعركة ، وقتل القائد نجده الصقلبى ونجا عبدالرحمن الناصر هو وقلة من الجند من أيدى العدو بأعجوبة ، حتى أن عبد الرحمن ، لم يشترك فى غزوة بعد ذلك •

ولكن هزيمة الناصر لم تؤثر على قوته العسكرية فى الاندلس تثنه عن عزمه فى السيطرة الكاملة على بلاد الاندلس ، ووقف حملات النصارى على بلاده • لذلك جرد على ممالك النصارى عدة حملات أخضعهم ، وأوقف توغلهم فى البلاد الاسلامية وفى النهاية صار سيد الأندلس بلا منازع •

ولما توفى راميرو الثانى ملك ليون ، ودب النزاع بين ولديه أوردنيو وسانشو ، كان الناصر الحكم بينهما ، تحالفت ممالك النصارى معه فى الأندلس ، وكسب صداقتهم وأجبر الباقين على احترامه ، كل ذلك فى سياسة وكياسة جعلت الجميع لا ينظرون اليه كعدو ، بل صديق ، يحكمونه فيما شجر بينهم • والدليل على الصداقة بين ملوك النصارى وعبد الرحمن الناصر ، أن سانشو — ملك نافار — كان مفرطا فى السمنة ، وطلب من قرطبة طبيبا يعالجه ، فأرسل اليه عبد الرحمن طبيبا حاذقا فى الطب ، هو حسداى بن شيروط الاسرائيلى لعلاجه ، ونجح هذا الطبيب فى مهمته ، فقدم سانشو الى قرطبة على رأس وفد من كبار رجال امارته لشكر الخليفة فأكرم عبد الرحمن وفادته ، وندب الأطباء لمواصلة علاجه وكان من نتيجة ذلك عقد محالفة ، نال من ورائها المسلمون حصونا على حدود مملكته • ومن ناحية أخرى كان ملوك ليون وأرجون ، يفدون الى قرطبة ، يحتكمون الى أميرها ، ليقر السلام بينهم • وحينما عزل سانشو عن عرشه

طلب من عبد الرحمن مساعدته ، فأرسل جيشا الى ليون أعاد الى سانشو عرشه سنة ٣٤٩ هـ ، وهذا يدل على أن الناصر استطاع أن يبسط نفوذه على الشمال المسيحى، وأن يفصل فى مشاكل ملوكه، ويعزل من يشاء منهم.

الخطــر النورماندى :

سبق القول أن النورمانــدى هاجموا ســواحل الأندلس فى عهد عبد الرحمن الاوسط عدة مرات ، ولكن عبد الرحمن الاوسط تمكن من صد هجماتهم . وفى عهد الناصر ، اتخذ الخطر النورماندى طابعا جديدا ، فاتخذ قاعدة لهم بالقرب من ثغور الاندلس الشمالية وسواحلها الغربية ، فى ولاية نورمانديا فى غرب فرنسا . وقد شكلت هــذه الولاية النورماندية خطرا كبيرا على الاندلس ، فكانت تخرج منها الحملات البحرية ، وتغير جنوبا على السواحل الغربية ، وعن طريق الحملات البرية التى كانت تعبر جنوبا فرنسا ، تجتاز جبال البرانس ، وتشــن غاراتها على الثغور الاندلسية الشمالية ، وقد تصدت جيوش عبد الرحمن لهذه الحملات البرية والبحرية، ولم تمكنها من تحقيق أهدافها التخريبية .

العلاقات الدبلوماسية بين الناصر وملوك أوربا

لم يرتبط الناصر بعلاقات دبلوماسية مع ملوك الولايات الشمالية فى أسبانيا فحسب ، بل كانت له علاقات دبلوماسية مع ملوك أوربا ونشير فى هذا الصدد الى سفارة بيزنطية فى عهد الخليفة الناصر ، اذ وفد رسل الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع ٣٣٨هـ/٩٤٩م حاملة هدية رائعة الى الخليفة العظيم واحتفل الناصر بقدوم الرسل واصطف العساكر فى ذلك اليوم بالسلاح فى أكمل شكل ، وزين القصر الخــلافى بأبهى معالم

الزينة ، وصنوف الصقور ، وعهد الخليفه الى أحد قواده باستقبالهم ومرافقتهم من الميناء الى العاصمة فلما اقترب موكب رسل الروم من قرطبة ، خرج القواد للقائهم واستقبالهم بالعدد والعتاد ، واصطف القواد وتلقوهم قائدا بعد قائد ، ثم استقبلهم اخيرا الفتيان الكبيران ياسر وتمام أعظم قواد الخليفة ، وذلك مبالغة فى الاحتفال بهم ، ورافقاهم الى احد قصور قرطبة ، التى أعدت لمقامهم ، وأحيط هذا القصر بالحراسة المشددة، ومنع الناس من الاقتراب منه ، ورتب الناصر حاكما لقضاء حوائج الرسل، وكان الخليفة الناصر مقيما وقتئذ بالزهراء ، فلما مضى شهر على قدوم هؤلاء الرسل ، وحان موعد مقابلة الخليفه ، رحل من قصر الزهراء الى قصر قرطبة ، وجلس لهم فى ١١ ربيع الأول سنة ٣٣٨هـ فى بهو المجلس الزاهر ، الذى يعتبر أروع قاعات القصر فى قرطبة ، وكان مخصصا للاستقبالات الرسمية وجلس الى يمينه الحكم المستنصر ولى العهد ، ويليه عبد الله فعبد العزيز فالاصبغ فمروان ، وجلس الى يساره المنذر ثم عبد الجبار فسليمان — من أبناء الخليفة ٠

وتوزيع الوزراء حسب مراتبهم الى اليمين واليسار ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى وراءهم وفرشت أبهاء القصر بالبسط القيمة ٠ وبدت قاعة المجلس الزاهر متأنقة بستور الديباج ، وبريق الثريات ، وسادها السكون ، حتى وصل رسل الأمبراطور مبهورين حائرين الى باب القاعة ، بعد أن مروا بين صفوف القواد رافعين الاسلحة على شكل أقواس ، ثم اقتربوا من الخليفة ، وقدموا له الهدية ٠ ثم عاد الرسل الى القسطنطينية بالهدايا الى الامبراطور البيزنطى ، ورد على رسائل الامبراطور ٠

نشأت دبلوماسية بين أوتو الكبير ملك الفرنجة ، وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، نتيجة لغارات المسلمين المجاهدين على سواحل بلاده الجنوبية ، وأرسل أوتو الكبير الى عبد الرحمن الناصر ، رسالة شديدة اللهجة ، يطلب منه وقف أعمال القرصنة ، والتخريب فى

بلاده الجنوبية ، وقد رد عليه الخليفة الناصر برسالة مماثلة سنة ٣٣٩هـ وبعد أعوام قليلة عاد أوتو الكبير ، وأرسل رسالة الى الخليفة الناصر فأحسن الناصر استقبال حامل الرسالة فى قرطبة ، وهو راهب يدعى جان دى جورز ، وأنزله الناصر فى قرطبه فى قصر بجوار أحدى الكنائس حتى يستطيع تأدية شعائره الدينيه ، وكان من عـادة الناصر أن يحاط علمـا بالرسالة قبل تقديمها اليه ، فعلم أنها شديدة اللهجة ، وفيه افتراء علـى الاسلام واستقبل الخليفة الراهب ورفض تسلم الرسالة وألح الراهب حتى لا يغضب الملك ، ولكن ازاء اصرار الناصر عاد الراهب ومعه رسول من الناصر من المستعربين ، يجيد العربية واللاتينيه ، ويسمى ربيع بن زيد، واستقبله الملك الجديد أوتو أحسن أستقبال ، وتخلى عن الرسالة التى فيها نيل من الاسلام ، وأعاد رسـوله الى الخليفة عبد الرحمن الناصر برسالة لا تتعرض للدين الاسلامى ، وأستقبل الخليفة الناصر رسـول الامبراطور فى احتفال كبـير •

وهذه السـفارات تدل بوضوح على مـدى ما كان لرجال البحـر الأندلسيين من نشاط فى حوض البحر المتوسط ، الى درجة جعلت كـلا من امبراطور بيزنطة وامبراطور الدولة الغربيه ، يتوسـط لدى خليفة قرطبة ، كى يحد من نشاطهم •

الصقالبة فى عهد الناصر :

أطلق الجغرافيون اسم الصقالبة على مجموعة الشعوب السلافية سكان البلاد الممتدة بين بحر قزوين شرقا الى البحر الادريانى غربا ، وهى بلغاريا العظمى فى العصور الوسطى ، ولقد دأبت القبائل الجرمانية على سبى الشعوب السلافية ، وبيع رجالها ونسائها الى عرب أسبانيا ، وأطلق عليهم الصقالبة ولكن هذه التسمية بمرور الزمن لم تعد تقتصر على الشعوب السلافية فحسب ، بل اتسع نطاقها ، وشملت سبى نصارى

الشمال والفرنجة من جنوب فرنسا • ومن سواحل البحر الأسود ومن لمبارديا وكلا بريا فى ايطاليا •

وهؤلاء الصقالبة ، كانوا يجلبون أطفالا ، ويتعلمون اللغة العربيه ، ويدينون بالاسلام ، ويختلطون بالشعب الأندلسى ويعيشون الحياة الاسلامية ، وكان منهم الجند والحرس الخاص بالخليفة والخدم وتدرجوا فى سلك الوظائف ، حتى بلغ منهم الشعراء والادباء وامتلكوا المكتبات الكبيرة وللضياع الشاسعة ، وقد الف حبيب الصقلبى كتابا أسماه (الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة) وفقد هذا الكتاب وأشار اليه ابن بسام فى كتابه (الذخيرة) ظهر الصقالبة فى الأندلس منذ عهد الحكم الربضى ، وكثر عددهم فى عهد الناصر حتى شكلوا طبقة جديدة فى المجتمع ، ومن أسباب استكثار الناصر من الصقالبة أنه لاحظ أن جند العرب والبربر ، اذا انتظموا فى الجيش انتظموا بعصبيتهم ، وكان هذا يؤثر على بناء الجيش ، لذلك رأى الناصر ضرورة القضاء على العصبيات فى الجيش ، ويجعل جنده ملتحقين كأفراد لا كعصبيات ، وأدى هذا الى ضعف جيش الدولة ، لان العربى أو البربرى لم يكن يحمسه فى القتال سوى الحرب فى العصبية ، لذلك استكثر الناصر من الصقالبة فى الجيش ، فقد رباهم فى المعسكرات ، ونشأوا على الطاعة والولاء لا عصبية لهم ولا وطن ولا أسرة •

المنشآت المعمارية فى عهد الناصر

ازدهرت البلاد فى عصر الناصر حضاريا : وتجلى هذا الازدهار فى المنشآت الفخمة التى خلدت اسمه ، وجعلته من أعظم ملوك أوربا فى العصور الوسطى •

ومن أبرز منشآته ، مدينة الزهراء التى أسسها شمال غرب قرطبه ، وعلى بعد ثمانية كيلو مترات منها ، وقد شيد الناصر هذه المدينة ، لتكون

مدينة ملوكية ، يعيش فيه هو وأفراد البيت الأمــوى بعيدا عن قرطبة المزدحمة بالسكان ، وتروى بعض المصادر أسطورة تقول أن الناصر شيد هذه المدينة تخليدا لذكرى جارية له كانت تحمل اسم الزهراء ، هام بها حبــــا •

كانت الزهراء مدينة مدرجة على مسطح الجبل ، القســم الأعلى فيه قصور الخليفة ، والقسم الاوسط بساتين ورياض ، والقسم الأعلى يحتوى على المسجد ومنازل الخاصة والحراس وكل قسم من هذه الاقسام له أسوار وأبواب • وقد أشرف على بنــاء الزهراء الحكم المستنصر ولى العهد سنة ٣٢٥هـ ، وأنفق فى بناء المدينة أموالا طائلة ، زادت عن ثلث ايراد الدولة لمدة ١٧ سنة ، واستغرق بناء هذه المدينة أربعين سنة فى عهد الحكم المستنصر •

وتفيد المصادر أن الناصر قد انتقل الى الزهراء قبل اتمام بنائها ، ونقل اليها أبناءه وأقاربه ومواليه وخدمه ، وظلت قرطبة مع ذلك العاصمة الرسمية ، ولا تزال بقايا مدينة الزهراء قائمة حتى يومنا هذا •

على أن العمران لم يستمر طويلا فى مدينة الزهراء ، فبعد ستين سنة منه ، تعرضت لعبث العابثين وللاعمال التخريبية التى صحبت نهاية الحكم الأموى ، وظلت المدينة فى الزوال ، حتى أصبحت خرابا تبكى من شيدها وبناها وأقام صرحاها •

ومن أعمال الناصر الانشائية اعادة بناء مدينة سالم التى تقع شمالى مدريد بنحو ١٥٣ كم ، وعرفت هذه المدينة باسم قائد من قواد الفتح الأول ، وقد تعرضت هذه البلدة للخراب فى عهد الأمــير عبد الله ، فأعاد الناصر بناءها ، وجعلها ثغرا حربيا لمواجهة امــارة قشتالة الناشئة • وأصبحت مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط الى جانب طليطلة قاعدة الثغر الأدنى ، وسرقسطة قاعدة الثغر الأعلى •

والمعروف أن الخليفة الناصر وسع مسجد قرطبة الجامع • ومع أن الناصر حكم حوالى خمسين عاما ، وعذبت له فى آخر حكمه الأيام ، فقد وجد فى مذكراته الشخصية أن أيام السرور التى صفت له دون تكدير ، كانت أربعة عشر يوما ، وهذا يعطينا فكرة عن مقدار الجهد المتواصـــل الذى بذله الناصر طول مدة حكمه فى النهوض بأعباء الدولة • ويدل على أن الملوك الذين يشعرون بالمسئولية لا يجدون وقتا للراحة أو اللذة بالحياة •

ومما يدل على عظمة هذا الخليفة وتقـــدير ملوك العصر له أن الملك الأسبانى أوردينو ملك ليون زار الأندلس ، فى أوائل عهد الخليفة الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن ، زار قبر الناصر ، وركع أمامه فى خضوع مظهرا عظيم احترامه لذكراه •

ويعتبره المؤرخ دوزى من المـــلوك العصريين من حيث تحليه بالروح الديمقراطية ، والأخذ بأسباب الحضارة وأتباع سياسة داخلية وخارجية ناجحة حتى كانت الأندلس فى عهده من الدول الكبرى •

الحاكم المستنصر بالله

(٣٥٠ — ٣٣٦٦هـ / ٩٦١ — ٩٧٦ م)

ولى المستنصر الحكم بعد أبيه ، وقد تجاوز الاربعين من العمر ودربه أبوه على ادارة بعض الولايات ، وقيادة الجيوش ، وولى المستنصر البلاد، بعد أن وطد ابوه الحكم فيها ، وكفل للبلاد الاستقرار والهدوء ، وقضى على الفتن الداخلية ، وأضعف النصارى فى الشمال ، وتحولت الاندلس فى عهده الى دولة كبرى ، تخطب دول العالم ودها ، لذلك كانت مهمـة لمستنصر فى الحكم سهلة ميسورة وانشغل بقراءة الكتب ، وكان دودة كتب — كما يقول لين بول أنشأ مكتبة فى قصره الزهراء تتألف من أربعمائة مجلد ، وروى أنه قرأ معظم هذه الكتب ، بدليل أن تعليقات بخط يـده ، وجدت على هذه الكتب ، وأنفق الأموال الضخمة فى شراء نفائس الكتب والمصنفات ، ومن الكتب القيمة التى بعث فى شرائها ، كتاب الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى ، واشتراه بألف دينار .

وكما يقول المرحوم الاستاذ عبد الحميد العبادى أن من يقضى الوقت فى قراءة الكتب ، لا يستطيع أن يقوم بأعباء الحكم بكفاءة ، لأن منصب الملك لا يهيىء لصاحبه أن يبلغ الذروة فى العلم ، فيجب على الملك ألا يدفن نفسه فى خزائن كتبه ، وان يعنى بمكتبته ومحفوظاته ، أكثر من عنايته بشؤون الحكم ، والاتجاه الى صالح دولته .

وكان الحكم يجذب العلماء الى قرطبة ، ويبذل فى ذلك أموالا طائلة ومن أبرز العلماء الذين ظهروا فى قرطبة فى عهده ، العالم اللغوى أبا على القالى ، وتصدى للتدريس فى جامع قرطبة ، وجمع محاضراته فى كتاب سماه الأمالى ، وقدم هذا العالم الجليل الأندلس فى عهـد الناصر لدين الله وظل يواصل نشاطه فى عهد الحكم ويتضمن الكتاب فصولا متفـرقة عن العرب ولغتهم وشعرهم وأمثالهم وأخبارا تاريخية .

تتصل بعرض شعرائهم ، ومن أشهر علماء الاندلس فى عهد المستنصر ابن القوطية ، نسبة الى أمه سارة حفيدة الملك غيطشة ، وله مصنفات منها كتاب فى النحو ، يسمى الأفعال ، وكتاب فى التاريخ ، يسمى العربى (تاريخ افتتاح الاندلس) ويبدأ تاريخه من فجر الاندلس ، ويتحدث عن الفتح العربى لهذه البلاد ، ثم يتابع الكتابة فى تاريخ الاندلس حتى ينتهى بوفاة الأمير عبد الله سنة ٩١٢ م ، وقد أملى هذا الكتاب على تلاميذه ، بدليل ما ورد فيه مرارا وتكرارا من عبارة قال شيخنا أبو بكر أو قال ابن القوطية •

ومن أبرز العلماء الذين اجتذبهم الحكم المستنصر الى قرطبة ، محمد بن الحارث الخشنى ، وقد استدعاه الحكم من القيروان ، وأغدق عليه ، ومن أهم مؤلفاته ، « كتاب القضاه بقرطبة » ولهذا الكتاب أهمية كبيرة فى دراسة الحياة الاجتماعية فى قرطبة •

كما كان المستنصر يعقد حلقات البحث والدرس فى قصره مع العلماء ، ويتدارس معهم فروع العلم ، ويناظرهم ويناقشهم ، شأنه شأنهم • وحرص كذلك على نشر التعليم بين عامة الشعب ، فأنشأ الكتاتيب فى قرطبة وفى شتى بلاد الأندلس ، ليتعلم فيها أبناء الفقراء القرآن والقراءة والكتابة والحساب وبعض المعلومات الدينية ، فمن انشاءاته القيمة سبعة وعشرون مكتبا حول المسجد الجامع ، وبكل ربض من أرباض قرطبة •

ولم تزل كتب الحكم فى قصر قرطبة الى أن بيع أكثرها فى حصار البربر ، وقد أمر ببيعها الحاجب واضح من موالى المنصور بن أبى عامر ، ثم نهب ما بقى عند دخول البربر قرطبة ، واقتحامهم الحاضرة الأندلسية عنوة • ومن المؤسف حقا أن الحاجب المنصور ابن أبى عامر ، أمر بأحراق كتب الفلسفة ارضاء للفقهاء •

ذاعت شهرة قرطبة بالكتب فى عهد الحكم المستنصر ، فلم يقتصر اقتناء الكتب على الخليفة وحده ، وانما تعداه الى أفراد الشعب وكانت

الكتب من أروع متاجرها فقيل : اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه ، حمله الى قرطبة حتى تباع فيها وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيليه •

ومن أعماله الانشائية توسيع المسجد الجامع ، وامداد المسجد بالماء العذب ، وتيسير وسائل الصرف الصحى •

السياسة الخارجية

١ — الخطر الفاطمى فى المغرب :

خفت حدة الخطر الفاطمى على بلاد الأندلس فى عهد الحكم المستنصر ، ذلك لأن الفاطميين أدركوا أن بقاءهم فى المغرب محفوف بالمخاطر ، بعد تعدد ثورات البربر ، وشعورهم بعدم الأمن والاطمئنان على بقاء دولتهم واستمرارها وأسس جوهر الصقلى مدينة القاهرة ، وانتقل الفاطميون الى مصر سنة ٣٦٢ هـ تاركا حكم المغرب فى يد خلفائه بنى زيرى زعماء صنهاجة •

وظلت بلاد المغرب موضع تنافس بين الأمويين والفاطميين واتخذ كل من العدوين المتنافسين حلفاء وأعوان وأنصار له فى المغربين ، فبينما كانت زناته تتبع الأمويين وتناصرهم كانت صنهاجة حلفاء الفاطميين ، وأخيرا وبعد تنافس مرير بن زناتة وصنهاجة ، سيطر الزيريون من صنهاجة على القسم الشرقى للمغرب ، تحت السيادة الفاطمية ، وسيطرت زناته على القسم الغربى للمغرب تحت السيادة الأموية فى الأندلس •

وأدى ابتعاد المسافة بين الخلافتين الى تخفيف حدة التوتر بينهما ، ومع ذلك حرص الأمويون على تأكيد سيادتهم على المغرب الأقصى تأمينا لحدود بلادهم من خطر فاطمى متوقع فأكد المستنصر سيطرته على مضيق جبل طارق عن طريق احتلال القواعد المغربية المطلة على المضيق مثل سبتة وطنجة ومد النفوذ عن طريقها الى العدوة المغربية ، ولكن

الأدارســة فى المغــرب الأقصى ، طمعــوا فى الاســتقلال بملكهم ، واستعادة دولتهم ، ولكن الحكم تصدى لهم ، وأرســل اليهم قائده الشجاع غالب ، فاســتعاد السيطرة الأندلســية على المغرب الأقصى ، وأخضعهم وقضى على دولتهم ، ونقل بقايا أسرة الادارسة الى قرطبة • وكان هذا آخر عهد لهذه الأسرة التي قامت فى هذه البقعة فى أواخر القرن الثانى الهجرى •

٢ ـ الخطر النورماندى :

ســبق القول أن النورمان بدأوا يشــنون الغارات على ســواحل الاندلس فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وأدى ذلك الى يقظة الأندلس ، وأنشاء أسطول قوى يتصدى لخطر أى هجوم بحرى وقد عاد هذا الخطر الجديد على الأندلس سنة ٣٦٠ هـ ، ويرى المؤرخون أن ريكارد الأول دوق نورماندیا ـ مؤسس هذه الولاية ـ شن هجوما على السواحل الاسبانية بعديد من السفن ، فصد المستنصر هذا الهجوم ، واتخذ كافة الاحتياطات منها للتحالف مع بعض امارات نصــارى الشــمال ، واتخــاذ العيــون والجواسيس ، للاخبار عن الهجوم قبل وقوعه وأمر بصنع بعض مراكب على هيئة مراكب (المجوس) ووضعها فى الوادى الكبير تمهيدا لقتالهم بها على نفس طريقتهم وشن غارات على سواحل نورماندیا بغية اضعاف النورمان ولعب قائده المشهور غالب دورا كبيرا فى هذا المضمار • وكان أشــد غارات النورمان (المجوس) ضراوة على شــواطىء الأندلس ، ما حدث منها على غرب الأندلس وفى مياه المحيط الاطلسى •

وقد هاجم النورمان فى عهد الحكم سواحل جنوب البرتغال وسهول لشبونه ، حيث حدثت اشتباكات عنيفة قتل فيها من الطرفين كثيرون • ولكن الأسطول الأندلسى لم يستسلم لعنف القتال ، وانما طارد المراكب النورماندية حتى أباد معظمها ، واسترد أسرى المسلمين •

٣ ـ موقف المستنصر من نصارى الشمال :

قلنا أن عبد الرحمن الناصر ، اتفق قبل وفاته على اعادة سانشــو

الى العرش بدلا من أوردنيو الرابع ، مقابل أن يسلم سانشو الى الناصر بعض الحصون ، واعاد الناصر فعلا سانشو الى العرش ، ومات الناصر ، وولى الحكم المستنصر ، فانتهز سانشو الفرصة ، وماطل فى تســـليم الحصون ، ظنا منه أن الحكم ليس بقوة أبيه وأنه فيلسـوف لا يهمه الا الكتب • وفى غضون ذلك وفد أوردينيو على المستنصر يطلب منه اعادته الى الملك ، بدلا من سانشو ، ولما علم سانشو بذلك ، وعد بتسليم الحصون خوفا على ملكه وخوفا من تحالف الملكين ضده ، ولكن توفى أوردونيو ، فخلا الجو لسانشو ، ولم يعد أمامه سوى خصم واحد وهو الحكم ، فعاد الى رفض تسليم الحصون ، وتحالف مع ملك قشتاله وملك نافار ، ولكن الحكم أرسل الجيوش الى الشمال ، وهزمت الحلفاء • وتكبد سانشـــو خسائر جسيمة • وأدرك أنه لا قبل له بالحكم ، فسلم اليه الحصون •

واعتمد الحكم فى ادارة شـــؤون دولته على وزرائه ومن أبرزهـــم وزيره المصحفى ، وكان يتصرف فى ادارة الدولة تصرفا مطلقا ، ولا يرجع الى الخليفة الا فى بعض الامور ، ومن هنا ظهرت طبقة كبار الموظفين ، التى سيكون لها أثرها فى الحياة السياسية فى الأندلس بعد وفاة الحكم ، والتى ستفرض سلطانها على الدولة ، على حساب خلفاء البيت الأموى •

وكان ولى عهد الحكم فى العاشرة من عمره ، وأوصى رجال الدولة به ، وعهد اليهم بتربيته وتدريبه على شؤون الحكم والسياسة وولى هشام الحكم بعد أبيه ، ولكن حرص كبار الموظفين على منعه من ممارسة سلطانه ، لذلك يمكن القول بأن فترة الازدهار فى الخلافة الأموية كانت فى عهد عبد الرحمن الناصر ، والحكم المستنصر قويت البلاد سياســـيا وعسكريا ، وازدهرت فيها الحضارة ، ونهضت فيها الحركة العلمية •

هشـــام الثـــانى

(٣٦٦ — ٣٣٩ هـ / ٩٧٦ — ١٠٠٨ م)

تولى هشـــام الحكم وهو طفل صـغير قد تجاوز عشر سـنوات الا قليلا ، وظهر فى الدولة حزبان يتنافســـان حول الســـلطة والنفوذ ، الحزب المدنى ، ويتزعمه الحاجب المصحفى ووزراؤه ويرى هذا الحزب الموافقة على تولية هشام الحكم عملا بوصية أبيه ، وهذا الحزب يريد الابقاء على هشـــام الطفل حتى يتسـنى له الســيطرة على مقاليـد الأمور فى الدولة ، والابقـــاء على هشـــام ألعوبة فى أيديهـم ، يحكمون بأسمه • أما الحزب العسكرى ، وقوامه الصقالبة فيرى أنهم خاضوا غمار الحروب فى الشـــمال وفى البحر وفى داخـــل البلاد ، وأن لهم الحق فى السيطرة على سياسة الدولة ، وعلى الحكم ، ويرى هذا الفريق أن هشام طفل لا يصلح للحكم ، ويرشحون للخلافة رجلا يسـتطيع ادارة أمور البلاد ، ودرء الأخطـــار الخارجية عنها ، وقمع الفتن الداخلية ، وهذا الرجل هو المغيرة بن عبد الرحمن الناصر • وتنازع الحزبان حول تقرير مصـــير البلاد ، وانتصر الحزب المدنى بقيادة المصـحفى على الحـزب العسكرى ، وتصدى لهذه المؤامرة الخطيرة محمد بن عبد الله بن أبى عامر ، قتل المغيرة ، وثبت هشام الثانى على العرض ، وتاريخ الأندلس منذ تولية هشام حتى نهاية القرن الرابع الهجرى هو فى الحقيقة تاريخ هذا الشاب الذى وصـــل الى الحكم والسيطرة على مقاليد الأمور فى الدولة بأســـاليب ميكيافيلية أى الغاية تبرر الوســيلة ، لذلك يسميه دوزى بسمارك القرن العاشر الميلادى •

محمد بن عبد الله بن أبي عامر
الملقب بالمنصور
(٣٦٦ ـ ٣٩٣ هـ / ٩٧٦ ـ ١٠٠٢ م)

محمد بن عبد الله بن أبي عامر من أسرة عربية يمنية من قرية المعافر ، اشترك جده عبد الملك في جيش طارق بن زياد في عمليات عسكرية في الجزيرة الخضراء ، وبرزت هذه الأسرة في الأندلس ، وشغلوا مناصب هامة وكان منهم القضاة والولاة والعلماء ، وكان عبد الله والد صاحبنا من رجال العلم والأدب .

عرف عن محمد بن عبد الله بن أبي عامر الطموح منذ نعومة أظفاره ، وتثقف بثقافة أسرته ، فدرس اللغة والأدب على ، أبي على القالي البغدادي وابن القوطية ، وقرأ الحديث على ، أبي بكر بن معاوية بن القرشي ، ثم فتح دكانا بجوار قصر قرطبة لكتابة الشكاوى للخليفة الحكم ، وظهرت براعته في كتابة الشكاوى ، فكان يحسن عرض الموضوع ، ويكتب بعبارات أدبية جذابة ، وأسلوب ممتع ، فأعجب به الحكم ، وتقرب الى السيده صبح زوج الحكم ، وكان يرسل اليها الهدايا في المناسبات ، حتى قيل انه دخل معها في علاقة حب ، ومن هداياه المشهورة ، للسيده صبح ، قصر من الفضة الخالصة نموذج من قصر قرطبة ، وقد حمله الرجال الى القصر وسط نظرات الاعجاب والدهشة ، ومازالت صبح تبادله الاعجاب ، حتى رفعت من شأنه ، فولاه الحكم أمانة دار السكة ، ثم ولاه قضاء بعض النواحي ، ثم عهد اليه بالاشراف على أموال الزكاة والمواريث في اشبيلية وعلى ادارة الشرطة فيها ، ثم جعله وكيلا لولده هشام ولي العهد ، ومازال ابن أبي عامر يرقى في سلك المناصب ، حتى أصبح من كبار رجال الدولة ، وفي مرتبة الوزراء ، ومن الساسة الذين يديرون دفة الأمور في الدولة .

تولى هشام الثاني الحكم ـ كما قلنا ـ بتأييد المصحفي وابن أبي عامر ، وبالطبع الام صبح ، ورأى هؤلاء الثلاثة ضرورة التخلص من أعدائهم ومنافسيهم ، الصقالبة ، وزعيمهم المغيرة بن عبد الرحمن .

عهد هشام الى المصحفى بالحجابة ــ كما كان حاله فى أيام أبيه ــ ورقى ابن أبى عامر الى مرتبة الوزارة ، بدلا من خطة الشرطة ، ولكن المصحفى كان يخشى على نفوذه من ابن أبى عامر ولا يستريح لبلوغه مرتبة الوزارة ، وكان ابن أبى عامر قويا بفضل مهارته ومقدرته ، وتأييد صبح التام له ، وكانت صبح تطمئن اليه ، وتطمئن الى مقدرته على تعزيز وضع ابنها الفتى ، وحماية ملكه ، وأدار شؤون البلاد بمهارة حتى صار الحاكم المطلق فى الأندلس .

كان لابد لابن أبى عامر من التخلص من كل الشخصيات التى تعترض تحقيق طموحه ، فبعد أن تخلص من المغيرة بن عبد الرحمن ، رأى ضرورة التخلص من الصقالبة ، ثم المصحفى الذى لا يزال من الناحية الرسمية الرجل الأول ، والمهيمن على السلطة العليا فيها وكان يضرب أعداءه ببعضهم حتى تخلص منهم نهائيا ، ولم يبق له فى الحكم منازع ، وكان الصقالبة وعددهم ألف لا يزالون قوة يحسب حسابها فانتهز فرصة كراهيه الحاجب المصحفى للصقالبة ــ الذين نافسوه بترشيح المغيرة بدلا من هشام ــ فحمل ابن أبى عامر الحاجب المصحفى على نكبة الصقالبة ، فجد فى مطاردتهم واستصفاء أموالهم ، وأعمل فيهم القتل والنفى ، حتى هلك الكثير منهم ، وانهار بذلك سلطان الصقالبة ، وأمن الحاجب وابن أبى عامر شرهم وتقلد الحاجب أمر القصر بدلا منهم ، ويذكر ابن حيان أن الصقالبة اشتد طغيانهم فى القصر والدولة ، وثقلت وطأتهم على الناس وعلى الشعب قاطبه .

اعتزم ابن أبى عامر بعد التخلص من الصقالبة ، على توطيد مركزه بين الجيش والشعب ، فقرر استئناف الجهاد ، وكان المصحفى قد أبدى تقاعسا فى ذلك ، حتى اتسع نفوذ : نصارى الشمال ، وكثرت غاراتهم على أراضى المسلمين حتى اقتربوا من قرطبة ، فقاد ابن أبى عامر جيشا الى الشمال ، وعاقب ممالك النصارى ، ولقنهم درسا قاسيا ، وحذرهم من مغبة الاغارة على أراضى المسلمين ، وعاد محملا

بالغنائم ، فأغدق على جنده ، ونال رضى الشعب والجيش ، والسيدة صبح ، وتطلع الناس اليه للقبض على زمام الأمور فى الدولة •

لا يستطيع ابن أبى عامر تحقيق طموحه الا بالتخلص من المصحفى ورأى فى الشقاق الذى نشأ بين القائد الشجاع غالب وبين غريمه — أقصد المصحفى فرصة لاضعافه والتخلص منه ، وضم ابن أبى عامر القائد غالب الى جانبه ، وسعى للرفع من شأنه أمام الخليفة والسيدة صبح ، حتى خرج المرسوم برفعه الى خطة « ذى الوزارتين » وانتدابه لقيادة جيش الثغر وجاهد أبن أبى عامر الى جانب القائد غالب فى ممالك النصارى بالشمال ، وانتصر الرجلان ، وزادت مكانتهما فى قرطبة ، وتوثق بينهما التحالف للتخلص من العدو المشترك المصحفى •

استطاع ابن أبى عامر استصدار مرسوم من الخليفة بعزل محمد بن جعفر المصحفى من ولاية قرطبة ، وبذلك أضعف من نفوذ المصحفى ، وصدر مرسوم من الخليفة بتولية ابن أبى عامر حكم قرطبة ، وبذلك سيطر على الجيش والحكومة معا ، وضبط العاصمة ، وتخلص من المفسدين ، وأعاد الامن والطمأنينة الى أهل قرطبة • وبذلك ازداد نفوذ ابن أبى عامر ، فى الوقت الذى ضعف فيه نفوذ المصحفى •

وقوى التحالف بين ابن أبى عامر ، والقائد غالب ، وواصلا سويا الجهاد فى الشمال ، وفى كل غزوة يحرزان الانتصارات ، ويعودان الى قرطبة محملين بالغنائم ، فتزداد مكانتهما فى القصر على حساب الحاجب المصحفى ، ولم يلبث أن قلد الخليفة ، القائد غالب خطة الحجابة الى جانب جعفر المصحفى ، وبذلك ازداد المصحفى ضعفا ، وتوطدت العلاقة بين غالب وابن أبى عامر بصفة خاصة بعد المصاهرة التى تمت بينهما ، فقد تزوج ابن أبى عامر من ابنة القائد غالب ، وأخيرا آن الاوان للتخلص من المصحفى ، فأمر ابن أبى عامر بالقبض عليه بمرسوم استصدره من الخليفة ، اتهمه بتبديد أموال الدولة ، وصادر

أمواله ، ونكب أهله ، واستصفى أموالهم وأمر ابن أبى عامر بقتل بعض أفراد أسرة المصحفى ، بل طالبه بالمال الكثير ، حتى اضطره الى بيع قصره المنيف ، ومازال يضطهده بضع سنين حتى توفى سنة ٣٧٢ هـ . وبذلك تخلص ابن أبى عامر من خصم عنيد ، يقف عقبة فى سبيل تحقيق طموحاته .

ولم يبق أمام ابن أبى عامر الا القائد الأندلسى القوى غالب ، وعلى الرغم من المصاهرة بينهما الا أنه كان يتوجس خيفة منه ، ويراه خطرا على سلطانه ، وعقبة فى سبيله ، وكان غالب يقيم بعيدا عن قرطبة ، وكان المعارضون ، يرون فيه الرجل الوحيد ، الذى يستطيع التصدى لابن أبى عامر ، والتخلص منه ، لذلك رأى ابن أبى عامر ابعاد القائد غالب عن طريقه ، فاستدعى ابن أبى عامر جعفر بن على ابن حمدون المعروف بالأندلسى من عدوة المغرب ، وكان من قواد البربر الأقوياء من زناته ، واستصدر له مرسوما بالوزارة ، واستعان ابن حمدون بالبربر ، وأيده ابن أبى عامر ، ورحب بمقدمهم الى الأندلس ، وأدخلهم فى الجيش ، واستكثر ابن أبى عامر من البربر حتى اتخذ منهم الحرس والحاشية ، وتقوى بهم ، فارتاب القائد غالب فى تصرفات صهره ، وتطور الشك الى عداء شديد بين الرجلين ، انتهى بالحرب بينهما أمام حصن شنت بجنت ، ولكن القائد غالب أثناء المعركه ، سقط ميتا من فوق جواده ، فدب الذعر فى نفوس جنوده ، وشتت ابن أبى عامر شملهم ، وأمعن فى جيش غالب قتلا وأسرا سنة ٣٧١ هـ . وبذلك تخلص ابن أبى عامر من هذا الفارس الشجاع .

ومع أنه استعان بابن حمدون فى التخلص من غالب ، الا أنه رأى ضرورة التخلص من ابن حمدون حتى لا ينافسه فى السلطان ، فاستعان عليه بابن جهور وابن ذى النون وأولياء الدولة من العرب حتى تخلص منه .

حتى السيدة صبح أم الخليفة التى أوصلت ابن أبى عامر الى ما وصل اليه حتى شك الناس فى العلاقة بينهما ، تخلص منها أيضا ، فقد أغضبها استبداده بالامر ، ومنع ابنها الخليفة من ممارسة سلطانه ، وأرادت أن تقضى على نفوذه ، فاستعانت عليه ببعض زعماء البربر فى المغرب الأقصى المعادين لابن أبى عامر ، وأرسلت اليهم الاموال والهدايا ، ولكن المؤامرة اكتشفها ابن أبى عامر فى مهدها ، وأستولى على الأموال ، ثم استعانت بالفقهاء ، فأعلن الفقهاء فى قرطبة أن ابن أبى عامر يستبد بالنفوذ دون الخليفة ، ولكن ابن أبى عامر دحض هذه التهمة بالتقرب الى الخليفه ، واظهار الولاء والطاعة له ، والخروج معه فى شوارع قرطبة فى موكب ، والخليفة يحادثه وهو يحادث الخليفة مظهرا الخضوع والخشوع له ، وحدد من اقامة السيدة صبح ، وأحاط قصرها بالجواسيس ، وشدد الرقابة عليها ، حتى قضت بقية حياتها فى زوايا النسيان . وهكذا كان مصير هذه السيدة التى أوصلت ابن أبى عامر الى ما وصل اليه ، وقبلت الاشتراك معه فى منع ابنها الخليفة من ممارسة نفوذه وسلطانه .

وهكذا تخلص محمد بن أبى عامر من منافسيه ، وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة وولى منصب الحاجب ، وهو أرفع منصب فى الدوله ، ولقب بالمنصور سنة ٣٧١ ﻫ ودعى له على المنابر ، شأنه شأن الملوك ، وكانت الكتب تنفذ عنه ، وكان الناس يقبلون يده ، كما لو كان الخليفة ، وأضحى ابن ابى عامر بعد أن قضى على كل منافسية سيد الأندلس بلا منازع ، وصاحب السيطرة على الجيش ، والمسيطر على سيادة الدولة . ولم يكن الخليفة هشام المؤيد سوى أداة لينة فى يد هذا الرجل القوى ، يوجهها كيف شاء .

جهاد المنصور ضد الممالك المسيحية فى شمال أسبانيا :

أراد المنصور أن يضفى على حكمه هيبة وقوة ، فاستأنف عهد الجهاد ، وغزا الممالك المسيحية ، وكان يقود جيوشه بنفسه فى الربيع

والخريف أى فى الصـوائف والشـواتى ، وبلغت هذه الغزوات سـبعا وخمسـين غزوة على مدى حكمـه الذى اسـتمر حـوالى خمسا وعشرين سنة ، وانتصر فى كل هذه الغزوات ويروى ابن عذارى : أن المنصور اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار فى غزواته ومواطن جهـاده حتى اجتمع له منه صرة ضـخمة عهد بفرش قبره بهذا الغبار عند دفنه ، وكان يحمله حيث ما سار مع أكفانه توقعـا لحلول منيته فى أى لحظة •

حارب المنصور فى جبهات المسيحيين المتعددة فى قشـتاله وليون ونافنار وقطالونيا ، وأنزل بهذه البلاد خسـائر فادحـه ، وما رأى أسـبان الشـمال هزائم ولا مذلة كهزائمهم على يديه فمدنهم الكبيرة دمرها ووصل الى أقصى الركن الشمالى الغربى من أسـبانيا ودانت له جميع أسبانيا شمالا وجنوبا •

ومن أهم حملاته الغزوة التى شـنها على برشـلونه وقطالونيا فى شمال شرق أسبانيا سـنة ٣٧٤ هـ ، والحملة التى شـنها على جليقية شمال غرب أسبانيا سنة ٣٨٧ هـ • أما الحملة الأولى ، حملة برشلونة وقطالونيا ، فقد خرجت من العاصمه قرطبة ، وبلغت برشـلونة بعد شهرين من زحفها ، فدمرها المنصور ولم يستطع أهل المدينة مقاومة هذا الجيش القوى •

أما حملة جليقية ، وهى الغزوة الثامنة والأربعون ، فكان غرض المنصور منها ، هو غزو مدينه شنت ياقب أى القديس يعقوب ، ويعتقد المسيحيون أنه من حوارى السـيد المسيح ، وترك القدس ، وساح فى البلاد ، حتى انتهى به المطاف الى هذه البلدة ، ومات فيها ، وأقام له السكان مقبرة ، فوقها كنيسة ، يزورها المسيحيون من شتى البلاد • المهم أن ابن أبى عامر هدم البلدة كلهـا الا قبر هذا القديس • وهذه الانتصارات التى لم يشهد الأندلسيون مثلها فى أى عهد سابق ، جعلت للمنصور شعبية كبيرة ، والتفت الناس حول هذا البطل الذى أعاد لهم كرامتهم •

العلاقات الأندلسية المغربية فى عهد المنصور

حرص المنصور على الاحتفاظ بالعدوة المغربية تأمينا لحدود دولته ، ودرءا لخطر شيعى محتمل ، واصل بسط نفوذ دولته فى تلك الأصقاع حتى دانت له البلاد المغربية الممتدة من سجلماسة جنوبا سنة ٣٧٠ هـ والى ولايتى تلمسان وتاهرت شرقا •

ولتدعيم هذه السيطرة على العدوة المغربية ، ولتلافى ثورات البربر فى المستقبل ، أقام المنصور قاعدة عسكرية فى الجزيرة الخضراء ، لمراقبة الأوضاع فى العدوة المغربية ، وسرعة تجريد حملة عسكريه على هذه البلاد ، اذا ما أعلنت الثورة ، كما شيد المنصور منازل له واستراحات فى الطريق من قرطبه الى الجزيرة الخضراء لسرعة حركته من قرطبة الى بلاد المغرب فى حالة تمردها ، وهو نفس ما فى الطرق المؤديه الى الثغور الأندلسية شمالا •

وواجه المنصور عدة حركات استقلالية فى المغرب ، تهدف الى التخلص من الحكم الأموى فى الأندلس ، وأول هذه الحركات سنه ٣٦٩ هـ ، وقد تزعمها بلكين بن زيرى الصنهاجى وهاجم ظاهر سبته ، ولكن جيش المنصور مزق جيشه كل ممزق ، والمحاوله الثانيه التى قادها الحسن بن جنون — وهو من الأدارسه — وقد لجأ الى بلاط الفاطميين فى عهد الخليفة العزيز وحرضه الخليفه الفاطمى ، على المسير الى المغرب الأقصى ، واسترد ملك آبائه وأجداده ، وسار ابن جنون الى بلاد المغرب الأقصى ، والتف حوله ، الزناتيون والعلويون ، وكثر جمعه ، ولكن جيش المنصور ، هزم العلويين شر هزيمه ، وطلب ابن جنون الامان ، ولكن المنصور رفض لكثرة نكثه وقتله ، الأمر الذى أثار استياء العلويين •

ومن أشد الثورات ضراوة فى العدوة المغربية ضد حكم المنصور قادها زيرى بن عطيه المغراوى الزناتى سنة ٣٨٦ هـ ، وهذا الزعيم ورجال قبيلته مغراوة لعبوا دورا كبيرا فى اخماد الثورة العلوية ، وهزيمة

ابن جنون ، لذلك كافأ المنصور زيرى بن عطية ، بأن عهد اليه بحكم بلاد المغرب ، وأقام مدينة وجده سنة ٣٨٤ هـ على الحدود الجزائرية ، وجعلها عاصمة لدولته المغراوية ، وكانت العلاقات بين هذا القائد وبين المنصور قوية ، وكان يظهر له الولاء والطاعة ، ويتقرب اليه بالهدايا النفيسة والأموال الكثيرة ، لكن حدثته نفسه بالاستقلال ببلاده عن الدولة الاموية فى الاندلس ، وطرد عمال وولاه — المنصور من بلاده • ويختلف المؤرخون حول تفسير أسباب ثورة زيرى ، فيرى البعض أنه استغل لقب وزير ، الذى منحه له المنصور ، وكان يريد لقب أمير ، ويرى آخرون أنه كان ينتظر من المنصور مكافآت مالية كبيرة • وهناك من يقول ان السيدة صبح حرضت زيرى على الثورة ، وأرسلت اليه الهدايا ، وحرضته على التخلص من المنصور الذى حجر على ولدها الخليفة هشام بدليل أن شعار جيش زيرى كان : هشام يا منصور •

ولكننا نستطيع أن نقول بأن كل هذه الاسباب — ان صحت — اتخذها زيرى ذريعة للثورة ، أما السبب الحقيقى للثورة فهو رغبة زيرى القوية فى الاستقلال ببلاده عن الدولة فى الأندلس •

رأى المنصور ضرورة القضاء على هذه الثورة التى تشكل خطرا على النفوذ الأموى فى المغرب ، فأرسل جيشا الى المغرب بقيادة مملوكة واضح الصقلبى — صاحب ثغر سالم — وسار الى طنجة ، وانضم اليه جموع البربر هناك ، على حين استصرخ زيرى بن عطية قومه زناته ، فعظم أمره وقوى بأسه ، لذلك استطاع صد هجوم جيش الأندلس ، وارتد واضح عن فاس • هنا تاد المنصور كل جيوش الأندلس الى الجزيرة الخضراء ، وأرسلها الى المغرب بقيادة ابنه المظفر عبد الملك ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة بالقرب من طنجة دون نتيجة حاسمة • وفجأة اغتيل زيرى بن عطية ، ويبدو أن المنصور كان من وراء هذه المؤامرة التى أدت الى تشتيت شمل جيشه ، ومزق عبد الملك جند زيرى هزمهم ، واستولى على فاس وسجلماسة ، ودانت بلاد المغرب الأقصى بالولاء والطاعة للدولة الأموية سنة ٣٨٩ هـ ، وعهد المنصور الى واضح بحكم بلاد المغرب •

أعمال المنصور الادارية والمعمارية

كان ابن أبى عامر اداريا من الطراز الأول ، واستغل سلطاته المطلقة لمصلحة الدولة والشعب ، وكان يواصل الليل بالنهار فى العمل ، ويقال ان ساعات عمله تجاوزت عشرين ساعة فى اليوم فى خدمة الدولة وتفقد أمورها بنفسه ، ووكل مهام الدولة الى رجال يثق بهم ، وكان يراقب أعمالهم بنفسه ، وبث عيونه فى كل ناحية ليطلع على كل كبيرة وصغيرة ، وكان اداريا قديرا حازما ، وعلمتم أنه رغم أعماله المدنية وأعبائه الادارية الكبيرة كان يقود الجيوش بنفسه .

اهتم المنصور بتنظيم الجيش ، وأنشأ صفوفا جديدة من المرتزقة من زناته وصنهاجه وغيرهما من قبل البربر ومن الجند النصارى من ليون وقشتاله ونافار ، وبذل لهم الأجور السخية ، واجتذب قلوبهم بعدله ورفقه وجوده ، وغير أنظمة الجيش القديمة ، فقدم رجال البربر ، وأخر زعماء العرب ، وأقصاهم عن مناصبهم وفرق جند القبيلة الواحدة فى صفوف مختلفة ، وكانوا من قبل ينتظمون فى صف واحد ، وكان العرب يتمسكون منذ أيام الفتح بوحدة القبيلة ، لأن العصبية كانت فى قبائلهم فى أيام الناصر ، ما تزال قوية ، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل العربية ، واضعاف هيبتها ، وجاء ابن أبى عامر ، فألقى الميدان ممهدا لخططه ، فلم تلق سياسته الجديدة معارضة ، وبذلك جعل المنصور الجيش ، جيشا نظاميا دائما ، يتكون من فرق متعددة ، وكل فرقة تتألف من جميع هذه العناصر المختلفة كالعرب والبربر والصقالبة ، وكل جندى من هؤلاء يتقاضى مرتبا شهريا من الدولة حسب رتبته ، وزالت بذلك العصبية القبلية من فرق الجيش .

واهتم المنصور بالمحافظة على الأمن والطمأنينة فى البلاد كما اهتم بالقضاء ، وراقب أعمال القضاة ، حتى يحكموا بالعدل ويمنعوا الظلم .

ومن أهم الانجازات المعمارية للمنصور تأسيسه مدينة ملكية جديدة ، يتخذها مركزا مستقلا للادارة والحكم ، ويتخذها مظهرا

للسلطان ، وسمى مدينته الزاهرة ، سنة ٣٦٨ هـ ، وتقع بالقرب من قرطبة ، وأنشأ المنصور بها قصرا ملوكيا فخما ومسجدا ودواوين للادارة والحكم ، ومساكن للبطانة والحرس ، وأقام حولها سورا ضخما ونقل اليها خزائن المال والسلاح ، وادارات الحكم ، وتم بناء المدينة الجديدة فى نحو عامين ، واقطع ما حولها للوزراء والقادة وكبار رجال الدولة ، فشيدوا الدور العظيمة وأنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة ، واتصلت أرباضها بأرباض قرطبة •

وفى سنة ٣٩٢ هـ توفى المنصور وهو منصرف من غزوة شمالية بالقرب من مدينة سالم ، وقد تنفس نصارى الشمال الصعداء ، فقد كتب أحد الرهبان فى تقويمه عن هذه الجملة ، فى سنة ١٠٠٢ م مات المنصور ودفن فى الجحيم • وهـذا يدل كما يقول دوزى على مقدار المرارة والحسرة التى يشعر بها النصارى من هزائم المنصور لهم •

عهد الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور

وبموت المنصور تنفس ملوك أسبانيا المسيحية الصعداء ، وغمرتهم موجة من الفرح والاغتباط فلقد دمر المنصور بلادهم ، واكتسح سهولهم ، وهدم حصونهم ومعاقلهم ونشر الذعر والهلع فى قلوبهم ، وشرد جيوشهم ، وأزال سيادتهم ، وأذلهم بانتصاراته العديدة ، وغزواته المتكررة • فلما مات كتب مؤرخ لاطنى فى حولياته : « مات المنصور سنة ١٠٢ ، ودفن فى النار » •

ولما علم هشام بموت ابن أبى عامر استقدم أبا مروان عبد الملك ابن المنصور ، وأمره بقمع حركة الفتيان الصقالبة الذين استغلوا هذه الفرصة لاسترجاع نفوذهم القديم وحذره الخليفة مواقعة الدماء ، وخلع عليه ، وأخرج معه كتابا بولاية الحجابة مكان أبيه • وهكذا قام عبد الملك بالحجابة ، وتلقب بالمظفر سيف الدولة فى ٣ رمضان سنة ٣٩٢ هـ ، وقضى على حركة الفتيان الصقالبة ، ونفى بعضهم الى سبتة • وكان عبد الملك قد ورث كثيرا من صفات أبيه ، فاستوسق له الأمر

واجتمع الناس على حبه لعدله وانسانيته وحمايته للشرع ، وسهره على رعيته ، ونصرته للمظلومين ، وجهاده فى سبيل الله « حتى أيس الاعداء من دولة بنى عامر ، وعلموا انهـا وراثة » • وذكـروا أنه كان يزور الصالحين والاولياء فى المقابر ، ويستهدى أدعيتهم • ويذكر ابن الخطيب زيارته لابى أيوب • كذلك كان يزور المسـجون ويتفقـد حـال المسجونين ، ويكشف عمن طال سجنهم فيطلقه • ويذكر ابن بسام نقلا عن أبى مروان بن حيـان فقرات فيها وصـف لحـالة البلاد فى عهـده منها : « راقت أيامه ، وأحبـه الناس سرا وعلانية ، وأنصـب الاقبال والتأييد عليه انصبابا لم يسمع بمثله ، وسـكن الناس منه الى عفافة ونزاهة نفس ، فباحوا بالنعمة ، وأخذوا فى المكاسب والزينة من المراكب والملابس والقيان ، حتى سمت أثمان هذه الاشـياء فى مدته ، وبلغت الاندلس فى أيامه الى نهاية الجمال والكمال وسعة الحال ، فى كنف ملك مقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الايام ، مسرور بما تنافس فيه رعيته من زخرف دنياها • فاجتمع الناس على حبه ، ونجا من الفتن » •

ويضيف ابن حيان فى ذكر حسناته ومآثره فيذكر أنه كان من أكثر الناس حياء • نال حظـوة الخليفة ورضـاه ، فظفـر بلقب المظفـر ، وظفر ابنه بلقب ذى الوزارتين • ولكن لم يتح لعبد الملك أن يتمتع طويلا بهذا اللقب ، اذ اعتل أثناء عودته من صائفته الى قلونية •
من بـلاد شـانجة بن غرسـية سـنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) ، وزاد به مرض الذبحة الصدرية ، وتوفى بالقرب من قرطبة فى ١٦ صـفر سنة ٣٩٩ هـ (٢٠ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) •

وفى عهد عبد الملك ظهرت عدة شخصيات كان لها أثرا كبيرا فى الاحداث السياسية أهمها :

الفتى الكبير طرفة ، والوزير عيسى بن سعيد اليحصبى المعروف
أنظر كتاب تاريخ المسـلمين وآثارهم فى الأندلس للاسـتاذ الدكتـور السيد عبد العزيز سالم •

وحاول المظفر بعـد عودته من غزوته المذكورة أن يجمع صفوفه ، ويفاجيء العدو بشانتية ، فأمر بالتأهب لذلك ولكنه كان مريضا ، وازداد مرضه فى الطريق • وذكر ابن عذارى أنه كان مصابا بذبحة أنهكته وتوفى وهو عائد الى قرطبة بعد سبع غزوات •

لما توفى عبد الملك خلفه أخوه عبد الرحمن ، ولم يكن مثل أبيه وأخيه فى قوة الارادة وقضى حياته فى لهو وعبث ، وساءت أحوال البلاد فى أيامه ، وأصبحت البلاد على تدفى الانهيار ، وحدثته نفسه بالاستيلاء على السلطة الشرعيه ، وهذا أمر لم يجرأ عليه أبـوه وأخوه ، وكان هشام ضعيفا يوافقه على كل ما يطلب منه ، وطالب منه عبد الرحمن أن يعهد اليه بولاية العهد فوافقه هشام ، وكتب عهدا بذلك جاء فيه : أن الخليفه لم يجد من هو اصلح لولاية العهد من هذا القحطانى عبد الرحمن • وقدعجل هذا العمل بالقضاء على الدوله العامريه ، فكبر على الناس ضياع الخلافة من قريش ، ورفض المضريون توليه اليمنيين الخلافه ، كما رفض البيت الأموى ضياع الخلافة منه ، وثارت البلاد ، وانتهز المعارضون فرصة غياب عبد الرحمن ببعض الغزوات فى الشمال ، وخلعوا هشاما من العرش، وولوا رجلا من احفاد الناصر هو محمد بن هشام بن عبدالجبار بن أمـير المؤمنين الناصر ، ولقبوه المهدى بالله ، فعاد عبد الرحمن مسرعا من الشمال، ولكن جنوده انفضوا من حوله ، وهاجمه الثوار وقتلوه سنة ٣٩٩ ه •

وبموته انتهت الدولة العامرية • وهذا يدل على أن الناس مرتبطون بالخلافة كل الارتباط •

بقى من عمر الخلافة الأموية ٢٣ سنة ، وهذه الفترة اصطلح على تسميتها بعصر الفوضى ، فقد اضطربت البـلاد ، ولم يستطع الخلفـاء الاستمرار فى الحكم الا لفترات محدودة حتى أن من ولى الخلافة فى فترة الفوضى ، يزيد على من وليها فى القرون الثلاثة الماضية وظهرت العصبيات، واشتد النزاع بين الصقالبة وأهل قرطبة والبربر ، وأعطت هذه الحروب

الاهلية الفرصة لنصارى الشمال لاسترداد كل ما أخذه الحاجب المنصور ابن أبى عامر ، بل توسعوا أكثر من ذلك على حساب ملك المسلمين ، وكان زعماء العصبيات يستعينون بالنصارى ضد خصومهم من المسلمين وانتقل بنو حمود من سبته الى الاندلس ، واستقروا فى قرطبة ، وحاولوا السيطرة على الاندلس ، ونازعوا الامويين السلطة والنفوذ فى الاندلس .

وفشل بنو أميه فشلا ذريعا فى استعادة وحدة البلاد وقوتها ، وانتهت بموت آخر خلفائها المعتمد بالله . وبموته أعلن الوزير أبو محمد بن جهور، انتهاء الخلافة لعدم وجود من هو جدير بها ، وأنه سيحكم الدولة جماعة من الوزراء على نظام شبه جمهورى عرف فى كتب التاريخ بحكم الجماعة وتبع سقوط الدولة الأموية ، انقسام الاندلس الى دويلات متنازعة ، فسيطر البربر على الجنوب ، وخضع الشرق للصقالبة أما البقية الباقية فقد آلت الى المتغلبين . وقد حكم فى هذه الفترة التى تقع بين عامى (٤٢٢ — ٤٨٤ هـ) نحو عشرين أسرة مستقلة فى عشرين مدينة . ومن أشهرهم بنو عباد فى أشبيليه وبنو حمود والادارسة فى مالقه والجزيرة ، وبنو زيرى فى غرناطة ، وبنو هود فى سرقسطة وبنو ذى النون حكام طليطلة وبلنسيه ومرسيه والمريه .

وعلى الرغم من هذا التمزق ، فقد ازدهرت الحياة الادبية فى الاندلس وتنافس الامراء بتزيين بلاطهم بالعلماء ، وكان الفلاح أو الصانع يروى الشعر ، ويقرأ فى فروع العلم ويجلس فى المسجد للدراسة .

وتجدر بنا الاشارة الى شيخ جليل عاصر هذه الدولة وهو ابن حزم وينسب الى أصل فارسى ، دخل جدة فى خدمة يزيد بن أبى سفيان ، وفدت أسرته الى الأندلس ، وأقامت فى غربها حيث ولد صاحبنا سنه ٣٨٤ هـ ، بدأ حياته بالثقافة الابتدائية فى عصره ، وهى حفظ القرآن . وبعض الأشعار ، والكتابة والقراءة والحساب ، وكان أبوه وزيرا فى أواخر عهد الدولة الأموية ، ولكنه عزل ، وحلت به النكبات ، وعاشت

الأسرة فى بؤس وشقاء ، وتوفى أبوه سنه ٤٠٢هـ . واضطرت الأسرة الى مغادرة قرطبه سنه ٤٠٤هـ بعد اشتداد عنف البربر ، واستقرت فى المريه .

عكف ابن حزم فى شبابه على دراسة العلوم الاسلامية خصوصا الحديث والأخبار ، ولما ذهب الى نانسيه ، عكف على دراسة الفقه وكان ابن حزم يدرس كل ما يصل اليه من كتب ، وعلى كل من يلقاه من شيوخ .

ولقد تعرضت أسرته للاضطهاد ، بعد أن حكم قرطبة آل حمود ، واتهموا أسرة ابن حزم بمحاوله اعادة الحكم الى الأمويين واستوزر الخليفة الأموى المستظهر الذى استرد قرطبه من آل حمود — ابن حزم ، ولكن هذا الوزير لم يلبث أن قتل فى هذا العصر المضطرب ، وزج ابن حزم فى السجن ، ثم أفرج عنه .

وعاد ابن حزم الى الاشتغال بالعلم والدرس ، وانصرف على دراسة الفقه والحديث والجدل والدعوة الى الاسلام ، والرد والتصدى لأعداء الاسلام ، ثم عاد الى السياسة ، وشغل منصب وزير الخليفة المعتمد — آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس — وهذا آخر عهد ابن حزم بالسياسه وظل ابن حزم على ولاء تام للأمويين ، وكان يقف الى جانبهم ، ويؤيدهم ، ويتولى المناصب الهامة فى دولتهم ، ويتعرض للأذى فى سبيلهم .

لما اضطربت الدولة الأموية سنة ٣٩٩هـ ، اضطربت معها أسرة ابن حزم ، فأخذت تنتقل من بلد لآخر ، ولم يستقر لها مقام ، فانتقلت من شرق قرطبة الى غربها ، ثم انتقلت الى المرية ، ثم كان النفى ، ورغم ذلك كان يعيش فى رغد من العيش ، وكان لانتقال ابن حزم من بلد لآخر ، أثر كبير فى تفكير الناس ، الكثير من الناس يستمعون اليه ، ولكن بعض الفقهاء عارضه وكان ينشر آراءه أينما حل ، وكان الفقهاء يأخذون عليه مخالفته

للمذهب المالكى ، ونقده الشديد لهـذا المذهب الذى لا يعتمد تماما على النصـوص •

تنقل ابن حزم بين بلدان الأندلس التى انقسمت الى دويلات ينشر علمه وآراءه على الناس ، حتى نزل باشبيليه ، ويحكمها المعضد بن عباد ، وقد استنكر آراءه ، وأمر باحراق كتبه ، وذلك بتحريض من الفقهاء الذين استنكروا مهاجمة ابن حزم للامام مالك والأئمة الأربعة ، وخروجه على الناس بفقه لا صلة له بفقه الأئمة الأربعة •

يضاف الى ذلك أن المعتضد كان ساخطا على ابن حزم لأنـه أموى النزعة ، وفى تنقلاته بدون الأحداث ، وخشى المعتضد أن يكون ابن حزم قد استهدفه ، فرأى احراق كتبه ، ولذا يقول ابن حزم أن علمه الذى فى صدره لم يحرق ، وأنه معـه حيث تنقل ، وان أوراقـه التى أحرقت ، سيسجل غيرها ، أو يحدث به الناس ، أو يموت فى صدره •

انتهت رحلات ابن حزم الى الاقامة فى قرية يملكها أسلافه ، وآلت اليه ، وهو يشغل كل وقته فى البحث والتأليف والتدريس لطلاب العلم ، ولم يعر اهتماما بالمجادلين والمعارضين له وبلغت شهرته الآفاق ، وكان الطلبة يفدون عليه من كل مكان ، وهذه القلة القليلة من طلاب العلم الذين كانوا يتعلمون منه فى ضيعته فى أيامه الأخيرة ، هى التى نشرت علمه مـن بعده • ولم يعد التاريخ يذكر ابن حزم وزيرا أو سياسيا بارزا ، انمـا يذكر له شهرته كامام مجدد وظل يدرس ويعلم حتى وفاته سنة ٤٥٦هـ •

تفقه ابن حزم فى علوم متنوعة ، كان كاتبا أديبا ، عالما فى الفلسفه والمنطق ، له آراء فريدة فى الفلســفة حتى أنه يعارض آراء أرسطو فى المنطق ويكتب التاريخ بكل دقة ، ويخاصه من المبالغات والشوائب ويحقق فى الانساب بدقة وعمق ، وكان حافظا للحديث ومحيطا به وفوق ذلك فقيها أحيا وجدد علم الظاهر ، لأنه المنهاج الذى يتمكن به من بيان أحكام القرآن والسنة • يضاف الى ذلك أنه عالم بالملل والنحل غير الاسلامية والفرق

الاسلامية ، ولا يقصد فى علم العقائد الا ما كان واضحا ظاهرا ولا يقصد الى المناهج المعقدة المتأثرة بمناهج اليونان .

ويناقش الفلاسفة ، ويستنكر معتقداتهم بالدليل القاطع . وبذلك لم يدع ابن حزم فرعا من فروع العلم الا تناوله بالدرس وهو من أكثر العلماء تأليفا وتصنيفا ، بحث فى العلوم الاسلامية كلها .

كان ابن حزم عالما فى العلوم النقلية كالتفسير والفقه والحديث وعلوم اللغة ، كما كان عالما فى العلوم العقلية خصوصا المنطق والفلسفة والتاريخ ، وصنف كتبا قيمة فى هذه المجالات ومن العلماء الذين اعترفوا لابن حزم بالتبصر والاجتهاد المطلق والثقافة الواسعة والعلم الغزير تلميذه الحافظ الحميدى . قال كان أبو محمد حافظا عالما بعلوم الحديث وفقهه مستنبطا للاحكام من الكتاب والسنة ، متقنا لعلوم جمة ، عاملا بعلمه زاهدا فى الدنيا بعد الرياسة التى كانت له لأبيه قبله ، فى الوزارة وتدبير الملك ، متواضعا ذا فضائل جمة ، وتواليف كثيرة ، فى كل ماتحقق به من العلوم ، وجمع من الكتب والمصنفات والمستندات كثيرا ، وسمع سماعا جما ، وما رأينا مثله وكان له فى الآداب والشعر نفس واسع ، وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، وشعره كثير ، وقد جمعناه على حروف المعجم .

وقال ابن خلكان : كان ابن حزم حافظا عالما بعلوم الحديث وفقهه مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة ، بعد أن كان شافعى المذهب، فانتقل الى مذهب الظاهر ، وكان أديبا شاعرا ، طبيبا ، له فى الطب رسائل ، وكتب فى الأدب .

أما عن أسلوب ابن حزم — فى كل هذه المؤلفات والمصنفات فهو

أسلوب المفكر الدقيق العميق ، الذى يجعل من اللغة أداة طيعة للتعبير عن أفكاره ومعانيه ، دون لغو أو حشو ، ودون استطراد أو خروج عن الموضوع •

أما أشهر مؤلفات ابن حزم فى التاريخ :
جوامع السيرة •
أسماء الصحابة الرواة •
القراءات المشهورة فى الأمصار •
أسماء الخلفاء والرواة •
جمهرة أنساب العرب •
نقط العروس فى تواريخ الخلفاء •
رسالة فى فضل علماء الأندلس •
رسالة فى أمهات الخلفاء •
الامامة والسياسة فى سير الخلفاء •
ذكر أوقات الأمراء وأيامهم فى الأندلس •
غزوات المنصور ابن أبى عامر •

وأحصى الزميل الأستاذ الدكتور صلاح الدين بسيونى رسلان، مؤلفات ابن حزم فى الفلسفة وعلم الكلام ، فبلغت ٢٢ كتابا ، وفى الفقه والشريعة ٤٤ كتابا ، وفى التاريخ ٤٣ كتابا ، وفى اللغة والأدب سبعة كتب ، وفى الطب سبعة كتب ، وبلغت بذلك مجموعة كتبه ١٠٤ كتابا ، وهى الكتب المعروفة التى لم تفقد ولم يتسرب اليها العبث •

نشأ المذهب الظاهرى للحفاظ على النصوص ، والوقوف عندها وعدم تجاوزها • والمقصود بالظاهر ، هو ظاهر اللفظ من ناحية اللغة أى ضرورة الأخذ بالمعنى اللفظى الظاهر للكلام ، وتجاوز النص يعتبر تبديلا لكلام الله ، ولقد سبق ابن حزم بذلك المنهاج داود بن على ابن خلف البغدادي ، واختار ابن حزم هذا المذهب ، لأنه مذهب الكتاب

والسنة ، واجماع الصحابة ، وليس لأحد فيه أن يقلد أحدا ، وفى نفس الوقت يقول ابن حزم : ان التقليد حرام ، ولا يحل لأحد أن يأخذ يقول أحد من غير برهان •

ويقرر ابن حزم : أن أهل النظر والادراك ، ومن توافرت عندهم أدوات الاجتهـاد ، لا يسوغ لهم أن يقلدوا اماماً فى كل ما يقوله أو كل ما قال وقرر من غير ترجيح • ويقول ابن حزم : ان النـاس فريقان : أحدهما تخصص للدراسات الاسلامية ، فتوافرت له الأسـباب لتعرف الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله من غير توسـط أحد ، وهم الأئمـة المرشدون ، والثـانى العامة لم يدرسوا الاسلام ، ولكنهم يريدون معرفة ما عليهم من واجبات ، لذلك هم فى حاجة الى التعرف على أحكام الدين من العلماء المقربين منهم ، والمنهج الظـاهرى الذى اختـاره ابن حزم يفتح باب الاجتهـاد ، لأنه المـذهب الذى يستند الى الكتاب والسنة مباشرة ، ويأخذ الالفاظ بظواهرها اللغوية ، ولا يحـاول تعليل الأحكام واستخراج العلل وتعميمها بل يأخذ المعنى التكليفى من اللفظ •

ويذكر ابن حزم ان المصادر الرئيسية للفقه الاسلامى ، هى القرآن الكريم بالدرجة الأولى ، ونص كلام الرسول (ﷺ) والاجماع ، وهو ما أجمع عليه شيوخ وعلماء الجماعة الاسـلامية ، والقرآن الكريم هو الأصل لهذه الشريعة • ويأخذ ابن حزم بظاهر القرآن الكريم ، لذلك كان كل لفظ من القرآن يؤخذ على مقتضى ظاهره أو يقول ابن حزم : ولمـا تبين بالبراهين والمعجزات أن القرآن هو عهـد الله الينـا الذى التزمنا بالعمل بما فيه وجب الانقياد لما فيه ، فكان هو الأصل المرجوع اليه « ما فرطنـا فى الكتاب من شىء » فمـا فى القرآن من أمـر ونهى فواجب الوقوف عنده ، والسنة عند ابن حزم تفصـل ما فى القرآن من عموميات ، وأهل الظـاهر يأخـذون بظواهر النصـوص ، ولا يقبلون التعليل والقياس • ويرى ابن حزم أن النصوص لا تتعارض ، ولا يوجد

تضارب بين نصـــوص القرآن والسنة ، بل النصـــوص كل متكامل تبين وتوضح أحكام الشريعة الاسلامية ، وما دام المصدر الاسلامى للشريعه هو الله فلا يمكن أبدا وجود تعارض بين النصوص •

ويقرر ابن حزم أن معرفـــة الناسخ من المنسوخ هو الركن الأعظم من أركان الاجتهاد ، والنسخ فى نظر ابن حزم بيان للأحكام ولا يتنكر للنصـــوص ، لأن معرفـــة الناسخ من المنســـوخ هو الركن الأعظم من أركان الاجتهـــاد •

والاجماع فى نظر ابن حزم ، هو ما نقلتـــه الأمة كلها عصرا بعـــد عصر كالايمان وأصول الصلوات المفروضة وأوقاتها وعدد ركعاتها والصيام وشهره ووقته والحج ووقته وركنه •

ويوضح ابن حزم أن الاجمـــاع من غير نص غير ممكن لاستحالة الاجتماع ، ولاختلاف أساليب تفكيرهم •

ويرى ابن حزم أنه لا رأى فى الدين ، فليس لأحـــد أن يجتهـــد برأيه ويدعى أن ذلك حكم الله تعالى ، لأنه لا يحق لأحد أن يتحدث عن الله غير رسول الله ، وما يتوصل اليه الشيوخ من آراء واجتهادات هى أحكامهم ، وليست حكم الله تعـــالى ، ولا يحل لأحـــد الحكم بالرأى ، وينفى ابن حزم القياس •

ولا يجوز فى رأى ابن حزم تقليـــد أحـــد لا من الصحابة ولا من غيرهم ويعتبر أن الأخـــذ برأى الصحابى من غير دليل من السنة ، غير صحيح لأنه لا يؤخذ الا من الكتاب والسنة أو الاجماع القائم على نص منها أو الدليل المقتبس من هذه الأمور الثلاثة •

انتشر المذهب الظاهرى فى الدولة الاسلامية بعـــد وفاة ابن حزم نشره تلاميذه فى أقاليم الدولة الاسلامية ، شرقها وغربهـــا ، وظهر فى

الأندلس فقهاء ظاهريون ، ومنهم الحـافظ أبو الخطاب مجد الدين بن عمر بن الحسن ، وقد طاف بأقاليم الأندلس كلها ، وتوفى سنة ٦٣٣هـ ، وكان محيى الدين بن عربى ظاهريا ، وكان ابن عربى فى عصر الموحدين الذين نشروا المـذهب الظاهرى فى المغرب والأندلس . ويوضح شيخنا الجليل الامام محمد أبو زهرة : أن آخر القرن السادس الهجرى وأول القرن السابع عصر ازدهار المذهب الظاهرى ، فقد ساد بلاد المغرب والأندلس فى عهد يعقوب بن يوسف بن عبـد المؤمن بن على (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ) واستمر من بعده . وفى أيامه « انقطع علم الفروع وخاصـه الفقهاء ، وأمر باحراق كتب المذهب بعـد أن جرد ما فيهـا من أحاديث رسول الله والقرآن ، فأحرق منها جملة فى سائر البلاد .

تأثر ابن حزم فى شعره باشتغاله بالفقه والحديث والجدل والأنساب والتاريخ ، وخضع فى مذهبه الشعرى الى تفضيل مواضيع ذات طابع دينى . ولقد تأثر ابن حزم فى شعره بالاضطرابات التى سادت الأندلس والفتن التى مزقت هذه البلاد ، وشهد فى شبابه دمار قرطبـة ، وتغير مجـرى حياته ، فبعـد أن كان مترفا فى معيشته ، ذاق مرارات الحرمان والبؤس ، ولكن ابن حزم صمد للشدائد والصعاب وأحيت المحن التى تعرض لها ابن حزم ملكات أفادت مجتمعه تشعبت وتنوعت ثقافة ابن حزم حتى اشـتملت جميع أنواع المعرفـة فى عصره — ما عـدا الحسـاب والهندسة — فلقد تمخص فى علوم الحديث والفقه والأديان واللغة والنحو والأدب والتاريخ واطلع على المؤلفات الأندلسيه ، ودرس المنطق والفلسفة والفلك . وتدل رسالته فى فضل الأندلس على تقديره لثقافة أهل بلاده فى تاريخها ورجالها ومؤلفاتها وأدبها وشعرها [١] .

ويقول صاعد : كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبـة لعلوم الاسـلام ، وأوسعهم معرفـة مع توسـعه فى علوم اللسان والبلاغـة

---

(١) احسان عباس : تاريخ الأدب الاندلسي ص ٣١٥ .

والشعر والسير والأخبار ، وكان جماعا للكتب ، جمع منها فى علوم الحديث والمصنفات والمستندات شيئا كثيرا ، كما كان كثير التقييد لايدع شيئا يفوته من سماع أو قراءة أو مشاهدة لذلك كثرت مؤلفاته وبلغت أربعمائة مجلد .

كان ابن حزم يقول الشعر بسرعة على البديهة ، ولذلك كثر شعره، وأكثر ما ذكره دون العشرين كان فى الغزل ثم رثاء لجاريته ، وكان يراسل بعض أقاربه وأصدقائه بالشعر ، وتمتلىء بعض قصائده بالحكمة ، وبعضها يتجه الى تمجيد الزهد ، وبعضها فى تسبيح الله وتمجيده واثبات حدوث العالم ، وبعض قصائده يحث فيها على دراسة الحديث ، ومن قصائده الرائعة القصائد الذاتية التى يدافع فيها عن اتجاهاته ، ويندد بكراهية بعض الناس له وانكاره لفضله . وتظهر فى بعض أشعاره الروحانية الغيبية كلما وجد قلقا من التشدد بالأخذ بالظاهر (١) .

يعتبر كتاب طوق الحمامه لابن حزم كتاب فى الحب لفقيه من فقهاء الأندلس ، قضى حياته فى المجادلات الدينية ، حيث عرض فى هذا الكتاب أشعاره الغزلية المتنوعة ، ويقصد من ذلك تصوير بعض مواقف حياته مخفيا أسماء بعض الأشخاص حينا مصرحا بها حينا آخر ، لذلك فان الكتاب ترجمة ذاتية ، تصور حياة صاحبه ومجتمعه والعلاقات الاجتماعية ، وفى هذا الكتاب يوضح نوعا من الحب ، وهو الحب العذرى ، لم يكن معروفا فى الاندلس من قبل .

ويبدو أن ابن حزم ألف كتابه بعد خروجه من قرطبة ، اذ تتضح فى هذا الكتاب حسرته الشديدة على خروجه من قرطبة ومفارقته أهله ودياره التى خربها البربر ، ويتحدث عن مشاهداته فى مدن الأندلس المختلفة ، ويبدو أنه صنف كتابه بعد اعتزاله الحياة السياسية أى بعد

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٤ تاريخ للأدب الاندلسى ص — ٣١٦ ؛ ٣٢٢ .

حوالى سنة ٤١٩ هـ ، وقد ذكر فى سبب تاليفه لهذا الكتاب بأن صـديقا كلفه بتصنيف رسـالة فى الحب ومعانيـه وأسبابه واغراضـه ، فصف هذا الكتاب [1] .

وقسم ابن حزم رسـالته هـذه الى ثلاثين بابا ، عشرة منهـا فى أصـول الحب ، ثم كيف يتدرج من التعرض الى الاشارة الى المراسلة الى السفارة — اثنا عشر فى أغراض الحب وصفاته محمودها ومدمومها وهو يقـرن كل صـفة بما يناقضها — وستة ابواب فى الآفات الداخلة على الحب — وخاتمـة فى بابين تحـدث فيهما عن قبح المعصية ، وعن فضل التعفف ، لكى يقرن الحب بروح التدين ، ويكون كلامه فيه داخلا فى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ويوسع ابن حـزم فى هـذه الرسـالة من مدلول الحب ، ويقص قصصا عن الصداقة ، وحكايات عن الأدب المكشوف .

والنفس بطبيعتها جميلة تولع بالجمال .

وأفضل ضروب المحبة عند ابن حزم محبة المتحابين فى الله عز وجل أما الاجتهـاد فى العمـل ، واما الاتفاق فى أصـل النحلة والمذهب . واما الفضل علم يمنحه الانسـان ، ومحبة القـرابة ، ومحبة الألفـة والاشتراك فى المطالب ومحبة التصاحب والمعرفـة ... وتكلم ابن حزم عن أنواع المحبة ودرجاتها ، والحب العاطفى ، والحب الجسدى ، والحب القائم على الزهو والغرور :

فكمـا العقـل واحـد ليس يـدرى
خلقـا غـير واحـد رحمـان
هكـذا القلب واحـد ليس يهـوى
غـير فـرد مبـاعد أو مـدان

---

(١) المصدر السابق ٣٤٢ — ٣٤٣ .

وكــــذا الــــدين واحــــد مســــتقيم
وكفــــور من عنــــده دينــــان

ويتكلم عن أنواع الحب ويقول : أعلم أن للحب حكما على النفوس ماضيا وسلطانا قاضيا وأمرا لا يخالف ، وحدا لا يعصى ، وملكا لا يتعدى ، وطاعة لا تصرف ، ونفاذا لا يرد ، كما تحدث عن آفات الحب .

بدأ ابن حزم رسالتــه بالدفاع عن الحب وجلاله ، ويقول : أوله عز وآخره جد ، دنت معانيــه لجلالها من أن توصــف ، فلا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة ، وليس بمنكر فى الديانة ولا بمحظور فى الشريعة ، اذ القلوب بيــد الله عز وجل ، ويعرف ابن حزم الحب تعريفا فلسفيا بقوله : وقد اختلف الناس فى ماهيته ، وقالوا وأطالوا ، والذى أذهب اليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هــذه الخليقــة فى أصل عنصرها الرفيع (١) .

والمحبة عند ابن حزم لا تقوم بين متنافرين أو متضــادين ، لأن المخلوقات انما تتصل أو تنفصل بسبب تمازجها أو تباينها ... والمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد ... وكلما كثرت عنــاصر المشــاكلة بين المتحابين زادت المجانسة ، وتأكدت المودة .

أن الحب ثمرة المشاكلة بين المحب والمحبوب ، ولا يكون الا بازدواج النفسين وامتزاج الشكلين ، وهو دليل على تمازج الروحين .. وينبعث من تجانس الأرواح نور ساطع ، تهتز لاشراقه طبائع الحياة .

ومن أبرز كتب ابن حزم كتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » تكلم فيه عن الفرق المخالفــة لدين الاســلام ، وناقش آراء الفلاسفة

---

(١) ابن حزم : طوق الحمامه ص ٥ — ٦.
صلاح رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم .

فيما وراء الطبيعة ، وتكلم عن فرق النصارى شارحا آراءهم ، وتحدث عن الأنبياء والرسل ، ورد على المعترضين على الشرائع ، وكتب عن اليهود وعلى من أنكر التثليث من النصارى ومذهب الصابئين ، ومن أقر بنبوة زرادشت من المجوس وأنكر ما سواه ، كما تكلم عن المتناقضات الظاهرة فى التوراة والانجيل ، وأبرز أن السامرة بأيديهم توراه غير التوراة الذى مع اليهود ، وناقش بعض ادعاءات اليهود الباطلة ،ووصف قيام بنى اسرائيل على موسى ، وتكلم عن فصول التوراة وما فيها من تحريفات ، وذكر بعض ما ورد فى كتبهم ، فأوضح ما نقره من كتب التوراة والأنبياء ، وناقش خطأ من أنكر أن التوراة والانجيل غير محرفين ، وذكر شيئا من كلام أحبارهم •

ثم تكلم عن الانجيل وكتب النصارى وما فيها من التناقض ، وذكر ما تثبته النصارى بخلاف نص التوراة ، وذكر متناقضات الاناجيل الأربعة ، وذكر بعض الأكاذيب فى كتبهم ، وتكلم عن بعض اعترافات للنصارى على المسلمين وبيان فسادها ، وتكلم عن بطلان ما تمسكت به النصارى من بعض أقوال الرافضة وبيان بطلانها • وذكر فصولا يعترض بها الملحدون على ضعاف المسلمين ، وتكلم عن كروية الأرض ، وكذب من ادعى أن مدة الدنيا عددا معلوما وذكر فرق الاسلام ، وأوضح النحل ، وتكلم عن آراء المرجئة فى الايمان والكفر ، وأوضح خروج بعض الفرق على الدين الاسلامى ، وتكلم عن التوحيد ونفى التشبيه ، وتكلم فى صفات الله وفى الحياة وناقش مسائل فى السخط والرضا والعدل والصدق والملك والخلق والجود والارادة والسخاء والكرم •

الممالك النصرانية خلال القرن العاشر الميلادى

لما ضعف أمر المسلمين فى الأندلس ، واشتد الصراع بين القوى الاسلامية فى هذه البلاد ، قويت الممالك النصرانية فى مطلع القرن العاشر الميلادى ، حتى كانت مملكة ليون ، التى خلفت مملكة جليقية ، وسيطرت على ولاية قشتالة فى اواسط أسبانيا الشمالية ، اشتد بأسها وقوى أمرها ، وأصبح فى امكانها التصدى للمسلمين بل وتوجيه الضربات العنيفة لهم •

وعلى الرغم من أن عبد الرحمن الناصر كان مسيطرا على الأندلس مهابا فى هذه الديار ، الا أن النصارى بقيادة أوردنيو الثانى انتصروا على المسلمين انتصارا حاسما فى موقعة شانت اشتين سنة ٩١٧ م ولكن النصارى شغلوا عن مواصلة الانتصارات على المسلمين وذلك بسبب الانقسامات الداخلية بينهم ، فقد اشتد النزاع على العرش بين سانشو والفونسو — ولدى أوردنيو — وانتهى هذا الصراع بتولية الفونسو العرش بمعاونة حليفه سانشو — ملك نافار — ولكن سانشو لم يستسلم للهزيمة بل جمع أنصاره ، وأعلن نفسه ملكا فى شانت ياقب فى أقاصى جليقية ، ثم سار بجيشه الى ليون ، واستردها وأعلن نفسه ملكا ، وخلع أخاه ، ولم ينته ذلك الصراع بين الأخوين ، بل استمر أعواما حتى توفى سانشو ابن أوردنيو سنة ٩٢٩ م ، وولى الفونسو الرابع العرش ، وظل فى الحكم حتى توفيت زوجته ، وبلغ به الحزن مبلغا لم يمكنه من الاستمرار فى الملك ، فتنازل عن العرش لأخيه راميرو الثانى ، والجأ الى الدير ، ولكنه عاد فتطلع الى استرداد ملكه ، فانتهز فرصة غياب راميرو عن ليون لمساندة توار طليطلة، واستولى على ليون • ولكن راميرو عاد بسرعة الى عاصمة ملكه ، وسمل عينى الفونسو حتى لا يعود الى طلب الملك ، وعاقب بكل شدة كل من شارك فى هذه المؤامرة ، وبذلك استقر راميرو فى الملك وكان من ألد

أعداء المسلمين ، اذ قضى سنى حكمه فى الهجوم على الأراضى الاسلامية أو تحريض الثوار ومساندتهم ضد حكومة قرطبة •

قلنا أن القسم الغربى من مملكة ليون يسمى جليقية ، أما القسم الشرقى فيسمى قشتاله أى القلاع والحصون ، وهذه المنطقة تحولت فيما بعد الى مملكه قشتاله ، تمتد شرقا حتى هضاب نافار ، وسكانها من البشكنس وجبال الأنب ، وكان زعماء قشتالة يرفضون منذ القدم سيطرة أهل جليقية عليهم ، وثاروا على حكامهم عدة مرات ، ولكن ثوراتهم فشلت بسبب تنكيل ملوك ليون للثوار على أن الزعماء القشتاليين تحينوا الفرص للاستقلال عن نفوذ جليقية • وقاد الثورة الكونت فرنان ، ولكنه فشل أيضا ، واستمر أهل قشتاله فى الثورة ، وعارضوا حكم راميرو بكل شده ، واستطاع المسلمون خلال تلك الفترة، الاغارة على أراضى ليون والعبث بها ، وقام عبد الرحمن الناصر بتجديد مدينة سالم التى تقع على الحدود بين أراضى قشتاله والأراضى الاسلامية ، وتحصينها سنه ٩٤٦ م ، وتحول موقف راميرو — ملك ليون — من الهجوم الى الدفاع بالنسبة للمسلمين •

ترك موت راميرو الثانى — ملك ليون — سنة ٩٥٠ م فراغا سياسيا كبيرا فى مملكة ليون ، وتنازع ولداه اردونيو وسانشو على العرش ، بعد أن هزم خصومه ، وهذه الحرب الأهلية مكنت المسلمين من تشديد حملاتهم على ليون ، واضطر أوردينيو الى طلب العون من قرطبة على خصومه فى ليون ، وعقد معاهدة صلح مع عبد الرحمن الناصر ، تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر ، وخلفه سانشو أخاه فى الملك ، ولما حاول نقض الصلح حاربه الناصر وانتصر عليه فعاد الى طلب الصلح ، ونفذ كل الشروط التى تضمنها كتاب الصلح ، وبذلك عاد السلام الى البلدين •

على أن أشراف ليون أصروا على خلع الملك لهزيمته أمام المسلمين واحتجوا عليه بأن بدانته تمنعه من ركوب الخيل ، ومن خفة الحركة

فى المعـــركة ، وولوا أردونيو الرابع ابن الفونســـو الرابع الملك ملجــأ سانشو الى عبد الرحمن الناصر ، طالبا منه العون والتــأييد ، فوعده الناصر باعادته الى العرش مقــابل تعهــده بأن يسلم للمسلمين بعض الحصون الواقعة على الحدود ، وان يهدم البعض الآخر وامده النــاصر بجند مكنته من العودة الى العرش ، وفر أردونيو من ليون •

ولكن سانشو نكث بعهده للمسلمين ، ولم يسلم للمسلمين الحصون التى وعــد بتسليمها ، وشــجعه على ذلك وفاة النــاصر وانتهز الزعيم القشتالى فرنان فرصـــه الاضطرابات فى مملكة ليون ، وأعلن استقلال قشتاله تحت قيــادته ، وتقرب الى النصـــارى باغارة على الأراضى الاسلامية ، وتوسيع ملكه ، وضم ما يقع تحت يده من أملاك المسلمين الى ملكه •

ولما رأى الحكم المستنصر خيانة سانشو للمعاهدة ، ساند أردونيو الرابع على العودة الى العرس ، فتراجع ســانشو ، وأرسل الى الحكم يعده بتنفيذ المعاهدة ، ، ولكنه نكث العهد ثانية بعد وفاة خصمه أردونيو، فشن عليه الحكم حملات حربيه واسعة النطاق ، ومزق المسلمون جيش فرنان — ا زعيم القشــتالى — كل ممزق فى موقعـــة شنت اشتين ، وأرغمته هو وحليفه سانشو — ملك ليون — على طلب الصلح ، وتوغلت الجيوش الاسلامية فى قستاله ونافار ، وتوالت غزوات المسلمين لأراضى قشتالة (٩٦٣ — ٩٦٧ م) • وبذلك أخــذت قشتالة تظهر على مسرح التــاريخ كامارة مستقلة تدريجيــا وقوى أمرهــا بمرور الزمن ، حتى تبوأت مكانتهــا بعــد ذلك كأقوى دولة نصرانيــة أســبانية تقــاوم المسلمين فى الأندلس ، وتوفى سانشو على أثر مؤامرة دبرها ضـــده أحد زعمــاء قشتالة •

خلف راميرو الثــالث أباه سانشو فى ملك ليون سنة ٩٦٦ م وكان طفــلا فى الخــامسة من عمره ، فاستنكر الأشراف هــذا الحكم وكثرت الحــركات الاســتقلالية ، وانقسمت مملــكة ليــون ، الى مملــكتين ، قشتالة ونافار •

واضطر الملوك والأمراء النصارى بعد الضعف الذى حاق بهم ،الى تحسين علاقتهم مع قرطبة ، فتوالت زياراتهم وسفاراتهم على الحكم ، يخطبون وده ، ويرجون صداقته ولما توفى الحكم ، وشغل المسلمون بأمورهم الداخلية ، شن القشتاليون غزواتهم على المسلمين ، وتوغلوا فى الأراضى الاسلامية ولكن الحاجب المنصور تصدى لعدوانهم ، وغزا أراضى قشتالة غزوات متعددة متكررة ، وانتصر على الممالك النصرانيــة وأضعفها وأخضعها. وأحبط المنصور حربا شنها عليه ملوك نافار وقشتالة وليون سنة ٩٨١ •

وبلغ من ضعف مملكة ليون فى عهد المنصــور أن اســتنجد ملكها برمودو بالحــاجب المنصــور ضــد خصــومه ، فأعاده المنصــور الى عرشه فى ليون ، وأمده بجند لحمايتــه • وبذلك جلس على العرش فى حماية المنصور •

ونخلص من كل ذلك الى أن النصارى فى شبه الجزيرة الأيبيرية بعد أن كانت قــواهم تتعزل فى جايقيــة ، قوى أمرهم ، واتسع ملكهم على حساب المسلمين ، وشيئا فشيئا أصبح لهم ثلاث ممالك : قشتالة وليون ونافار ، وكل هذه الممالك تتربص بالمسلمين ، وتسعى كل ما سمحت لها الظروف بالتوسع فى الأراضى الاسلامية ، وضم ما يمكن ضــمه الى بلادهم •

اللغـة العربيـة وآدابها فى الأندلس

أدى اندماج عناصر السكان فى الأندلس من عرب وبربر وأسـبان الى ظهور لغة مشتركة يتحدثون بها جميعا على مختلف فئـاتهم ، وهذه اللغة مزيج من اللغـة العربيـة والأسبانية وكان القضـاة فى الأندلس يناقشون النـاس بهذه اللغة التى كانت معروفة لديهم ، وسميت هـذه اللغة بالرومانسية •

وظهرت الموشحات نتيجـه انتشـار اللغتين العربية والأسبانيـة بين الأندلسيين ، وقد أخذ المشرق هذا الفن من الأندلس وتلتزم الموشحة بنظام القوافى الموحدة فى القصيدة العربية وتشتمل على قواف متعددة ، ولم تكن وحدتها البيت الشعرى وانما المقطوعة الشعرية التى تتكون من غصـن وقفل ، ويسمى القفل الأخير منهـا بالخرجـه — كما سنرى — والخرجة لابد أن تكون باللغة الأسبانية ، أو باللغـة العامية الأندلسية الدارجة ، ولابد أن تكون حادة محرقة ، حارة منضجة ، والخرجة عادة على لسـان امرأة تتغزل أحيـانا فى الرجل على عكس الشعر العربى ، فالرجل هـو الذى يتوسـل الى المرأة أن تبـادله الحب ، بينما المرأة متكبرة معرضـة •

وانتشرت الموشـحات فى المغـرب والمشرق ، وصـارت الموشحة كالقصـيدة الشعرية ، واسـتخدمها الصـوفية فى مدائحهم وأذكارهم وقـد تأثر الشـعر الأوربى الشعبى بالموشـحات والأزجال الأندلسية ويعـرف بالشـعر البروفنسى ، الذى كان ينشده المغنون المتجولون فى غرب أوربا •

وقد انتشرت الغـة العربيـة بين المستعربين ، وتأثروا بالثقافـة الاسلامية ، والحضـارة الأندلسية ، ولعبوا دورا هاما فى نقل التراث

الاسلامى الى اسبانيا الشمالية ، بحكم هجراتهم المستمرة الى مملكتى مشتالة وأراجون • ولا تزال اللغة الأسبانية تحتوى على الكثير من الألفاظ والكلمات العربيـة ، وقد برهن اللغويون على صحة هذا القول بالدراسات المستفيضة •

ولم تكن الأزجال التى سنتحدث عنها فنـا شعبيا صحيحا ، وانما كانت مزيجـا من فنين ، فن خاص قـديم متداول بين الوشاحين ، وفن شـعبى لا سـند له من التراث المكتوب • ولم يكن جمهور الزجل أهل الأزقة والحارات ، كما لم تكن الفئـات المميزة التى نظم الشعراء من أجلهم القصـائد •

وللأزجال الصوفية بيئتها الخاصة ، بيئة الفقراء الذين زهدوا فى الدنيا وهاموا فى حب الله سائحين مغتربين ، ينشدون ويرقصـون على ألحان التصوف ، والبيئـة الثانيـة بيئة الشباب الماجن العابث أصحاب الثروات •

يقول ابن خلدون عن نشـأة الزجل ، أنه ظهر تقليـد الموشحة فقد استحسن العـامة التوشيح ، فنسجوا على منواله ، جاعلين لغتهم الحضرية موضع اللغـة العربية • ومما لا شك فيه أن الشبه كبير بين التوشيح والزجل فى أكثر من ناحيـة ، وخاصة فى الشكل الخارجى وفى الأوزان ونظام القوافى ، وكذلك فى بعض موضوعات القول والمعـانى ، وقد أدى تطور الأغنية الشعبية الى ظهور الموشحات ، وتبع ذلك ظهور الأزجال ، وكل ذلك بلغة بسيطة يفهمها العوام من أهل الأندلس ، وتعبر عن عواطفهم وأحزانهم وأفراحهم ، وأحاسيسهم ، وختـام الموشحة قفل يسمى الخرجة •

والمعروف أن الموشحة تتـألف من مقطوعات وكذلك الأزجال وكل مقطوعة تشتمل على وحدتين ، والوحـدة الأولى تسمى غصـن والثانية تسمى قفل •

ظهر الزجل فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، ولم يصلنا من أزجال القرن الخـامس الهجرى الا النزر اليسـير ، وكان الزجالون فى القرن الخامس يقتربون فى فنهم من الوشاحين ، ويتـأثرون بهم ، لذلك كانت أزجالهم فى لغة عربية سليمة ، تخاطب الخاصـة المثقفين ، ذلك أن ملوك الطوائف فى هذا القرن حرصوا على النهوض بالأدب العربى وشـعره ونثره ، ورفضـوا كل نظم ملحون • ولكننا نلاحظ العكس من ذلك فى القرن السادس الهجرى ، فقد سيطر المرابطون على الأندلس ، وكانوا لا يتقنون العربية ، ولا يتـذوقون الشعر ، لذلك ازدهرت الأزجال فى أيامهم • ولا نعرف الا القليل من الزجالين فى القرن الخـامس ، بينمـا نعرف الكثير فى القرن السادس وعلى رأسهم ابن قزمان •

وابن قزمان من أهل قرطبـة ، وتوفى سنة ٥٥٤ هـ وقد اشتغل ابن قزمان بالنظم المعرب ، فرأى نفسه لا ينسجم مع الاتجاه السائد لعصره، فعمـد الى الزجل المنظوم بكلام عامه الأنـدلس ، ويعتبر بحـق امام الزجالين بالأندلس وديوان ابن قزمان يقدم لنا صورة عن حياة صاحبه ، وجانبا من شخصيته [1] •

وكان ابن قزمان يعيش فى بيت جميـل وفى حى مزدحم بالسكان وكان مولعا بالثياب الأنيقة ، ويرتدى دائما فاخر الثياب وهو صـاحب ذوق فى اختيـار الألوان ، ويراعى فى تنسيق الألوان فى الثيـاب التى يرتديها • لذلك يكثر من الحديث عن الثياب فى أزجاله وكان ابن قزمان مولعاً بالشرب واللهو والعبث ، ولا يحب حياة الأسرة ، لذلك ضاق ذرعا بالمرأة التى تزوجها وبمسئولية البيت فديوان أبى بكر ابن قزمان يصور أناقته ولهوه وشرابه وسـهراته الخارجيـة ، واذا تحـدث عن البيت ، يتحدث عن الخادمة السوداء ، ولم يذكر زوجة ولا أولادا [2] •

وقد استنتج الأسـتاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى من الأزجال

---

(١) عبد العزيز الاهوانى : الزجل فى الاندلس ص ٧٠ •

(٢) المصدر السـابق ، ص ٧٨ •

ابن قزمان ، أنه بدأ حياته يعمل بالتونيق ، وهو عمل يستلزم معرفه بالفقه والشروط الصحيحة والفاسدة ، والدقة فى ضبط الصيغ واستخدام الكلمات ، ثم هو أديب ينظم الشعر والموشحات والأزجال ، ويحفظ أخبارا ونوادر ، كما أنه جليس ومسامر ، يستطيع أن يدخل السرور والبهجة على جالسيه ، ويضحكهم ويجذبهم اليه • وكان يحصل على المال من مواهبه هذه • وتدل أزجال ابن قزمان على أن مرتبة الشاعر كانت أكثر وأجل من مرتبة الزجال ، وكان تقدير كبار رجال الدولة للشاعر تزيد عن الزجال •

وازجال ابن قزمان توضح ميله الى اللهو والشراب والعشق كقوله :

دنيا هى كما تراها فاجتهد واربح زمانك
كل يوم وكل ليلة لا تخلى مهرجانك
واشتفى عليه من قبل أن يجىء الموت فى شأنك

وظل فى كبره يقول الزجل فى هذا اللون من العبث كقوله :

وليالى بيت فيها القمر ، فى ذراعى من العشا للسحر فانجبر لى صباى بعد الكبر ، وارتنى غناى بعد العدم •

والأحداث السياسية الجسيمة التى مرت بالأندلس لا تشغل بال ابن قزمان ، ففى عصره كانت الحروب بين المرابطين والنصارى ، ولا يتحدث عن ذلك الا بأزجال قليلة لا تنم عن انشغاله بهذه الأحداث الجسام •

والخلاصة فان ديوان ابن قزمان يصوره تماماً فى مجالس شرابه وفى جولاته فى المدينة ، وخروجه الى القرية فى أوقات معينة ويتحدث فى ديوانه عن خادمه وكبش العيد وهو يرقص حوله ، ويصور مغامراته ، وأغانيه ورقصه وانشاده لممدوحه بغية الحصول على المال

للبحث عن امرأة أو صبى أو شراء ثوب أنيق • لذلك يجمع القدماء على أن ابن قزمان امام الزجالين ، وكان شاعرا حى الأسلوب فطنا بخفـايا النفوس [١] •

وفى عصر الموحدين عاد الاهتمام بالثقافة العربية الرفيعة ومن ثم عاد الشعر الى مكانته الأولى ، ووجد رواجا فى بلاط الموحـدين ، لأنهم يعرفون العربية ، وظهر فى عصرهم علماء وفلاسفة كبار كابن رشد •• لذلك فان الزجل فى القرن السابع وبعد عصر ابن قزمان بعد عن القوافى، ومزاحمة الفقرات وتعددها ، وظلت موضوعاته كما هى ، بحيث يستأثر الحب بالمكان الأول والحديث عن جمال الطبيعة والبساتين والأزهار وظهر لون جديد فى الزجل ، وهو الهجاء ولم يظهر زجال كبير فى هذا القرن ، وانما ظهر وشاح كبير وهو أبو بكر بن زهر ، وقـد شهد القرن السابع سـقوط قرطبة واشبيلية ، وهزيمة الموحدين فى العقاب ، وسقوط المـدن الأندلسية فى أيدى النصارى ، ولم يبق لهم سوى غرناطة التى صمدت، لذلك انتشر فى ذلك العصر الزجل والموشحات الصوفية • .

وتحول الزجل فى عصر ملوك بنى الأحمر فى غرناطة الى فن شعبى، لا يشارك فيه المثقفون • ولقد عاشت غرناطة أيامها فى تأهب ودفاع ضد العدو المتربص بها ، وكان كل سكانها يتكلمون العربية ومسلمين ، لذلك كان للشعر مجاله ورواده وللزجل جمهوره من غير المثقفين •

وقبل أن نختتم كلامنا على الزجل يجب أن نشير الى أغنية حزينة قالها مولاى أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة ، يبكى ضياع قصره الملكى ، حينما استولى فرديناند وايزابيلا على مملكته :

الحمرا حنينه والقصور تبكى

على ما جرى لمولاى بو عبداللى

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

هات لى فرسى ودرقتى البيضا

وشى نمشى نقاتل ونأخذ الحمرا

هات لى فرسى ودرقتى الديدى

وشى نمسى نقاتل ونأخذ أولادى

أولادى فى وادى ياش ومراتى فى (جبل طارق)

ياستى يام الفتى

أولادى فى وادى ياش وأنا فى (جبل طارق)

ياستى يام الفتى

الفصل السادس

المرابطون والموحدون

١ ـ المرابطـــون ٠

٢ ـ الموحـــدون ٠

١ — المرابطون (٤٤٨ — ٥٤١هـ / ١٠٥٦ — ١١٤٧م) :

يكتنف الغموض نشأة المرابطين ، ويبدأ تاريخهم فى جناح المغرب الأيمن فى الصحراء الغربية أو مايسمى موريتانيا فى هذه الصحراء الشاسعة كانت تعيش قبائل صنهاجة وهذه القبائل الصنهاجيه كانت امتدادا لقبائل صنهاجة التى كانت فى الشمال ، والتى تكونت منها الدولة الزيرية الصنهاجية فى المغرب الأدنى والأوسط ، وهذه القبائل الصحراوية الجنوبية كانت تختلف عن أقربائها فى الشمال فى أنها كانت تتلثم ولهذا سميت بصنهاجة اللثام ، وعرف عنهم الشجاعة فى القتال وانتشر الاسلام بين هذه القبائل عن طريق رحلات التجار أو من السرايا العسكرية، وظلوا حتى القرن الخامس الهجرى متفرقى الكلمة بعيدين عن روح الاسلام ، حتى حدثت فيها ثورة دينية اصلاحية ، ألفت بين قلوبهم ، ووحدت صفوفهم ، ويرجع الفضل فى نشر هذا الاصلاح السياسى والاصلاح الدينى الى يحيى بن ابراهيم الجدالى زعيم الملثمين ، والفقيه عبد الله بن ياسين — وهما من أصل صنهاجى .

وضع عبد الله بن ياسين أسسه الاصلاحية على أساس التمسك بالدين على مذهب مالك ، ونشر دعوته بين قومه ، وبنى رباطه ابتغاء العزلة والعبادة ، ولم تمر عليه أيام حتى اجتمع له حوالى ألف رجل، سماهم المرابطين للزومهم رباطه .

بهذه الرسالة الدينية كان خروج المرابطين من الصحراء بقيادة زعيمهم الروحى عبد الله بن ياسين ، وكانت بلاد المغرب فى ضعف شديد مزقتها الانقسامات ، لذلك خرج المرابطون من الصحراء للقضاء على أهل الضلال ، واصلاح البلاد من الفساد .

خرج المرابطون من الصحراء يقودهم زعيمهم الدينى عبد الله

ابن ياسين ، واتجهوا الى بلاد السوس ، وقضوا على الشيعه والوثنيين، وقاتلوا اليهود المنتشرين فى تلك النواحى وأعادوا تلك المناطق الى أهل السنة والجماعة •

نجح المرابطون فى اخضاع الزناتيين فى المغرب الأقصى ، وسيطروا على المغرب الأقصى ، ثم زحفوا الى المغرب الأوسط وفتحوا مدينتى تلمسان ووهران ، واقتربت قواتهم من الجزائر وبعد كفاح دام عشرين عاما أصبح المرابطون سادة المغرب دون منازع (٤٤٧هـ — ٤٦٧هـ) وتمخض ذلك عن نتائج هامة فى تاريخ البرانس وتاريخ صنهاجه ، فتسيطر صنهاجة الشمال على افريقية ، بينما تسيطر صنهاجة الجنوب على المغربين الأوسط والأقصى ، فارتفع شأن البرانس ، وضعف نفوذ البتر ، واتبع المرابطون سياسة ناجحة فى جذب المغاربة اليهم ، فخففوا الضرائب على الناس ، ولم يبقوا من الضرائب الا ما أقره الشرع كالزكاة والعشر ، وكان دستورهم فى الحكم كتاب الله وسنة رسوله ، ولم يتعود المغاربة على حكم يتمشى مع تعاليم الاسلام من قبل ، لذلك التفوا حول المرابطين ، وكانوا يوزعون خمس الغنائم على الفقهاء والعلماء ، وكانوا فى ذلك العصر زعماء الشعب الروحيين ، يمثلون الشعب فى تأييد نظام الحكم أو رفضه ، فلما أيد رجال الدين ، المرابطين ، أيدهم الشعب كذلك ، وبدأ واضحا لكافة الناس أن المرابطين جاءوا لا للفتح ، ولكن لاحياء الدين ، لذلك فكانت المدن والقرى تستقبلهم بالحفاوة والترحاب• والواقع أن المغاربة كانوا فى حاجة الى حكم يخلصهم من نير وظلم زناته ، وبالفعل وجدوا فى المرابطين خير عون لهم على أعدائهم زناته الظالمين المستبدين •

عظم شأن المرابطين بعد أن قادهم يوسف بنى تاشفين وقادهم فى معارك ناجحة لاستئصال المعارضة فى المغرب ، واستولى على طنجة وسبته وغيرهما ، ولعب دورا كبيرا فى بناء صرح الدولة الجديده • وقد مكن لنفسه فى المغرب كما استطاع بفضل جهوده أن يفتح مغاليق حصونه ، وأن يؤدب قبائله ، ويردها الى الطاعة ، وجمع لبيت المال

ثروة هائلة لذلك يمكن القول بأن يوسف بن تاشفين يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين ، فقد أتم فتح المغرب ، والأندلس — كما سنرى — •

جمع يوسف ثروة طائلة من الغنائم والأسلاب ، ومن حصيلة الزكاة والعشور ، واستغل هذه الأموال فى جذب قلوب زعماء الملثمين ، وأغدق عليهم ، ووزع الأراضى الخصبة على قبائل الملثمين القادمة من الجنوب ، وولى رجالها الأعمال ، واستطاع بهذه السياسة أن يستميل الزعماء وأن يكسب ودهم ، فالتفوا حوله ، وخضعوا له خضوعا تاما ، وعهد الى أقاربه بالمناصب الرئيسيه فى الدولة حتى يضمن ولاء البلاد له ، وهادن يوسف القبائل المغلوبة على أمرها ، فكان يستدعى زعماءها ويغدق عليهم ، وينظر فى مطالبهم • وبذلك عم السلام فى المغرب ، وهدأت القبائل واستكانت ، وعم السلام فى المغرب بشكل لم تشهده البلاد من قبل ، وأدى ذلك الى طمأنينة الناس ، فانصرفوا الى الانتاج ، وتحسنت الأحوال الاقتصادية ، ووجدوا فى يوسف خير منقذ لهم ، فكان يتفقد أحوال الرعية بنفسه ، وينظر فى المظالم ، ويحكم بين الناس بالعدل لذلك نجحت هذه السياسة فى التفاف الناس حول الحاكم ، ولما دعاهم للجهاد فى بلاد الأندلس ، أقبلوا يلبون نداء الجهاد •

ونشير الآن الى دور المرابطين فى الأندلس •

قوى أمر النصارى فى عهد الفونسو الثانى سنة ٧٨٨ م ، وتكون خلق من الدول النصرانية ضد القوى الاسلامية فى الأندلس يتكون من أرغون وبرشلونة ونافار وقشتالة ، فى وقت ضعف الخلافة الأموية، واستمدت هذه الامارات العون والتأييد من مملكة الفرنجة ، ولكن أضعف من شأن هذا الحلف يقظة الدولة الأموية فى عهد الحاجب المنصور ، ولما سقطت الدولة الأموية ، وتمزق شمل الأندلس ، ازدادت قوة النصارى ، وانهارت مقاومة المسلمين ، وأعاد الملك شانجو وحدة الامارات النصرانية فى القرن العاشر الميلادى وأعاد جمع شمل نافار وقشتالة وليون وأرغونه وبرشلونة ويعتبر شانجو باعث حركة

الاســترداد فى أســبانيا التى اســتمرت حتى انتهى أمر المسلمين فى الأندلس .

وقوى شــأن وبأس فردناند الأول ، فسعى الى توحيد القــوى النصرانية ، وكون جبهة وتحــدة من المسيحيين بأســبانيا ضــد القوى الاسلامية فى هذه البلاد ، ووطد صــلاته بالدول الأوربيــة حتى يستمد منها العون والتأييد ، ونجح فى سياسته حتى أن البــابا اسكندر الثانى ١٠٦٣م نظــم حمله ضــمن قوات فرنسية وايطالية ، وســير الغزاة فى غزو الأراضى الاسلامية .

كشف فردناند القناع عن ســياسته المعــاديه المسلمين ، فأوضح أنه يريد طرد المسلمين من الأندلس ، واســترداد الأراضى الأســبانيه التى اغتصبوها ، فبدأ بمهاجمه أراضى المسلمين منتهزا حالة الضعف التى عاش فيها المسلمون ، والانقسام فيما بينهم وتجنب المســلمون هجماته بدفع الجزية ، وقــد دفع الجزيه حكام طليطــلة وأسبيليــة وسرقسطة وبطليوس ، وجبى من ذلك أموالا طائلة ، ولما زادت قوته كثيرا عن قــوة المسلمين اتجه الى سياسة ضم الأراضى الاسلامية الى دولته ، وبذلك اتسعت حدود قشتالة شرقا وغربا .

وضــعف شــأن المسلمين ، وقــوى فردناند والنصــارى ، وبات واضحا بأن أيام المسلمين فى الأندلس ، أصــبحت معــدودة ولكن موت فردناند سنة ١٠٦٥ م وانقسام الأمراء النصــارى على أنفسهم ، أخر هذا المصير المؤلم .

ومضت فترة كان النصــارى ممزقين على أنفسهم ، وفى استطاعة المسلمين اغتنام الفرصة لاسترداد أراضيهم وقواهم، ولكن الانقسامات ظلت قائمة بينهم ، بل كانوا يستعينون بأمراء النصارى فى خلافاتهم ، وظل الأمر كذلك حتى استرد النصارى قوتهم ووحدتهم باعتلاء الفونسو السادس العرش ، فوحــد امارات النصــارى ، ووطد علاقتــه بالبابا

وبفرنسا وعموما بالقوى المسيحية فى أوربا ، واتخذت حركة الاسترداد بعد ذلك شكل الحركة الصليبيه يوجهها البابا ويساندها .

اشتدت هجمات الفونسو السادس على المدن الأندلسيه ، وكان يفرض عليها المغارم الباهظة ، فاذا عجزت مدينة عن الدفع هاجمها ، وحاصرها حتى يشتد الجوع ويعم البلاء ، ويزداد فى طلب المال حتى أرهق المدن الأندلسية وأذلها ، ولما أيقن من ضعف المسلمين الشديد ، اتجه الى سياسة الاستيلاء على المدن رافضا الجزية ، فاستولى على طليطلة ، وكان لهذا الاستيلاء أثر مروع فى نفوس المسلمين : وفى نفس الوقت رفع من شأنه عند أمم النصرانية ، فطليطلة عاصمة القوط — كما تعلمون — ثم هاجم قرطبة وسرقسطة ، وبدأت الحصون فى شبه الجزيرة تتساقط فى يده تساقط أوراق الخريف فاستولى على بلنسيه ، وسيطر على بعض حصون مرسيه وعلى المريه ، وأصبح مصير الأندلس فى خطر ، واتخذ الفونسو فى قلب الأندلس حصونا يشن منها الغارات على البلاد الاسلامية وشعر المسلمون فى الأندلس بالضعف والمذلة ، وانهارت معنوياتهم ، وساءت أحوالهم المعيشية لأن أمراءهم طالبوهم بالضرائب الباهظة ، لدفع ما عليهم من اتاوات « للامبراطور » الفونسو السادس وقد صور مؤرخ أندلسى وضع المسلمين بقوله : « وبالجملة كان الناس قد فسدت أديانهم وانما الدنيا الفانية والزمان على آخره ، وخلاف هذه الأشياء ، هو ابتداء الهرج وداعية الفساد وانقضاء العالم » .

لقد يئس ملوك الطوائف من توحيد كلمتهم ، كما يئسوا من قوتهم ، وكان لابد لهم من عون خارجى اذا أرادوا أن يكبحوا جماح الفونسو ، الذى أذلهم ، وأثقل كاهلهم ، ورأوا فى المرابطين ضالتهم المنشودة لما عرف عنهم من محبتهم للجهاد والغزو فى سبيل الله ، كما أن المرابطين غير بعيدين عنهم ، وتزعم محاولات أهل الأندلس هذه ابن عباد — ملك اشبيلية وقرطبة — كان المعتمد بن عباد آخر ملوك اشبيلية من بنى عباد من قبيلة لخم اليمنية ، وقد اتسعت مملكته حتى شملت قرطبة ، لكنه كان يقاسى من ويلات الفونسو الذى فرض عليه الاتاوات والمغارم حتى

يكف عن الهجوم على ممتلكاته ، ولما ازدادت قوة الفونسو ، ركبه الغرور وطلب من ابن عباد بعض الحصـــون ، وأمعن فى التحرش بملك اشبيليه وأرسل رسولا الى ابن عباد يطالبـــه ببعض الحصون فى أسلوب وقح وفيـــه اســـتفزاز ومهـــانة لذلك ثارت ثائرة ابن عبـــاد ، وأمر بقتل رسول الفونسو ، وصلب فى قرطبـــة ، وأمر ابن عباد بقتل فرسانه هنا تحـــرك الفونسو الى اشبيلية للاســـتيلاء عليهـــا ، واسقاط ابن عبـــد الذى قتل رسله .

لذلك استنجد ابن عباد بالمرابطين على عدوه ، وسافر بنفسه الى ابن تاشفين فى المغرب ، واستنجد به ، فوافق ابن تاشفين بدافع الحماس الدينى والأطمـــاع السياسية أيضا ، وحشد الجيوش للجهـــاد ، وأجازها الى الجزيرة الخضراء ، ثم عبر اليها بنفسه ليقود الجيش ، واتخذ من الجزيرة الخضراء قاعـــدة لجيوشه ، وابتهج الأندلسيون لمقـــدمه ، ورأوا فيه خير منقذ مما وصلوا اليه من ذل ومهانه . وكان ابن تاشفين متحمسا للجهاد بدليل قوله « انما كان غرضنا من ملك هذه الجزيرة أن نستنقذهم من أيدى الروم ، لما رأينا استبدادهم على أكثرها وغفلة ملوكهم واهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وايثارهم الراحـــة ... ولئن عشت لأعيـــدن جميع البلاد التى ملكها الروم طول هذه الفتنة الى المسلمين ، ولأملأنها عليهم خيلا ورجالا لاعهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش » .

احتلت طـــلائع المرابطين الجزيرة الخضراء ـــ كمـــا قلت ـــ وعلت صيحة الجهـــاد فى المغرب والأندلس ، فأقبل عليه النـــاس من البلدين مجاهدين ، وانضمت اليـــه قوات المعتمد بن عباد وقوات أمراء الأندلس الآخرين ، وبذلك اجتمع شمل الأندلس بعـــد تفرق ، وتوحـــدت جهودهم بعد طول نزاع ، وبدا ، وكأن يوسف قد وصل ما انقطع من تاريخ البلاد منذ أيام المنصـــور ابن أبى عامر الذى كانت البـــلاد فى أيامه موحـــدة الكلمة ، وعاهـــد يوســـف ملوك الطوائف أن يكونوا يدا واحـــدة وأن تتصل جهودهم لغزو الروم بمعونتـــه ، وتكونت جبهة اســـلامية متحدة

تتصدى للنصارى • وأدرك الفونسو الخطر الداهم على دولته وقوته ، فاستنجد بأمراء النصارى ، ملوك أوربا والبابوية ، ورفع الحصـــار من سرقسطه ، وأعد العدة لمقاومة الخطر الاسلامى الزاحف •

زحفت جيـوش المسلمين نحو اشـبيلية ثم الى بطليوس فى غرب الأندلس ، بغية لقاء العدو ، وحينما علم الملك الفونسو السادس بأخبار هذا الغزو ، رفع الحصار عن سرقسطه — كما قلنا — وأسرع بجيوشـه نحو تجمعات المسلمين من المغاربة والأندلسيين ، فالتقى بهم فى الشمال من بطليوس عند الزلاقة ، وهناك دارت معركة فاصلة بين الفريقين بين الاســلام والنصرانية سنة ٤٧٩ هـ ١٠٨٦ م • وفى بداية المعركة هاجم النصارى معسكرات المسلمين ، فأحدث فيهـا هرجا ومرجا ، ففر كثيرون من الأندلسيين ، وتقهقروا أمام العـدو ، ولـكن يوسف لم يأبه بهؤلاء الفارين بل هاجم جيش الفونسو ، وحمل عليه حمـلة شـديدة ، ومزق جيش العدو كل ممزق ، وولوا مدبرين لا يلوون على شىء ، ولا شك أن جمال المرابطين وأصوات طبولهم الهـائلة قـد ألقت الرعب فى نفوس العـدو •

ومما لا شك فيه أن انتصار المرابطين فى الزلاقة قد أنقـذ الحكـم الاسـلامى بالأندلس من سقوط محقق ، وثبت أحترام المرابطـين فى الأندلس ، واستطاع المرابطون تكوين دولة فى المغرب والأندلس عاصمتها مراكش ، واسترد المسلمون بلنسيه ، وفكوا حصار سرقسطة ، وأوغل جنود ابن تاشفين فى بلاد العدو ، وذاعت شهرته ، وفـرح الأندلسيون بمقدمه • وحكم البلاد بالعدل ، ولم يفرض على الناس من ضرائب الا فى حدود ما أقره الشرع • وأسقط كل ملـوك الطوائف لأنهم بلغوا درجة من الضعف والتخاذل لا تغتفر حتى ابن عباد نفسه ، وأمن الأندلسيون فى ظل حكم المرابطـين على أموالهم وأنفسهم ، واستتب الأمـن وساد الهدوء وخضع الناس لحكومة واحدة ، وضعف النصارى ، وانكمشوا فى حصونهم وأوقفوا هجماتهم على بلاد المسلمين ، وخشوا بأس المرابطين ، وتجنبوا الاشـــتباك معهم •

المرابطون وبنو عبــاد :

بعد أن سيطر المرابطون على كل بلدان الوادى الكبير وقواعد مملكة اشبيليه ، واتجهوا الى اشبيليه ، وكانوا يعتقدون أن المعتمد بن عبــاد ، سيخرج من المدينة لاستقبالهم والترحيب بهم ، ولكنه امتنع بمدينته ، وأعد العدة لمقاومة المرابطين ، ومنعهم من دخول اشبيليه .

شدد المرابطون حصارهم لاشــبيليه ، فاستعان المعتمد بن عبــاد بحليفه الفونسو السادس — ملك قشتاله — وكانت تجمع بين الفريقين مصلحة واحدة ، وهى الدفاع عن الوطن الواحد — اسبانيا — . ومهمــا يكن من أمر فقد أشتبك الفونسو مع المرابطــين فى موقعة ، دارت فيها الدائرة على القشتاليين وزعيمهم الفونسو السادس . وانفرد ابن عباد بمقاومة المرابطين ، وانهارت قواته واقتحم المرابطون اشبيليه فى رجب ٤٨٤هـ / ١٠٩١م وعاثوا فسادا وتخريبا فى المدينة ، وهاجم المرابطون القصر الملكى ، وخرج ابن عباد لمقاومتهم ، وظل يقاتل أمام قصره ويدافع عن بلاده ، حتى تمكن منه المرابطون وأسروه هو وآله ، وقتلوا ابنه مالكا الملقب « فخر الدولة — أمام عينيه ، ونهبوا قصور الأمير ، كما نهبوا البلدة نهبا قبيحا . وعلى أثر ذلك ســقطت كل بلدان المملكة فى أيــدى المرابطين »(١) .

وفى ذلك يقول أحد ابناء الأمير :

يحل زمان المــرء ما هو عاقد ويسهر فى اهلاكه وهو راقد
ويغرى بأهل الفضل حتى كانهم جناة ذنوب وهو الكل حاقد
ويفترق الآلاف من بعد صحبة وكم تسهدت مما ذكرت الفراقد

وقتل المرابطون أربعة من أبناء المعتمد ، وقبضوا على المعتمد وبعض أفراد أسرته ، وسيقوا الى أغمات فى موكب حزين وودعه شعبه بالبكاء

(١) ابن الخطيب : الاحاطة جـ ٢ ص ٨٠ — ٨٥ .

والنحيب ، وتحدث الأدباء والشعراء بافاضة عن نكبـة ابن عباد وعن المجد المفقود والعز الزائل ، وتقلبات الدهر ، وتغيرات العصر .

على كل حال عاش ابن عباد فى معتقله فى أغمات بالقرب من مراكش وقد عاش المعتمد وزوجته وأولاده فى ذل وبؤس حيث ضيق عليهم أمير المرابطين فى المأكل والملبس ، وكانت هذه الأسرة الغنية سابقا لا تجد ما يكفيها من المال لأبسط متطلبات الحياة كالملبس ، وكانت بنات الأمير يغزلن الثياب لأفراد الأسرة ، وبيعها فى الأسواق والتكسب من ذلك .

وفى أول عيد فى الأسر يقول الأمير :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد فى أغمات مسرورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

ولقد اهتز الشعراء لنكبة آل عباد حتى أن الشاعر يقول :
غريب بأرض المغربين أسـير سيبكى عليه منبـر وأسير .

وتفرق أولاد ابن عباد فى مختلف البلاد يلتمسون الرزق والعيش بكل سبيل ، وتوفى الأمير فى أسره ، وظلت ذكراه عالقه فى نفوس أهل المغرب والأندلس ، وكانوا يزورونه فى قبره ، وأنشد أحد الشعراء أمام الجماهير المحتشدة حول قبره :

ملك الملوك أسـامع فأنادى أم قد عدتك عن السماع عواد
لما خلت منك القصور ولم تكن فيها كما قد كنت فى الأعياد
أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعا وتخذت قبرك موضع الانشاد
قد كنت أحسب أن تبرد أدمعى نيران حزن أحترقت بفؤادى
فاذا يدمعى كلمـا أجريتـه زادت على حـرارة الاكباد

وظل قبره مزارا يزوره أهل المغرب والأندلس ، وظلت ذكرى نكبته حديث الناس ونسج الادباء والشعراء القطع الأدبية الكثيرة حول هذه المحنـــــة .

ولكن المرابطين لجأوا الى استشارة الفقهاء فى كل أمـور السياسة والحكم ، الأمـر الذى أضعف أداة الحكم ، لأن رجال الدين ليسـوا أهل سياسة ، وأدى ذلك بمرور الزمن الى سـخط الأهلين على حكومة المرابطين ، ثم انغمس المرابطون فى الترف والنعيم ، وفقدوا خصائصهم البدوية وما اتصفوا به من خشونة وغلظة ، وخضعوا للنساء وانغمسوا فى الشهوات والملذات ، فضعف أمرهـم واختلت أحوالهم ، وجـدد النصارى هجماتهم فى الأندلس وامتدت من ليون الى جبل طارق . ولـما رأى الأندلسيون حكامهم المرابطين لا يتحركون لانقاذهم من هجمات النصارى ، طردوهم من بلادهم .

وعادت الأندلس سيرتها الأولى فى عهد ملوك الطوائف ونشأت فى الأندلس مدن مستقلة عن بعضها ، تخضع النصارى ، ويحارب بعضها بعضـــا .

من أهم أسباب تدهور حكم المرابطين فى الأندلس ، اضطراب الأمور فى هذه البلاد ، بعد استدعاء الأمير تاشفين الى المغرب وسحب عدد كبير من المرابطين معه للتصدى لمحاولة الموحدين السيطرة وانتزاع المغرب من المرابطين ، فانتهز النصارى فى الأندلس الفرصة كعادتهم ، وأغاروا على الأراضى الاسلامية فى اسبانيا وتعدد هزائم المرابطين فى الأندلس ، بعد أن توقفت الامدادات التى كانت ترد اليهم من المغرب ، بسبب انشغال المرابطين فى المغرب بقمع حركة المهدى ، وأدى ذلك الى ضعف المرابطين فى الأندلس ، واستهانة أهلها بهم .

ومن أسباب ضعف المرابطين فى الأندلس اضطراب الادارة بعد وفاة الأمير على بن يوسف ، وتولية تاشفين ، فكانت الأوامر تصدر الى الجند والرعية متناقضة ومتضاربة ، فساءت العلاقة بين الحاكم والرعية ، ونظر الجند والرعية الى أميرهم تاشفين نظرة احتقار وازدراء .

ومن أسباب ضعف حكم المرابطين فى الأندلس : أن الفقهاء ــ كانوا

أصحاب نفوذ كبير فى دولة المرابطين — لم يوجهوا الرعية التوجه السليم، ولم يظهروا أمام الناس بالمظهر اللائق بالقادة الروحيين ، بل انصرفوا الى كتب الغزالى والحديث عنها ، وتركوا الأمور الجوهرية تنتشر فى البلاد كالشعوذة والمهدية •

وتضيفه الى ذلك أن الحكومة المرابطية فى الأندلس عرف عنها التسامح الشديد مع مثيرى الشغب فى بلد لا يستقيم أمره الا بالعنف •

ومن الأسباب المباشرة لتدهور حكم المرابطين فى الأندلس ، احراق الفقهاء لكتب الغزالى — احياء علوم الدين — واستغل هذه الواقعة محمد ابن تومرت — زعيم الموحدين — للنيل من المرابطين والدعاية لحكمه • وانطلق المهدى بن تومرت للقضاء على حكم المرابطين رافعا شعار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر •

كان ابن تومرت سياسيا بارعا قبل أن يكون رجل دين وكان يمتلك موهبة رجل السياسة الذى يستطيع فهم الرجال وتقييم الأعمال ، والتخلص ممن يستطيع التخلص منه ، وممن لا حاجة له به ، والاستعانة بما يفيده فى نشر دعوته ، وأخذ من المذاهب ما يفيده فى أغراضه • • •

ونلاحظ أن الموحدين قد تمكنوا من المرابطين بسبب فساد ادارتهم ، ويتمثل ذلك فى عمالهم الذين أقبلوا على الرشوة والفساد كما أن الرشوة امتدت الى القضاء ففسد ، وأقبل الفقهاء على جمع المال واستغلال الدين ومناصبهم لمصالحهم الشخصية •

ومن أسباب تدهور حكم المرابطين ازدياد قوة النصارى فى عهد الفونسو الأول — ملك أراغون وقشتالة وليون — الملقب بالمحارب ، وقد شدد هجماته على المرابطين حتى أضعفهم وفى مدى سنة وبضعة أشهر اجتاح بلاد الأندلس شرقه وغربه وشماله وجنوبه • وقد أضعفت هذه

الغارة من هيبة ومكانة المرابطين فى الأندلس ، واستهان الأندلسيون بحكامهم ، وانضموا الى الموحدين فى التخلص من المرابطين .

انتشر التصوف والزهد فى الأندلس ، بعد أن كثر الفساد فى المجتمع ، وتعرضت البلاد لهجمات النصارى ، وتسلط الفقهاء على الناس وفرضوا عليهم مذهبهم وآراءهم ، وضعف الحكام المرابطين وانتشر الفساد بين عمال الدولة وقضاتها ، لذلك لجأت جماعات كثيرة الى العزلة عن هذه الحياة ، والزهد فيها ، وظهرت فى شرق الأندلس عدة فرق ، كان من أشهرها وأهمها مدرسة المريه والتى تزعمها الصوفى الكبير أبو العباس ابن العريف ، وامتدت مراكز الصوفية فشملت ، مرسية وبانسية وجزيرة شقر ومالقه وجيان وغرناطة ، وانتشرت الصوفية كذلك فى قرطبة وراسل ابن العريف المريدين برسائل حفظها التاريخ . وانتشر المريدون كذلك فى غرب الأندلس ، وارتبطوا مع بعضهم بروابط وثيقة ، وكان ابن العريف يرسل الرسائل — كما قلنا — الى مريديه تباعا وبانتظام .

كان للمريدين أفكارا وآراء مختلفة ومتنوعة ، وأغلب الصوفية كانوا يرون الالتزام بالكتاب والسنة ، وكان على رأس هؤلاء ، ابن العريف ، وهناك فريق آخر من المريدين كان يميل الى المذهب الظاهرى ، وهناك جناح متطرف يميل الى المذهب الباطنى .

وارتابت الحكومة المرابطية فى المريدين ، وخشيت على سلطانها ، لذلك أمعنت فى مراقبتهم وملاحقتهم ، حتى لجأ بعضهم الى أماكن منعزلة عن عيون السلطة القائمة .

وتورط المريدون فى بعض حوادث الإغتيالات مثل مقتل بعض القضاة الأمر الذى شدد من ملاحقة السلطة الحاكمة لهم ، واشتد الصراع بين أجنحة المريدين بسبب تورط المتطرفين منهم فى الاغتيالات ، وقد حاول ابن العريف أن يدعو المريدين الى مهادنة الحكومة ونبذ التطرف ، وكان

يعارض تغيير الحكومة القائمة ، لأن الوقت غير مناسب وحذر بعض كبار رجال الدولة ، الحكومة من التساهل والتغاضي عن حركة المريدين ، فاشتدت الحكومة فى مطاردتهم ، وتصدت لهم وانقطعت الرسائل بينهم ، وتصدى الفقهاء لابن العريف ، وسفهوا آراءه وأنكروا مذهبه ، وسعوا به الى الأمير المرابطى وحذروه منه ومن رجاله ، وأمر الأمير على بن يوسف بنفى ابن العريف الى مراكش حتى يكون بعيدا عن مريديه ، ولكنه عاد فعفا عنه ، وتوفى ابن العريف سنة ٥٣٦ هـ/ ١١٤١ م ، وقد شجع تسامح الأمير على بن يوسف الأجنحة المتصوفة من المريدين على الثورة ضد الحكم القائم .

تزعم أبو القاسم أحمد بن قسى ، المريدين بعد وفاة ابن العريف ووجه المريدين توجيها يختلف تماما عن سلفه ، حتى أصبح المريدون فى الظاهر طائفة دينية أو فرقة صوفية وفى الحقيقه أداة سياسية ، استخدمها ابن قسى أداة فى الوصول الى الحكم ، وشجعه على ذلك ضعف المرابطين فى المغرب أمام محاولات الموحدين انتزاع الحكم منهم .

كان ابن قسى يعقد المجالس العلمية لشرح كتب الغزالى وآرائه ويجتمع بالمريدين سرا لنشر دعواه السياسية ، بالثورة ضد المرابطين ، واقصائهم عن الحكم ، وادعى أنه المهدى ، فكثر أنصاره وأتباعه ، وأقبل عليه الناس من كل مكان .

وفى سنة (٥٣٨ ، ٥٣٩ / ١١٤٣ — ١١٤٤ م) كان المرابطون فى نهاية أمرهم بالمغرب ، اذ كان الموحدون على وشك انتزاع بلاد المغرب منهم ، فانتهز ابن قسى الفرصة ، وحرض المريدين على الثورة ، وكان المرابطون فى الأندلس فى مركز حرج اذ توقفت الامدادات التى كانت تصلهم من المرابطين فى المغرب وانتهز النصارى فى الأندلس الفرصة ، فشددوا هجماتهم على المسلمين فى الأندلس ، لذلك تعتبر سنة ٥٣٩هـ / ١١١٤م بداية حركة المريدين الدينية والسياسية .

وأقبل الناس على ابن قسي مؤيدين له ولامامته كل التأييد ولما كثر أتباعه أعلن الثورة ، ودعا الى تحرير البلاد من المغتصبين ، وأرسل رجاله الى بعض الحصون لمهاجمتها واستولى المريدون على بعض الحصون ، وطردوا منها حماتها المرابطين ، ولكن جنـد المرابطين بقيادة أبى زكريا ابن غانية ، — أمير قرطبة — تصدت للمريدين ، وألحقت بهم الهزائم . وحينما ابتعد ابن غانية عن قرطبة لمحاربة المريدين ، ثار العامة فى قرطبة بقيادة القاضى أبى جعفر بن حمـدين ، وخلعوا ابن غانيـة ، وولوا ابن حمدين وطاردوا المرابطين خارج قرطبة . ولم يلبث أن ثار الناس بابن حمدين ، وولوا سيف الدولة بن هـود ، وكان عميلا للفونسو — ملـك قشتالة ، يحرضه ضد المسلمين ، ويستخدمه أداة ضدهم ، وفى اشاعة الفرقة بينهم ، وانتزاع مـا يستطيع من أراضيهم ، وكان ملك قشتالة يعاونه بالمال والجنـد لأن الاضطراب فى الأندلس يحقق للملك النصارى أهدافه وقتل ابن هود ، وتولى ابن مردنيش أمور شرق الأندلس وواجه الموحدون مقاومة عنيفة من ابن مردنيش واسـتمر مسيطرا على شرق الأندلس حتى ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م أما زعماء غرب ووسط الأندلس ، فقد استسلموا للموحدن ، ودخلوا فى طاعتهم .

دولة الموحدين (٥٢٦ هـ — ٦٦٨ / ١١٣٠ — ١٢٦٩ م)

ينسب محمد بن عبد الله مؤسس هذه الدولة الى على بن أبى طالب وكان يقال لوالده تومرت ، وبايعه الناس ولقبوه بالمهدى ، وهو من أهل المغرب الأقصى ، رحل الى الأندلس فى طلب العلم سنة ٥٠٠ هـ ورحل فى طلب العلم الى مصر والشام والعراق ، حيث التقى فى بغداد بالامـام الغزالى ، وكان فقهاء الأندلس يكفرون من يقرأ كتابه احياء علوم الدين وأفتوا بحرقه فى الأندلس والمغرب ، وعاد أبو عبد الله بن تومرت الى المغرب يعلم الناس ، ومن أشهر تلاميذه عبد المؤمن بن على — من أهل تلمسان — وظل يقرأ عليه برباط ملالة الى أن انتقلا الى مدينة فاس ، ومنها الى مراكش ثم هرغه فى السوس الأقصى ، وتبع المهدى الكثير من البربر سنة ٥١٥ هـ وبايعوه على أنه المهدى ، وتعاهدوا على أن يكونوا يدا

واحدة على القتال والدفاع ، وعلى أن يقاتلوا عنه ، ويبذلوا أنفسهم دونه مهما كانت التضحيات ، وتزعم هذه البيعة أصحابه العشرة ومن أبرزهم عبد المؤمن بن على، وسموه بالمهدى ، وكان يعقد الأمور العظام مع أصحابه العشرة ، وتتابع البربر على بيعته ، والتزموا بنصرته ، وكانت صنهاجه من اهم أنصاره ، وأعان الحرب على لمتونه ، وتزعم أصحابه العشرة الحرب والطلاب والحفاظ وأهل الدار وأنصاره من القبائل والجنـد والرماه ، ولكل صنف من هذه الأصناف رتبـة لا يتعداها غيره لا فى سفر ولا فى حضر ، ولا ينزل كل صنف الا فى موضعه فانتظم جنـده ، وصـنف لأنصاره كتابا ، سماه التوحيد باللغة البربرية ، وهو سبعة أجزاء عدد أيام الجمعة ، وأمرهم بقراءة جزء واحد كل يوم بعد صلاة الصبـح بعد الفراغ من قـراءة جزء من القرآن ، وهو يحتـوى على معرفة الله تعالى وسائر العقائد كالعلم بحقيقة القضاء والقدر والايمان وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وآخى بين أنصاره ، وألف لهم كتابا سماه « القواعد » وآخر سماه « الامانة » وكتبا أخرى بالعربية والبربرية تداولها الناس وتتضمن هذه الكتب المواعظ والحكم والأمثال ، فأقبـل الناس بشغف شديد على هـذه الكتب ، وبسر لهم طلب العـــلم .

خشى على بن يوسف — أمير المرابطين — على ملكه من المهـدى وحركته ، وعول على قمع هـذه الحـركة فى مهـدها ، وأعـد جيشـا بقيـادة — والى السـوس أبا بكر اللمتونى — ومنيت جيوش المرابطين بالهزيمة أمام جيوش المهدى ، ولم يزل ، أمير المرابطين يوالى الحروب على أصـحاب المهـدى من كل جانب ، ويبعث لمحـاربتهم الجيـوش والكتائب ، حتى سـئمت جنوده الحرب ، وداخلهم الذعـر والرعب ، وواصل الموحـدون — أتبـاع المهدى — انتصاراتهم حتى اقتربوا من أغمات ، وقتلوا الكثير من أهلها ، وتوجه المهدى الى تينمال ، واتخذها مقرا له لحصـانتها وحسن موضـعها ، وقسـم أرضـها وديارها على أصحابه وأدار على المـدينة سـورا ضخما ، وشـيد على رأس الجبل

حصـــنا يكشف على ما وراء الجبل ، والمـــدينة حصينة الدخول اليهـ صـــعبا عسيرا .

ولما شعر المهدى بقوته وازدياد أنصاره ، حشد الجيوش للاستيلا على مراكش — عاصمة المرابطين — واسـقاط هـذه الدولة المتـداعي وحاصر جنـــده مراكش أربعين يوما ، ولكن جيوش المرابطين كانت أكثر عددا وقوة من جيـوش الموحـدين ، لذلك هزم المرابطون الموحدين ولم يسلم من الموحـــدين الا القليـــل وفر من اسـتطاع الفـرار من المعركة ، وأتبعهم المرابطون من مراكش الى أغمـــات ، فأمعنوا القتل فيهم ، ولم ينج منهم الا القليل ، وكان المهدى مريضا بتينمال ، وأوصى أن يخلفـــــه عبـد المؤمن ، وتوفى المهـدى سـنه ٥٢٤هـ ، وخلفـه عبد المؤمن بن على .

توفى أيضـــا أمير المرابطين على بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ ، وازدادت قوة الموحدين ، وعظم شأنهم ، وتتابعت ثوراتهم ضد المرابطين فساءت أحوال بلاد المغرب ، وتدهور الوضع الاقتصادى ، وكسدت التجـارة ، وانحطت الزراعة ، فانتشرت المجاعات وارتفعت الأسعار ، وتدهور الوضع السياسى والحـــالة الاقتصـــادية فى الأندلس ، وتوسـع النصارى فى الأندلس على حساب ملك المسلمين وغادر الكثير من الاندلسيين بلادهـــم الى المغرب .

ولى أمر المرابطين تاشفين بن على بن يوسف ، وكان قـــد اشتبك مع الموحدين فى عدة وقائع وحروب ، ولم يستطع الذهاب الى الأندلس بسبب اشتغاله بحروب الموحدين واشتدت غارات الموحـــدين من فاس الى تلمسان وكان الموحدون يسيرون فى الجبـــال المنيعـــة حيث الأرزاق الواسعة وتاشفين ينزل البسائط بعساكره ، فلا يجد من ينصره من البربر وانتقل عبد المؤمن الى جبل غماره ، فتبعـــه تاشفين ، ثم انتقل من جبل غمـــاره الى جهـــة تلمسان ، وبايعـــه أكثر زناته المســـتوطنين بنواحى تلمسان ، ونزل برأس الجبل الذى عليها ، واســـتعان تاشفين بصنهاجه

وبرجاله فى كل بلد فى المغرب ، وتمت المعـركة الفـاصله بين المرابطين والموحدين فيما يعرف بيوم مندلس فقد فيه من جيش المرابطين جموع غفيرة ، وظهرت حتى هذا اليوم قوة عبد المؤمن وتجلت بوضوح ، وكان أمر المرابطين قد ضعف فى الأندلس لانشغالهم بأمر الموحدين فى المغرب ولم يزل الموحدون فى علو وظهور كل يوم ، وحال اللمتونيين فى ادبار ، حتى اضطر تاشفين الى الاحتماء فى حصن فى وهران ، خوفا من بطش الموحدين ، ولكن الموحـدين حاصروه فى الحصـن ، ومات تاشـفين ؛ واستولى الموحدون على الحصن سنة ٥٣٩ هـ •

خلف ابراهيم بن تاشفين أباه فى وقت تمزقت فيه دولة المرابطين ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الزوال ، وكان عليه أن يحـافظ على ماتبقى للمرابطين فى المغرب ، ولكن كانت قوة الموحـدين فى ازدياد ، وشأن المرابطين فى ضعف وانقسام •

استولى عبد المؤمن على وهران وتلمسان ، ونهبوا كل ما وقع تحت أيديهم من الأموال ، وخربوا الديار ، وقتلوا الأنفس ، واسـتولى على فاس بعد حصار دام ستة أشهر قاوم أهلها الموحدين بكل بسالة وشجاعة، واسـتولى الموحدون على فاس ، ورحل عبد المؤمن الى سـلا ، وأرسل عبد المؤمن فرقا من جيشه حاصرت مكناسه حتى استسلمت •

بعد أن ضم الموحدون الكثير من بلدان المغرب الى حوزتهم ولمسوا ضـعف المرابطين ، رأوا أن الوقت قـد حان للاسـتيلاء على مراكش عاصمة المرابطين ، حتى يزيلوا نهائيـا هـذه الدولة من الوجود • وفى سنة ٥٤١ هـ توجه عبـد المؤمن الى مراكش ، وحاصر جنـد الموحدين العاصمة المرابطية حتى طال الحصار ، واشـتد الكرب وعظم البـلاء ، وقتل فى الحصار الكثير من أهل مراكش ، ومات الناس جوعا وعطشا ، حتى فتحت مراكش أبوابهـا للغزاه سنة ٥٤١ هـ فدخل الموحدون البلدة عنوة ، وامتنع الأمير أبو اسحاق ابراهيم بن تاشفين مع المرابطين بداخل أحد الحصون ، ولكن الموحدين اقتحموا الحصـن وقتلوهم ، كما قتلوا

الكثير من أهل مراكش ، واستمر القتل ثلاثة أيام • وبموت الأمير أبو اسحاق ابراهيم بن تاشفين زالت دولة المرابطين ، وقامت على أنقاضها دولة الموحدين •

وكان انتصار الموحدين فى وهران ، ومصرع حاكمها تاشفين ابن على مشجعا الثوار فى الأندلس بالاتصال بالموحدين يطالبونهم بالذهاب الى بلدهم •

واتصل الثوار فى الأندلس فعلا بالخليفة عبد المؤمن وبايعوه ، ودعوه للحضور الى الأندلس ، وتولى أمورها بعد أن تدهور المرابطون ، وطمع العدو فى البلاد ، وانهار الوضع الاقتصادى وكانت أول خطبة أقيمت للموحدين بالأندلس فى مسجد قادش ، وانضم ابن ميمون قائد أسطول المرابطين الى الموحدين •

وكان لمقدم الزعماء الثائرين فى الأندلس على ، عبد المؤمن ، ومبايعتهم له أثر فعال فى توجيه أنظار الموحدين الى الأندلس وسعيهم الى مد سلطانهم على هذه البلاد •

زحف الجيش الموحدى الى الأندلس سنة ٥٤١ هـ — ١١٤٦ م ، واستولى على الجزيرة الخضراء ، وطرد المرابطين منها ، واستولى الموحدون على شريش ، وواصل الموحدون زحفهم فى أراضى الأندلس حتى ضموا الى حوزتهم معظم بلدان غرب الأندلس ، وتوجوا انتصاراتهم بتصفية قواعد المريدين بالاستيلاء على أشبيلية ، ودخل أهلها فى طاعة الموحدين ، ولكن سرعان ما لمس الأهالى تعنت حكام الموحدين وظلمهم ، فثاروا عليهم ، وطردوا عمالهم وخرج على طاعة الموحدين ابن قسى وثار فى شلب وابن ميمون بقادش ومحمد بن الحجام ببطليوس ، وطرد أهل اشبيلية الموحدين من بلدهم ، وثار أهل المرية على واليهم وقتلوه وفى نفس الوقت ثار المغاربة على الموحدين ، ولم يبق فى طاعتهم سوى مراكش وفاس • وانتهز ابن غانية الفرصة ، وقاد جيشا من المرابطين استرد الجزيرة الخضراء من الموحدين •

وزاد من ثورة أهل المغرب على الموحدين ما أشـــيع بين الناس من أن الموحـــدين يعتزمون قتل زعيم ســـبته الروحى أبو الفضـــل عياض

لما تم لعبد المؤمن فتح مراكش قسم فيأها وأموالها على الموحدين. وقسم عليهم ديارها ، وبيع أولاد أهل مراكش واستولى عبد المؤمن على خزائن على بن يوسف وذخائر لمتونه وبقيت مراكش ثلاثه أيام لايدخلها داخل ، ولا يخرج منهـــا خارج ، وأسس بمراكش مسجدا جامعـــا عبر مسجد المرابطين وغرس البســـاتين حول مراكش ، وجلب لها المـــاء من أغمات وحفر الآبار والعيون • وعظم انتاج هذه البساتين من الفواكه •

على أن دولة الموحـــدين النـــاشئة تعرضت لكثير من الفتن فوجد بعض الزعماء أن ادعاء المهـــدى يكسبهم سلطانا ونفوذا وجاها ، فأعلن محمـــد بن عبـــد الله بن هود الماسى الثورة فى بلاد الســـوس ، وادعى الهداية ، ولقب نفســـه بالهـــادى ، وأقبل عليه النـــاس من كل مكان ، وطبقت شهرته الآفاق ، ودان بدعوته جموع غفيرة ، وبايعه النـــاس فى كل بلدان المغرب ، واستنكروا دعوة الموحدين ، ورأوا فى دعوته خلاصا من الموحدين الذين لم تتحسن أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية بانتقال الحكم اليهم ، على أن عبد المؤمن سير عـــدة جيوش الى بلاد السوس هزمت محمد بن هود الماسى وأنصـــاره ، ولم تكن هذه الحركه المعارضة الوحيدة لعبد المؤمن ، بل اشتعلت ضد حكمه ثورات متعددة قضى عليها وأحبطها فى مهدها •

قيــام دولة الموحــدين بالأندلس

لم يتعجل الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على بارسال جيش الى الأندلس لانتزاعهــا من المرابطين مستغلا ثورة الأندلسيين عليهم ، بل تريث بعض الوقت حتى يتمكن من الســيطرة على كل بلاد المغــرب ، وانتزاع البلاد التى كانت لاتزال فى أيدى المرابطين ، وضمها الى حوزته. وسقطت بلاد المغرب فى يده الواحدة تلو الأخرى ، وفى سنة ٥٤١ هـ — ١١٤٧ م سقطت مراكش — عاصمه المرابطين فى يده .

وكان الأندلسيون يترقبون ما يجرى فى المغرب ، ويتعجلون نهــاية اليحصبى . وولى أهل سبته عايهم واليــا من المرابطين بعــد أن خلعوا طاعة الموحدين .

لما شعر عبــد المؤمن بقرب زوال حكمه ، اضــطر الى اســتخدام العنف لاخضــاع الثوار عليه فى المغرب ، ومزق معارضــيه كل ممزق ، واسترد الموحدون فى الأندلس الجزيرة الخضراء واشبيلية ، وتلى ذلك سقوط مدن الغرب الأندلس فى أيدى الموحدين المـدينة تلو الأخرى ، وقوى أمر الموحــدين فى الأندلس حتى أصبح فى امكانهم ضــــمها الى حوزتهم ، وقد أزعج ذلك ، الفونسو السابع — ملك قشتاله — فأرسل الى ابن غانيه فى قرطبة يطالبه بالمال الكثير نظير حمايته من الموحدين ، ودرء خطرهم عن بلاده ، فرأى ابن غانيه أن الموحدين اخوانه فى الدين أفضل ألف مرة ومرة من الفونسو الســابع ، لذلك أرسل فى الصلح الى الخليفة عبد المؤمن ، وتنــازل للخليفة عن قرطبة وقرمونة مقابل حكــم جيان عوضــا عنها ، ولم يأبه ابن غانيــة بتهديدات الفونسو السابع ، وقد هاجم الفونسو السابع قرطبــة ، واستولى عليهــا بعــد وفاة ابن غانية ، وعدم استطاعة الموحدين ملأ الفراغ الذى تركه هذا القائد ولكن الموحدين مالبثوا أن استردو قرطبة ، وعززوا فيهــا حاميه كبيرة ، وعاد ملك قشتــتاله فاســتولى على المريه فى سنة ٥٤٢ هـ — ١١٤٧ م ، وكان

لسقوط المريه أثر سيء فى نفس الأندلسيين ، الذين تتابعت المحن عليهم ، وقد شجع ذلك النصارى على الاستيلاء على ما بقى بأيدى المسلمين فى الثغر الأعلى ودعا البابا أوجين الثالث الى حملة صليبية لفتح هذه البلاد وهاجموا طرطوشه التى سقطت بعد حصار دام ستة أشهر ٥٤٣ هـ — ١١٤٨ م . وتتابعت حملات النصارى على البلاد الاسلامية فهاجموا لارده وأفراغه ومكناسه ، واستولوا على هذه البلاد . وبذلك زال سلطان المسلمين من الثغر الأعلى ، ودانت بلاد الثغر الأعلى للنصارى ، وسقطت أشبونه فى أيدى ملك البرتغال فى الوقت الذى سقطت فيه المريه .

ساءت أحوال الأندلس ، وتدهور الوضع السياسى بها وتطلع الأندلسيون الى الخليفة عبد المؤمن لانقاذ بلادهم من النصارى ، وذهب شيوخ الأندلس الى الخليفة وبايعوه ولم يتخلف الا ابن قسى الذى ظهر عدم اخلاصه للموحدين بل وطد علاقته بملك البرتغال ، لذلك خشى أهل شلب سوء العاقبة ، وثاروا على ابن قسى وقتلوه وأرسلوا الى الخليفة عبد المؤمن يبايعونه ، وبذلك انتهت ثورة المريدين التى كانت تستهدف الخلاص من حكم المرابطين ، وأصبح غرب ووسط الأندلس فى أيدى الموحدين ، وتحرج موقف المرابطين فى غرناطة ، فأرسل واليها المرابطى ميمون بن بدر الى الخليفه عبدالمؤمن يعرض عليه تسليم غرناطة فوافق على طلبه وأمنه على حياته وماله سنة ٥٥١هـ — ١١٥٦م وعلى أثر استعادة الموحدين غرناطة ، استولوا على المريه وكان لابد للموحدين من تأمين سواحل المغرب والأندلس من أخطار النصارى ، واسترد الموحدون كل بلدان الثغر الأعلى .

وبعد أن فتح الموحدون معظم الأندلس ، اتجهوا الى تحرير بقيه شبه الجزيرة من النصارى ، وحصنوا قاعدة جبل طارق وأنشأوا مدينة كبرى بها تكون معسكرات تنطلق منها الجيوش الموحديه لتحرير البلاد من الأعداء والجهاد فى سبيل الله . وكانت سياسة عبد المؤمن تستهدف

تخليص بلاد الأندلس من العمـــلاء المسلمين المتواطئين مع الأعـــداء وتخليص البلاد بعد ذلك من العدو النصرانى المتربص •

كان عبد المؤمن بارا بمن انضـــوى اليه ، عارفا بأقـــدار النـــا. مكرما لأعيانهم وأهل البيوتات منهم ، عالما بقدر العلماء ، ينزل النـــا. على قدر منازلهم ورتبهم ، وربى الحفـــاظ بحفظ كتاب الموطـــأ ، وك ورسائل المهدى ، وكان يدخلهم كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر فيجتمع الحفاظ فيـــه ، وهم نحو ثلاثة آلاف قصـــد بهم سرعة الحف والتربيـــة على ما يريد ، فيأخـــذهم يوما بتعلم ركوب الخيـــل ، ويو بالرمى بالقوس ، ويوما بالسباحة فتأدبوا بهذه الآداب ، تارة بالعطاء وتارة بالأدب ، وكان ينفق عليهم عن سعة • وبذلك استطاع تكوين فرة ذات كفاءة قتالية كبيرة ، وثقافة دينية رفيعـــة ، كما عهد بحكم الولايا الى رجال يثق فى مقدرتهم الادارية •

اعتزم عبد المؤمن توسيع دائرة ملكه فى المغرب ، فتوجه الى تونس وسأله أهلها الأمان فأمنهم فى أنفسهم وأولادهم ولكن ليس فى أموالهم لذلك دخل جيش الموحدين تونس ، وصـــادر الجنـــد أموال الأهلين وبعد أن ثبت الموحدون أقدامهم فى تونس ، توجه عبد المؤمن الى المهدية وكان صـــاحب جزيرة صقليـــة قـــد استولى عليها ، وعلى بعض بلدار الساحل التونسى فاسترد الخليفة عبد المؤمن هـــذه البلاد ، وعادت الى أيدى المسلمين ســـنة ٥٤٥هـ ، واعطى جنـــد صـــقلية أمانا فغـــادرو المهدية ، وبذلك عادت هذه البلاد الى حظيرة الاسلام ، وأمن أهلها على أنفسهم وأموالهم ، وانضمت الأراضى التونسية الى دولة الموحـــدين • وضـــمت دولة الموحـــدين معظم بلاد المغـــرب من طرابلس الى أقصى السوس •

خلفـــاء عبد المؤمن :

لمـــا توفى عبد المؤمن خلفه ابنه يوسف ، وقد اجتـــاز الى الأندلس سنة ٥٨٠ هـ ، وقد سيطر على بلاد غرب الأندلس ، وصـــد عنها غارات

النصارى سنة ٥٨٠ هـ ، وولى أبنـــاءه القواعد الرئيسية فى الأندلس ، واتسع ملكه فى المغرب والأندلس ، وخلفه يعقوب المنصـــور ، ومن أهم انجازاته فتح مدينة شلب وفى سنة ٥٩١ هـ ، هزم النصـــارى ، وانتصر عليهم انتصـــارا رائعا فى موقعـــة تسمى الأرك سنه ٥٩١ هـ بلغت دولة الموحدين ذروتها فى عهد هذا الخليفة ، فقـــد اتسع ملكهم ، فكان للدوله جيش قوى قادر على توجبه الضربات القويه للعـــدو ، وكانت جيوسهم تضم جندا من المصامدة أولا ثم من الصنهاجيين ثانيا وبعض الزناتيين ، وبعض العرب الهلالية ، وأحاط الخليفة نفسه بحرس خاص من العبيد السودانيين .

ومن أشد الفتن الداخلية التى واجهها أبو يوسف يعقوب المنصور فتنة بنى غانية فى أفريقيـــة ، وقـــد انضم اليهم بعض العـــرب والترك وكانوا يتخذون من الصحراء ملاذا لهم ، كلما ضيق عليهم الموحـــدون الخناق ، وما زال أبو يوسف يعقوب يشدد عليهم هجماته حتى نكل بهم وهزمهم ، واستكانوا ، وكفوا عن الثوره سنة ٥٨٣ هـ .

لما هدأت بلاد المغرب بعد انتهاء ثورة بنى غانيه تطلع أبو يوسف يعقوب لانقاذ بلاد الأندلس من الهاوية التى تردت فيهـــا ، فقد اشتد ضـــغط النصـــارى على مسلمى الأندلس وتدهورت أحوال المسلمين فى هذه البلاد ، وأصبح الأندلس على وشك السقوط فى أيدى النصـــارى ، وجدير بالذكر أن أبا يوسف يعقوب كان معـــاصرا لصلاح الدين الأيوبى، وكما حرر صلاح الدين القدس وبعض أراضى الشام من الصليبيين فعل أبو يوسف يعقوب نفس الشىء . وفى هذه السنة — أقصد سنة ٥٨١هـ — تولى سانشو الثانى ملك البرتغال ، وقرر الاستيلاء على بعض بلاد غرب الأندلس منتهزا فرصة انشغال الموحدين ببنى غانيه .

وفى سنة ٥٨٥هـ حشد جيشا كبيرا ضم فرقا صليبية كانت مســـافره الى بلاد الشام ، واستولى على شلب أهم ما تبقى للموحـــدين فى غرب الأندلس من الموانى .

وكان لسقوط شلب فى أيدى ملك البرتغال امر كبير فى تصميم أبى يوسف يعقوب لتحرير عرب الأندلس من أيدى النصارى ، ودعا الى الجهاد ، واستنفر الناس للقتال ، وأقبل عليه أهل المغرب من كل مكان ، وكانت مشاعر المسلمين قويه بعد انتصار صلاح الدين فى حطين سنة ٥٧٩ هـ •

خرج المنصور من رباط الفتح ، وأمر جنده بموافاته فى اشبيلية سنة ٥٨٦ هـ ، واستعاد المنصور شلب سنة ٥٨٧ هـ وكذلك بعض الحصون • وتوقف عن الحرب أربع سنوات ، عاد بعدها الى منازلة العدو سنة ٥٩١ هـ ، وعندما علم الفونسو الثامن — ملك قشتاله — دعا كل ملوك النصارى فى أسبانيا الى تشكيل جبهة متحدة للتصدى للمسلمين واستنجد بالبابوية ، فكثرت جموع النصارى وفرسانهم ، واحتشدوا فى سهل فسيح حول حصن يسمى الأرك على ضفه الوادى آنه والى الغرب من مدينة « ثيوداد ريال » الحالية ودارت المعركة الفاصلة فى شعبان ٥٩١ هـ ، وهزم المسلمون النصارى ، ومزقوا جموعهم كل ممزق ، وفر الفونسو ومن استطاع الفرار الى طليطاه ، ولم ينج من هذه المعركة الا الشريد •

كان لهذه الموقعة آثار بعيدة المدى فى تاريخ الأندلس لا تقل عن الأثر الذى تركته واقعة الزلاقة ، فقد عادت الى المسلمين هيبتهم فى هذه البلاد وضعف أمر النصارى • فبعد هذه الواقعة أرسل المنصور فرقا من جيشه ، استعادت الكثير من بلاد غرب الأندلس ، لكن المنصور لم يجن ثمرة نصره ، فقد كان فى استطاعته تحرير طليطله وغيرها من البلاد • وكف عن محاربة النصارى ، لذلك أعطى الفرصة للفونسو الثامن لاعادة تنظيم قواته واكتفى المنصور بتنظيم ادارة الأندلس ، وجنح الى السلم •

خلف محمد بن عبد الله الملقب بالناصر أباه (٥٩٥ هـ — ٦١٠ هـ ١١٩٦ — ١٢١٣ م) كان شابا سريع الاندفاع مستبدا بالأمور ، وفى عهده انتهت ثورة ابن غانيه ، واستولى محمد بن عبد الله على الجزائر الشرقية

سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ، وبعد ذلك بعامين ، انتصر الموحدون انتصارا رائعا على بنى غانيه ، وقضوا عليهم نهائيا قرب قابس • وعلى أثر ذلك دخل الموحدون تونس والمهديه• وتم بذلك القضاء على فتنه بنى غانيه التى أجهدت الموحدين كثيرا ، وعهد خليفة الموحدين لعبد الواحد بن أبى حفص بحكم تونس لكفاءته • وقد قضى على آثار بنى غانية ، ونبت أقدامه فى تونس ، ووطد نفوذه بها • وتوارث بنو حفص حكم افريقية حتى احتفظوا بهـا نهائيـا •

ضعف أمر المسلمين فى الأندلس بسبب انشـغال الخليفة الموحدى الرابع أبو محمد عبد الله الناصر بقمع الفتن فى تونس ، وكف الموحدون عن ارسال الجيوش الى الأندلس لتعزيز مركز المسلمين هناك ، وقـد شجع ذلك الفونسو الثامن — ملك قشتالة — على شن الغارات على بلاد المسلمين فى الأندلس ، لذلك رأى الخليفة أبو محمد عبد الله الناصر اخضاع الفونسو ، ومحاربته وأعد لهذا الغرض حمله قوية أحسن اعدادها ، وأمدها بالأسلحة والعتاد ، وعبرت الحمله الى الأندلس سنة ٦٠٧ هـ — ١٢١٠م ، وعسـكر الجيس الموحـدى فى اشبيليه ، وتوافد على جيشـه المجاهدون الأندلسيون من كل صوب وحدب •

وأعد الفونسو الثامن حملة صليبية للانتقام من هزيمة الأرك وطرد المسلمين من الأندلس ، فأنهى خلافاته مع ملكى نافار وأرجون واستنجد بالبابوية ، وكون قوة مسيحية ضاربه تستطيع محاربة المسلمين وتوجيه أشد الضربات لهم •

تحرك الناصر بجيشه الكبير سنة ٦٠٨ هـ — ١٢١١ ، ودخـل جيان وحصنها ، ثم سار الى خانق ، وعسكر بجيشه على مقربة منها فى سهل ملىء بالتلال الصخرية القليلة الارتفاع ، وتسمى العقاب ، والتقى الناصر بجيوش النصرانية ، وتتألف من قوات من ليون ونافار وقشتالة وأرجون وخراسان اسبانية وقوات من المانيا والبرتغال واستولت هذه الجحافل على قلعة رباح ، فذعر الناصر ، وأمر بقتل قائدها يوسف بن قادس ، هنا

ارتاع الأندلسيون ، وتفرقوا ، فضعف شأن الناصر ، ووقعت الواقعة ٦٠٩ هـ — ١٢١٢ م ، وقد هاجم النصارى المسلمين بعنف وضراوة ، واخترقوا صفوف المسلمين ، وقتلوا من فرسانهم الوف ، ومن جندهم عشرات الألوف . وتعتبر هذه الموقعة بداية لضعف شامل أصاب المسلمين فى الأندلس ، كما تعتبر نهايه قوة الموحدين ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك ، وتوفى الناصر بعدها بعدة أشهر ٦١٠ هـ — ١٢١٣ م ، وقد نسجعت هزيمة المسلمبن ، النصارى على الاستيلاء على حصون المسامين ، الواحد بعد الآخر وضعف الموحدون ، وتنافسوا حول الوصول الى الحكم ، وتناسوا أحوال الأندلس ، فسقطت البلاد الأندلسية فى أيدى النصارى وهى قرطبة واشبيليه وجيان ومرسيه والجزائر الشرقية وقد هال المسلمون سقوط عاصمتهم قرطبة ٦٣٢هـ — ١٢٣٦م فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة ، الملقب بالقديس دون مقاومة تذكر .

خلف الناصر ابنه المنصور ، أبو يعقوب يوسف بن محمد الناصر وتنافس أمراء البيت الموحدى حول الحكم ، وثاروا ضده وظهرت العناصر القوية تطالب بالحكم والقضاء على الدولة المتداعيه ، وانتهى النزاع بالقضاء على الموحدين ، وقيام دولة بنى مرين ٦٦٨ هـ — ١٢٧٠ م .

ويجب أن نقول هنا قبل أن نختتم كلامنا على دولة الموحدين ، بأن هذه الدولة لعبت دورا كبيرا فى تقوية بلاد المغرب ، وأجلت كارثة سقوط الأندلس ، وعززت مركز المسلمين فى هذه البلاد ، ويعتبر عصرهم ، العصر الذهبى للفلسفة الاسلامية ، فقد ظهر علماء الفلسفة الكبار ، ابن رشد وابن طفيل وابن عربى، وحفل العصر الموحدى بالأدباء والشعراء والمفكرين والمهندسين الذين أقاموا منشآت معمارية بديعة فى جميع أنحاء المغرب . واعتمد الموحدون فى بناء صرح دولتهم على المصامدة ، وهو فرع بربرى تميز بالصلابة والمقدرة القتالية ، ويشكلون معظم سكان المغرب الأقصى .

ويجب أن نشير هنا الى كبار فلاسفة هذا العصر من الفلاسفة الأندلسيين أبو بكر محمد بن عبد الله بن طفيل القيسى من مراكش

ت ٥٨١ هـ ، ويرى البعض أنه تلميذ لابن باجه ؛ وكان طبيبا فى غرناطه ، وعمل كاتبا لبعض الأمراء ، وارتفع شأنه حتى أصبح طبيبا لخليفة الموحدين يعقوب يوسف المنصور وله مصنفات فى الطب ، وله آراء قيمه فى الفلك ، ولم يبق من مؤلفاته الا رساله حى بن يقظان ، أو أسرار الفلسفة الاشراقيه ، وبدأ ابن طفيل رسالته بموجز مفيد هام عن تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، يمتدح ابن طفيل فيه ممن تقدمه من الفلاسفة ؛ ابن سيناء وابن باجه والغزالى ، والأساس الفلسفى لرساله ابن يقظان ، هو الطريق الذى كان عليه فلاسفه المسلمين ، الدين نهجوا على مذهب الأفلاطونية الحديثة ، وقد صور ابن طفيل الانسان الدى هو رمز العقل فى صورة حى بن يقظان (واليقظان هو الله) ورمى ابن طفيل من ورائها الى بيان الاتفاق بين الدين والفلسفه ، وهو موضوع شغل أذهان المسلمين جميعا ٠

ولد ابن طفيل فى احدى القرى الأندلسيه ، وتقلد عدة مناصب من بينها وظيفة كاتب لحاكم ولايه غرناطة ، وحاكم ولاية طنجه ، وكان طبيبا لأحد خلفاء الموحدين ، وهو أبو يعقوب يوسف ، وعظمت مكانته عند الخليفة الموحدى ، وجمع بين الرجلين الميل الى دراسه علوم الدين والفلسفة ، وأرسل فى شراء الكتب من المغرب والأندلس ، وجذب العلماء الى بلاطه ، وأغدق عليهم ، ووصلهم ، حتى ضم بلاطه نخبة من العلماء الأجلاء ٠

وتطورت الدراسات الفلسفية فى عهد الموحدين ، فبينما كان يرفض المرابطون علوم الفلسفة ، نجد أن الموحدين جددوا علم الكلام عن طريق

ادخال مدهب الأشعرى ومدهب ا-عرالى الصوفى الأسعرى ، بعد أن كانا موصوفين بالزندقه من قبل .

ومن أهم مؤلفات ابن طفيل « حى بن يقظان » ووفق فى هدا الكتاب بين الدين والفلسفة حتى يزيل الشك والريبه من نفوس المغاربه فى علم الفلسفه ، واستفاد ابن طفيل من كتب الفلاسفه الذين سبقوه فى المشرق والمغرب ، وتوفى فى مراكس سنه ٥٨١ هـ / ١١٨٥ — ١١٨٦ م .

كان الانتاج العلمى لابن طفيل قليـــلا ، اذا قيس بابن رســـد أو ابن سينا ، وقد يكون السبب فى ذلك انسغاله بالمناصب الرئيسيه فى فترات من حياته ، ربما سغلته عن التأليف والتصنيف ونسمع عن كتب ألفها فى الفلسفه والطب والأدب ، وفقدت مؤلفاته ، ولم يبق منها سوى كتـــابه المعروف « حى بن يقظان » .

وترجع شهرة ابن طفيل الى رسالته « حى بن يقظان » التى تعد من الرسائل الخالدة فى مجال الفكر الفلسفى العالمى عامة ، والفكر الفلسفى العربى على وجه الخصوص ، وتأثر بها الفلاسفه العـــرب والأوربيون وأقبلوا على دراستها ، وترجمت الى لغات متعددة[1] .

وقد أوضح ابن طفيل اعتماده على الغزالى وابن سينا ، واضافه الآراء الفلسفية الجديدة التى ظهرت فى أيامه ، الى آرائهما ، وانتقد بشدة ورفض كل الرفض آراء منتحلى الفلسفه ، وأضاف الى كل هده الآراء أفكاره الخاصة وآراءه . وبذلك يتضح لنا أنه درس آراء فلسفة الشرق والغرب الذين سبقوه وعاصروه ، ونقدها وأوضح وجه الكمال أو النقص فيها .

وفى رسالته عن حى بن يقظان يقول ابن طفيل « نظر حى الى سائر الأجسام من الجمادات والأحياء فرأى أن حقيقه وجود كل واحد منهما مركبة من معنى الجسمية ومن شىء آخر زائد على الجسمية اما واحد واما

---

(١) العراقى : المتاميزيقيا فى فلســـفة ابن طفيل ص ٣٩ .

أكثر من واحد ، «لاحت له صور الأجسام على اختلافها وهو أول ما لاح له من العالم الروحانى اذ هى صــور لا تدرك بالحس وانما تدرك بضرب ما من النظر « العقلى »[1] .

درس ابن طفيل عالم ما تحت فلك القمر ، وعالم ما فــوق فلــك القمر ، ومشكلة حدوث العالم وقدمــه ، وأدلة وجود الله ، ومســكله الصفات الالهيه ، ومشكلة خلود النفس ، والتوفيق بين الفلسفه والدين .

ومما يجدر ذكره أن ابن طفيل كان حريصا على تقديم أكثر من دليل على وجود الله ، كل دليل منها يعتمد على فكرة غير الفكره التى يعتمد عليها الدليل الآخر بصورة أو بأخرى ، دليل أول يعتمد على فكــرة الحركه ، ودليل ثان يبين لنا كيف أن حدوث الصورة المادة يحتاج الى محدث ، ودليل ثالث يكشف لنا عنايه الله بالكون ، ولولا هذه العنايه لهلك العالــم فى لحظــة من اللحظات والاعتراف بين الأســباب ومسبباتها يهدينا الى التصرف بعناية الله بالكون[2] .

وقد أوضح ابن طفيل بعض الصفات الالهية عن طريق نفيه عن الله تعالى ما تتصف به الموجودات ، تمسكا منه بقواعد التنزيه وموحدا بين الذات والصفات ، « فالله هو الوجود وهو الكمال وهو التمام وهو الحس ، وهو القدره وهو العلم وهو هو »[3] .

وفى مجال التوفيق وبين الفلسفة والدين ، اهتدى بهذه الآراء ضرورة التمسك بحدود الشرع والأعمال الظاهرة ، وقلة الخوض فى المســائل الجدلية ، والايمــان بالمتشابهات والتسليم بها والاعراض عن البــدع والأهواء ، والاقتداء بالسلف الصالح وترك الأمور المحدثه ، وتجنب ما عليه جمهور العوام من اهمال الشريعة ، والاقبال على الدنيا[4] .

---

(١) ابن طفيل : حى بن يقظــان ، ص ٨٧ .
(٢) عاطف العراقى : ابن طفيل ، ص ١٤٠ — ١٤٩ .
(٣) ابن طفيــل : حى بن يقظان ، ص ٩٩ .
(٤) المصــدر السابق ، ١٧٦ .

ودرس ابن طفيل نظرية الاتصال بالله ، وبدراسته جوانب معبرة عن الفناء والحلول ، وغيرهما عن اسياء يتحدث عنها ا صوفيه وهو بيان لسمو العالم الالهى عن العالم الحسى ، ولم يعبر ابن طفيل عن اتجاه صوفى ، انما استند الى اراء فلسفيه وصلته ا ى المبادىء العامه للوجود •

ويقول الأستاذ الدكتور عاطف العراقى . ان آراء ابن طفيـل حلقـة من حلقات المدرسه الفلسفية الأندلسية ، وهذه المدرسه بأقطابها الثلاثه : ابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشد ، لا يعبر واحد منهم من خلال آرائه عن اتجـاه صـوفى •

امـا ابن رشـد فقـد ارتفع شأنه فى خلافة أبى يوسـف يعقـوب المنصـور ، ولكـن الخليفـه قلب عليه ظهـر المجن ، وتنكر للفلسـفة والفلاسـفه ، وجمع الفقهـاء وشـاورهم فى ذلك . فاتهموا ابن رشـد بالكفر ، ونفى الخليفه ابن رشـد على مقربه من قرطبه ، ويبدو أن الخليفه بعد موقعه الأرك ، ازدادت حماسته الدينيه ، ولا يغيب عن الأذهان سعى الحاسدين لابن رشد لدى الخليفة • وذمه الفقهاء والشيوخ فى المساجد ، وهجاه ا شعراء ، ولكن أهل الخير أصلحوا بينه وبين أبى يعقوب ، فاستدعاه الى مراكش ، واكرم وفادته ، وظل بها حتى وفاته ٥٩٥ هـ ، ومن أبرز مؤلفاته فى الفلسفه ، شروح مؤلفات أرسطو ، وطبع شروح مطوله لكتاب « التحليلات الثانية » ـ « السماع ا طبيعى » « مـا وراء الطبيعـة » و (السـماء والعـالم) و (النـفس) ومؤلفات أخرى لارسطو رسائل (السماع الطبيعى) و (السماء والعالم) و « الكون والفساد » و « الآثار العلوية » و « النفس » و « وما وراء الطبيعـة » •

ومن كتبه التى وضعها بنفسه كتاب « تهافت التهافت » ولـه كتاب (المقدمات) عبارة عن اثنى عسرة مسألة فى المنطق ، وكتـاب « اتصال العقل الفعال بالانسان » وله فى علوم العقائد « فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » والثانى هو (الكشف) •

اشتغل ابن رشد بالطب ، وصنف كتبا فى هذا المجال ، ومن أهمها كتاب الكليات ، وهو الذى يتضمن الاحكام الكليه فى ميدان الطب ، وقد درس طلاب الجامعات فى العصر الوسيط هذه الكتب ، لأنه يتضمن معلومات عامه فى الطب ، وكان حذرا فى وصف العلاج ، وشغل منصب الطبيب الخاص لأبى يوسف المنصور ، ولما عاد المنصور من احدى حروبه سنه ٥٩٣ هـ ، كتب اليه البعض مقالات يشككون المنصور فى صحه عقيدة ابن رشـــد ، فنفاه فترة محدودة ثم عفا عنه واستدعاه الى مراكش ، وتوفى ابن رشد سنة ٥٩٥ هـ .

وتصوير مبادىء ابن رشد على أنها كفر وزندقه جاء من بعض غلاة الفقهاء وأشياعهم ، اذ أرادوا السيطرة على حرية الفكر ورفضوا الخوض فى الفلسفة على اعتبار أنها من العلوم التى لم يعد هناك مجال لدراستها ، واستجاب المنصور لهم لا موافقه على آرائهم ومبالغتهم بل ارضاءا لهم ، وفى ارضائهم ارضاء للشعب ، لأنهم زعماؤه الروحيون .

والطب فى نظر ابن رشد جزء من الفلسفه ، التى كانت فى ذلك العصر دراسة شاملة للوجود ككل ، بما يشمله من مجالات عديدة . ولما كان ابن رشد — كما قلنا — قد درس الطب ككل فقد نصح صديقه الطبيب المشهور ابن زهر بأن يعنى بدراسة الأمور الجزئية فى الطب فى كتاب ، وأصبح الكتابان يكمل أحدهما الآخر .

وصناعه الطب فى نظر ابن رشد لابد وأن تتصل بالعلم الطبيعى ، وقسمها الى سبعة أجزاء ، يعرض فى الجزء الأول أعضاء الانسان التى شوهدت بالحس ، والجزء الثانى ، الصحة وأنواعها ولواحقها ، والثالث المرض بأنواعه وأغراضه ، والرابع العلامات الصحية والمرضية ، والخامس الآلات ، وهى الأغذية والأدوية ، والسادس الوجه فى حفظ الصحـــة ، والسابع الحيلة فى ازالة الأمراض .

عارض ابن رشد الطريق الصوفى فى كثير من المجالات ، ويأخذ عليهم

أن طرقهم فى النظر ، ليست طرقا نظريا أى مقدمات تؤدى الى نتائج ، اذ أنهم يرون أن معرفه الله وعيره من الموجودات عبارة عن سىء يلقى فى النفس بعد تجردها من الماديات ، وهم يعرفون الله بالله لأن العقل عاجز لا يدل الا على عاجز مثله . وبذلــك لا يلتقى الطريق الصوفى بالطريق العقلى ، لأن التجربه الصوفيه ليست راجعه الى الحس أو العقل ، وانما هى نور يقذف به الله فى قلب من احبه ، لذلك يعارض ابن رشد الطريق الصوفى الذى لا يتفق مع العقل ، وتبطل النظر ، والقرآن الكريم دعا الى النظر والاعتبار (قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) سوره الأنعــام ٥٠ رقم ٦ — (قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض) ١٠١ يونس ١٠ — (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبه المجرمين) ٢٧/٦٩ النمل — (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) ٢٩/٢٠ العنكبــوت .

وبذلك لا يمكن اقامة البرهان على أى قول من اقوال الصوفية ؛ لأنها تعبر عن نزعات شخصية وجدانية لا تستقيم مع قضايا العقل(١).

وهكذا يوضح لنا ابن رشد ان الطريق الصوفى يتنافى مع الطريق العقلى ، والطريق الصوفى فردى ذاتى ، ولذلك فان آراءهم تفتقد الدليل المقنع والبرهان الأكيد ، لأن أفكارهم — كما أوضحنا — تتنافى مع العقل ، فلا بد من قواعد وأسس للمعرفة العقلية ، ويرفض ابن رشـــد ما ردده الصوفيه بأن المعرفه تتصل الى الصوفى بطريق الالهام لا بطريق العقل ، ولا يمكن تفسير المعرفة بالعجائب والخوارق .

من أهم الانجازات التى حققها ابن رشد تعمقه فى دراسة أرسطو فحصل على كل ما استطاع الحصول عليه من مؤلفـــات هذا الفيلسوف وانكب على شرحها وتلخيصها ، وفضل ابن رشد ة أرســـطو على جميع الفلاسفة الذين سبقوه والذين أتوا بعـــده ، ولكنه على الرغم من ذلك

---

(١) عاطف العراقى : المنهج النقدى فى فلســـفة ابن رشد ، ص ٢٦١ .

يناقش آراء أرسطو ويؤيد بعضها ، ويرفض بعضها الآخر وكان يريد أن يقدم للعالم الاسلامى فلسفه أرسطو خاليه مما شابها من أخطاء الشراح والمفسرين وتأويلاتهم ، وهدا عكس ما فعله لابن سـينا اد كان يعرض آراءه لينقدها أو ينال منها .

وقد اختلف ابن رشـد مع الغزالى ، لأن الغزالى اتهم الفلاسـفه بالكفر ، وذلك بسبب تصوفه ونزعته الدينية المتطرفه ، وأرجع الغزالى كفر الفلاسفة الى تأثرهم بالفلسفه اليونانيه ، وقال الفلاسفه خطآ بقدم العالم ، وبأن الله لا يحيط علما بالجزئيات .

ونقد ابن رشد علماء الكلام لأنهم أهل جدل لا برهان لهم فهم قد آمنوا بآراء معينه بناء على اعتقادات سابقه ، وهو يرفض كذلك التصوف ، لأنه خاص بجماعة دون أخرى وعلى حين أنه يريد الأسـس الشـامله والمبادىء العامة الواضحه التى يسير على هديها العقل فى اصداره الأحكام على الأشياء ، والنظر فى الموجودات .

وابن رشد اذا كان قد اطلع على كثير من آراء الفلاسفة كالفارابى وابن طفيـل وغيرهما ، فانه كان أكثـر منهم التزاما بالاتجاه العقـلى وبخصائص الفكر الفلسفى ، واستفاد من الفلاسفه السابقين عليه وكشف عما وضعوا فيه من أخطاء ، اذ هو يأخذ بمذهب أرسطو ، وهدا هو سبب خلافه مع الفلاسفة السابقين عليه(١) .

ودرس الفلاسفة بافاضة آراء ابن رشد ، وتوصلوا الى أن نظريته فى المعرفة ، ترتفع من المحسوسات الى المعقولات ، ومذهبه فى العقـل والوجود ، يقوم على الارتباط الضرورى بين السبب المسبب ، ورد كل شىء الى أسباب تدرك بالعقل وآراؤه عن العقل والانسان تقوم على أساس التسليم بنواميس الكون ، والاعتراف بالخصائص الضرورية لكل شىء (٢) .

---

(١) عاطف العراقى : النزعة العقلية فى فلسـفة ابن رشـد ، ص ٨٤ .
(٢) المصدر السـابق ، ص ٣٦١ .

وهو يفضل فى الدين الأدله البرهانيه على عيرها من الأدله الخطابيه والجدليه ، والحلاصة أن مدهبه يتخذ من العقل هاديا ويرتكز على مبادىء المنطـــــق •

ولابن رسد مؤلفات كثيرة ، وشروح متعددة فى موصوعات الفلسفه وعلم الكلام والنحو والطب والفقه ، وفقد الكثير من مؤلفاته ومن أهم مؤلفاته « فصل المقال فيما بين الحكمه والشريعه من الاتصال » وكتاب (الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة) وكتاب « صحيفة لمسألة العلم القديم » وكتاب « تهافت التهافت » الذى رد فيه على العزالى ، وكتاب « الكليات فى الطب » •

من شروحه وتلخيصاته « تلخيص كتاب النفس » و « تلخيص كتاب الحس والمحسوس » — « تلخيص كتاب الخطابه » — « وتفسير ما بعد الطبيعه » — « تلخيص ما بعد الطبيعة » — « تلخيص كتاب الشـــعر — « شرح أرجوزه ابن سينا فى الطب » — « تلخيص كتاب البرهان » — « تلخيص كتاب القياس » •

ورسالة عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل من الشبه المزيفه والبدع المضلة وألف فى الفقه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » وهو على مذهب مالك الى غير ذلك من الكتب الفلكية والطبية •

وابن رشد كفيلسوف شارح لمؤلفات أرسطو ومعلق عليها • ويرجع الفضل الى هذا الفليسوف القرطبى المسلم فى أنه أتم أول محاولة للتوفيق بين الحكمة والشريعة •

ترك ابن رشد تلاميذه فى الأندلس حملوا آراءه وأفكاره إلى الناس، وصنفوا الكتب فى فلسفة أستاذهم ، وكان تأثير مذهب ابن رشد قويا فى الفكر الأوربى ، فقد ترجم اليهود شروحه الى العبرية ولخصوها ، وكانت هذه الترجمات والمختصرات هى العماد الاكبر الذى بنى عليه العلم العبرى

ابتداءا من القرن الثالث عشر الميلادى ، وظلت كتابات ابن رشد مصدر الهامهــــم •

محيى الدين بن عربى :

تتمثل أعلى صورة وصل اليها تطور مذهب الأفلاطونيه الحديثه عند مسلمى الأندلس المتفرع من مدرسه ابن مسرة فى تشخص أبى بكر محمد بن على بن عربى ت ٦٣٨ هـ ، وقد عرف بمحيى الدين وبالشيخ الاكبر ، وابن افلاطون قضى سنوات طفولته وصباه ، ودرس علوم الحديث والفقه والتفسير والأدب واللغة ، ثم زهــد الحياة بعد تفكير فلسفى عميــق ، وانصرف الى دراسة كتب التصوف ومارس حيــاة التصوف مع شيوخ كثيرين ، وعندما استكمل عدته ، خرج يجول فى الأرض ، وقضى بقيــة حياته متجولا فى بلاد المسلمين والنصارى ، يتعلم ويعلم ويجادل ، ولقى بعض الصوفية فى المغرب ، وهو الذى بدأ ثورة المريدين فى غرب الأندلس على المرابطين ، وبعــد أن قام بسياحات متعــددة فى بــلاد المغــرب والأندلس ، استقر فى فاس ســـنة ٥٩١ هـ ، حيث انصرف الى الرياضة الروحية ، وغادر المغرب الى المشرق لسوء علاقته بالموحدين ، ووضع قبل رحيله كتاب « مواقع النجوم » أوضح فيه الطريق الذى يجب أن يتبعه المريدون ، وتوجه الى مصر ومنها الى مكة المكرمه سنة ٥٩٨هـ ، وحدث الناس حول ما سيحل بهم ، وتعلق بفتاه من أهل مكة ، وضع فيها مجموعة من شعر العشق ، وكتب كتابه « الدرة الفاخرة » ويتضمن سير الصوفية من شيوخه وزملائه من أهل المغرب •

ورحل الى الموصل سنة ٦٠١ هـ ، ثم القاهرة ٦٠٣ هـ ، وظهرت له كرامات ، ولكن الفقهاء هاجموه لما علموا قوله بوحدة الوجود ، ثم رحل الى قونيه بدولة سلاجقة الروم وتتلمذ عليه كثيرون ، ووضــع كتابين « مشاهد الاسرار » و « رسالة الأنوار » ثم ساح بنواحى الأناضول ، وعاد الى بغداد سنه ٦٠٨ هـ ، واجتمع به المريدون ، وتتلمذوا عليه ، وعاد الى مكة حيث كتب « ذخائر الأعلاق » شرحا على ديوانه « ترجمان الأشواق » وقد ابرز فى هذه الكتب العشق الروحى الذى يقصده من

كتابه وهو بعيد كل البعد عن العشق الجسدى . وعاد الى دولة سلاجقة الروم ، ثم توجه الى حلب ، حيث لقيه السلطان الظاهر غازى صاحب حلب ، واشتد به المرض ، فكتب كتاب « الحكمة الالهاميه » وهو رد على الفلاسفه على طريقة الغزالى واستقر فى دمشق حتى وفاته ٦٢٠هـ .

كتب ابن عربى أربع مائة كتاب ورســاله ، وأعظم كتب ابن عربى « الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار المكيه والملكية » وجمع فيه كل ما أورده فى كتبه الأخرى .

والفكرة الرئيسية التى يقوم عليها تفكير ابن عربى هى الزهد والقول بوحدة الوجود والشك الصوفى ومذهب الصوفية فى النفس ، وجمع بين هذه الآراء المتباينة ، ونسقها ، ويرى ابن عربى أن لا دواء يشفى من الحيرة التى وقع فيها الانسان من أفكار الفلاسفة ، لا الزهد والتصوف ، وذاعت آراء ابن عربى فى البلاد الاسلامية وغير الاسلامية .

ينسب ابن عربى الى قبيلة حاتم الطائى ، وهو أبو بكر محمد بن على ويلقب محيى الدين والشيخ الاكبر وابن أفلاطون ، ونشأ فى مرسيه بالأندلس فى عصر الموحدين ، ونشأ من أسرة متدينة يغلب عليها الزهد والتصوف ، وانتقل فى طفولته الى اشبيليه مع أهله وهناك درس التاريخ والأدب والقراءات والشعر ، وتولى وظيفة فى بعض دواوين اشبيلية وهو فى شبابه الغض ، ولما توفى والده تأثر لذلك كثيرا حتى تحول الى الله بكليته نهائيا ، ويشير ابن عربى فى بعض كتبه الى الكرامات التى صحبت وفاة والده ، ودخل الحياة الصوفية ، وصار صوفيا ، بعد أن تجاوز العشرين فى حوالى سنة ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م . وفى سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠م ارتحل صوفى شهير الى اشبيلية ، واتصل بابن عربى للاستفادة منه ، وعكف ابن عربى بعد أن تحول الى طريق التصوف على قراءة كتب الصوفية وعلى الاجتماع بشيوخ الطريقــة ، وتلقى الكثير من الآراء والأفكار عن المتصوفين الذين اتصل بهم وتعلم منهم الاتصال بأرواح الموتى ، وكان ابن عربى يتصل بالشيوخ والعلماء ، وقد أشادوا بعلمه

وورعه وزهده ، وتلقى ابن عربى عن شيخين متخصصين فى عملية محاسبة الضمير يوميا ولكن طريقتهم كانت مقصورة على المحاسبه على الأفعـال والأقوال ، فأضاف اليها ابن عربى المحاسبه على الخواطر أيضا ، وعمل على تكوين روحه منذ سنوات بشبابه بالزهد فى السهوات •

وبعد فترة من الزمن آثر ابن عـربى العزلة ، وترك المتسـايخ وخلا الى المقابر ، يقضى عندها النهار بطوله على اتصال مباشر بأرواح الموتى ، كان يجلس على الأرض باكيا ، متأملا فى قـدرة الله وقوته ، متؤملا فى قضية الحياه والموت ، وبذلك اشتد ايمانه بالظواهر الخارقه فى الحياة الصوفية ، وشاهد بنفسه كرامة قدمها صوفى ، وهى عدم الاحتراق بالنار • وكان ابن عربى يرى فى المنام ما يتحقق فى اليوم التالى ، الأمر الذى أثار دهشة أهل اشبيلية ، واعتقادهم فى ولايته •

وأتم ابن عربى تكوينه الصوفى تحت اشراف جميع الشيوخ الذين اتصل بهم ، وكان يقضى أياما كثيرة فى مسجد الزبيدى يصحبه أبى يحيى الصنهاجى الضرير — صاحب الكرامات الذى علمه أن يصبر على اضطهاد العامة ، مخفيا الولاية ، وتعلم الفائدة فى حياة التجـوال بالنسبة الى الصوفى ، واتصل بالصوفيه رجالا ونساءا وقد صحب الصوفيه فاطمة سنتين متتاليتين ، مريدا وخادما ، وعاش معها عيشة طاهرة فى كوخ من القصب ، بناه هو نفسه فى اشبيلية ، ليتعود حياة العزلة ، ويشاهد عن قرب الظواهر العجيبة ، التى كانت تصدر عن فاطمة ، وحضور الجن حينما تدعوهم •

وبعد أن تعمق ابن عربى فى دراسة التصوف ، جال فى الأرض ، وكانت حياته سياحة مستمرة ، طاف بلاد المشرق والمغرب ، متعلما ومعلما ومناقشا ، وبدأ جولاته فى قرى الأندلس ومدنه ومن البلاد التى زارها ، مدينة الزهراء — قرب قرطبة — وهى التى شيدها عبدالرحمن الناصر ، أوحت اليه أطلالها بتأملات حزينة تبكى من شيدها وبناها وأقام صرحها ، ذكر فى ذلك أبياتا :

ينوح عليها الطير من كل جانب
فيصمت أحيانا وحينا يرجع
فخاطبت منها طائرا متغردا
له شجن فى القلب وهو مروع
فقلت : على ماذا تنوح وتشتكى
فقال : على دهر مضى ليس يرجع

ورأى فى منامه أسماء الصوفية فى عالم الاسلام ، واشتهر أمره بصفته صوفيا فى بلاد الأندلس ، ولجأ اليه الشيوخ ، يسألوه الرأى فى المسائل الصوفية ٠

ويبدو أن روح ابن عربى القلقة لم تقنعه بحدود بلاده الضيقة فارتحل منها الى افريقية قبل سنة ٥٩٠ هـ — ١١٩٣ م ، وكان هدفه الرئيسى أن يلتقى بالشيخ الاشبيلى ابن مدين ، الذى أقام مدرسه صوفية فى مدينة بجاية منذ عدة سنوات ، ويشير اليه ابن عربى بوصفه شيخه ، وأورد فى كتبه كراماته ورؤاه ومناقبه ومذاهبه ، ولم يقم ابن عربى كثيرا فى بجاية ، ورحل الى تونس سنة ٥٩٠ هـ — ١١٩٣ م ، وهناك اكرمه حاكمها ، وأنزله منزلا جليلا من الاكرام والتبجيل والاعزاز ، ويقول ابن عربى بأنه فى أثناء اقامته بتونس تجلى له الخضر من جديد فى ليلة قمرية كان ابن عربى يستريح فيها من دراساته ومجاهداته الصوفية ، ومن بين أسباب زيارته لتونس حرصه على لقاء صوفى خبير هو أبو محمد عبد العزيز ، ولم يلبث ابن عربى أن غادر تونس عازما على السير بحذاء الشاطىء حتى يبلغ اشبيلية لان الاضطرابات السياسية فى شمال افريقية جعلت من الصعوبة عليه البقاء فيها ، وعاد الى الأندلس، ونزل فى ميناء طريف ، ثم عاد الى شبيلية ، حيث وقعت له كرامة جديدة أعجبت من كان شاهده ، وثبت ذلك اعتقاد الناس فيه ، فقد قيل بأن ابن عربى قد الف قصيدة فى ذهنه لم ينسخها ، ولم يقرأها لاحد من الناس ، ورغم ذلك فقد أنشدها شخص لا يعرفه ٠

وفى سنة ٥٩١ هـ — ١١٩٤ م ، عاد ابن عربى الى بلاد المغرب ونزل فى فاس ، واتصل بالمشايخ والاخوة فى طريق الله الذين سيتردد عليهم كثيراً فى السنوات التالية ، منهم صوفى أفاد ابن عربى فى علوم السحر ، وتنبأ بعض الشيوخ هناك بانتصار الموحدين فى موقعة العقاب سنة ٥٩١ هـ — ١١٩٤ م الأمر الذى شجع ابن عربى على العودة الى الأندلس، ونزل فى شبيلية عند أحد أصدقائه ، وأقبل عليه الناس من كل مكان ، حيث ازدادت شهرته ، وأقبل الناس على قراءة كتبه ، والاستفادة منها ، وعاد شيخنا الى فاس سنة ٥٩٣ هـ — ١١٩٥ م ، وعكف على الدراسات والمجاهدات هناك ، وكان يحضر دروس المشايخ فى فاس • وكان يجلس فى أحد بساتين فاس ، ويلتف حوله تلاميذه ، فيستمعون الى محاضراته فى الصوفية ، واتخذ لنفسه آراء مستقلة ، ودحض آراء بعض المشايخ •

وقد نال ابن عربى شهرة كبيرة بين تلاميذه — لكن حكام الموحدين كانوا يبغضونه ، ويخشون على حكمهم من الصوفية ومن ثوراتهم ، وقد جرى حديث بين ابن عربى والسلطان يعقوب المنصور ، يدل على ذلك • فقال السلطان لابن عربى : ذل من ليس له ظالم يعضده ، فقال له ابن عربى : وضل من ليس له عالم يرشده ، فقال : يا أخى : الرفق فقال ابن عربى : ما دام رأس المـال محفوظا ، يعنى الدين ، فقال : صـدقت ، وسـكت عنـه •

لذلك رأى ابن عربى مغادرة المغرب نهائيـا حتى ينال فى المشرق من الحظوة والتقدير ما لم ينلهما فى المغرب ، وفى أثناء مغادرته للمغرب تجلى له الخضر للمرة الثالثة ، وهو يسير فى الهواء بحضور ناس آخرين •

وفى سنة ٥٩٧ هـ — ١٢٠٠ م ، توجـه ابن عربى الى مراكش — عاصمة دولة الموحدين — بصحبة الصوفى أبو العباس السبتى ، وبينما ابن عربى فى مراكش ، اذا برؤيا يراها ، تطلب من ابن عربى الرحيل الى فاس للقاء محمد الحصار ، ويرحل معه الى الشرق ، الذى أخبره هو أيضا أنه رأى هذه الرؤيا ، وارتحل الرجلان الى تلمسان ، وأقبل ابن

عربى الى بجاية سنة ٥٩٧ هـ ، وواصل ابن عربى رحلته ، فتوقف فى تونس وفيها وصل الى درجة من أعلى درجات السلوك ، وأقام ابن عربى فى تونس تسعة أشهر الا قليلا ، ثم استأنف الرحلة الى الشرق ، وفقد صاحبه محمد الحصار أثناء الرحلة ، ومر بمصر ولم يقم طويلا بها ، واستأنف السير الى غايته ، الى مكة المكرمة وبلغها سنة ٥٩٨ هـ ، وذاع صيته فى هذه المدينة المقدسة والتف حوله الصالحون والعلماء والزهاد .

واستقرت حياته نسبيا سنة ٥٩٨ هـ ، ونشط نشاطا كبيرا فى مجال التأليف والتصنيف . وفى سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م ، صنف كتاب « مشكاة الأنوار فيما روى عن النبى من الأخبار » وفيه جمع أربعين حديثا بأسانيدها المتصلة حتى الله (أحاديث قدسية) وفى الطائف ألف كتاب « حيلة الأبدال » وكان الطواف فى البيت العتيق بحياته ينشىء فى روحه رؤى وتجليات كثيرة فظهر له بعض الصوفية الذين ماتوا منذ قرون أثناء طوافه وتحدث معهم ، وتنبأ بوقوع كارثة فى اليمن ، وفعلا حدثت وهبت عليها ريح عاتية ، قاسى منها اليمنيون الكثير وحدثت كوارث وأوبئة فى بلاد الحجاز أيضا ، الا أن هذه المصائب لم تزعزع ايمانه ، وصنف فى أثناء ذلك كتاب « الدرة الفاخرة » ، ووجهها الى صديقه فى تونس وفيها تراجم لشيوخه فى التصوف فى المغرب ، والذين أفاد منهم فى حياته الروحيـــة .

وفى سنة ٦٠٠ هـ / يشرع فى الترحال والتجوال ، وفى سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م يمر ببغداد ، ويقيم بها عدة أيام ، وغادرها الى الموصل ، لزيارة أحد شيوخ الصوفية ، وكان لهذا الضوف — كما يقول ابن عربى — بستان خارج الموصل ، وفى هذا البستان ظفر ابن عربى بشرف تلقى خرقة الخضر لثالث مرة من يدى ابن جامع الذى تلقاها مباشرة من الخضر ومن هذا التاريخ أصبح ابن عربى يعتقد فى الأهمية الكبرى لهذا الرسم من مراسم الصوفية ، وأوصى بذلك المريدين ، كدواء ناجح لعلاج الآفات الأخلاقية .

---

(١) انظر كتاب « ابن عربى » للاستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى .

وفى سنة ٦٠٣ هـ — ١٢٠٦ م ، ارتحل ابن عربى الى مصر ، وكانت جماعة من الصوفية من أصحاب ابن عربى ومريديه قد أقاموا فى بيت بزقاق القناديل بالقاهرة ، فانضم اليهم ابن عربى وقضى معهم الليالى فى العبادات والمجاهدات واتيان الكرامات العجيبة ، وكانوا يقضون أوقاتا فى الظلام ، فيعتقدون بانبعاث أنوار منهم تبدد نور الظلام ، وفجأة تجلى لابن عربى شخص رائع الجمال ، ألقى اليه بكلمات فى غاية الحسن يوحى فيها من الله بأمور تتعلق بالاتحاد الصوفى ، معناها يدل على وحدة الوجود •

ولم يرض شيوخ السنة عن آراء ابن عربى ، فاتهموه بالكفر والالحاد ، وطالبوا بقتله ، واضطهد ابن عربى عقب ذلك وتجادل شيوخ الفقه حول آرائه وحقيقة ايمانه ، ولقد دخل ابن عربى من قبل مع فقهاء الشرق والغرب فى مجادلات حول آرائه وأفكاره ، ومن حسن حظ ابن عربى أن الملك العادل الايوبى لم يستمع الى نداءات الفقهاء بسجنه والتخلص منه •

ولم يؤثر هذا الاضطهاد على المذهب الصوفى لابن عربى ، بل زادت حماسته ، ولم يلبث أن غادر القاهرة الى الاسكندرية ، ومنها ذهب الى مكة ، وظل بها حتى سنة ٦٠٤ هـ — ١٢٠٧ م ، لكن السماء — كما يقول — نادته وأمرته بالسياحة الى قونية ، وكانت عاصمة دولة سلاجقة الروم ، واتصل بالسلطان كيكاوس الأول سنة ٦٠٧ هـ — ١٢١٠ م ، وأنزله السلطان السلجوقى فى دار تليق به ، وأقام فيها بعض الوقت ، وأهداها ابن عربى صدقة الى أحد السائلين ، وفى هذه الفترة الهادئة من حياة ابن عربى ، استأنف التأليف والتصنيف ، فكتب كتابين هما : « مشاهد الأسرار » و « ورسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار » ، وفى أوقات فراغه كان يجتمع بالصوفية الذين يريدون الانتفاع بتعاليمه والاقتداء به ، وكان له تلاميذ يشهدون له بالولاية ،

(١) انظر المصدر السابق •

ويقولون بأن ابن عربى كانت تظهر له تجليات سماوية للأرواح النبوية ، على هيئة جسمية ، أو تتحد بروح ابن عربى فى مشاهد وجدانية خارقة ، وشاهد الناس كراماته فآمنوا به واعتقدوا فيه .

استأنف ابن عربى رحلته فى آسيا الصغرى وأرمينية وفى خلال رحلاته اتصل بالصوفية ، وفى سنة ٦٠٨ هـ — ١٢١١ م عاد الى بغداد للاتصال بالصوفى الشهير شهاب الدين عمر السهروردى وكان صاحب مدرسة فى الوعظ والمجاهدات الصوفية ، وشيخ مشايخ الصوفية ، وذاع صيت ابن عربى فى بغداد حتى التف حوله الصوفية ، وكان يمشى فى شوارع بغداد محاطا بتلاميذه ومريديه حتى علت مكانته على مكانة الخليفة الناصر .

وعاد ابن عربى الى مكة فى سنة ٦١١ هـ — ١٢١٤ م ، وعكف على العبادة المعتادة فى الكعبة ، وكتب شرحه على « ترجمان الأشواق » وقد رد فى هذا الكتاب على مزاعم الفقهاء الذين هاجموا بعض أشعاره لما فيها من لهجة حسية شهوانية تشيع فى قصائده دون أن يدركوا معانيها الصوفية . وعاد الى آسيا الصغرى وتنبأ بانتصار كيكاوس فى أنطاكية فى قصيدة كتبها للسلطان جاء فيها :

قصدت بلاد الكفر نبغى فتوحها
فابشر ، فان الروم فيك لفى خسر
رأيت لكم رؤيا تدل على النصر
وفتح بلاد الكفر والقتل والأسر
اذا جاء نصر الله والفتح فلتجد
بمالك من خير على العسر واليسر

وقد لقى ابن عربى الحفاوة والتكريم من سلاطين وملوك عصره مثل الملك الظاهر — صاحب حلب — ووضع كل ثقته فى ابن عربى ، وأفرد لابن عربى بيتا خاصا ، وكان أهل حلب يوسطونه لدى الملك فى قضاء حوائجهم ، والملك لا يرد له طلبا وزاد نفوذه على نفوذ كبار رجال الدولة

والفقهاء ، ودارت بينه وبين الفقهاء مجادلات كثيرة حول التصوف •

وكان ابن عربى يحصل من أسد الدين شيركوه — سلطان حمص — سنة ٦٣٧ هـ — ١٢٣٩ م كل يوم على مائة درهم ، فكان يتصدق بها•

كتب ابن عربى أكثر من أربعمائة كتاب ، ولم تكن هذه الكتب تتمشى مع العقل والمنطق ، لأنه لم يستطع التخلص من تأثير الوحى الالهى الذى كان يملى عليه ما يجب أن يكتبه أو لا يكتبه •

واشتد به المرض نتيجة كثرة أسفاره ، واقامته فى بعض الاوقات فى بلاد شديدة البرودة ، ومجاهداته الروحية ، وفى مرضه صنف كتاب « الحكمة الالهية » وهذا الكتاب على نمط كتاب « تهافت الفلاسفة » للغزالى • وقد مرض فى أثناء تأليفه لهذا الكتاب ، ولم يسمح له مرضه بالتفكير أثناء وضع الكتاب فى المسائل الطبيعية ، فألهمه الله حلها دون تفكير ولا تأمل ولا نظر ، وفى سنة ٦٢٠ هـ — ١٢٢٣ م استقر ابن عربى فى دمشق وكان فى الستين من عمره ، ولم يغادرها حتى وفاته • وبالغ الملك المعظم ابن الملك الكامل فى اكرامه ، وكانت صلته بابن عربى صلة المريد بالشيخ ، وقد تعددت تجلياته فى السنوات الأخيرة من حياته، وانقطع فترة فى صحراء خارج دمشق • ويقول ابن عربى : بأن النبى ظهر له سنة ٦٢٧هـ ، وسلمه كتابا سماه « فصوص الحكم » وأمره باذاعته ونشره بين الناس لما فيه من كمال صوفى ويعرض فى هذا الكتاب أغرب نظرياته فى وحدة الوجود على هيئة الهامات يعزوها على التوالى الى تعليم السبعة وعشرين نبيا الرئيسيين بين الأنبياء الذين يعتز بهم الاسلام ابتداءا من آدم وانتهاءا بمحمد ، وأقبل طلاب ابن عربى على دراسة هذا الكتاب والتعليق عليه •

ويعتقد أنه ألف كتاب « الديوان » بعد سنة ٦٣١ هـ — ١١٣٢ م وتتجلى فى قصائده فى الديوان لهجته عن الوجد الصوفى • ويعتقد أن

(١١) انظر الرسالة القيمة التى كتبها الدكتور عبد الرحمن بدوى من ابن عربى •

ابن عربى أتم فى تلك الفترة كتابه الاكبر « الفتوحات المكية » وقد استغرق تأليفه بضع سنين ، وهذا الكتاب خلاصه شاملة لكل مؤلفاته بما فى ذلك قصائده الشعرية ، وقد وضع هذا الكتاب بعد أن زار القدس والمدينة ، وزار مكة لأول مرة ، وفتح الله عليه عند طوافه ببيته الحرام ، ومن هنا جاءت تسمية الكتاب « الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار المالكية والمكية » ويذكر فى مقدمة كتابه أن الرسول ظهر له فى المنام ، ولقنه خطبـة طويلة من وحى الروح القدس •

وقد شرح الصوفية هذا الكتاب ، ونال شهرة واسعة بينهم ، واعتقدوا بمـا فيها من آراء وأفكار صوفية ، ومن كتب ابن عـربى فى التفسير كتاب « اتفسير الكبير » ولم يتمكن من اتمامة ، ثم كتـابه المعروف « تفسير الشيخ الاكبر » وهو تفسير رمزى صـوفى للقرآن وأطلق فيه العنان لتأويل الرمزى المستور ، وله رسائل لأهل الطريق ، توضح لهم الأسلوب الواجب اتباعه •

وعاش ابن عربى فى هدوء شديد فى دمشق فى أيامه الأخـيرة مع أسرته ، وكان موضع تقدير الناس حكاما ومحكومين ، وكان الملك الأشرف ابن الملك العـادل يحضر دروسـه ، وتلقى الاجازة منه برواية كتبـه ، وكان قاضى الشافعية يخدمه خدمة العبيـد تقديرا واجلالا له ، وقام القاضى ابن زكى بترتيب معاشـه فى دمشق ، ثلاثين درهما كل يوم ، وأنزله فى منزلـه •

وعاش ابن عربى فى شيخوخته يصنف مصنفاته حتى وفاته سـنة ٦٣٨ هـ — ١٢٤٠ م وقد اقترب من الثمانين ، ودفن قرب دمشق فى قرية الصالحية على سفح جبل قاسيون ، يعتقد النـاس ، أن الأنبياء زاروه خصـوصا الخضر •

وقد ظلت شهرته بعد وفاته قائمة ، ونسب اليه الصوفية وأتبـاعه الكرامات والأساطير ، وأمر السلطان سليم الثانى سنة ١٥٧٩ م ببنـاء مسجد باسمه ، ومدرسة كبيرة على ضريحه ورتب الأوقاف عليهما •

ولا تزال كتب ابن عربى حتى يومنا هــذا فى المكتبات العربيــة ، ويقبل على قراءتهــا ودراســتها الصــوفية والدارســون ، وانطرق الصوفية فى الشرق الاســلامى تستلهم القواعد العمليــه والنظرية فى تصوف ابن عربى •

ومن أهم آراء ابن عربى ، وحــده الوجــود : ويفسرها الدكتور بلاثيوس [١] بقوله : اذا كان العالم يصــدر عن الله ، والمخلوقات هى علامات وآثار وتجليات له ، واذا كان الجوهر أو الحقيقــة العــددية للكون واحــدة ، هى الحقيقة الالهية ، واذا كان لا يوجد خارجهــا غير ظواهر هى بمثابة أعراض لها ، فمن الواضح أن ادراك هــذه الوحــدة فى الوجود ينبغى أن يكون المطلب الأسمى للتصوف : فالنفس ، بعودة مثالية ترجع الى الاتحاد بالله الذى صدرت عنــه • ويقول ابن عربى فى نظريتــه بأن الحلول (وحــدة الوجود) ليس شبيها بوصــول الجسم بالجســم ، أو العرض بالعرض أو العلم بالمعلوم ، أو الفعــل بالمفعول، بل الاتحــاد أو الوصــول متخيلا أكثر منه حقيقا ، ويشاهد الصــوفى محبوبه بالقرب منه على نحو كأنه يشاهــده بعينيــه ، ويشــعر بلذة الوصــول بتجربة ألطف وأعذب من الوصال الجسمانى ، لأن الله روح محض فلا يمكن للانسان أن يتصل به الا عن طريق التخيل •

---

(١) ابن عربى حياته ومذهبه ص ٢٥٢

الفصل السابع

مملكة غرناطة ونهاية الأندلس

مملكة غرناطة

أو دولة بنى الأحمر

كانت مملكة غرناطة البقية الباقية من ملك العرب فى أسبانيا ، بعد أن فقد العرب أملاكهم فى أسبانيا ، ودالت دولتهم ، واستولى الأسبان على بلدانهم ، البلدة تاو الأخرى ، وفيما بين ١٢٣٨ م (٦٣٦ هـ) و ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) فتح فرديناند ملك قشتالة وجايم الأول — ملك أرغون — مدن بلنسيه وقرطبة واشبيلية ومرسيه ، ولم يبق للعرب سوى غرناطة ، وقدر للعرب أن يستمروا فى غرناطة قرنين ونصف قرن •

وكان للعرب فى غرناطة جيش قوى ، واجتمع بهذه البقعة الحصينة المسلمون الذين فروا من المدن الأخرى التى استولى عليها النصارى ، وتجمعوا فى غرناطة ، وتحصنوا بهذه البلاد التى يحيط بها العدو من كل جانب ، وكانت غرناطة تؤدى اتاوة سنوية لملك قشتالة حتى تؤجل مصيرها المحتوم قدر استطاعتها •

أسس دولة بنى نصر فى غرناطة ابن الأحمر — وهو عربى الأصل لشقرة فيه ، سمى بهذا الاسم ، وكان قوى الشكيمة شجاعا ، غير أنه لم يستطع مقاومة فردناند ، فدان له بالولاء وأدى له جزية سنوية ، واتبع هذه السياسة مع أبنة الفونسو ومضت فترة من الوقت ، تـرك فيها النصارى هذه المملكة الاسلامية وشأنها ، وانصرفوا الى توطيد ملكهم ، وابعاد الدخلاء عن بلادهم •

ازدهرت العلوم والفنون فى غرناطة فى فترة الهدوء هذه وذاعت شهرة مهندسيها وبنائيها فى انحاء أوربا ، وهم الذين شيدوا الحمراء (نسبة الى لون التربة التى أنشئت عليهـا) وأنشىء قصر الحمراء فوق أرض مرتفعة تحيط به قمم جبال عالية صعبة المنحدر ، وحصن القصر

بأسوار غطيت بالمرمر ، ونسيدت عند كل مسـافه حصـون تشرف عليه • وزينوا حيطانها بالزخرف الذهبى البديع ، وزينوها بالأشكال المصبوبة ذات الهندسة العربية الفائقة ، وتحيط بها البساتين والحدائق والجداول مما يبعث فى انفس البهجة والمتعة ، وفى حدائقها أشجار الكروم والبرتقال •

وكان من العجيب أن يعيش العرب فى غرناطة قرنين من الزمان أو أكثر ، والعدو يحيط بهم من كل جانب ، ولكنهم شعروا بقرب زوال دولتهم فى الربع الثالث من القرن الخامس عشر وازدادت قوة النصارى الاسبان الاتحاد بين مملكتى قشتاله وأرغون بتزويج فرديناند من ايزابيلا وكان هذا الاتحاد نذير الخطر على بقاء المسلمين فى آخر معاقلهم بالأندلس ، وكان يلى حكم غرناطة فى هذا الحين مولاى على أبو الحسن ، وكان شديد البأس ، قوى الشكيمة ، وعقد العزم على محاربتهما مهما كانت التضحيات، ولم يأبه بما بلغاه من قوة ، ورفض دفع الأتاوة ، لفرديناند ، وهى التى اعتاد أسلافه أداءها ، ورد فى كبرياء على رسـالة فرديناند : ان دار الضرب لا تطبع نقودا ، ولكنها تطبع سيوفا ، وهـذا الرد اشارة الى استعداده وتصميمه لحرب الأسبان • وشن غارة على المسيحيين فى قلعة الصخرة فى ليله شديدة البرودة وقد فزع أهلها من هول الغارة ، وساقهم جميعا الى غرناطة كما يساق العبيد ، وأبقى بالمدينة والقلعة حراسا أشداء، ودخل غرناطة مزهوا بنصره ومحملا بالأسلاب والغنائم ، ودخل الأسرى من الرجال والنساء والأطفال المدينة كما يدخلها قطيع البقر • ولكن هذا الأمير بعمله هذا عجل بمصير بلاده المؤلم ، فكان لا بـد للنصارى من الانتقام ، وفعلا استولى مركيز قادس على حصن الحمه عنوة، وبسبب هذا الاستيلاء تمكن النصارى من وضع حامية قوية فى قلب بلاد المسلمين ، وعلى مسافة قصيرة من غرناطة نفسها ، وحاول أبو الحسن عبثا استرداد هذا الحصن • وكان هذا الحصن نذير الخطر وبداية النهاية لغرناطة • وقال بعض المعاصرين ان مفتاح غرناطة فى أيدى الكفار • ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الحصن شوكة فى جبين ملوك العرب •

وتبادل الفريقان العرب والاسبان شن الغارات والأعمال التخريبية

فى أراضيهم ، ولم يكن من نتيجتها سوى الدمار وتوقف النشاط الاقتصادى • وفى النهاية أعد النصارى جيشا كبيرا بزعامة مركيز قادس لمهاجمة غرناطة ، ولكن الزغل قائد العرب مزق جيشه كل ممزق ، وفر النصارى لا يلوون على دار وفى غضون ذلك اغتصب عبد الله ملك غرناطه من أبيه ، وشن غارة فاشله على النصارى ، وعادت فلول جيشه مهزومه الى غرناطة ففزع أهلها ، ودب فى نفوسهم اليأس ، وقبض على أبى عبدالله فى هذه الموقعة ، وسيق أسيرا الى قرطبة ، وعاد مولاى أبو الحسن الى ملكه ، ولكن دب فيه الضعف بسبب شيخوخته •

سقوط غرناطة :

كان أبو عبد الله مترددا شؤم الطالع ، وقد استغل النصارى ضعفه فأحسن فرديناند استقباله ، ودارت مفاوضات بين الرجلين حول خلع أبيه ، وفعلا أطلق فرديناند سراح أبى عبد الله ، وعاد الى غرناطة لانتزاع الملك من أبيه ، وتيسير استيلاء النصارى على بلاده ، وتحصن أبو عبدالله بحصن القصبة ، واتخذه قاعدة لشن الهجمات على أبيه ، وكان لهذا الموقف السيء أثره فى سقوط غرناطة ، الابن يحارب أباه لصالح العدو، وأصبح لغرناطة سلطانان ، أحدهما أبو عبد الله ، المنكود الحظ فى ميدانى السياسة والحروب ، والبغيض الى العرب لأنه ألعوبة فى أيدى أعدائهم ، والثانى أبو الحسن ، أو هو على الأصح أخوه الزغل ، لأن السلطان قضى بقية أيامه فى حزن بسبب موقف أبنه الانهزامى • وفقد بصره ثم مات •

وكان الزغل — آخر ملوك غرناطة الأقوياء — وقضى فترة من حكمه يحارب ابن أخيه أبا عبد الله ، وهكذا انقسم البيت الحاكم على نفسه وكان الأمراء يحاربون بعضهم بعضا ، ويستعينون فى خصوماتهم بالعدو ، وقصرت فترة حكم السلاطين ، وكان أهل غرناطة يبقون على السلطان الذى يحارب ، ويعود محملا بالأسلاب والغنائم ، أما السلطان الذى ينهزم يعزلوه • وانتهز النصارى فرصة ضعف غرناطة ، وضعف سلاطينها، وما زالوا يشنون عليها الغارات وتم استيلاء فرديناند ورجاله على القسم

الغربى من المملكة ، ونقصت أطـراف غرناطة قليلا قليلا ، وسـخط الغرناطيون على الزغل لأنهم لم يتحملوا كل هذه الهزائم ، ودعوا أبا عبدالله مرة ثانيـة الى مدينتهم فلم يستطع النبات وحده أمام عمه الزغـل ، فاستعان عليه بالمسيحيين ودخل غرناطه ، وحكمها ، وحاول الزغل صـد المسيحيين عن مالقه ، وكان البارود قد استخدم فى الحروب فى ذلك العصر ، وواصل النصارى شن الهجمات على قلاع مالقه الحصينة ، اجتمع الفرسان الاسبان حول مالقه وحضرت الملكة ايزابيلا بنفسـها ، فأثار حضورها حماس الفرسان والجنـود •

وبعد حصار طويل ، قاس فيه أهل مالقه الجوع والبؤس والحرمان ، حتى استسلمت مالقه ، وقد أذلهم الأسبان ، وطالبوهم بأن يفتـدى كل واحد نفسه بفدية كبيرة ، والا وقع فى الأسر ، وأمهلوهم ثمانية أشهر ، وأرسل الاسبان أهـل مالقه الى اشبيلية لخدمة الاسـبان فيها ، حتى انقضت الثمانية أشهر ، ومن لم يسـتطع وقع فى الأسر • وبذلك أصبح القسم الغربى من غرناطة فى قبضة النصارى •

بقى الزغل يسيطر على بعض الأراضى والحصون ، ويواصل فى الوقت نفسه الجهاد ضد الأسبان ، ويشن الغارات على بلادهم ، ولكن فرديناند استولى بعد حصار طويل وخسائر فادحة على حصونه ، وسقطت بلاد الزغل فى يد الأعداء ، وقبض عليه فرديناند ، فأقطعه أرضا ، ولكنه لم يبق طويلا فى هذه البلاد التى ذهب فيها مجده ، وولى ساطانه فباع أرضه ، واجتاز البحر الى افريقية ، وهناك قبض عليه سلطان فاس ، فعذبه أشد عذاب ، وسمل عينيه ، وقضى بقية أيامه فى بؤس وشقاء • ولم يبق من ملك المسلمين سوى غرناطة نفسها ، واستراح أبو عبد الله من نهاية الزغل ، ولكن فاته أن فرديناند يتخذه أداة ، وأنه سيلقى نفس المصير ، فلا بقاء لخـائن •

واستاء أهالى غرناطة من موقف أبى عبد الله ، ومن خيانته لوطنه وكان يسمع سبه بأذنه ، وكان سعيدا بزوال ملك عمه الزغل ، وبصداقته

لفرديناند • ولم يلبث أن تبين له أن فرديناند كان يستغله فقط للاستيلاء على ما تبقى من مملكة غرناطة ، فأرسل اليه يدعوه الى التسليم بالشروط التى حددها ، وعبثا حاول أبو عبد الله ارجاء هذا الأمر ، لذلك أعلن ابو عبد الله الجهاد ، وشن غارات على أراضى النصــارى ، وأحرز بعض الانتصارات ، ولكن كل هذه المحاولات كانت يائسة ، فلم يعد هناك مفر من الاستسلام ، وفعلا خرج فرديناند وايزابيلا سنة ١٤٩١ م (٨٩٦ هـ) للحرب الصليبية التى اعتاداها كل عام ، وعزما ألا يعودا الا وغرناطة فى قبضتيهما ، وكان جيش الملك يتكون من أربعين ألفا من المشاة وعشره آلاف من الفرسان • ورأى أهل غرناطة أن الموت فى ســاحة القتال أفضل من الاستسلام للعدو الذى يريد أن يستولى على أراضيهم ويزيلهم ، وقام فرسان العرب بأروع ضروب الشجاعة والاقدام ، واحرق الملك بساتين ومزارع العرب ، ولما لم يجد العرب فائدة منمقاومة العدو، أغلقوا أبواب مدينتهم ، وقاوم أهل المدينة المحاصرين الجوع ثمانين يوما حتى أهلكهم ، وتوسلوا الى السلطان أبى عبد الله بطلب الصلح وفى ٢٥ نوفمبر ١٤٩١ ، وقعت شروط التسليم ، وبمقتضاه تسلم المدينة الملكين بعد وقت معين ، ودخل الملك المدينة بجيوشه والعرب فى حزن على ما أصابهم ، ونصبب علم قشتالة وأراغون فوق قمة برج المدينة ، وسلم أبو عبد الله المدينه الى فرديناند وولى منطلقا الى الجبال وعاد الى افريقية هو وقومه وقضى بها ما تبقى له من العمر ، واتبع سقوط غرناطة حملة اضطهاد العرب ، لذلك ثار العرب ، وحملوا السلاح ، واستصدر فرديناند مرسوما يخير العرب بين التنصر أو مغادرة البلاد ، وأعقب هذا غلق المساجد واحراق المخطوطات والكتب النفيسة التى هى عصارة الفكر العربى عدة سنين ، وعذب المسلمون أشد العذاب • ويقول لين بول : اننا نلمس فضل العرب وعظم آثار مجدهم ، حينما نرى بأسبانيا الأراضى القاحلة التى كانت فى أيام المسلمين جنات تجرى من تحتها الأنهار ، تزدهر بما فيها من الكروم والزيتون وسنابل القمح الذهبية ، وحينما تذكر تلك البلاد التى كانت فى عصور العرب تموج بالعلم والعلماء ، وحينما نشعر بالركود العام بعد الرفعة والازدهـــار •

وتلك الأيام نداولها بين الناس .

* * * * * * * * *

بلغت الحركة الفكرية والأدبية ذروة ازدهارها فى مملكة غرناطة فى القرن الثامن الهجرى ، وفيه ظهرت طائفة من كبار المفكرين والكتاب والشعراء ، الذين أنتجوا انتاجا علميا بارزا فى مجال العلم والأدب وكان ابن الخطيب أعظم شخصية ظهرت فى ميدان الأدب والفكر والسياسة والشعر والأدب ، ونبغ فى مجالات مختلفة فى الطب والفلسفة والشعر ، والدبلوماسية .

ينسب ابن الخطيب الى قبيلة يمنية ، وفدت الى الأندلس مع الفتح وولد فى مدينة لوشه بالأندلس سنة ٧١٣ هـ — ١٣١٣ م ، ونشأ فى بيت علم وفضل وجاه ، ونشأ ابن الخطيب فى غرناطة وتعلم بها ، وتلقى بها دروسه ، وكانت غرناطة أعظم مركز للدراسات الاسلامية فى المغرب الاسلامى ، ويجتمع بها حشد هائل من العلماء والأدباء ودرس لسان الدين الخطيب اللغة والشريعة والأدب فى غرناطة ، وكان أبوه يشغل بعض المناصب الهامة فى ديوان السلطان ، وبعد وفاته ، استدعى للخدمة مكان أبيه فى ديوان الانشاء واستفاد من وظيفته ، وتعلم فن الكتابة ، ولم يلبث أن شغل منصب رئيس ديوان الانشاء بعد وفاة صاحبه سنة ٧٤٩ هـ — ١٣٤٩ م ومنحه السلطان أبو الحجاج يوسف رتبة الوزارة وألقابها ، وقد نال ثقة السلطان حتى جعله كاتم سره ولسانه ، فى المكاتبات السلطانية وصدرت منه خلال تلك الفترة كتابات رائعة ، ولما توفى السلطان أبو الحجاج يوسف ، خلفه السلطان أبو عبد الله محمد المغنى بالله واستمر الحاجب رضوان فى رياسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب فى منصبه معاونا له . ونال ابن الخطيب ثقة السلطان الغنى بالله ، وأنعم عليه بلقب ذى الوزارتين ، لجمعه بين الكتابة والوزارة ، ولكن ابن الخطيب لم يلبث أن تبدلت أحواله ، وتعرض لمحنة ، ذلك أنه فى سنة ٧٦٠ هـ — ١٣٥٩ م ، فقد الغنى بالله ملكه فى انقلاب دبره ضده أخوه الأمير اسماعيل ، وارتاب السلطان الجديد فى ولاء ابن الخطيب ، وقبض عليه بتحريض من خصومه، وأمر بمصادرة أمواله وممتلكاته ، وبذلك فقد ابن الخطيب منصبه ونفوذه

وأمواله • على أن محنة ابن الخطيب لم تستمر طويلا • ولجأ ابن الخطيب فى محنته الى بلاد المغرب ، وعاش ابن الخطيب فى كنف وفى رعاية سلطان المغرب أبى سالم ، والتقى بابن خلدون ، وكانت تجمع بين الرجلين على الرغم من فارق السن مشابهات عديدة ، أدبية ومادية ، وكان ابن الخطيب فى طور الشيخوخة ، وابن خلدون فى طور الشباب ، وكان كل منهما أستاذ عصره ورائدا فى الفكر والكتابة ، وكان لكل منهما تأثير واضح فى حوادث وسياسة العصر ، وكان كلاهما وزيرا مستبدا ومستشارا لأمراء عصره ، ومحرضا لهم أو عليهم ، وكان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب ما يشغله ابن الخطيب فى الأندلس وجمعت بين الرجلين أواصر الصداقة فى البداية ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ، وكان كل منهما رغم ذلك يحترم صاحبه ويجله ، وترجم كل منهما للآخر ، وتبادلا طائفـة من الرسائل الشخصية والسياسية ، تعتبر من أبدع الكتابات السياسية والادبية فى ذلك العصر • وأذن ملك المغرب لابن الخطيب فى التجول فى أقاليم دولته ، وأمر عماله بحسن استقباله ، واكرام وفادته ، وقد وصف لنا ابن الخطيب هذه الرحلة فى كتابه « نفاضة الجراب فى علالة الأغتراب » وفقدت بعض فصـول هذا الكتـاب •

وتعتبر دولة بنى مرين من أعظم الدول المغربية اجلالا للعلم وأهله • ومن أبرز مآثرهم حماية العلوم والآداب ، واجلال العلماء والأدبـاء وحسن رعايتهم ، ومن أبرز علماء وشيوخ هذه الدولة ، ابن خلدون وابن الخطيب ، وهما أكبر مفكرى القرن الثامن الهجرى •

وكان ابن الخطيب فى منفاه فى المغرب يتمتع بحياة ناعمة مترفه وكان وقت اقامته فى سلا يعيش عيشة الأمراء فى قصوره ودياره التى شيدها ، وكان السلطان يغدق عليه بصفة منتظمة وقد سعد ابن الخطيب باسترداد السلطان أبى عبد الله محمد ملكه وبعث اليه يهنئه بقصيدة جاء فيها :

الحـــق يعلـــو والأباطـــل تســـفل
والله عـــن أحـــكامه لا يســـئل

وإذا استحالت حالة وتبدلت
فالله عز وجل لا يتبدل

واليسر بعد العسر موعود به
والصبر بالفرج القريب موكل

وشعر ابن الخطيب بعد عودة مليكه الى عرشه فى غرناطة ، ضرورة عودته الى بلاد الأندلس ، خصوصا وبلاد المغرب قد سادتها الفتن والاضطرابات • وشجعه على ذلك أن السلطان محمد الغنى بالله كتب الى وزيره المنفى ابن الخطيب رسالة يطلب منه العودة الى غرناطة • ونفذ ابن الخطيب أمر سيده ، وعاد الى غرناطة سنة ٧٦٣ هـ ، وأكرم الملك وفادته ، ونظم له استقبالا رائعا ، ولقبه ذى الوزارتين ، ومعنى ذلك اضطلاعه بمنصبى القيادة والوزارة أى الرئاسة العليا عموما ، ويغدو فى مرتبة الحاجب • وبمقتضى ذلك أصبح ابن الخطيب ينوب عن السلطان أثناء الغزو فى حكم البلاد ، وأن يتولى قيادة الحملات العسكرية أحيانا • واستطاع ابن الخطيب التخلص من منافسه عثمان بن أبى يحيى ، الذى كان يلقب بشيخ الغزاه ، لأنه عاون السلطان فى استرداد ملكه • وما زال ابن الخطيب يوغر صدر السلطان على منافسه حتى نكل به وأسرته •

وفى غضون ذلك وفد على الأندلس ، ابن خلدون ، بعد تضاءل نفوذه فى بلاط فاس ، فغادر المغرب الى الأندلس سنة ٧٦٤ هـ ، ولجأ الى غرناطة، وكان ابن خلدون يقوم بخدمة السلطان الغنى بالله أثناء اقامته منفيا فى فاس ، لذلك كان ابن خلدون يتطلع الى نيل مكانة كبيرة فى غرناطة من السلطان الغنى بالله ، وقد أكرم السلطان ووزيره ابن الخطيب وفادة ابن خلدون واختاره الغنى بالله ليكون سفيره لدى ملك قشتالة ، ليتم معه الصلح بين غرناطة وقشتالة ، ونجح ابن خلدون فى مهمته وبالغ السلطان فى اكرامه ، وعاش المؤرخ فى غرناطة فى أمن ورعاية مع أسرته • ولكنه شعر بتغير السلطان وابن الخطيب عليه • ويبدو أن ابن الخطيب قد خشى على نفوذه فى الدولة من ابن خلدون ، لأنه يعرف قدره وبراعته

السياسية والعلمية ومكانته التى نالها فى الدولة ، وتقدير السلطان الكبير له فأوغر ابن الخطيب صدر السلطان على منافسه فى السلطة ، ابن خلدون باعراض السلطان عنه ، وفى نفس الوقت تلقى دعوات من حكام المغرب بالقدوم، فقرر العودة الى المغرب ، وأذن له السلطان ، وغمره بصلاته ، وودعه وشيعه معززا مكرما ، وعاد ابن خلدون الى بجاية •

أما ابن الخطيب فقد ضاق ذرعا بالحياة السياسية والعمل السياسى لذلك تطلع الى العودة الى حياة العزلة فى سلا ببلاد المغرب •

وكان ابن الخطيب — على حسب قوله — هدفا لحملات خصومه ، ولم يكن يتمتع بحب الكثير من الناس ، لذلك سئم الحياة السلطانية والمسئوليات السياسية ، ومظاهر الترف والنعيم ، ورغب فى الزهد والعزلة ، وطلب من السلطان أن يأذن له فى الحج وكان يفكر فى مغادرة الأندلس نهائيا • وكان استبداد ابن الخطيب بالنفوذ والسلطان فى المملكة الأندلسية ، سببا فى نفور الناس منه ، وسعى بعض رجال الدولة لدى السلطان بالنيل منه والتخلص منه وفعلا نجحت مساعيهم ، وتغير السلطان منه ، وساء وضع ابن الخطيب سنة ٧٧٢هـ ، وقد مهد ابن الخطيب سر المغادرة الأندلس ، والذهاب الى المغرب ، فاتصل باسلطان المرينى عبد العزيز ، فأبدى هذا الأخير ترحيبا بمقدمه وكانت العلاقات بين مملكتى غرناطة وبنى مرين فى فاس قد ساءت •

تحين ابن الخطيب الفرصة ، واستأذن السلطان الغنى بالله بالرحيل الى المغرب لتفقد الثغور المغربية ، فأذن له وخرج من غرناطة مع ولده على ، وكان من خاصة السطان والمقربين اليه ، وفى قلة من الفرسان ، وسار فى صحبه نحو الجنوب ، فلما وصل الى جبل طارق — وكانت يومئذ من أملاك بنى مرين ، دخلها وأبرز الى عاملها المرينى عهد السلطان عبد العزيز ، فأكرم وفادته ، ونقله الى سبته وهناك استقبل بحفاوة بالغة سنة ٧٧٢هـ ، وأرسل من هناك يعتذر الى مليكه الغنى بالله ، ويطلب منه اعفاءه من مهام منصبه حتى يخلد الى الراحة •

لم يلبث ابن الخطيب أن غادر سبته الى تلمسان ، فأكرم السلطان عبد العزيز وفادته ، واستقر ابن الخطيب فى تلمسان ثم انتقل الى فاس ، واستكثر من شراء الضياع ، وتأنق فى بناء المساكن ، واغتراس الجنات ، وكان الملك الطفل محمد السعيد قد خلف أباه عبد العزيز فى الملك ، وقد استاء رجال الدولة من هـذا العهـد الجديد . ووضع ابن الخطيب فى ذلك كتابا سماه « أعمـال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتـلام من ملوك الاسلام » وفيه أثبت أن العالم الاسلامى قد شهد ملوكا صغارا مثل هذا الملك ، وأن ذلك لا يخـالف الدين فى شىء . ويبـدأ كتابه بسرد تاريخ الدولة المرينيـة منـذ السلطان عبـد العزيز ، وهو آخر كتاب وضـعه ابن الخطيب قبل مصرعه ، وفيه يروى كيفية مغادرته الأندلس ، والتجائه الى السلطان عبد العزيز ، ويحـاول أن يبرر لنفســه تصرفـه ، ويثبت حسن نواياه .

وكان ابن الخطيب يسعى الى تحسين العـلاقات بينـه وبين أمراء المغرب ، واستقر أخيرا فى فاس ، بعيـدا عن الأهل والوطن وكان يحتل فى بلاط بنى مرين مكانة لا تقل عن مكانته فى الأندلس .

قضى ابن الخطيب شـيخوخته فى سـلام وهـدوء ، ولكن فرار ابن الخطيب من الأندلس ، لم يهدىء من ثورة خصـومه ، بل استغلوا هذا الحدث للنيل منـه ، ولوثوا سمعته فى الأندلس والمغرب ، واتهموه بالزندقـة والكفر بالاســلام حتى يتخلصوا منه بسهولة ويسر ، وأولوا بعض كتـاباته بحيث تتمشى مع مزاعمهم واتهـــاماتهم ، وخصوصـا ما جاء فى كتابه « روضــة التعـريف بالحب الشريف » وقالوا أن بعض عبارات هذا الكتاب تتضمن طعنـا فى النبى ، والقول بالحلول ، وسلوك مذاهب الفلاسفة الملحدين . ولم يقف خصـوم ابن الخطيب عند هـذا الحد من الاتهام بل تجاوزه الى مؤلفـات ابن الخطيب الأخرى ، فقـد زعموا أن مؤلفات ابن الخطيب التاريخية ، ولا سيما كتاب « الاحاطـة فى أخبـار غرناطة » وما اشتملت عليه من تراجم الأحيـاء المعاصرين ، والأموات الأقربين ، وما يتخللهـا من الطعن والقـذف ، فى حق الكثير

منهم انما هى من قبيل الغيبة المحرمة ، وكان تلميذ ابن الخطيب وخلفه فى الوزارة ، أبو عبد الله بن زمرك ، أكبر مروج لهذه المزاعم ، وتولى صياغة الاتهام عدو ابن الخطيب اللدود ، القاضى أبن الحسن النباهى، وأفتى بوجوب حرق كتبه ، التى تتناول العقائد والأخلاق ، وأحرقت هذه الكتب فى غرناطة فى منتصف سنة ٧٧٣ هـ فى جمع من الفقهاء والعلماء ، ووجه القاضى أبو الحسن فى نفس الوقت الى ابن الخطيب فى المغرب ، رسالة شديدة يوجه اليه تهما شخصية وشرعية ، وفى رسالته يعدد عيوب ابن الخطيب ، وما يسند اليه من تهم الالحاد والزندقة • ويوجه اليه القاضى أبو الحسن فى غرناطة بعد احراق كتبه تهمة الالحاد والزندقة وصادق السلطان الغنى بالله على حكمه ، وقرر بلاط غرناطة أن يبذل مساعيه لدى سلطان فاس لتنفيذ حكم الشرع فى ابن الخطيب • فرفض السلطان المغربى هذه التهم عن ابن الخطيب ومما زاد وضع ابن الخطيب سوءا ، أن ابن الخطيب حرض سلطان فاس المرينى على غزو الأندلس ، لذلك زاد حنق السلطان الغنى بالله عليه •

وأصبح واضحا الآن مصير ابن الخطيب ، ولما اشتدت الحال ، وانتظر كارثة قد تقع به ، وكان الغنى بالله قد ساعد السلطان على الوصول الى ملك فاس مقابل تسليمه ابن الخطيب ولم تمض أيام قلائل على دخول السلطان الجديد فاس ، حتى حرضه وزيره سليمان ابن داود على اعتقال ابن الخطيب ، فقبض عليه ، وزجه فى السجن ، وأرسل الى الغنى بالله الخبر ، فبعث الغنى بالله وزيره أبا عبيد بن زمرك — تلميذ ابن الخطيب — ليقوم فى الظاهر بتهنئة السلطان الجديد ، وليعمل فى الواقع على استلام ابن الخطيب واعادته الى الأندلس مقبوضا عليه لمحاكمته بها •

وعبثا حاول ابن الخطيب الاستغاثة بأصدقائه ، ولكن السلطان أحمد قرر محاكمته فى فاس بالتهم التى وجهت اليه فى غرناطة ، وأهمها الالحاد والزندقة ، وعقدت المحاكمة فعلا ، وزج فى السجن ولكن

الوزير ابن زمرك حرض بعض خدمه بقتل ابن الخطيب بالسجن ،وأحرقت جثته وذلك فى سنه ٧٧٦ هـ •

كان ابن الخطيب من أعظم كتاب عصره ، كان شاعرا فذا وأديبا كبيرا ، ويكتب الشعر فى موضوعات متنوعة تتناسب حياته المليئة بالأحداث والمحن • ومن أبرز كتاباته فى النثر المراسيم السلطانية ، التى أصدرها ايام توليه الوزارة ومنها رسائل الى ملوك أسبانيا النصارى وسلاطين المغرب وسلاطين مصر ، وجمع ابن الخطيب عددا كبيرا من هذه الرسائل فى كتابه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » منها رسائل يصف فيها بعض الوقائع الحربية ورسائل يحث سلاطين المغرب ومصر على التضامن لمواجهه أعداء الاسلام ، وتعتبر رسائل ابن الخطيب السلطانية من اروع نماذج النثر الدبلوماسى فى الأندلس والمغرب الاسلامى بصفه عامة • فى كتابه « الاحاطة » نثر بعض الرسائل الخاصة التى أرسلها الى أصدقائه وزملائه ، وتتجلى فيها دقة العبارة وروعة الأسلوب •

وابن الخطيب مؤرخ بالدرجة الأولى ، ومؤرخ عصره بنوع خاص ، وله مؤلفات عديدة تتصل بتاريخ عصره ، ولا سيما فيما يتعلق بدولة بنى الأحمر ، الذى كان ابن الخطيب من كبار رجالها • وتعتبر هذه المؤلفات أهم مصادر هذه الفترة ويؤخذ عليه هجاؤه لأعدائه بأسلوب متطرف ، ويبالغ فى المدح والهجاء ، ولكنه بارع فى تحليله للشخصيات التاريخية والحكم عليها •

وتميز شعر ابن الخطيب بالتنوع فى المدائح النبوية ومدح السلطان ، والزجل والتواشيح ، وكتب ابن الخطيب الكثير من الكتب فى الطب ، وكان طبيبا وفيلسوفا يكتب فى النفس والمشاعر الانسانية ، والواقع أن ابن الخطيب كان قطب الشعر والنثر فى عصره ، ومحور النشاط الأدبى فى عصره • ويعتبر أعظم كاتب كتب عن تاريخ وجغرافية غرناطة وأوصاف حياتها الاجتماعية وترك تراثا فكريا كبيرا فى النثر والشعر والتاريخ

والجغرافيا والرحلات والبـلاغة والشريعـة والعلوم والأخلاق والدين والنبات والطب والبيطرة والموسيقى والفن الحربى والسياسة ، ويظهر فى هذه المؤلفات العمق وأصالة التفكير والابتكار .

ويتميز منهج ابن الخطيب فى الكتابة التاريخية بأنه لا يقتصر على التاريخ السياسى ، انما يكتب عن حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنظم وجغرافية الاقليم ، وبموت ابن الخطيب انحدرت الحركه الفكرية فى الأندلس . وقد نبغ فى مختلف الدراسات حتى أصبح أعظم مؤرخ وأكبر كاتب وأفضل شاعر فى عصره . ويمثل التاريخ أعظم وأجل وأكثر مؤلفاته ومن أهم مؤلفات ابن الخطيب التاريخية « الاحاطة فى أخبار غرناطة » وكتاب « اللمحة البدريه فى تاريخ الدولة النصرية » و « طرفة العصر فى تاريخ دولة بنى نصر » و « رقم الحلل فى نظـم الدول » و « أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام » و « الكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة » و « ونفاضه الجواب فى علالة الاغتراب » وكتاب « ريحانه الكتاب » ويتضمن رسائل تاريخية ودبلوماسية .

ومعظم هذه الكتب تتضمن تاريخ العصر الذى عاشه وترجمه للأعلام من الشعراء والكتاب وقادة الفكر المعاصرين أو القريبين من عصره ، ولكن قلة من هذه الكتب مثل « الاحاطة » وأعمال الأعـلام » تتضمن تاريخا لعصور سابقة .

وتتضمن بعض كتب ابن الخطيب معلومات جغرافية هامـة ، مثل حديثه فى « الاحاطة » عن جغرافيـة غرناطة ، وله رسالتـان فى الأدب الجغرافى الأولى « معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والآثار » ويصف فيها على لسان شيخ رحـالة بعض مشاهداته فى الأندلس . والثانية رسالة عنوانها « مفاخرة بين مالقه وسلا » وهى عبارة عن مقامة مسجعة يقارن فيها ابن الخطيب بين الثغرين الأندلسى والمغربى .

وترك ابن الخطيب تراثا فكريا كبيرا فى مختلف فروع العلم ، وان كان الكثير من كتبه قد أحرق فى غرناطة ، حينما وجهت اليه تهمة الالحاد والزندقة ، والواقع أنه وضع الكثير من كتبه أثناء منفاه فى المغرب حيث كان لديه متسع من الوقت .

ومن أهم كتبه التاريخيــة « الاحاطة فى أخبــار غرناطة » وكتاب « التاج المحلى فى مساجلة انقدح المطى » وهو يحتوى على مختصر لتاريخ مملكة غرناطة منذ انشائها على أيدى بنى نصر وتراجم أعيانها فى القرن الثامن الهجــرى ، ويترجم ابن الخطيب لنفسه ولوالده ، ولــه كتاب « الكتيبة الكامنة فيمن لقيته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » وكتاب « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » وهو مختصر تاريخ بنى نصر ملوك غرناطة حتى سنة ٧٦٥ هـ ، وكتاب « رقم الحلل فى نظم الدول » وهو تاريخ منظوم للدول الاسلامية وكتاب «نفاضة الجواب فى علاقة الاغتراب» وقد أشرنا اليه فيما سبق . وكتاب أعمال الأعلام وهذا الكتاب هو آخر ما ألفه ابن الخطيب قبل موته ، وكتاب « طرفة العصر فى تاريخ بنى نصر » وهو تاريخ آخر للدولة النصرية . هذه أهم مؤلفات ابن الخطيب التاريخية.

ومن أهم الكتب الأدبية لابن الخطيب «ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب» وكتاب « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » وكتاب « معيار الاختيار فى ذكر المشاهد والديار » وكتاب « مفاضلة بين مالقه وسلا » وكتاب «خطرة الصيف فى رحلة الشتاء والصيف » يصف فيه رحلة قام بهــا السلطان يوسف أبو الحجاج فى الأندلس وزار فيها عددا من مدن الأندلس . وله الكثير من الرسائل الأدبية تتجلى فيها أفكاره الفلسفية وآراؤه فى التصوف وفى السياسة ومناقشات بين ابن الخطيب وأهل الطريقة وفى الحث على الجهاد ، وله رسائل فى الموسيقى والقضاء والحرب وأهل المهن والحرف وطوائف الشعب . ورسائل فى الرد على بعض خصومه .

ولابن الخطيب دواوين فى الشعر مثل ديــوان « الصيب والجهام والماضى والكهام » و « الحلل المرقومة فى اللمع المنظومة » وهى أرجوزة من ألف بيت فى أصول الفقه ، و « السحر والشعر » وهو مجموعة مختارة من شعره . و « جيش التواشيح » وجمع فيه أعظم وأجمــل تواشيح عصره . وله مؤلفات تضمنت أشعار كبار الشــعراء ، وكذلك صنف فى العـــــروض .

لابن الخطيب مؤلفات فى الطب ، منها كتاب « عمل من طب لمن حب » ويتناول هذا الكتاب مختلف الأمراض ، وأسباب كل مرض وأعراضه وعلاجه ، ونظام الغذاء الذى يناسبه ويصف مختلف أعضاء الجسم ، وطرق العناية بها •

ولابن الخطيب أرجوزة فى الطب ، تقع فى ١٦٠٠ بيت ، وذكر للأمراض المختلفة وطرق علاجها وأسبابها ، وله كتاب « وجز فى الأغذية » ويقع فى نحو ١٢٠٠ بيت ، ويذكر فى الكتاب الأغذية مرتبة حسب حروف المعجم وطباعها ومنافعها ومضارها واصلاح خللها ، وله كتاب « الوصول لحفظ الصحة فى الفصول » كتاب فى علاج السموم ، بالاضافة الى رسائل عديدة فى الطب •

من هنا نرى أن ابن الخطيب كان دائرة معارف ، وعالما ومفكرا موسوعيا ، صنف فى مختلف أنواع المعرفة ، كتب فى الأدب والشعر والفقه والتاريخ والتراجم والفلسفة والطب ، وترجم لحياته فى خاتمة كتاب الاحاطة ، وهذه المؤلفات العديدة وهذا الانتاج العلمى الغزير يتجلى فيه عمق التفكير ، وقوة البيان وسعة الاطلاع ، وكتب التاريخ لأنه عاصر الأحداث أو كان قريبا منها • ويعتبر ابن الخطيب خلاصة ما وصل اليه الفكر الأندلسى من قوة وازدهار ، وفى نفس الوقت تضاءل الفكر الاسلامى فى الاندلس بعد ابن الخطيب حتى انكمش نهائيا •

* * *

يقول صاحب كتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر : فلما تمت هذه العقود والمواثيق قرئت على أهل غرناطة سمعوا مافيها واطمأنوا اليها وانقادوا لطاعته كتبوا بيعتهم وأرسلوها الى فرديناند صاحب قشتاله وسمحوا له فى الدخول الى مدينة الحمراء والى غرناطة فعند ذلك أمر أمير غرناطة محمد بن على باخلاء مدينة الحمراء فأخليت دورها وقصورها ومنازلها وأقاموا ينتظرون دخول النصارى لقبضها فلما كان اليوم الثانى لربيع الاول عام سبعة وتسعين وثمانمائة أقبل الملك فرديناند بجيوشه حتى

قرب من البلد وبعث جناحا من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء وأقام ببقية الجيوش خارج البلد لانه كان يخاف من الغدر وكان طلب من آهل البلد حين وقع بينهم الاتفاق على ما ذكر رهونا من أهل البلد ليطمئن بذلك فاعطوا خمسمائة رجل منهم وأقعدهم بمحلته فحينئذ قدم كما ذكرنا فلما أطمأن من آهل البلد ولم ير منهم غدرا سرح جنوده لدخول البلد والحمراء فدخل منهم خلق كثير وبقى هو خارج البلد وأشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعدة وترك فيها قائدا من قواده وأنصرف راجعا الى محلته وبقى حينئذ يختلف بالدقيق والفارغات وأنواع الطعام والعدة وما يحتاج اليه وقدم فى البلد قوادا وحكاما وبوابين وما يحتاج اليه اليه من الامر وصار المسلمون يختلفون الى المحلة للبيع والشراء والنصارى كذلك ولما سمع أهل البشرة أن أهل غرناطة دخلت تحت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم الى ملك النصارى ودخلوا فى ذمته ولم يبق للمسلمين موضع بالأندلس « فانا لله وأنا اليه راجعون » •

ثم أن الملك فرديناند سرح الناس الذين كانوا عنده مرتهنين ومؤمنين فى أموالهم وأنفسهم مكرمين واقبل فى جيوشه حين أطمأن فدخل مدينة الحمراء فى بعض خواصه وبقى الجند خارج البلد وبقى يتنزه فى الحمراء فى القصور والمنازل المشيدة الى آخر النهار ثم خرج بجنوده وصار الى محلته وأخذ فى بناء الحمراء وتشييدها واطمأن فى البلاد وسرح لهم الجواز وأتاهم بالمراكب الى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ودوره وشرع فى تحصينها واصلاح شأنها وفتح طرقها وهو مع ذلك يتردد الى الحمراء بالنهار ويرجع بالليل فلم يزل كذلك الى أن اطمأنت نفسه من غدر المسلمين فحينئذ دخل البلد ودار فيه نفر من قومه وحشمه فلما اطمأن فى البلاد سرح لهم بالجواز وأتاهم بالمراكب الى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن الغلة التى كانت فيه فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ومنهم

من اشتراه منه النصارى وكذلك جميع الحوائج والأمتعه . وأمرهم بالمسير الى الساحل بما معهم فيرفعهم النصارى فى البحر محترمين مكرمين مؤمنين .

وكان الملك فرديناند قد أظهر للمسلمين فى هذه المدة العناية والاحترام حتى كان النصارى يغيرون منهم ويقولون لهم أنتم الآن عندنا اعز وأكرم منا ، ووضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل حيلة منه وكيدا ليغرهم بذلك وليمنعهم عن الجواز ، فوقع الطمع الكثير من الناس وظنوا ان ذلك يدوم لهم فاشتروا أموالا رخيصة وأمتعه وعزموا على الجلوس مع النصارى .

ثم ان الملك فرديناند أمر الأمير محمد بن على بالانصراف من غرناطة الى قرية اندرشن قرى البشرة فارتحل الأمير محمد بعياله وحشمه وأمواله وأتباعه فنزل قرية اندرشن وأقام بها ينتظر مايؤمر به ، ثم أن الطاغية ظهر له أن ينصرف الأمير محمد الى العدوة فأمره بالجوار وبعث للمراكب تأتى لمرسى عذرة واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجوار فركب الأمير محمد ومن معه فى تلك المراكب فى عزة واحترام وكرامة من النصارى وساروا فى البحر حتى نزلوا مدينة مليلة من عدوة المغرب ثم ارتحل الى مدينة فاس حرسها الله وكان من قدر الله تعالى لما جاز الأمير محمد بن على وصار بمدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء وجوع وطاعون واشتد الأمر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الأمر ورجع بعض ناس من الذين جازوا الى الأندلس فاخبروا بتلك الشدة ففتر الناس عن الجواز عند ذلك وعزموا على الاقامة والدجن ولم يجوز النصارى أحدا بعد ذلك الا بالكراء والمغرم وعشر المال .

فلما رأى الملك فرديناند أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام فى الوطن أخذ فى نقض الشروط التى شرطوا عليه أول مرة ولم يزل ينقضها فصلا فصلا الى أن نقض جميعها وزالت حرمة

المسلمين وأدركهم الهوان والذلة واستطال عليهم النصارى وفرضت عليهم الفروضات وثقلت عليهم المغارم وقطع لهم الاذان من الصوامع وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة الى الارياض والقرى فخرجوا أذلة صاغرين ثم بعد ذلك دعاهم الى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا فى دينهم كرها وصارت الاندلس كلها نصرانية ولم يبق فيها من يقول « لا اله الا الله محمد رسول اللـــه » الا من يقولها فى قلبه وفى خفية من الناس ، وجعلت النواقيس فى صوامعها بعد الاذان فى مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحوق باخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل نارا ، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا ، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للاوثان ، يأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التى هى أم الخبائث والمنكرات ، فلا يقـــدرون على منعهم ، ولا على نهيهم ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، وعذب بأشد العذاب ، فيالها من فجعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها ، وظامة ما أكبرها ، عسى الله أن يجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا والله على كل شىء قدير •

وقد كان بعض أهل الاندلس امتنعوا من التنصر وأرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم كأهل قرية وتجن والبشرة وأندرش ويلفيق فهجم عليهم الملك فرديناند بجموعه وأحاط بهم من كل مكان حتى أخذهم عنوة بعد قتـــال شـــديد فقتل رجالهم وســـبى نســـاءهم وصبيانهم وأموالهم ، ونصرهم واستعبدهم ، الا أن ناسا فى غربية الاندلس امتنعوا من التنصر وانحازوا الى جبل منيع فاحتموا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعه وطمع فى الوصول اليهم كما فعل بغيرهم فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سعيه ورده على عقبـــه ونصرهم عليه فقتلوا من جنده خلقا كثيرا من رجال وفرسان وأجناد •

فلما رأى أنه لا يقدر عليهم طلب منهم أن يعطيهم الامان ويجوزهم

لعدوة المغرب مؤمنين فأنعموا له ذلك الا أنه لا يسرح لهم شيئا من أموالهم غير الثياب التى كانت عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا عليه، ولم يطمع أحد بعد ذلك أن يقوم بدعوة الاسلام ، وعـم الكفر جميع القرى والبلدان ، وانطفى من الاندلس الاســلام والايمان ، فعلى هذا فليبك الباكون وينتحب المنتحبون ، فانا لله وانا اليــه راجعون ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، لاراد لأمره ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما الى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

نهاية الاندلس

بعد أن سلم أبو عبد الله مدينة غرناطة لفرديناند ، ودعها وترك هذه المدينة بأبراجها الحمراء وبساتينها الخضراء وزرعها النضير ، وكل ما بها من جمال وعظمة ، بدأ عصر جديد من الحزن والاستبداد والبؤس للمسلمين فى الأندلس واتضح منذ اللحظة الأولى أن الأسبان لن يلتزموا بما عاهدوا المسلمين عليه - من اطلاق حرية العبادة لهم ، ومعاملتهم بالتسامح والعدل، وقدم الى غرناطة فى سنة ١٤٩٩ رسولا من قبل الملكة ، وأرغم فى يوم واحد ثلاثة آلاف من العرب على التنصر ، وفى زعمه انقاذ هؤلاء الملحدين وكانت الملكة ايزابيلا متعصبة ، واعتقدت أن التسامح مع المسلمين ، يبعدها عن الله ، لذلك أمرت باضطهاد العرب . ثار المسلمون ضد هذا التعصب ، وهاجموا المسلمين الذين ارتدوا خوفا وضعفا وتقربا الى السلطات الحاكمة . لذلك أصدرت الملكة مرسوما ، بأن يخير المسلمون بين التنصر أو مغادرة البلاد ، لأنه فى زعمها لامكان للملحدين فى ديارها ، وجاء فى هذا المرسوم ، أن أسلافهم كانوا مسيحيين ، وأن الكنيسة تعدهم وهم من سلالتهم مسيحيين منذ الولادة ، فيجب عليهم أن يظهروا دينهم الموروث ، وعلى أثر ذلك أمرت الملكة باغلاق المساجد ، واحراق المخطوطات والكتب النفيسة ، التى يتجلى فيها مدى ما بلغه الفكر العربى من رقى وتقدم ، واضطهد حكام غرناطة المسلمين . وساموهم سوء العذاب ، لارغامهم على التخلى عن دينهم ، فاستجاب لهذا الاضطهاد المستضعفون ، وارتدوا عن دينهم فتحولوا الى النصرانية ، حتى واصلوا حياتهم المعيشية فى ديارهم، وخرجوا من البلد فى بقاع الأرض فى مجاهل لا يدركون مصيرهم فيها . وبقى على دينهم جماعة من الشجعان ، وأعدوا العدة لمقاومة بطش الملكين الكاثوليكيين ، وواجهوا الاضطهاد فى شجاعة واقدام ، ورفضوا الظلم والضيم، وأعدوا العدة للتضحية بالغالى والنفيس فى سبيل الدين الحنيف، ولكن السلطات الحاكمة أمعنت فى اضطهاد المسلمين ، حتى هدمت مسجدا

على من فيه من الرجال والنساء والأطفال ، ممن لا مأوى لهم ، واضطر من أراد الفرار بدينه الى هجرة الوطن والدار ، واستقر بهم المقام فى بلاد المغرب، واشتغلوا بالزراعة والصناعة واضطر بعض المسلمين الى التظاهر بالنصرانية ، فكانوا يؤدون شعائرهم الدينيه سرا ، واذا عقد زواج أحدهم طبقا للطقوس المسيحية ، عاد سرا الى بيته ، وجمع أقاربه من المسلمين، وعقد الزواج طبقا للشريعة الاسلاميه ، وكرد فعل لما عاناه المسلمون من البطش والاضطهاد ، ساعدوا قراصنة البحر على الهجوم على شواطىء اسبانيا ، واختطاف أطفال النصارى •

لكن السلطات الحاكمة حرصت على ازالة كل أثر للاسلام ، فأرغموا المسلمين على ارتداء ملابس النصارى وقبعاتهم وسراويلهم ، والتخلى عن لغتهم وأسمائهم وتقاليدهم •

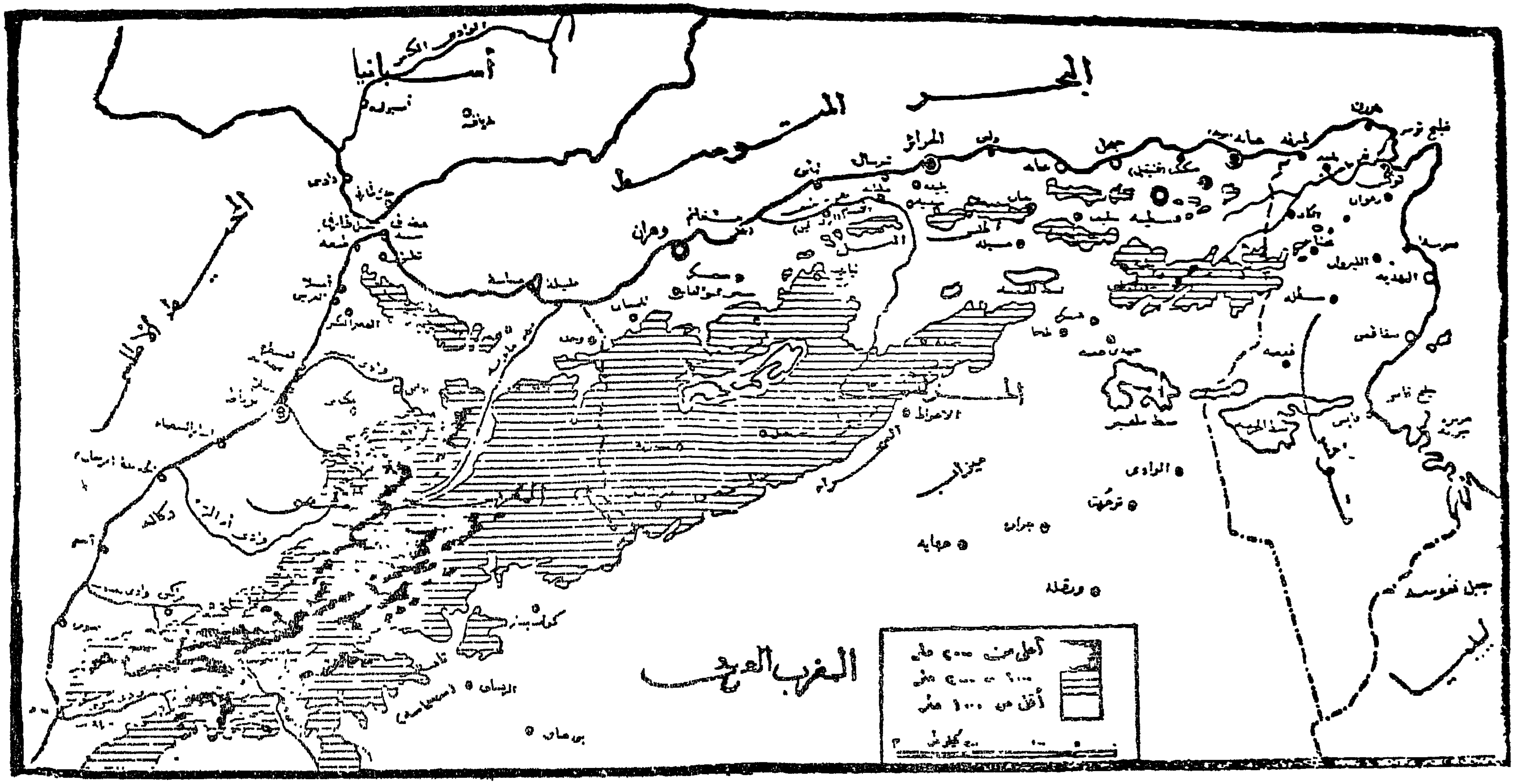
ولم يقبل المسلمون فى غرناطة التخلى عن قوميتهم وتقاليدهم ولغتهم ودينهم ، لذلك ثارت الحمية فى نفوسهم ، والتفوا حول أحد زعمائهم ، ويسمى محمد بن أميه من نسل خلفاء قرطبة ، وثاروا فى منطقة البشرات الحصينة سنة ١٥٦٨ م وكانت هـذه الثورة عنيفة تجلت فيها الكراهيه المتبادلة بين الفريقين، وكان المسلمون يهاجمون النصارى فى بأس واستماته وكانت هذه الثورة آخر محاولة لهم للتعبير عن الظلم الذى لحق بهم ، لذلك قتلوا النصارى والقساوسة ، ولطخوا الكنائس بالأقـذار • ولكن السلطات الحاكمة فى غرناطة قمعت هذه الثورة بعنف وضراوة ، وذبحوا من المسلمين الكثير ، وحولوا مراكز الثوار الى بحار من الدماء ، وانتهت الثورة حوالى سنة ١٥٧٠ م بعد أن أحرقوا القرى العربيه ومنعوا من التجأ الى الكهوف من مغادرتها ، فدفنوا فيها أحياء ومن نجا من هذه الثورة استرق أو نفى • وقد قتل فى الثورة أكثر من عشرين ألف مسلم • وقد نفى من أسبانيا مايقدر بثلاثة ملايين مسلم ، لجأ بعضهم الى المغرب ، وعاشوا فى شظف من العيش • وبعضهم مات فى الطريق ضعفا وكمدا ، ولجأ بعضهم الى فرنسا •

وضياع الاندلس من المسلمين والعرب يوقع المؤرخ فى حيرة شديدة — هل حقيقة العرب مسؤولون مسؤولية كاملة عن فقدانهم للأندلس ، كما هو الحال فى فلسطين ؟؟ الصراع بين الاسلام والنصرانية صراع طويل مرير ، وأقصد بين المسلمين فى الشرق والنصارى فى الغرب . لقد أحرز المسلمون الانتصارات الرائعة على النصارى ، وانتزعوا منهم الامبراطورية البيزنطية التى كانت تسيطر على مصر والشام والمغرب وآسيا الصغرى . كما أن المسلمين والعرب لم يمكنوا الصليبيين من الاستمرار فى أرض العروبة والاسلام ، بل عادوا الى بلادهم بعد قرنين من الزمان ولكن العرب ظلوا فى الأندلس أكثر من سبعة قرون وأدت الحضارة الاسلامية دورها الكبير فى هذه الأرض الأوربية التى لاتزال آثارها باقية الى يومنا هذا وفى نفس الوقت فشل الاستعمار الأوربى فى الاستمرار فى أرضنا العربية الاسلامية . معنى ذلك أن الشرق شرق والغرب غرب . أى أن الشرقيين لا يمكنهم البقاء فى أرض غربية باستمرار . وفى نفس الوقت لا يستطيع الغربيون البقاء فى العالم العربى والاسلامى .

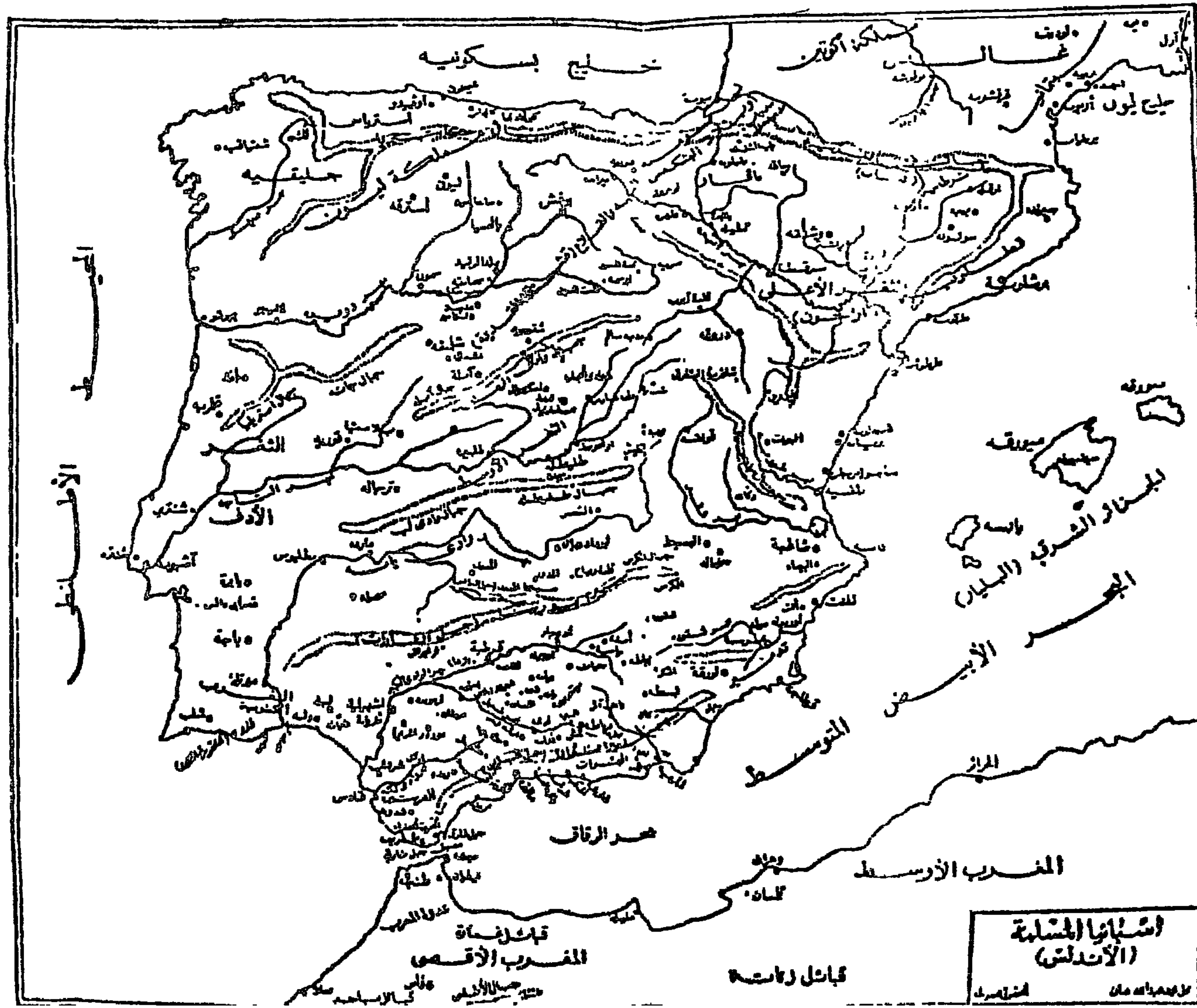
ولكن المحزن أن تضيع أرضا من ديار الاسلام مثل الأندلس . ولعب العرب دورا كبيرا ورئيسيا فى ضياع هذا الملك العتيد . وكان المسلمون فى الغرب فى ضعف أمام النصارى فى الوقت الذى كان فيه الأتراك العثمانيون يجتاحون أوربا حتى وصلوا الى أبواب فينا ، وكانوا فى أوج عظمتهم ، وفى أبهى انتصاراتهم . ولكن على الأرجح بعد المسافة ، وانقطاع الأخبار ، وعدم وضوحها جعل من الصعب بل ومن المستحيل على العثمانيين انقاذ اخوانهم فى الدين فى الأندلس .

وهكذا فقد العرب اسبانيا — هذه مأساة المسلمين والعرب رقم ١ — يليها فلسطين — المأساة رقم ٢ ، يليها لبنان التى تتمزق أمام أعيننا الآن — يليها أفغانستان جلبوا العدو الى بلادهم ليمزق شملهم ، ويفرق وحدتهم والحرب بين العراق وايران — حضارة تتمزق أمامنا ، والعدو يعمل على توسيع نطاقها حتى يرى بنفسه المسلمين فى ضعف وهوان ، وحتى يروج لأسلحته ، ويفرض سيطرته على دول الخليج بحجة حماية البترول .

والكويت تتمزق وتنهار بأيدى عربية اسلامية .



البحر المتوسط
أسبانيا
المحيط الأطلسي
المغرب العربي
ليبيا
وهران
تونس
صفاقس
قابس
الوادي
تقرت
ورقلة
ميزاب
أعلى من ٢٠٠٠ متر
١٠٠٠ – ٢٠٠٠ متر
أقل من ١٠٠٠ متر
كيلو متر


اسبانيا المسلمة
(الأندلس)
خليج بسكونيه
المحيط الأطلنطي
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر الشرقية (البليار)
ميورقة
منورقة
يابسة
بحر الزقاق
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
قبائل غمارة
قبائل زناتة

؛هل حقيقة أن العرب والمسلمين لا يميزون بين العدو والصديق ؟؟
يقدرون الأخطار المحيطة بهم من كل مكان . اننا فى شدة الحاجه الى
ده والتضامن والعمل بكتاب الله حتى نستطيع أن نواجه كل هده
نار وحتى لا نخرب وندمر بيوتنا بأيدينا .

يقول بدر الدين الجـارم :

أمامك قصـه عن مجـد قوم   تقشع عن سمائهم السحـاب

مناصل ان دعوا للحـرب لبو   وان نودوا لمكرمة أجابـوا

نجـوم ما بـدت الا لتخفى   كما يطو على المـاء الحباب

سـلوا التاريخ عنها ان أردتم   ففى صفحاته خط الجـواب

والله أعـلم .

ثبت المراجـــع

١ ـ المراجع العربيـــة

١ — ابن الأباد (أبو عبد الله محمد ، القضاعى البلنسى) • ت ٦٥٨
— ١٢٦٠ م

(أ) كتاب التكماه لكتاب الصله ٢ ج ، الخامس والســادس من مجموعه المكتبة الأندلسيه • نشر كودبرا مدريد ١٨٨٧ م •

(ب) المعجم • المكتبه الأندسيه مدريد ١٨٨٦ م •

٢ — ابن أبى زرع (أبو عبـــد الله محمـــد بن عبـــد الحليم) •
ت ٢٢٦ هـ — ١٣٢٥ م •
الأنس المطرب بروض القرطاس فىأخبـــار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ٢ ج • ايطاليا ١٨٤٣ •

٣ — ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبى الكرم) ت ٣١٠ هـ
الكامل فى التاريخ ، ١٠ح • بولاق •

٤ — ابن الأحمر (الأمير أبو الوليـــد اســماعيل بن يوسف النصرى)
ت ٨١٠ هـ ، ١٤٠٧ م •

(أ) نثر الجمان فى شـــعر من نظمنى واياه الزمان • مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٨٥٣ أدب •

(ب) روضة النسرين فى ملوك بنى مرين نسره الأســتاذان مارسيه وبولى باريس ١٩١٧ م •

٥ — ابن بسام (أبو الحسن على السنتريني) ت ٥٤٢ هـ •
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة • القاهرة ١٩٤٥ م •

٦ — ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ت ٥٧٨هـ ، ١١٨٣م•
كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس • مدريد ١٨٨٣ •

٧ — ابن بطوطة (أبو عبدالله محمد عبدالله الطنجى) ت ٧٧٩هـ ، ١٣٧٧م
نحلة الأنظار فى غرائب الأمكار وعجائب الأسفار ، ٢ ج ، القاهره
١٩٣٨ م .
٨ — ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على) ت ٨٥٢ هـ ،
١٤٨٨ م .
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ٤ ج . الهند ١٣٥٠ هـ .
٩ — ابن حوقل (أبو القاسم محمد) . عاش فى القرن الرابع الهجرى
كتاب صورة الأرض ، ٢ ج ، ليدن ١٩٣٩ م .
١٠ — ابن الخطيب (الوزير محمد لسان الدين) . ت ٧٧٦ هـ ، ١٤٨٥ م .
(أ) الاحاطه فى أخبار غرناطه ، ٢ ج ، القاهرة ١٣١٩ هـ .
(ب) أعمال الاعلام ممن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام .
رباط الفتح١٩٣٤م ، حققه ليفى بروفنسال ، بيروت١٩٥٦م .
(جـ) اللمحه البدرية فى الدوله المصرية : القاهرة ١٣٤٧ هـ .
١١ — ابن خلدون (أبو زكريا بن محمد) ت ٧٨٠هـ ، ١٣٧٩م بغيةالرواد
فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد . نشر وترجمه للفرنسية الفرديل،
الجزائر ١٩٠٣ م .
١٢ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨ هـ .
العبر وديوان المبتدأ والخبر . بولاق ١٢٨٤ هـ .
١٣ — ابن خلكان (شـمس الدين أبو العبـاس أحمـد بن ابراهيم)
ت ٦٨١ هـ .
وفيـات الأعيان وأنباء الزمان .
١٤ — ابن الزبير (أبو جعفر أحمد) ت ٧١٨هـ ، ١٣٠٨ م .
صله الصلة ، نشره ليفى بروفنسال . رباط ١٩٣٨ م .
١٥ — ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم بن على اليعمرى) ت٧٩٩هـ ،
١٣٩٦ م .
الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، القاهره ١٣٢٩هـ .

١٦ — ابن عـذارى المراكشى .
البيـان المعرب . فارس ١٩٣٠ م .

١٧ — ابن الفرضى (أبو الوليد عبـد الله بن محمد بن يوسف الأزدى)
ت ٤٠٣ هـ ، ١٠١٣ م .
تاريخ علماء الأندلس ، مدريد ، ١٨٩١ م .

١٨ — أخبار مجموعة فى فتح الأندلس لمؤلف مجهول . مدريد ١٨٦٧ . م .

١٩ — الادريسى (محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوسى) ت ٦٤٩ هـ .
صفه المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس — ابدن ١٨٩٤ م .

٢٠ — التبكتى (أبو العباس أحمد بابا)
نيل الابتهاج بتطريز الديبـاج . كتب على هامس كتاب الديبـاج
المذهب لابن فرحون . القاهرة ١٣٢٩ هـ .

٢١ — المقرى (سهاب الدين محمد بن التامسانى) نفح الطيب من عصن
الأندلس الرطيب . القاهرة ١٩٤٠ م .

٢٢ — الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبدالمنعم) ت٨٦٦هـ .
صفة جزيرة الأندلس . منتخبه من كتاب الروض المعطار . القاهرة

٢٣ — حسن أحمد محمود (الدكتور) قيام دوله المرابطين، صفحه مسرقة
من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٧ م .

٢٤ — زكى محمد حسن (الدكتور) ت ١٩٥٧ م .
الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى . القاهرة ١٩٤٥ م .

٢٥ — زيادة (الدكتور محمد مصطفى) .
رحلة ابن جبير وابن بطوطه . لجنة التأليف والترجمه والنسر .
القـاهرة ١٩٣٩ م .

٢٦ — السلاوى : (سهاب الدين محمد بن خالد الناصرى) ت ١٣١٩هـ ،
١٩٠١ م .
الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٤ ج ، القاهره ١٨٩٤م.

— السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر محمد) ت ٩١١هـ ، ١٥٠٥م .

(أ) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين . القاهره ١٣٥١ هـ .

(ب) حسن المحاضره فى أخبار مصر والقاهرة . القاهره ١٣٢٧ هـ .

— الطبرى : (الامام أبى جعفر محمد بن جرير) .
تاريخ الأمم والملوك . القاهرة ١٩٣٩ م .

— العبادى (عبد الحميد) .

(أ) صور من التاريخ الاسلامى ، ٢ ج (١٩٤٨ — ١٩٥٣) .

(ب) حديث الفتيه المغرورين من أهل لسبونه . مجله الثقافه ١٩٣٧ م .

— العبادى (أحمد مختار . دكتور) .

(أ) الصقالبه فى أسبانيا — لمحه عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم

(ب) لسان الدين بن الخطيب ونزعاته الاقتصاديه .

(مجله لسان الدين الجزء التاسع والعاشر — سبتمبر —

مقامة العيد لأبى عبد الله الأزدى (صحيفه المعهد المصرى ١٩٥٤ م) .

مشاهدات لسان الدين بن الخطيب (مجموعة من رسائله) الاسكندرية ١٩٥٨ م .

٢ — لين بول .

العرب فى أسبانيا ، ترجمه على الجارم .

٢ — على محمد حمودة .

الاسلام فى الأندلس . القاهرة ١٩٥٣ م

٣٣ — محمد عبد الله عنان . ترجمه عى المؤرح الألمانى يوسف أسباخ .
(أ) تاريخ الأندلس فى عهـد المرابطين والموحـدين . القـاهره ١٩٤٠ م .
(ب) نهاية الأندلس ، وتاريخ العرب المتنصرين . القاهرة ١٩٤٩م.
(جـ) تاريخ العرب فى أسبانيا . القاهره .

٣٤ — مؤنس (حسين — دكتور) .
(أ) الثغر الأعلى الأندلس فى عصر المرابطين . مجلة كليه الآداب — جامعه القاهرة جـ ٢ ، ١٩٤٩ م .
(ب) السيد القبيطور وعلاقاته بالمسلمين . مجـله كليـه الآداب القاهرة العدد الأول المجلد الثالث ١٩٥٠ م .

٣٥ — النباهى (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقى) ت ٧٧٦هـ .
المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . القاهرة ١٩٤٨ .

٣٦ — النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبـد الوهاب بن محمـد بن عبـد الدائم) .
نهـاية الأرب . غرناطه ١٩١٩ م .

ب ـ المراجع الأجنبيـــة

1 Altamera :

a) Spain (1031 - 1248), London 1949.

b) Cambridge Medieval History, vol VI, Ch X11.

2 Bel, A. :
Ency. of Islam, Arts., Almoravides & Ali Ben Youssof.

3. Dozy, R., :

a) Histoire des Muslmans d'Espagne, 3 vols, (ed. Levi-Provençal) Leyde, 1932

b) Historia Abbadidarum, 2 vols, Leyde 1946

c) Recherches sur l'Histoire et Literature de l'Espagne Pendant le Monyen âge, Leyde, 1881 (2 vols)

4 Gayangos (P.) ·
The History of the Mohammadan Dynasties in Spain, (Extracted from the Nafhu-t-tib), 2 vols, London 1840.

5. Levi Provencal :

a) Un Manuel Hispanique de Hisba sur la Surveillance des corporation et la repression des froudes en Espagne Musulmane, Paris 1931.

b) Inscriptions Arabes d'Espagne, Leyde, 1931.

c) Seville Musulmane au debut du XIIe Siecle la Traité d'Ibn Abdun, Paris 1970.

d) La Mora, Zaida femme d'Alphonse VI (en) Hesper is 1934, t. XVII.

e) Ency of Islam, Arts. Le Cid & Sons.

للمؤلف

١ — كتاب « تاريخ الاسلام فى العصر التركى » .

٢ — « الحواضر الاسلاميه الكبرى » .

٣ — « بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى » .

٤ — « اليمن فى ظل الاســلام » .

٥ — « الهند فى العصر الاسلامى » .

٦ — « الاســلام وعالم الفكر » .

٧ — « الدول الاســلاميه المستقله فى الشرق » .

٨ — « الدوله العباســيه » .

٩ — « تاريخ المغرب والأندلس » .

١٠ — « الدولة الاســلاميه وحضارتها » .

١١ — « معالم الفكر الاسلامى » .

١٢ — « الحركة الفكرية فى بلاد اليمن فى عصر بنى رسول » .

شــارك فى اعــداد أطلس العالم الاسلامى يضاف الى ذلك العديد من البحوث والدراســات فى تاريخ الاســلام وحضارته .

د. عصـــام الدين عبد الرؤوف الفقى فى ســطور

— أستاذ التاريخ الاسلامى والحضـــاره الاســـلاميه فى كليـــة الآداب — جامعة القـــاهرة .

— ألقى العديد من المحاضرات فى التاريخ الاسلامى والحضارة الاســلاميه فى جامعات مصر والسعوديه واليمن والجزائر والكويت .

— عضـــو فى العديد من الهيئات العلميه .

— شـــارك فى العديد من المؤتمرات العلميه .

— له بحوث عديدة فى المجـــلات العلمية المتخصصه والثقافية .

— أشرف ويشرف على رســـائل الماجستير والدكتوراه ، يحاول فى دراســـه ابراز دور المسلمين فى الحضـــارة الانسانيه ، وحث المسلمين وتنبيههم الى الاستفادة من ماضيهم ، والسعى الى حياة أفضل ، واستعاده أمجادهم وتبوئهم المكـــانة اللائقه بهم .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : التعريف ببلاد المغرب والأندلس	
أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس	١١
نظرة عامة حول بلاد المغرب	١١
الفتح العربى للمغرب	١٦
حملة عقبة بن نافع الأولى على المغرب	١٧
الحملات المتتابعة على بلاد المغرب	١٩
نتائج الفتح العربى لبلاد المغرب	٢٧
اسبانيا قبل الفتح العربى	٣٠
الأندلس	٣٣
الفتح العربى للأندلس	٣٦
نتائج الفتح العربى للأندلس	٤٤
الفصل الثانى : عصر الولاة فى الأندلس	٤٦
بدء المحاولات الجدية لفتح فرنسا	٤٦
الفتن والحروب الداخلية فى المغرب والأندلس	٥٥
ضعف الدولة الأموية وتدهورها	٥٩
الفصل الثالث : الامارة الأموية فى الأندلس	
عبد الرحمن الداخل	٦٠
السياسة الداخلية لعبد الرحمن الأموى	٦١
ثورة الفاطمى	٦٤
ثورة عبد الغافر اليحصبى	٦٦
سياسة عبد الرحمن الداخل الخارجية	٦٧
موقف الفرنجة من عبد الرحمن الداخل	٦٩
حضارة الأندلس فى عصر عبد الرحمن الداخل	٧٣
هشام بن عبد الرحمن	٧٦
الموقف من نصارى الشمال	٧٧
مذهب مالك فى الأندلس	٧٨
الأمير الحكم الربضى	٨١
الفتن والثورات الداخلية	٨١

الموضـــوع | الصـــفحه

ثورات المـــولدين	٨٢
العلاقات الخارجية	٨٦
الأمـــير عبد الرحمن الأوســـط	٨٩
الثورات الداخليـــه	٩٦
غـــارات النورمـــان	٩٧
فتنة المستعربين المتطرفين فى قرطبه	١٠٠
العلاقات الدوليه فى عصر عبد الرحمن الأوســـط	١٠٢
أعمـــاله الاداريه والعمرانيـــه	١٠٣
عصر دويـــلات الطوائف الأول	١٠٥
المملكه النصرانية فى الشـــمال	١١٠
الفصـــل الرابع : المغرب الاسلامى فى القرنين الثانى والثالث للهجره	
المغرب من سقوط الدوله الأمويه حتى قيام دوله الأغالبه	١١٨
دولة الأغالبه فى المغـــرب الأدنى	١٢١
دولة الادارســـة فى فاس	١٣٦
تأسيس مدينـــة فاس	١٤٠
حركات الخـــوارج فى المغـــرب	١٤٣
قيـــام الدوله الرستميه	١٤٨
دولة بنى مـــدرار	١٦٠
الدولة الاسماعيليـــه الأولى فى اليمن	١٦٤
الدوله الزيـــريه	١٨٥
ســـيرة بنى هـــلال	١٩٠
الفصـــل الخامس : الخلافة الأموية بالأندلس	١٩٢
عبد الرحمن النـــاصرى	١٩٣
سياسة عبد الرحمن الناصرى الداخليه	١٩٤
تحويل الاماره الى خـــلافه	١٩٦
العـــلاقات الدبلوماسيه بين الناصر وملوك أوربا	٢٠٢
الصقالبة فى عهد النـــاصر	٢٠٤
المنشآت المعمارية فى عهد النـــاصر	٢٠٥
الحكـــم المســـتنصر	٢٠٨
السياســـة الخارجيـــة	٢١٠
الخطـــر النورماندى	٢١١
موقف المســـتنصر نصـــارى الشمال	٢١٢

الموضـــوع	الصفحه

هشــام الثـانى	٢١٣
محمـد بن عبد الله بن ابى عامر	٢١٤
خلفــاء المنصــور	٢٢٣
نهاية الدوله الأمويه	٢٢٦
ابن حــزم	٢٢٧
الممالك النصرانيه خـلال القرن العاشر الميلادى	٢٣٨
اللغه العربيـة وآدابها فى الأندلس	٢٤٢
الفصل السادس : المرابطون والموحدون	٢٤٩
المرابطــون	٢٥١
الموحــدون	٢٦٤
ازدهار الفكر الفلسـفى فى عصر المصرس	
ابن طفيـل	٢٧٦
ابن رشــد	٢٨٠
ابن عــربى	٢٨٥
الفصل السابع : مملكه غرناطه ونهـايه الأندلس	٢٩٧
مملكه غرناطه ـ تطورها وسقوطها	٢٩٩
لســان الدين ابن الخطيب	٣٠٤
المصــادر والمراجـع	٣٢٢
فهـرس الكتـاب	٣٣١

رقم الايداع ٨٦١٠ / ١٩٩٠

المطبعة التجـارية الحديثـة
٢٢ شـارع ادريس راغب ـ الظـاهر
تليفون ٩٠٣٣٦٤ القـاهرة